

أَلَسْتُ مِنْ آلِ الْبَيْتِ

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ردمك : 978-9953-520-49-0

الموضوع : عقيدة

العنوان : أَلَسْتُمْ مِنْ آلِ الْبَيْتِ

التأليف : أ.د. عقيل حسين عقيل

الورق : كريم

ألوان الطباعة : لون

عدد الصفحات : 440

القياس : 17×4

التجليد : فني

الوزن : 1 كغ

التنفيذ الطباعي : 53 dots - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد - بيروت

تنضيد وإخراج ضوئي : مؤسسة الجعبري

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف

دار ابن كثير

دمشق - بيروت



9 789953 520285

دمشق - حلب - وني - جادة ابن سينا - بناء الجاهلي

ص.ب : 311 - حانة المبيعات تلفاكس : 2225877 - 2228450

مكتب تلفاكس : 2243502 - 2458541

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 - تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



# أَلَسْتُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ

تَأْلِيفُ

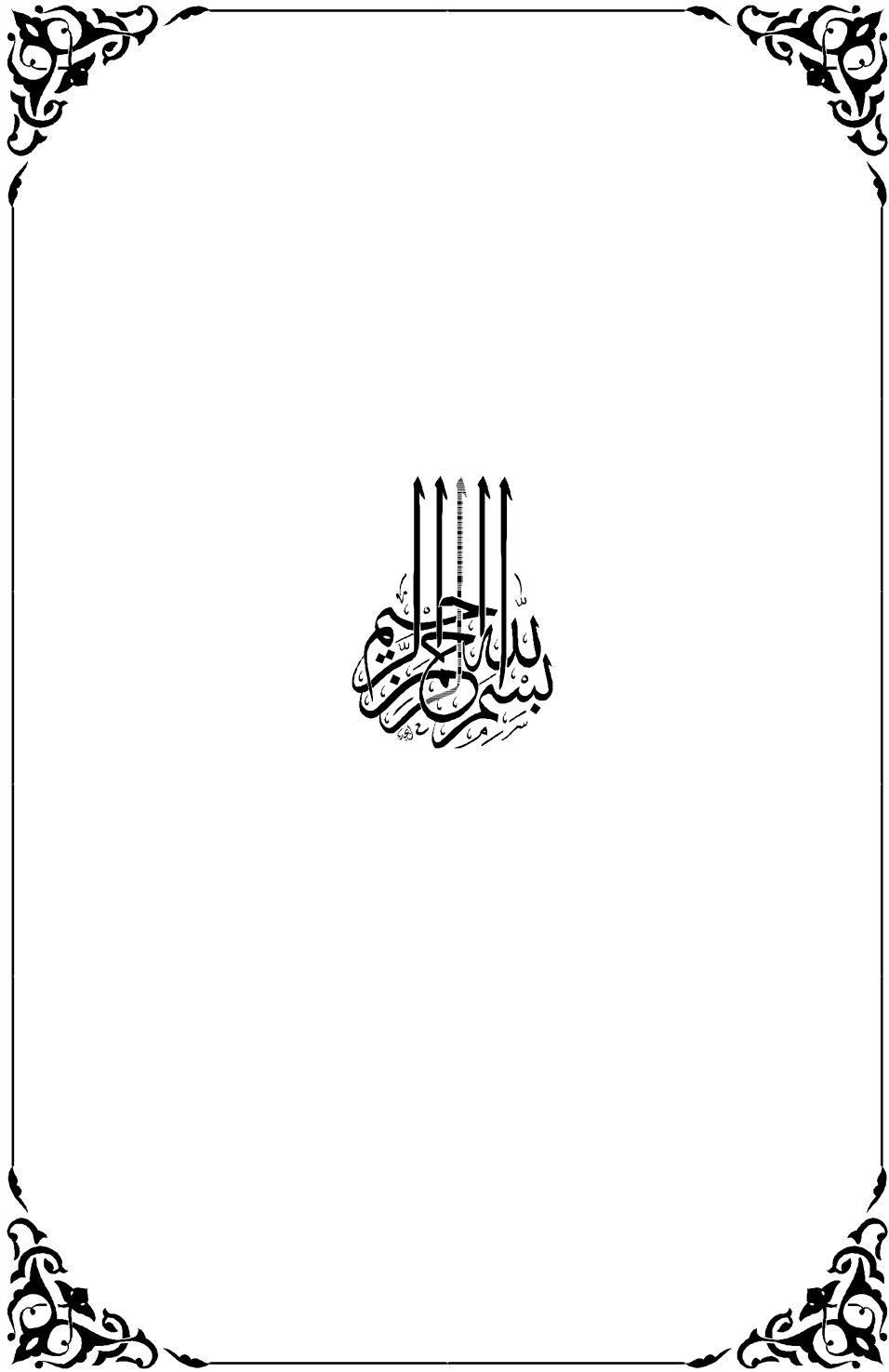
أ. د. عقيل حسين عقيل

جَامِعَةُ الْفَاتِح - كَلِيَّةُ الْأَدَابِ

لِيَبَا - طَرَابُلُسُ الْغَرْبِ

دَارُ الْبَيْتِ

رِمَشَق - بَيْرُوت





## فهرس الموضوعات

| الموضوع                                    | رقم الصفحة |
|--------------------------------------------|------------|
| المقدمة                                    | 007        |
| النسب إلى الآل والأهل                      | 019        |
| النبي الأمي                                | 051        |
| القديم                                     | 105        |
| العدم                                      | 141        |
| الاسم الأعظم                               | 183        |
| الله والأسماء الحسنی                       | 243        |
| ال خليفة                                   | 273        |
| الرسل والأنبياء بين الخصوص والعموم والكافة | 309        |
| رسل وأنبياء العموم                         | 333        |
| رسل وأنبياء الكافة                         | 343        |
| في اليقين                                  | 355        |
| حوار بين يدي الله                          | 379        |



## المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .  
 اللهمَّ إِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ ، ونَسْتَغْفِرُكَ ، ونَسْتَغْفِرُكَ ، ونَسْأَلُكَ التسديد ،  
 والتوفيق .

**أما بعد :** فهذا كتاب يهدف إلى توضيح بعض المفاهيم التي رسخت معانيها في الفكر الإسلامي على مدى أطواره المختلفة : الزمانية منها ، والمكانية ، حتى إن بعضاً من هذه المفردات التي نعالجها أصبحت مصطلحات فكرية وعقائدية أخذت معاني محددة بتأثير كثرة التداول من جهة ، والنظرة القدسية دون أعمال الفكر من جهة ثانية ، حيث أسس لذلك كثير من المفكرين وأصحاب الأقلام الذين تطرّقوا إلى هذه الموضوعات قصداً ، أو عفواً ، وأغلقوا باب الجدل ، والحوار ، والمناقشة على أن الأحكام التي أصدروها غير قابلة للمساس ، والتي رأينا : أنها مثار جدل ، وحوار ، ومناقشة من أجل تصحيح مفاهيمها ، بحيث إن كثيراً منها يحتمل أكثر من رأي لما توافر لدينا من أدلة .

إن هذه القضايا التي تضمّنها كتابنا ، وإن كان بعضها من مفردات العقيدة ، إلا أن تناولها لم يكن بشكل موسع ، وإنما كان جلّ اهتمامنا ينصب على الجانب الفكري الذي يحاكي المعقول بما لا يتعارض مع المنقول .

ولأن النقل جاء يخاطب العقل فقد عمدنا إلى مسائل فكرية لتصحيح ما التبس على البعض من هذه القضايا التي تهّم الأمة في تاريخها الفكري ، وموروثها الثقافي المكوّن لحضارتها .

إن المنهج الذي سار عليه الكتاب هو :

- 1 - منهج استقرائي في التعامل مع المعلومة ، وتقليبها على وجوه الاحتمال .
- 2 - تحليل المعلومة التي تمّ استقراؤها ، ثم الأخذ بالرأي الذي ترجحه الأدلة .
- 3 - تفسير المعلومة على أساس الأدلة المرجّحة .

ولهذا كان التعامل مع قضايا الكتاب في تحليل المفاهيم التي توضح معاني المصطلحات ضمن اتجاهين فكريين :

- 1 - **الحوار** : الذي يعتمد على الحجة المقنعة ، ويستند إلى المصدر ، فالدليل اللغوي ، ومن ثمّ الدليل المنطقي القائم على حوار الآخر ، وليس على الجدل النابع من الخصومة على غرار المدارس الكلامية .
- 2 - التفكير الفلسفي الإسلامي بمفهومه الذاتي الذي يستند إلى الكتاب ، والسنة .

وهنا لا بدّ من توضيح مفهوم الفلسفة الإسلامية ؛ لأنه أول ما يتبادر إلى أذهان البعض : أن الفلسفة الإسلامية نشأت بعد أن استوعبت الفلسفة اليونانية ، وهو اللبس الذي وقع فيه كثير من المفكرين ؛ بحيث يختلط عليهم الأمر مما يدفعهم إلى الجمع بين الفلسفة الإسلامية ، والفلاسفة المسلمين ؛ لأنهم أناطوا الفلسفة الإسلامية بمن تعرض لفلسفة اليونان بطريق مباشر ، كالفارابي ، وابن سينا ، أو بطريق غير مباشر ، كالإمام الغزالي ، واعتبروا هؤلاء هم الذين يمثلون الفلسفة الإسلامية ، بينما في حقيقة الأمر : أن هؤلاء فلاسفة مسلمون ، وذلك لتوهم البعض : أن التفكير الإسلامي بدأ ينمو ، ويتدرج شيئاً فشيئاً بعد أن استوعب الفكر اليوناني ، ولكن الواقع : أن الفكر الإسلامي بدأ قوةً جارفة ، تتمثل قمته باستقراءات القرآن الكريم ، وما فيه من الكليات ، والسنة النبوية ، ثمّ تشعبت جزئياته ، على العكس من الفكر

اليوناني الذي نما ، وتدرج إلى أن وصل ذروته على يد سولون ، وكلاستينس ، وباركليس ، وسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو .

لقد جاء الفكر الإسلامي ناضجاً ، وتمّ تناول قضاياها على يد المفكرين المسلمين ؛ حيث كان هناك تياران يسيران متجاورين في التفكير الإسلامي وهما :

- **أهل الرأي** : وهم يمثلون المدرسة العقلية الذين عمدوا إلى الاجتهاد الفكري ، كالحسن البصري ، وربيعه الرأي ، وأبي حنيفة .

- **أهل الحديث** : وهم يمثلون المدرسة النقلية في استنباط الأحكام من النصوص ، كسعيد بن المسيّب ، والإمام مالك .

لقد كان هؤلاء وهؤلاء يسرون جنباً إلى جنب منذ أن بدأت الدولة الإسلامية ، ولا يزالون كذلك إلى الآن .

لقد أردنا من هذا التوضيح أن نبين في منهجنا الجمع بين العقل ، والنقل في الفكر الإسلامي ، والخروج برؤية جديدة لقضايا لا تزال مثار جدل ، ولن تنتهي ، وخاصة : أن المفردات التي تناولها البحث هي مثار اهتمام الأمة ، وكانت على التوالي :

- 1 - الآل ، والأهل .
- 2 - النبي الأمي .
- 3 - القديم .
- 4 - العدم .
- 5 - الاسم الأعظم .
- 6 - الله ، والأسماء الحسنى .
- 7 - الخليفة .
- 8 - في اليقين .

## 9 - حوار بين يدي الله .

وقد تصدّر موضوع الآل مطلع كتابنا لأسباب تتعلّق بأهميته لما وقع من الخلط بين الآل ، والأهل لدى كثير من العامة فضلاً عن الخاصّة ، فقد بسطنا القول في ذلك الأمر وبيّنا الآل ، ومعناه الذي تقفون عليه في موضعه من هذا الكتاب .

وأما الأهل فدلالاتها كثيرة لا تختصّ في جانبٍ معين كما هو حال الآل ، غير أن النقطة المهمة في موضوع الأهل : أن المسلمين هم أهلٌ واحدٌ بدلالة البيت الحرام ؛ لأنه لا بيت يمكن أن يُتخذَ قبلةً سواه ، فهم على ذلك من أهل البيت ، وعندما نقرّ بذلك ، فلا يمكن أن يكون خلاف بين المسلمين ؛ لأننا جميعاً :

- نصليّ إلى البيت .
- نسعى إلى البيت .
- نحجّ إلى البيت .
- نطوف حول البيت .
- نؤمن برّب البيت .

وقد سارت منهجية البحث في التعامل مع الجانب الموضوعي العلمي الذي يقوم على الحقائق بعد استنباطها من الأدلة ، ومع الجانب المنهجي العلمي الذي رسم خطة بحثٍ سليمة بما في ذلك الجوانب الفنية ؛ لأن المنهج هو مجموعة القواعد الفكرية التي بها تُفكّك المعلومة ثم تُركب للوصول إلى مقصد وغاية ، ولهذا فهو يختلف عن مسلمات الإيمان والاعتقاد ، لأن نتيجة الاعتقاد تتحقق في أعقاب ذلك السير الاختياري ؛ بحيث لا يمكن لصاحب عقل بعد الوصول إلى النتيجة التي أثبتتها الأدلة أن يتنكر لها ، أو يصدّ عنها ؛ إن لم يؤمن بها .

إن الهدف الحوارى من معالجة هذه القضايا يقدم لأصحاب الفكر ،  
والمتقنين رؤية أخرى عن تلك المشكلات الفكرية تكون مباحث لتساؤلات  
أثارها الموضوعات ، فإن لم تكن شافية للآخرين ؛ فهي أيضاً ليست من باب  
القناعات القائمة على التمسك بالرأى دون قبول الآخر ؛ لأنها قدمت للقارئ  
الأدلة ، والبراهين القائمة على المقدمات ، والأسباب بما توصلت إليه من  
نتائج .

وبصرف النظر عن كونها حلاً أو بعض حلٍّ وكانت محط أنظار المفكرين  
إلا أن معانيها ، وآثارها تبقى مصدر إلهام ، ومدعاة للتفكر ، ومادة ثقافية  
ومعرفية تصب بالنتيجة في الوعاء المعرفى الذى هو جزء من تكوين حضارة  
الأمة .

إن التعامل مع هذه المفاهيم فى القضايا التى أثارها الكتاب تجسدت فى  
عمل منهجى منظم ، وسلوك اختياريّ يتمثل فى توجيه العقل والفكر إلى  
الأسباب والمقدمات والبراهين القائمة على الأدلة التى من شأنها أن تبصر  
الإنسان بكل من الصواب والخطأ على حد سواء من خلال التزام المنهج العقلي  
الموصل إلى المعرفة الموضوعية ، وليست هي دعوة إذعان لما توصل إليه  
البحث من نتائج ، وفي الوقت نفسه نأمل أن لا يتكلف المتتبع الإعراض عن  
هذه النتائج بحجة عدم الاقتناع ما لم يقدم دليلاً .

إن القضايا التى تناولها البحث هي مسائل فكرية خاضعة للنقاش من أجل  
الإقناع بالحقائق عن طريق الحوار بشواهد الأدلة ، ولذا فهي تقدم لأي مثقف  
باحث زيادة فى الوضوح ليس نقيضاً للحقيقة . ونريد أن ننوه أن الإيمان بها ،  
والتسليم لها كما جاء فى الموروث الثقافى لم يكن من التكليف الإلهي الوارد  
فى الإيمان والاعتقاد تسليمًا ، بل يخضع لمحاكمة عقلية ، ومنهج منطقي  
يعتمد تسلسل الأدلة فى سياقاتها الصحيحة التى تفضي إلى النتيجة المقنعة ،  
فإن كان التسليم بنتائج الموروث دون بحث الموضوع ومناقشة الآخر يكون  
الحكم قفراً فوق الحقائق ولجوءاً إلى التسليم المطلق بتغيب العقل .

أمّا الذي دعانا إلى تناول هذا النوع من القضايا ؛ فإن ذلك يتمثل في جملة من العوامل والأسباب كانت محط أنظارنا في هذا الاختيار لما وقع من اختلاف بين الذين تطرقوا إليها بالبحث والدراسة وما نتج عن ذلك من تباين في معانيها ومفاهيمها بين أصحاب الفكر والعقيدة .

لذلك عمدنا إلى الاجتهاد ، وإبداء رأينا ليس للتوسط بين هؤلاء ، وأولئك ، وإنما لما توافر لدينا من أدلة أوقفنا على نتائج نحسب : أنها لا تبتعد عن الحقيقة ، وأقرب إلى الصواب لما وقعنا عليه من حجج وبراهين اعتمدها المنهج في طريقة البحث بأسباب الاختيار ، والدوافع ، والأهداف ، وكانت مصادر البحث لا تخرج عن الكتاب ، والسنة اللذين هما محلّ إجماع الأمة . وإضافة إلى ذلك فقد حدد البحث عناصر منهجية تتمثل في الأسباب ، والدوافع ، والأهداف للخروج بالحجة المقنعة من جهة ، واعتماده على مصادر غير مختلف فيها من جهة أخرى ، وقد تمثلت هذه العناصر لتأطير الموضوع فيما يأتي :

## 1 - الدافع :

هو الاختلاف الكبير لدى من تناول هذه القضايا في مفهوم المصطلح نفسه الذي حرصنا على تحديد معناه لغوياً ، ومنطقياً ، والوصول إلى بلورة رأي في استظهار الحقيقة ، فعلى سبيل المثال : توضيح معنى كل من الآل ، والأهل ، والعلاقة بينهما علواً ، وسفولاً . فهذه القضايا ، وما يماثلها أثارت دوافع البحث ، والاستقصاء إيماناً منا بضرورة الوقوف عليها ، وتناولها وفق منهج ، وأسلوب يشبع حاجة المتسائلين .

## 2 - المنهج :

إن قضية البحث العلمي ليست بالسهولة التي يتصورها البعض ، فيتخذون من التعميم أحكاماً يجعلونها مسلمات ، فالبحث العلمي يحتاج إلى تحليل عناصر الموضوع المطروح بدقائه ، وتفصيله ، وبعد تحليل العناصر يتم



الحكم على كلّ جزءٍ مهما صغر بالحكم الملائم له الذي لا ينطبق على جزء آخر ، ولا ينسحب عليه .

إن المنهج التحليلي العلمي لا يحتمل الظنون ، ولا يُعتبر مسؤولاً عنها ، ولا يحمل أخطاء المجتهدين ، وإن حملها ؛ فليس مسؤولاً عنها .

ولذا فقد اتبعنا منهجاً قائماً على استنباط المعلومة الواردة في النصوص من خلال عملية التفكير وما يتعلق بها ثم تحليل العبارة ودراستها بعناية مستنبطين منها ما يوافق فرضية القضية بالبراهين المستندة إلى الأدلة قبل الحكم بالنتيجة .

### 3 - التفسير :

اعتمدنا في بحثنا تفسير النتيجة ، وصياغة مفاهيم جديدة بعد أن خضع المصطلح ، أو النص لعملية التفكير التي كانت السمة البارزة فيه قبل إعادة تركيبه اعتماداً على تفسير تلك النتيجة ، وليس تفكيراً بمعنى التجزيء الذي يؤدي إلى خلل في الرؤية يترتب عليه عدم القدرة على التعامل مع مشكلات القضايا في إطارها المعرفي مما يؤدي بالتالي إلى عدم القدرة على ربط المشكلات ببعضها ، فيبقى المفهوم معزولاً ، وغامضاً ، لذلك كان التركيب اللغوي على ضوء المعاني من الضوابط الأولية في فهم العلاقة بين الوضع اللغوي ودلالة المصطلح على المدلول .

لقد اتبعنا هذا النهج في تفسير النتيجة ؛ لأنه كثيراً ما يتمخض عن تلاطم الأفكار ، والثقافات المختلفة قناعات ، ومفاهيم باتجاه يغير دلالة المصطلح ، وهذه المفاهيم ربما تكون صحيحة ، وقد لا تكون ؛ لأنها لا تركز في أكثر الأحيان على حقائق موضوعية بقدر ما تنبع من انفعالات ذهنية متأثرة بالساحة الثقافية ، والمحيط الفكري ، وهذه القناعات تشكل مفردات التركيب الذهني لدى المجتمع ، ممّا يجعل اكتساب المعلومات التي يطلعون عليها ذات سمات خاصة تنسجم مع ذلك التركيب المتولّد عن القناعات الموروثة .

## 4 - الهدف :

إن الهدف يكمن في تصحيح بعض المفاهيم السائدة ليس في الأوساط العامة فحسب ، وإنما في كثير من الأوساط الخاصة التي تضم المفكرين وأصحاب الأقلام ، والرأي .

ولما كان البحث ينصب على مجموعة من القضايا اقتضى ذلك تناول أن يكون منهجاً معرفياً سليماً يعمد إلى تعريف كل مفردة بسياقات عقلية منطقية لا تخرج عن معنى المنقول ، ومفاهيمه ، الأمر الذي يجعلها قريبة إلى الآخر ، فإذا استقر ذلك في أذهانهم ؛ أمكن النفاذ إلى صلب الإشكاليات التي هي موضع الاختلاف لتصورها أولاً ، ثم اتخاذ أجدى الحلول من خلال أيسر البراهين وأدمغها ، وأوضح الأدلة ثانياً .

ولأن لكل طائفة من المفكرين ، وحملة الأقلام رؤيتهم التصورية ، ومواقف بعضهم المبدئية ، ومرجعياتهم الفكرية ؛ فإن من أحق الواجبات النظر إلى الرؤى ، والتصورات ، والمواقف المغايرة ، والإصغاء إلى رأي الآخر من أجل التماس القواسم المشتركة ، والانطلاق منها بدلاً من الافتراق عنها للخروج برؤية صحيحة تكون محط أنظار الجميع .

إن تصحيح المفاهيم وتصحيح المنهج أمرٌ ضروري دون شك ، ولكن ما من باحث ، أو مفكر يستطيع أن يصل إلى الثمرة المرجوة ؛ إن لم يتلمس الطريق الصحيح ، ويتوجه إليه .

بمعنى : أن محاولة التصحيح بالتناوب ، والتدافع ، والجدل الدائم الذي يحاول فيه كل فريق تسفيه رأي الآخر ، وتجريحه ، والنيل منه يكون جهداً ضائعاً بلا ثمرة ، إنما يكون التصحيح بالحوار المتوازن ، والبيان الهادف ، وإبراز الدليل الذي تُبنى عليه الأحكام ، وتقوم عليه النتائج عند ذلك يستبين الطريق ، وتتضح الأمور ، وتنجلي الحقائق من خلال البصيرة ، وبذلك يتم استيعاب الآخر دون حرج .

## 5 - الغرض :

هذا الكتاب دعوةٌ للتأمل ، والتفكير ، واستيعاب الآخر ، والحوار معه بشكل متوازنٍ للوصول إلى قناعاتٍ مشتركة تؤدي إلى تأطير المعنى المقنع لمفهوم المصطلح .

فالتأمل هو عملية النظر بالبصيرة إلى الموروث الفكري على أنه ليس كلُّ شيء مسلّم به ؛ لأن الأحكام الصادرة بشأن جميع القضايا هي نتاج الفكر الإنساني ، والإنسان يصيب ، ويخطئ ، فما كان صواباً من تلك الأحكام أثبتنا عليه بأدلة تعزز صوابه ، وما كان خطأ ؛ حاولنا أن نقوّمه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

هذا التقويم ليس من قبيل قناعةٍ مسبقة جعلناها حكماً لازماً بحثنا له عن الأدلة المناسبة ، بل باستعراض الأوليات التي قامت عليها تلك الأحكام من فرضيات ، وأدلة وبراهين أفضت إلى تلك النتائج ، فكان تقويمنا لها بدحض الحجة بالحجة والدليل بالدليل في حوارٍ هادئٍ يناقش الفكرة ، أو الحكم ، وليس مع من صدر عنه ذلك الحكم ، ولذا فإن كتابنا مفتوح لقبول الآخر في نقض الأدلة التي أوصلتنا إلى تلك النتائج بالأسلوب نفسه ، وبمستواه .

إن جميع القضايا التوافقية والمختلف فيها هي نتاج الفكر الإنساني ، ودعوتنا قائمة على ذلك ، ولكن على التفكير المتعقل في محاكاة العقل بمنطقية الأشياء من حيث القبول ، والرفض ، لا على أساس الموروث العاطفي الانفعالي الذي يغيب العقل ، ويلوي عنق الحقائق من أجل تطويعها للاعتقاد . فلا تسليم بالمطلق إلا ما جاء في كتاب الله ، وسنة نبيه ﷺ .

## 6 - الحجّة الحَكَم :

إنَّ سعة الأفق العلمي ، ورحابة الصدر في تقبل الآخر تجعل القارئ ، والمتلقي قادراً على مناقشة هذه الآراء ، وتقليبها على وجوهها ، فيأخذ منها ما ينفعه ، ويترك ما لا يضرُّه بهذه الرحابة والسعة ؛ لأن ذلك يضمن للمخالف

أن يحترم مخالفه في الرأي فلا تطيش سهامه ، فينتقصه ، أو يحط من قدره ، أو يرميه بتهم لا يملك عليها دليلاً ، بل يحفظ له قدره ، وكرامته ؛ وإن خالفه في الرأي ما دامت المسألة مسألة رأي واجتهاد ، ولذلك فإن من الوفاء العلمي الصحيح أن تكون المناقشة للآراء وفق مسلك صائب يقوده عقل سليم دون مبالغة في رفع الصوت أثناء الحوار ( صوت القلم ) ، فليس هذا من قوة الحجة في النقاش والحوار ، بل كلما كان الحوار هادئاً ؛ كان أعمق ، لذلك آثرنا النبرة الهادئة في الحوار لإيراد الحجة ، وإبداء الرأي بالابتعاد عن مقابلة الخطأ بمثله ، ونحن نعتقد : أن المهم في الأمر هو قوة الحجة ؛ التي تفضي إلى النتيجة الصحيحة بالدليل الواضح ، وليس بالجدل القائم على الصراع تعصباً لنتيجة يترفع بها أصحابها عن مناقشتها ، أو عرضها على موازين الأدلة ، والبراهين لتضيق بذلك الفائدة ، وتنعدم المنفعة ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

ونحن نرحب بأي ملاحظة ، أو نقد يصدران عن روية ، ونظر ، وليس عن تعصب ، أو هوى ، أو انفعال حتى تكون في محل تقدير ، واحترام في أنفسنا .

## 7 - الاجتهاد :

إن مجموعة من الأسباب قد تدعو بعض الباحثين إلى إطلاق الأحكام الشمولية على بعض القضايا بوصف ذلك عرفاً اجتماعياً أخذ قوة القانون في الاحترام ؛ لأن تلك القضايا من المسلمات التي لها موضع القداسة في ذاكرة الوعي الجمعي ، ولهذا لا تكون نتائج البحث لدى هؤلاء نابعة عن جهود علمية ، وإنما هي تطويع النصوص لتلك القنوات ، لذلك نرى : أن الأحكام المطلقة الجاهزة توحى ، أو توهم بأنها على صواب ، غير أنها عندما تخضع للتمحيص ، والتدقيق ، والتحليل ، والتفكيك ، والمراجعة ؛ يتضح البون الشاسع بينها ، وبين الحقيقة .

والذي توصلنا إليه من نتائج جاء اجتهداً بمحاكاة المنطق العقلي وفق

منهج علميٍّ أخذ بالأسباب ، واستند إلى الأدلة .

ومع هذا ففي البحث حماسة أحياناً ، وإلحاح على مسائل بعينها أحياناً أخرى ، ولكن ذلك هو نتيجة طبيعية لاحقة ، وليست مقدمة مفتعلة سابقة ، فإن من الطبيعي في المنهج العلمي أن يستمر الباحث في حماسه لبحثه وآرائه ، بعد أن يكون قد وصل عن طريق هذا المنهج العلمي إلى أدلة يُقنع الآخرين بصوابها ، فتصبح حججاً يطمئن إلى سلامتها ، فيؤكدها كلما سنحت له فرصة التأكيد ، ونحسب : أن الفرق واضح بين الحماسة البصيرة الواعية للرأي حين يصل إليه باحث بعد تقصُّ ، وتحرُّ ، وتحقيق من خلال الاجتهاد إلى نتيجة مقنعة ، وبين التعصب للفكرة التي يدخل البعض بها في بحثه ابتداءً من أجل الدفاع عنها .

#### 8 - المصادر :

إن اختيار المصادر يجب ألا يخضع للانتقائية ، والمزاج كما يفعل البعض في الاعتماد على المصدر الذي يساير الهدف ؛ كي يوصله إلى النتيجة المقتنع بها مسبقاً ، وعليه يجب أن يكون المصدر المختار محلّ قبول منك ، وممن يخالفك الرأي حتى يكون حجة لك وحجة عليه .

ولأجل ذلك ينبغي استعمال المنهج النقدي في التعامل مع المصادر أيضاً ، وعدم التسليم بكل ما تطرحه من آراء ، وأحكام في رواياتها ، بل يستوجب إحالة تلك الروايات قبل قبولها ، والأخذ بها على النقد المنهجي التجريدي ، وعرضها على المرحلة التاريخية التي وُلدت بها ، وما كان يسودها من آراء ، وأفكار ظرفية ربما يكون الحكم فيها نتيجة لعامل من تلك العوامل .

فمن المعلوم : أن المكتبة الإسلامية تعجُّ بكم هائل من الدراسات ، والمصنفات القديمة ، والمعاصرة فيما يتعلق بهذه القضايا ، وما يماثلها ، ومعلوم أيضاً : أن كثيراً من هذه المؤلفات تنتمي إلى مدارس فكرية في اتجاهات محددة تخدم قضية معينة تؤدي إلى إشكاليات .

ومن النتائج المباشرة لوجود تلك الإشكاليات ما نلمسه عن قرب ، ونجده من تضارب في الأقوال ، ووجهات النظر بين تلك المصادر ، سواء في نسبة الأقوال إلى قائلها أم في حقيقة الأقوال نفسها في القضية الواحدة من تلك القضايا أم في الحكم على تلك القضية ، ومدى قربها ، أو بعدها من الحق .

لذلك توخينا الموضوعية في اختيار مصادر بحثنا بما لا يختلف عليه اثنان في صدق القول ، وصحة المعلومة ، بحيث استقى البحث المعلومات والنصوص التي تعامل معها من مصدرين أساسيين كان الشاغل ألا نخرج عنهما :

1 - القرآن الكريم .

2 - السنة الصحيحة .

أمّا بقية المصادر التي قلّما اعتمدناها غير هذين ؛ فهي إمّا شروح ، وتفسير لهذين المصدرين ، أو دراسات قائمة عليهما .

ونحن نأمل ممن يرى اختلافاً معنا ، وله رأي مغاير فيما توصلنا إليه من نتائج ، وله حجة علينا في ذلك ؛ فليتقدم محاوراً حجةً بحجة ، يعطينا فنأخذ ، ونعطيه فيأخذ .

لقد اجتهدنا في أن يخرج البحث على هذه الصورة بهذه النتائج التي توصلنا إليها ، ولكل مجتهد نصيب ، فمن اجتهد ، وأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران ، والله نسأل أن نكون من أصحاب الإصابة ! والله وليّ التوفيق . وآخر دعوانا : أن الحمد لله ربّ العالمين .



## النَّسَبُ إِلَى الْآلِ وَالْأَهْلِ

آل : يؤول أولاً ، وآل : الشيء للشيء : رجع إليه to Revert . والآل : الأصل الذي يؤول الدم إليه ، ولهذا يُنسب الأبناء لأبائهم من حيث ثبات ، ونقاء الأصل ، قال تعالى : ﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [التِّي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ] (1) .

\* « آل الرجل : كل من يشاركه في النسب إلى أقصى أب له في الإسلام » (2) .

\* قال تعالى : ﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴾ [إِذْ نَادَى رَبُّهُ نَدَاءً خَفِيًّا] ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا] ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ عَالِي يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (3) دعاء مستجاب بإنجاب الولد الذي هو من صلبه ليرثه دماً ، وعلماً ، ونبوة ، فكانت الاستجابة وفقاً للطلب ، وهو طلب الذكر ، وليس الأنثى : ﴿ وَلِيًّا ﴾ [يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ عَالِي يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا] .

(1) الأحزاب ، 5-6 .

(2) معجم لغة الفقهاء ، ج 1 ، ص 36 .

(3) مريم ، 2-6 .

وعليه وردت كلمة ( آل ) متصلةً بالمذكر في القرآن الكريم ثماني مرات ولم ترد ، ولا مرةً واحدة متصلةً بالمؤنث ( آل إبراهيم ، وآل عمران ، وآل يعقوب ، وآل لوط ، وآل داود ، وآل موسى ، وآل هارون ، وآل فرعون ) مما يدلُّ على الاختصاص الذي يدعى به الأبناء لأبائهم .

**\* الفرق بين الأهل والآل :** « الأهل يكون من حيث العلاقة الاجتماعية ، والاختصاص ، فمن جهة العلاقة الاجتماعية قولك : أهل الرجل ، ومن جهة الاختصاص قولك : أهل البصرة ، وأهل العلم .

**آل :** كلمة تأصيلية تُمكن من العودة إلى الأصل الذي ينسب إليه الشيء ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

**\* آل :** تدلُّ على ذوي القربى الذين يعودون إلى صُلب الرجل .

**\* « الفرق بين الآل ، والذرية : آل الرجل : ذوو قرابته ، وذريته : نسله من الأبناء .**

فكلُّ ذريةٍ آل ، وليس كلُّ آلٍ بذرية » (1) .

**\* الفرق بين آل ، وأهل ، والذرية :** هو أن الآل تعود بالفرع إلى الأصل من جهة الأب ، « آل الرجل : كل من يشاركه في الانتساب إلى أقصى أب له في الإسلام » (2) .

**والأهل تأخذ احتمالين :**

**الأول :** الأهل هم ذوو القربى من جانب الأب ، والأم مما يجعل الأعمام كالأخوال في علاقة نسبٍ ، ومصاهرة تقرّب العلاقات بين الأجداد ، والأحفاد من الجانبين اللذين منهما ( الأب ، والأم ) ويمتدُّ مفهوم الأهل ليشمل العشيرة التي منها الأب ، وكذلك العشيرة التي منها الأم .

(1) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 6 .

(2) معجم لغة الفقهاء ، ج 1 ، ص 33 .



**الثاني :** الأهل اندماج اجتماعي بقرابة الدم ، وبغيرها ممّا يجعل للمكان المشترك خصوصية تسمح بالانتساب ، والانتماء إليه ، ولذلك يقال : أهل القرية ، وأهل الحي ، وأهل المدينة .

**أما الأولاد :** فهم الأبناء مباشرةً للأب ، والأم ، وهم لا يُدعون إلا لأبائهم .

وعليه الآل أداة ربط لعلاقات دم تربط الفروع بالأصول ، والأهل مسمى يطلق على ذوي القربى الاجتماعية ، والمكانية ، والأولاد هم الذين لا يفصلهم فاصل عن آبائهم .

**\* وبناء على ما سبق :** فإن آل : مكوّن لغويّ من ثلاثة أحرف هي : ( ء ، ا ، ل ) ولذلك فكلمة ( آل ) لا تتجرد حتى يعاد بها إلى أصل غير أصلها كما يقول البعض : بأن ( آل ) أصلها ( أهل ) وإذا عدنا للفرق بينهما نجد من حيث المفهوم : أنّ ( أهل ) شاملةٌ ، وقضاياها جامعة لا مانعة ، أما ( آل ) فهي خاصّةٌ لصلة نسب الدم ، ولذلك فقضاياها جامعةٌ مانعة ، أي : جامعة لذوي الصلة العرقية ، ومانعة لمن هم لا علاقة لهم بالعرق الانتمائي .

ونحن أيضاً لا نتفق مع من يقول : إن تصغير ( آل ) هو ( أهيل ) فأهيل تصغير لأهل ، أمّا ( آل ) فتصغيرها : ( أُويل ) .

**\* آل :** لا ترتبط إلا بمعلوم بشري مذكر ، أمّا ( أهل ) فترتبط بمعلوم بشري ، ومكاني ، وموضوعي ، وعلى مكانة ، أو دون منها ، ومنها قولنا : ( أهل الجنة ، وأهل النار ) وهذه لا تختص بأيّ آل ، ولذلك يقال ، أهل الجنة ، أو أهل النار ، وهكذا يقال : أهل الإيمان ، وأهل العلم ، وأهل الخير ، والمعروف ، والحق ، وفي مقابل ذلك يقال : أهل الكفر ، والجهل ، والمنكر ، والظلم .

و« آل الأمر إلى كذا ، يؤول : إذا انتهى إليه ، والمآل : المرجع » (1) .

(1) أسرار البلاغة ، ج 1 ، ص 36 .

ولذلك ف : ( آل ) هي دليل تأصيلي ، أما ؛ أهل فهي دليل إثبات علاقات مكتسبة ، تختلط فيها الدماء مصاهرة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ <sup>(1)</sup> من هذه الآية الكريمة يمكننا القول : فرق كبير يتضح بين ( آل ) وبين ( أهل ) فال فرعون هم الذين ينتسبون إليه من حيث الأصل ؛ أي : من حيث صلة الدم ، فال فرعون هم الذين من صلبه ؛ أي : هم الذين ينتمون إليه ، ولذلك فرعون ليس بشخص واحد ، بل لقب لحكام مصر عبر التاريخ ، ولهذا فرعون متكرر ، ولم يكن شخصية فرد واحد ، فهو الذي من بعده توارث أبناؤه الحكم ، وهم الذين يشار إليهم بآل فرعون ؛ أي : الذين يعودون إلى فرعون الأول ، وهم الذين يتوارثون الحكم في مصر ، وفرعون في اللغة تعني : « كلُّ عاتٍ متمردٍ فِرْعَوْنٌ . والعُتَاةُ : الفراعنة . وقد تَفَرَّعَنَ ، وهو ذو فِرْعَنَةٍ ، أي : دهاء ونُكْرٍ » <sup>(2)</sup> .

« فرعون لقب ملك مصر في التاريخ القديم ، وأصله بالمصرية ( يرعو ) بغير نون » <sup>(3)</sup> .

« فرعون تشير إلى وقائع تاريخية محددة ، وإلى سمات ، وأنماط بشرية متكررة ، تنفصل عن سياقها التاريخي ؛ لتصبح ذات مدلول أخلاقي عام يصلح لكل زمان ومكان » <sup>(4)</sup> .

أما ( أهل ) كما سبق أن أوضحنا : صلة علاقات اجتماعية ، ومكانية ، وموضوعية ، ولذلك جاء قوله تعالى : ﴿ أَلْ فِرْعَوْنُ ﴾ لخصوصية الدم ولم

(1) البقرة ، 49 .

(2) الصحاح في اللغة ، ج 2 ، ص 41 .

(3) المعجم الوسيط ، ج 2 ، ص 281 .

(4) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، ج 10 ، ص 55 .

يأتى بأهل المدينة ، أو القرية ، أو أهل فرعون حيث وجود اختلافات عرقية بين الأهل في القرية ، أو المدينة التي يعيش فيها فرعون معهم ، ولهذا جاء الاستثناء للذين ليس هم من آل فرعون مع أنهم من أهله .

### \* أهل : مكانية وعلائقية وموضوعية :

- **مكانية كقولنا :** أهل المدينة ، وأهل القرية ، وأهل مكة ، وأهل الدار ، وأهل الأرض ، وأهل السوق . ( أهل المكان : سكانه ، أو العاملون فيه ، وسكان المكان ليس بالضرورة أن يكونوا من آل واحد ) .

- **علائقية كقولنا :** أهل محمد ، وأهل جيرة ، وأهل نسب وحسب ، وأهل بطانته ، ولذلك فالأهل ( لا تقتصر على آل فقط ، بل تتعداهم لتستوعب الآخرين من أصحاب النسب ، والحسب ، والبطانة ) .

- **موضوعية :** كقولنا : أهل عقيدة ، وأهل رضاء ، وأهل عهد ، وأهل كرم ، وأهل الإيمان ، وأهل الكفر ، وأهل العلم ، وأهل البادية ، وأهل الحق ، وأهل الحكمة ، وأهل اللغة ، وأهل الأدب ، وأهل المنطق . ( مواضيع تتعلق بالخصوصية الموضوعية التي لا تقتصر على النوع العرقي المقيّد بآل ) .

\* **أهل :** كلمة جامعة لمن هم ينتمون لآل ، ولمن ينتمون لآل غيرها ، كأهل الكتاب الذين هم ليسوا بآل في شيء ، وهم ( اليهود ، والنصارى ، أهل التوراة والإنجيل ) ، فأهل الكتاب منهم بعض العرب ، ومنهم آخرون من غير العرب ، ولهذا فهم يتحدون في كلمة : ( أهل الموضوع ) ولا يتحدثون في كلمة : ( آل الدم ، والأصل ) .

قال تعالى : ﴿ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٠) هَتَأْتُمْ هَتُؤَلَاءَ حُجَجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١١) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا

وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ . أهل الكتاب هم من اليهود والنصارى وهم من مجموع بني إسرائيل ( آل يعقوب ) وبعضهم من العرب ( آل إسماعيل ) وبعضهم الآخر من غيرهم ، ولهذا عندما يلتقون على الموضوع ؛ فلا جامع لهم إلا كلمة ( أهل ) . « اجتمعت نصارى نجران ، وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأخبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديًا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيًا ! فأنزل الله عز وجل قوله فيهم : ﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، قالت النصارى : كان نصرانيًا ! وقالت اليهود : كان يهوديًا ! فأخبرهم الله : أن التوراة ، والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده ، وبعده كانت اليهودية ، والنصرانية » (2) .

أهل الإنجيل هم النصارى وحدهم ، وهم الذين منهم من هو من آل يعرب ، ومنهم من هو من آل إسرائيل ، ومنهم من هم من سواهم ، فأهل الإنجيل لا يجتمعون بكلمة : ( آل ) .

**أهل :** مكانية كأهل البيت ، والكعبة هي البيت الحرام ، وبيت إبراهيم الكعبة التي رفع قواعدها . قال تعالى : ﴿ قَالَتْ يَوْنَلَيْءُ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (٧٦) قَالُوا أَنْتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿ (3) قالت سارة باستغراب وتعجب : ﴿ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ والشيخ البعل هو إبراهيم عليه السلام ، ولذا قولان بينهما الأمر يتأرجح : قول يعود على إبراهيم بقوله تعالى : ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ وهذا المعنى لا استغراب فيه باعتباره وزوجه هما المخاطبان ، ولأن الأمر يتعلق بإبراهيم ، وزوجه ، فهو يتعلق بعلاقات اجتماعية ، وهذه تتطلب استخدام كلمة ( أهل )

(1) آل عمران ، 65-67 .

(2) تفسير الطبري ، ج 6 ، ص 490 .

(3) هود ، 72-73 .

لا استخدام كلمة ( آل ) التي لا تستخدم إلا لأصل يعود على المذكر ، أو يعود به إلى مذكر ، ولهذا جاء في القرآن الكريم : ( آل إبراهيم ، وآل عمران ، وآل يعقوب ، وآل موسى ، وآل هارون ، وآل داود ، وآل فرعون ، وآل لوط ) .  
وعلى أن نتوقف قليلاً أمام قوله تعالى : ﴿ ءَالُ مُوسَى وَءَالُ هَارُونَ ﴾ <sup>(1)</sup> مع أن موسى ، وهارون من آل عمران من أب واحد إلا أن آل موسى هم غير آل هارون ، فالذين هم من آل موسى يعودون إلى صلبه ، والذين هم من آل هارون يعودون إلى صلب هارون ، ولذلك فالقضية اللغوية تتعلق بخصوصية كل أخ عن الآخر ، ولذا لم يكن هارون من آل موسى ولا موسى من آل هارون ، بل كلاهما من آل عمران عليه السلام . وعليه فالعلاقة الاجتماعية تترتب وفقاً للآتي :

- من الأبناء ( ذكوراً وإناثاً ) لأصولهم العرقية علاقة ( آل ) .
- من الأبناء للآباء علاقة ( أبوة ) وعلاقة ( أمومة ) وعلاقة ( آل ) .
- من الآباء إلى الأبناء علاقة ( أهل ) .
- العلاقة بين الأبناء علاقة ( أخوة ) وعلاقة ( أهل ) .
- العلاقة بين الأقارب علاقة ( أهل ) .
- العلاقة بين الأنساب علاقة ( أهل ) .
- العلاقة بين الجيران ، وسكان المدينة ، والقرية علاقة ( أهل ) .
- العلاقة بين المشتركين في الموضوع الواحد علاقة ( أهل ) .
- \* وكلمة : ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ لم ترد في القرآن الكريم إلا مرتين :
- الأولى : في قوله تعالى : ﴿ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ <sup>(2)</sup> .
- والثانية : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ

(1) البقرة ، 248 .

(2) هود ، 73 .

أَلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿١﴾ ، ولذا فدخل الزوجين أو الأزواج في المعنى ، والمفهوم يدل على بيت النسب « المراد من البيت بيت النسب لا بيت الطين ، والخشب ، ودخل سارة - رضي الله تعالى عنها - حسبما جاء في الآية الكريمة السابقة من سورة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا ؛ لأنها بنت عمه ، وكأنهم حملوا البيت على الشرف كما هو في أحد معانيه » (2) .

إِذَا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ، تدل على أهل بيت النبوة ( البيت الذي رفع قواعده إبراهيم وابنه إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ) .

وهناك من يعود بقوله تعالى : ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ، عليه الصلاة والسلام ، مما يجعل البيت بمعنيين :

معنى علاقات اجتماعية الرسول وأزواجه بغض النظر عن الآلات التي تعود إليها كل زوج من أزواجه ، رضي الله عنهم جميعاً .

والمعنى الآخر : هو أن أهل البيت الكعبة ، وهذا المصطلح يجمع كل من اتخذ البيت الحرام قبلة له ، ومصلين .

قال تعالى : ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٣﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ . القول في هذه الآيات موجه إلى نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون استثناء ، وهن أمهات المؤمنين بالرسالة الخاتمة ، وهن لا يعدن إلى آل واحد بل يعدن إلى أصول عرقية متعددة ، وزواج الرسول الكريم منهن جعل بينهم وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين عشائره

(1) الأحزاب ، 33 .

(2) تفسير الألوسي ، ج 8 ، ص 308 .

(3) الأحزاب ، 32 - 33 .

علاقات نسبٍ ، ومصاهرة مما جعل لفظ كلمة : ( أهل ) لائحة بهذه المصاهرة ، والنسب ، والعلاقات الاجتماعية الطيبة ، والمرغوبة ، أو المفضلة ، والمحبة للأنفس ، ولذلك لا تقتصر العلاقات الاجتماعية بين العناصر المكونة للأنساب علاقة ( الآل ) ، بل تمتد لتجمع العلاقات في كلمة ( الأهل ) .

ونساء النبي - عليه الصلاة والسلام - ليسوا من آله ، فآله لا بد أن يكونوا من صلبه ، ولأنهنَّ أزواجه ؛ فهنَّ من أهله ، ولذلك نقول : إن أبناء الرسول محمد ﷺ هم من آله ، ولأنه لم يخلف من الذكور من خلف ليكون من بعده من هم من آله ؛ لذا لا آل من بعد محمد ، ولكن من بعده أهله ، ففاطمة الزهراء من آل محمد ، أمّا أبناؤها ؛ فليسوا من آله ، بل هم من أهله ، وذلك لأنهم من آل علي ، رضي الله عنه ، وعليٌّ لم يكن من آل محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، فهو من آل أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ولكن محمد ﷺ وعليٌّ - رضي الله عنه - هما من آل عبد المطلب .

**عليه :** فالذين يعتقدون أنفسهم أنهم من آل محمد ﷺ اعتقادهم ليس في محلّه ، والذين يعتقدون : أنهم من أهله فهم من أهله . ولذا فالذين ينسبون أنفسهم إلى فاطمة الزهراء هم في حقيقة الأمر من آل عليّ ، رضي الله عنه ، وبنسبهم هذا يكونون من آل عبد المطلب ، وهو آل رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه .

وعلينا ألا نغفل عن المعجزة المسيح عيسى ﷺ ابن مريم بنت عمران ﷺ فهو مع أنه ابن مريم إلا أنه من آل عمران ، وقد يتساءل البعض : ألا يكون التناقض مع قولك أن الآل تعود إلى مذكر دون مرور بالأنثى ؟ !

أقول : نعم ، ولكن عيسى ابن مريم ﷺ لم يكن له أب يختلط بأسبابه الدم بأسباب المصاهرة ، فمريم بنت عمران ﷺ أنجبت

عيسى عليه السلام بدون أب ، قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنْ الْقَنِينِ ﴾ (1) وقال تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (2) . ولهذا بقي آل متصلاً بعيسى عليه السلام .

### \* استخدامات ( آل ) و ( أهل ) :

- **الآل** : تُستخدم من الأبناء إلى الأصول العرقية التي يعودون إليها ؛ أي : التي ينحدرون منها وفقاً للآية : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ﴾ ولذا : فلا مفر من استخدام كلمة ( آل ) .

### - **الأهل** : على وجهين :

**الأول** : يستخدم من الآباء إلى الأبناء باعتبارهم نتاج علاقات النسب ، والمصاهرة ، اللذين يفتحان آفاقاً صائبة أمام استخدام كلمة ( أهل ) ولا يفتحانها أمام استخدام كلمة ( آل ) .

**الثاني** : تستخدم على مستوى الأبناء مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي ﴾ (٣٩) هَرُونَ أَخِي ﴿ ٣٠ ﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿ (3) إن موسى وهارون عليهما السلام هما أخوان من أب وأم فهما على علاقة أخوة ، وأهل ، أما من حيث العودة إلى الأصل الأبوي فإن كلا منهما يعود إلى عمران ، وآل إبراهيم عليه السلام ، ولذا فالعلاقة على مستوى الأخوة هي علاقة ( أهل ) ، والعلاقة مع الآباء والأجداد هي علاقة ( آل ) ولهذا العلل قال موسى عليه السلام : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي ﴾ (٣٩) هَرُونَ أَخِي ﴿ وهذا القول قول حق ؛ لأن هارون عليه السلام لم يكن من آل موسى .

(1) التحريم ، 12 .

(2) الأنبياء ، 91 .

(3) طه ، 29 - 31 .



## آل النبوة :

جميع الأنبياء من بعد إبراهيم هم من آله ، قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (1) . إذاً جميع الأنبياء من بعد إبراهيم ﷺ هم من آله ، والأنبياء من بعد إبراهيم في أساسهم هم موهوبون من الله تعالى ؛ أي : أن امرأة إبراهيم عجوز ، فكيف يمكن أن يكون له الولد لو لم يهبه الله إياه ؟ ولذا قال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ﴾ للتأكيد على أن أفعال المستحيل بيده ، وبإمكانه إظهارها متى ما يشاء للذين لا تمتدُّ قدراتهم ، وقواهم خارج دائرة الممكن : ( المتوقع وغير المتوقع ) .

قال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (٧١) قَالَتْ يَوَاسِقُ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (٧٢) قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ (2) ولأن الخطاب موجه لزوج إبراهيم ، وكما سبق أن بينا قال تعالى : ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ولم يقل آل البيت .

وإسحاق الذي وهبه الله تعالى لإبراهيم ﷺ ، وهب له إمكانية الإنجاب ، فأنجب ولداً له من بعده هو يعقوب ﷺ . ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ . تدلُّ هذه الآية الكريمة على أن النبوة التي سبقت إبراهيم لم يتم اصطفاؤها من بيت واحد ، إلا من بعده حيث أصبحت النبوة ، والرسالات في ذريته ﷺ . وهذا الأمر هو الذي جعل إسحاق نبياً مثلما إبراهيم نبياً ، وكذلك جعل من يعقوب حفيداً لإبراهيم ، ونبياً . إذاً الفرع الذي من صلب إبراهيم هم الذين خصَّهم الله ( بآل الأنبياء ) أي : باصطفاء الأنبياء منهم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ

(1) العنكبوت ، 27 .

(2) هود ، 71-73 .

عِمْرَانُ ﴿<sup>(1)</sup> . ف : ( آل إبراهيم ) هم الذين يؤولون إليه من صلبه .

**والأهل :** هم الذين يعودون إلى البيت الذي رفع قواعده إبراهيم ؛ أي : هم الذين يدينون بديانة إبراهيم لله الواحد القهار ؛ أي : أنهم من دينه مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ <sup>(2)</sup> وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ﴾ <sup>(3)</sup> .

وهكذا هو الحال مع الذين من بعده من آل بيته ، وهم :

آل عمران ، وآل موسى ، وآل هارون ، وآل داود ، ومحمد . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ <sup>(4)</sup> وعليه لقد ذكر القرآن آل نوح ، وآل إبراهيم ، وآل عمران ، وآل موسى ، وآل هارون ، وآل داود عليهم السلام . أمّا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ المقصود به نساء الرسول محمد صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء والمرسلين ، وهو آخر نبي من آل إبراهيم ، وبه انتهى الانتساب ب : ( آل ) للأنبياء ، والرسل ، وذلك لأن محمداً صلى الله عليه وآله لم يُخَلَّفْ من بعده ولداً يلد من بعد حفدة لينسبوا إليه ، بل خلف فاطمة الزهراء ( أم الحسن ، والحسين ) عليهم السلام ومع أن فاطمة الزهراء من آل محمد إلا أن الحسن ، والحسين من آل علي ، كرم الله وجهه ، ولذلك فمن يأتي من خلفهم لا يكون من آل محمد صلى الله عليه وآله بل يكون من آل علي صلى الله عليه وآله .

وعليه فإن المقصود من آل البيت هم الذين من صلب إبراهيم ، أما أهل البيت ؛ فهم الذين أسلموا مع إبراهيم لله رب العالمين .

(1) آل عمران ، 33 .

(2) آل عمران ، 95 .

(3) آل عمران ، 67 .

(4) الأحزاب ، 33 .

وعليه من يريد أن ينسب نفسه إلى آل البيت فهو من الذين يؤولون إلى إبراهيم دماً .

والذين هم من أهل إبراهيم هم الذين يدينون بدين إبراهيم ، وهو الإسلام ؛ حيث إبراهيم ما كان يهودياً ، ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً . ولذا فالبيت الذي يجمع المسلمين هو الذي رفع قواعده إبراهيم ، وإسماعيل عليهما السلام مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ <sup>(1)</sup> ، والسر من وراء بناء البيت هو طمأننة قلوب المؤمنين ، وتأمينهم من كل خوف ، وذلك لأنه بيت توحيد ، لا بيت شرك ، ولهذا فالتوحيد يؤدي إلى الاطمئنان ، ويحقق الأمن ، والشرك لا يحقق إلا الخوف . قال عز وجل : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ <sup>(2)</sup> يفهم من هذه الآية الكريمة : أن البيت هو المكان الذي يتوفر فيه الأمان ، والطمأنينة ، وينعدم فيه الخوف بالمطلق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ <sup>(3)</sup> الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ .

ولأن ما وهبه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام لا ينقطع فقد أضاف : ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ <sup>(4)</sup> أي : أنه كسب الدنيا بما عمل دعاء متصلاً مع الأنبياء ، والصالحين ، والذين هم يؤمنون بقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ <sup>(5)</sup> .

بناء على ما تقدم لم يرد ذكر آل البيت مطلقاً في القرآن الكريم ، وذلك لسبب علمي ، وهو أن محمداً صلى الله عليه وآله كان آخر آل البيت الذين ينتمون إلى إبراهيم

(1) البقرة ، 127 .

(2) البقرة ، 125 .

(3) قريش ، 3 - 4 .

(4) العنكبوت ، 27 .

(5) آل عمران ، 67 .

( الذين جعل الله عز وجل النبوة فيهم ) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ <sup>(1)</sup> ولأن محمداً - عليه الصلاة والسلام - خاتم الأنبياء والمرسلين الذين هم من آل إبراهيم ( من صلبه ) كان خاتماً لأمرين اثنين :

**الأول :** أنه النبي الخاتم للأنبياء الذين يعودون لآل إبراهيم .

**الثاني :** أنه صاحب الرسالة الخاتمة لكلِّ الرسالات السابقة ، وهي الرسالة الكافة للعالمين ، وبهذا محمد رسول الكافة ، وخاتم الأنبياء والمرسلين الذين يؤولون إلى إبراهيم عليه السلام وهو النبي الذي جعل الله النبوة ، والكتاب في ذريته ، ولذا كان محمداً رسولاً خاتماً ، وكان القرآن كتاباً خاتماً ، وأصبحت الكعبة البيت الحرام هي بيت المسلمين ، ومن دخله فقد ( أمن ) وعليه : فأهل البيت هم المسلمون الذين اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ <sup>(2)</sup> أي كل من أسلم وجهه لله رب العالمين واتبع ملة إبراهيم بالرسالة الخاتمة والرسول الخاتم آخر رسول ينسب لآل إبراهيم ، عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ ﴾ <sup>(3)</sup> . بمعنى : جعل الله الكعبة بيت المسلمين محرماً على الكافرين ، ولذا فأهل البيت ( أهل الكعبة ) هم جميع المسلمين ، « بيت الله الذي يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحدٌ منهم ، ولا يمتاز فيه أحدٌ منهم » <sup>(4)</sup> .

(1) العنكبوت ، 27 .

(2) البقرة ، 125 - 126 .

(3) المائدة ، 79 .

(4) في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص 189 .

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (1). قال: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ قال للناس، ولم يقل للمسلمين؛ أي: لا بيت للناس على الحق إلا بيت الله الحرام، فمن يهتدي فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها. ولا مأمن لهم من الخوف إلا هو مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (2) الَّتِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (2) ولهذا فأول بيت وضع ببكة هو بيت الناس كافة، وبيت الناس لا يقتصر على أحد، ولا يحرم أحد منه؛ إلا إذا ارتضى أحد حرمان نفسه، ثم قال: ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: أنه مفتوح أمام من يتخذه قبلة، ومصلًى، ولذا فهو لا يقتصر على من أسلم، بل هو لكل من أسلم، ولكل من سيسلم عبر الزمان، وهؤلاء هم الذين يشار إليهم بأهل البيت، ولهذا لا (آل للبيت) ولكن له أهل، وأهله المسلمون جميعاً. ولأن الدين الإسلامي للكافة؛ كان البيت الحرام قبلة، وهدى للعالمين على المطلق، وليس على الخصوص.

وأما الذرية فهي تجمع ما بين الأهل والآل، ومن هنا وقع الخلط قصداً، أو جهلاً، ذلك: أن أبناء الذكر، وبناته هم من آله، وأبناء أبنائه نزولاً هم من آله أيضاً، وكذلك بناته هم من آله، إلا أن أبناء البنات لا يدخلون في آله وإن كانوا من أهله، فالأهل هي الدائرة الكبرى التي تضم إليها الآل، والدائرة الصغرى التي هي الآل يكون الأهل خارجها، وبما أن الآل تدخل في دائرة الأهل، فعليه تكون الذرية ضمن هذه الدائرة، وقد وردت في القرآن الكريم في عدة مواطن بهذا المعنى، ومن هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَسْكَنْتَ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا

(1) آل عمران، 96.

(2) قريش، 3-4.

لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ  
يَشْكُرُونَ ﴿١﴾ .

والمقصود بقول سيدنا إبراهيم ﴿ مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أي : بعض أبنائي وهو  
إسماعيل عليه السلام . وقد جاء الخطاب بعد لفظة : ﴿ ذُرِّيَّتِي ﴾ بصيغة الجمع مع  
أن إسماعيل مفرد على احتمال ما سيكون لما يحمل إسماعيل من ذرية ، والتي  
هي من ذرية إبراهيم عليه السلام .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ  
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ <sup>(٢)</sup> رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ  
دُعَاءَ ﴿٢﴾ .

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ : هو دعاء لابد : أنه مستجاب لصدوره عن نبي الله  
إبراهيم . وجاءت « مِنْ » التبعية لاحتتمالات :

**الأول :** من ذريتي الذين يكون منهم الآل الذين جعلت النبوة في أصلابهم  
وصولاً إلى محمد ﷺ .

**الثاني :** دخول الإناث في الذرية ، وخروج أبنائهم من الآل .

**الثالث :** بعض الذرية تتبع الهدى : ﴿ مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ فقد جعل اتباع  
الملة شرطاً لآل النبوة بعد الانحدار من الصلب ، وبعضهم الآخر لا يتبع  
الهدى ، فيخرج من الأهل كابن نوح عليه السلام .

ولذا : فشرط دخول آل النبوة اتباع الملة ، والخروج من الملة لا يخرج  
من الآل ، حيث قال تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ  
الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٣﴾

(1) إبراهيم ، 37 .

(2) إبراهيم ، 39 - 40 .

(3) هود ، 45 - 46 .

فأخرجه من أهله على الموضوعية ؛ لأن نوحاً ومن معه هم أهل عقيدة التوحيد ، وابنه ليس كذلك ، فخرج من هذه الأهلوية ، فالشرط في الآل ، والأهل أن يتبع الدين الحق داخل ذرية النبوة ، ودليل ذلك : أن الله يصطفي من عباده من يشاء .

قال تعالى أيضاً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ (١) فقد اصطفى آدم ونوحاً ولم يصطف من ذريتهما ، وإنما جعل اصطفاء الآل في آل إبراهيم وآل عمران . وبالإضافة : أن آل عمران من آل إبراهيم ، فقد ذكر آل عمران ليدل على المحذوف ، وهم آل إسماعيل بالمذكور ، وهم آل إبراهيم تحسباً لما وقع فيه أهل الكتاب بقولهم : إن النبوة في آل عمران ، ولا يؤمنون بنبي من غير آل عمران . و من المعلوم : أن إسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، وعمران من آل إبراهيم . فدخل إسماعيل في الآل بذكر أبيه ﷺ .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٤) فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ (٢) دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴿ : فقد خص زكريا نوع الذرية المرجوة من الله أن تكون طيبة ؛ لتكون أهلاً لحمل الآل الذي سيرته ، ويرث من آل يعقوب ، فكان الجواب أن بشره بيحيى الذي حمل الآل بعد أبيه ؛ لأنه مهياً لذلك ، فهو سيّد ، وحصور ، ونبي من الصالحين .

وقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا

(1) آل عمران ، 33 - 34 .

(2) آل عمران ، 38 - 39 .

وَبِكَيْسٍ ﴿١﴾ فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، هم بعض الذرية بدليل : ﴿ مِنْ ذُرِّيَّةٍ ﴾ وليس جميع الذرية ، لأن قابيل اعتدى على حياة الإنسان بقتله أخيه ، فخرج من البعض الذين أنعم الله عليهم ، وكان من البعض الآخر الذين لم ينعم الله عليهم ، وكذلك ابن نوح بعصيانه ، وبعض من ذرية إبراهيم ، وإسرائيل ( يعقوب ) الذي هو من آل إبراهيم فلم تكتفِ الآية بذكر يعقوب ، وإنما كان مسبوقاً بذكر أصل آل ، وهو إبراهيم ، وذكر إبراهيم قبل يعقوب دليل على الفرع المحذوف إسماعيل ، وإسحاق الذي يدل على الأصل المذكور إبراهيم ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

ومن خلال استقراء النصوص القرآنية التي ذكرت آل نستنتج الآتي :

#### 1 - أن آل ابتدأ بإبراهيم ، عليه الصلاة والسلام :

وعلى ما تقدّم فإنّ آل هم الذين ينحدرون من صلب الرجل دون النظر إلى الزوجة سواء أكانت الزوجة من آل ، أم من أهله ، أم غير ذلك ؛ لأن الزوجة على حالات ثلاث :

1 - **الزوجة من آل** : مثل سارة زوجة إبراهيم عليه السلام ، التي كانت ابنة عم له ، فهي وإياه ينحدران من آل واحد ، ولذا فالعلاقة ، علاقة آل بالانتماء إلى الأعلى ، وعلاقة أهل ضمن آل الواحد .

2 - **الزوجة من الأهل** : مثل خديجة أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، فهي من أهل محمد عليه السلام قبل الزواج ، وتلتقي معه في آل عند خزيمة بن مدركة ، وعلى هذا فهي ليست قرشية ؛ لأن ( قريش ) هو مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ، فهي تفارق قريشاً قبل ثلاثة آباء ، وعليه فهي من أهله قبل خزيمة نزولاً ، ومن آل عند خزيمة صعوداً <sup>(2)</sup> .

(1) مريم ، 58 .

(2) ينظر نهاية الأرب ، ج 1 ، ص 14 .



3 - **الزوجة من غير الآل والأهل** : مثل هاجر زوجة إبراهيم عليه السلام ، فقد أصبحت من أهله عندما تزوج بها ، فهي خارج الآل ، ولم تدخل في الأهل إلا بعد الزواج من إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام .

والآل على ما ذكرنا من تعريفه ، هو قائم منذ آدم عليه السلام ، ومستمر في ذريته ، وهو الآل العام في جميع البشر .

وأما الآل الخاص وهو آل النبوة ؛ فقد بدأ بإبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، وانتهى بمحمد عليه الصلاة والسلام .

وقد حدد ذلك أمر وتقدير إلهي بعلامات دالة على ابتداء آل النبوة ، وانتهائه ، حيث تحدّد ذلك بما لا يدع مجالاً للشك في انتهاء آل النبوة بمحمد - عليه الصلاة والسلام - بما يلي :

1 - **آل النبوة ابتداءً بذبح ، وفداء** : قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي إِذْ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قَالَ يَتَأْتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٨﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَا لِلْجَبِينِ ﴿١٠٩﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّيِّرْهُمُ ﴿١١٠﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١١٢﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ .

2 - **آل النبوة انتهى بذبح وفداء** : وهو نذر عبد المطلب : إن ولد له عشرة من البنين ؛ ليذبحن أحدهم فداءً ، فكان الذبيح عبد الله بن عبد المطلب ، إلى أن افتُدي بمئة من الإبل <sup>(2)</sup> . مع العلم بأن إسماعيل عليه السلام نبي ، وعبد الله ليس كذلك .

3 - **الآل لا يكون إلا من الذكر في النبوة** ، وغيرها .

4 - **محمد عليه السلام لم يعيش له ولد ذكر ليستمّر به الآل** ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا

(1) الصفات ، 102- 107 .

(2) ينظر السيرة لابن كثير ، ج ١ ، ص 174 ، والروض الأنف ، ج 1 ، ص 270 .

أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ (1) .

5 - النبي الخاتم منطقياً أن لا يخلف ذكوراً لانقطاع الوحي ، والنبوة . قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (2) .

وإضافة إلى ذلك فيما يؤطر آل النبوة ، ويحدّها حصراً : أن الذبح ، والفداء ابتداء بأول آل ، وهو إسماعيل عليه السلام وانتهى بآخر الآل ، وهو أبو محمد عبد الله بن عبد المطلب ؛ أي : بعد إبراهيم بواحد فقط ، وقبل محمد بواحد فقط . ولو ذبح عبد الله ؛ لما كان محمد ، مع علمنا يقينياً : أنه لابد أن يولد محمد ؛ ليكون رسول الكافة ، وخاتم النبيين .

وكذلك فإن العرب قبل نزول القرآن كانت تتجوّز في لفظة الآل ، فتخرجها من اللفظ إلى عموم الدلالة ، وإن جاءت مخصوصة في قول الشاعر :

يا أيها الرّجل المَحَوَّلُ رحلَه هلا نزلت بآلِ عبدِ مناف (3)

حتى جاء بها القرآن الكريم ، وإنما كانت تستخدمها في معنى الرجوع ( آل فلان إلى قومه ؛ أي : رجع إليهم ) وكانت اللفظة التي تستخدمها العرب قبل نزول القرآن بهذا المعنى هي كلمة ( معشر ) فتقول : يا معشر قريش ، حتى جاء القرآن الكريم وحدّد استخدام المصطلح ، وميّز بين الخاص والعام ، فكانت لفظة ( آل ) في الخاص ، ولفظة ( معشر ) في العام .

(1) الكوثر ، 1-3 .

(2) الأحزاب ، 40 .

(3) روح المعاني ، ج 23 ، ص 142 .

- **الخاص في ( آل )** : كقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ (1) .

- **العام في معشر** : كقوله تعالى : ﴿ يَمْعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمُ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ (2) .

فقد تحدّد كل مصطلح بخصوصيته ، وحتى أنّ القرآن الكريم لم يذكر آل قبل إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ؛ لأن جميع من ذكر في القرآن من آل هم بعد إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، ولما رأت العرب : أن لفظة آل تحدد الهوية أكثر من لفظ معشر ؛ استخدموا اللفظ ، ولم يتقيدوا بخصوصيته ، فنسبوا آل مجازاً حتى تجاوزوا صلة القربى والمصاهرة كأبناء عليّ - رضي الله عنه - وهم من آل أبي طالب .

فإذا كانت المصاهرة تدخل ذرية البنات في آل آبائهم فإن عليّ بن أبي العاص بن الربيع ، وأمه زينب بنت رسول الله ، وعبد الله بن عثمان بن عفان وأمه رقية يتساويان في ذلك مع الحسن ، والحسين ابني فاطمة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ؛ لأن أيّ قضية إذا وجب الأمر في جزئها ؛ وجب في كلّها ، وإذا انتفى عن جزئها ؛ انتفى عن كلّها . والقضية هنا لا تخرج عن احتمالين هما :

- إما أنّ الحسن والحسين يُدخلان عليّاً وعبد الله في آل محمد ، عليه الصلاة والسلام .

- وإما أنّ عليّاً ، وعبد الله يُخرجان الحسن والحسين من آل محمد ﷺ . ولما كان الانتساب من جهة الأثني ؛ كان الخروج من آل أولى ، والدخول في الأهل أولى ، وعليه فجميع هؤلاء من أهل محمد ﷺ .

(1) النساء ، 54 .

(2) الأنعام ، 130 .

إلا أن إدخال الحسن ، والحسين في آل رسول الله ﷺ دون أبناء بناته الأخريات ، فهو من قبل الخلط ، والتجاوز في معنى الآل ، وذلك جاء من أن جميع بنات رسول الله ﷺ وأبنائهن توفوا في حياة الرسول عدى فاطمة وأبنائها .

وعليه فلم يبق للمسلمين من أهل رسول الله ﷺ سوى فاطمة ، وأبنائها ، ولما كانت فاطمة هي أصغر بناته ، وهي الوحيدة التي بقيت له من ذريته ، لذلك كان حب رسول الله ﷺ كله لها ولأبنائها ، ومن هنا كانت عاطفة المسلمين وحبهم لنيهم ، وبرهم به هو حبهم لأهله الذين لم يبق منهم بعده إلا ابنته فاطمة ، وسبطاه الحسن بن علي ، والحسين بن علي من آل أبي طالب ، فكانت عاطفة المسلمين معبرة عن عاطفة رسول الله ﷺ في حب فاطمة ، وأبنائها ، وكأنها الوحيدة بعد موت أخواتها ، وأبنائهن ، الأمر الذي عكس ذلك في مواقف المسلمين من التعبير عن هذا الحب كموقف عاطفيّ أولاً ، ثم أثبت ذلك في كتاباتهم فيما بعد .

وعليه فالآل يتساوى فيه الذين ينحدرون من الأصلاب ، ولذا فهو ليس اختياراً عاطفياً ، ولأننا نكتب في هذا الموضوع بعقلانية ، فلا بدّ من توضيح الأمر على وجهه الحقيقي .

ولما كان الآل مرتبطاً بذكر في آل النبي ، وغيره ؛ لا بدّ لنا من العودة إلى الأنساب حتى نوضح لأي آل يرجع كل من الحسن ، والحسين ابني علي ، وعلي بن أبي العاص بن الربيع ، وعبد الله بن عثمان بن عفان .

ونثبت بداية نسب رسول الله ﷺ : وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ( قريش ) بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان <sup>(1)</sup> ، وعلى هذا يكون النسب :

(1) ينظر نهاية الأرب ، ج 1 ، ص 9 .

- 1 - محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي .
- 2 - علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي .
- 3 - عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية الأكبر بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي .
- 4 - أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي .

وبناء على سلسلة النسب فإن علاقة هؤلاء جميعاً بآل محمد ﷺ ،  
تصاعدية وليست تنازلية ، فكيف يكونون من آله ؟

- محمد ﷺ وعلي يلتقيان عند عبد المطلب .

- محمد ﷺ وعلي وعثمان وأبو العاص يلتقون عند عبد مناف بن قصي . ولذا فليس أحدٌ منهم من آل محمد ﷺ ، وليس أحدٌ منهم من آل عبد الله بن عبد المطلب ، لأن آل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب هم : القاسم ، والطاهر ، والطيب ، من خديجة أم المؤمنين ، وماتوا قبل البعثة <sup>(1)</sup> ، وإبراهيم من مارياء القبطية ، ولد ، ومات بعد البعثة <sup>(2)</sup> .

فالرسول ﷺ لم يعيش له ولد ذكر حتى يكون آل فيه لقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ وعلي هذا فإن آل النبوة انتهت في محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، لذلك نجد أبا الفرج الأصبهاني لم يجاوز الصواب وكان دقيقاً في ردّ الفروع إلى أصولها ، ولم ينسب أحداً إلى آل بيت النبوة عندما ألف كتاباً بعنوان ( مقاتل الطالبين ) الذي ذكر فيه جعفر بن أبي طالب ومحمد بن جعفر ، وعلي بن أبي طالب ، والحسن بن علي ، والحسين بن

(1) ينظر سيرة ابن إسحاق ، ج 1 ، ص 22 .

(2) ينظر سيرة ابن كثير ، ج 1 ، ص 264 .

علي وجميعهم يرجعهم إلى آل أبي طالب <sup>(1)</sup> . ولذا نرى : أنه مصيب في هذا العرض وفقاً لقاعدة الآل .

### آل موسى وعيسى ابن مريم عليهما السلام :

لما كان موسى عليه السلام من بني إسرائيل ، وله فيهم نسب معروف ينحدر منه ، وآل يرجع إليهم ، وهم آل عمران ، فمن المنطقي : أنه يتميز خطاب الله تعالى له ، عن خطاب عيسى عليه السلام الذي خلق من غير أب ، مع العلم : أن أمه مريم من آل عمران .

ومع ذلك فلا يمكن أن يكون عيسى عليه السلام من آل عمران لاختلال شروط الآل في عيسى ، وهو عدم توفر الانحدار من الصلب ، ليرجع بآله إليه .

ولكن لما توفر ذلك في موسى عليه السلام كان الأمر مختلفاً ؛ إذ نجد الخطاب ، أو النداء مرتبطاً بنسب يصل به إلى آل هو ينحدر منهم .

إن خطاب موسى عليه السلام لقومه ، كان مقروناً دائماً ﴿يَقَوْمِ﴾ ذلك : أنه منهم ، وله فيهم نسب معروف :

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ <sup>(2)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ <sup>(3)</sup> .

ومثله قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ لِمَ تُوذُونِي﴾ <sup>(4)</sup> .

(1) مقاتل الطالبين ، ج 1 ، ص 1 ، 4 ، 5 ، 12 .

(2) البقرة ، 54 .

(3) المائدة ، 20 .

(4) الصف ، 5 .

ففي هذه الآيات نسبة الله تعالى إليهم بقوله : ﴿لِقَوْمِهِ﴾<sup>(1)</sup> وموسى عليه السلام انتسب لهم بقوله : ﴿يَقَوْمٍ﴾ دلالة على أنه منهم ، ولو كان غير ذلك ؛ لأنكروه .

ولكن هناك آية واحدة لم يقل فيها : ﴿يَقَوْمٍ﴾ وهي :

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾<sup>(1)</sup> .

والسبب في ذلك : أن أسلوب الخطاب كان تقدم في السورة نفسها قبل عشر آيات ، فلم تعد حاجة للتكرار ، وبناءً على ذلك فهي استمرار الخطاب : ﴿يَقَوْمٍ﴾ .

وكذلك كان قومه ينادونه بالاسم المجرد لعدم الاشتباه ؛ لأنه معروف فيهم ، وقد جاءت معرفة موسى ، وشهرته في قومه بأمر من الله تعالى ، ذلك : أنه تربى في بيت فرعون ، علماً : أنه من عامة بني إسرائيل ، وليس من خاصتهم .

وقد ورد ذلك ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾<sup>(2)</sup> . وكذلك قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾<sup>(3)</sup> . وقوله تعالى : ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾<sup>(4)</sup> .

وعلى ذلك جرى الخطاب له من الله تعالى : ﴿يَمُوسَى﴾ فهو من آل عمران الذين هم من آل إبراهيم عليه السلام ، ولما كانت الشهرة تغني عن

(1) البقرة ، 67 .

(2) البقرة ، 55 .

(3) المائدة ، 22 .

(4) الأعراف ، 115 .

التخصيص وجب النداء بالاسم مجرداً ، فقد ناداه الله تعالى إحدى عشرة مرة ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي ۖ ﴾ (1) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ ﴾ (2) .

**والملاحظ :** أن النداء لعيسى ﷺ من الله تعالى ، ومن أصحابه الحواريين كان مختلفاً ، وله خصوصية لخصوصية مولد عيسى ﷺ حيث إنه وُلِدَ من دون أبٍ ، فنسبه الله تعالى إلى أمه ، علماً أن أمه من آل عمران ، ولم يختلط دمه بغيرهم ، ومن المعروف في اللغة وفي كلام العرب أن ينسب الرجل إلى أبيه الأعلى تفاخراً عندما يكون شريفاً من ذوي الحسب ، والنسب ، وليس هناك أشرف من آل النبوة ، ومع ذلك نسبه الله تعالى إلى أمه لخصوصية مولده ، وفي مثل هذا الموقف فقد نسب نبينا - عليه الصلاة والسلام - نفسه إلى جدّه يوم حنين وهو يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » (3) . غير أن النسب هنا جاء من جهة الأب ؛ وإن علا ، إلا أن عيسى ﷺ ليس له من الوالدين إلا الأم ، فكان نسبه إلى أمه دون الآل ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ ﴾ (4) . فقد ذكر موسى مجرداً ، وعيسى منسوباً إلى أمه ، ولم يذكر عيسى مجرداً إلا بعد أن أكد : أنه ابن مريم ثلاث مرات قبلها ، حيث ورد في البقرة مرتين ، والثالثة في آل عمران على أنه ابن مريم ، والتأكيد في اللغة أكثر من ثلاث مرات يكون عيئاً من المتكلم ، واستخفافاً بالمخاطب ، حتى جاء في الرابعة مجرداً في آل عمران أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ ﴾ (5) .

(1) الأعراف ، 144 .

(2) النمل ، 9 .

(3) صحيح مسلم ، ج ٥ ، ص 168 .

(4) البقرة ، 87 .

(5) آل عمران ، 52 .



وبعد التأكيد جرى الخطاب من الله تعالى لعيسى ، عليه الصلاة والسلام ، أو ذكره إما مجرداً ، وإما منسوباً لأمه :

فمن الخطاب المجرد قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (1) .

ومن ذكره المجرد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (2) .

ومن الخطاب المنسوب فيه لأمه قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (3) .

ومن ذكره المنسوب فيه لأمه ، قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (4) .

وعلى هذا كان نداء أصحابه من الحواريين له ، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (5) .

ولهذا لم يخاطب عيسى ﷺ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ كما كان يخاطبهم موسى ﷺ بقوله : ﴿ يَنْقُورِ ﴾ علماً أنّ مريم ﷺ منهم ، وهي من آل عمران ، وهو ابن مريم ، فلم ينتسب إليهم لانتفاء الآل من الذكر ، وإنما كان خطابه لهم بما ينتمون إليه :

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ

(1) آل عمران ، 5 .

(2) آل عمران ، 59 .

(3) المائدة ، 110 .

(4) مريم ، 34 .

(5) المائدة ، 112 .

الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴿١﴾ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (2) .

لقد ذكر عيسى عليه السلام منسوباً لأمه ، لثلاثة أسباب ، هي :

1 - إظهار قدرة الله تعالى في عيسى المعجزة ، ولادة ، وطفولة ، ورجولة ، ونبوة .

2 - تنبيهاً على أنه ليس له أب ، فلا ينتمي إلى آل .

3 - إبعاد الشبهة عن مريم عليها السلام مما رماها به اليهود .

وعليه فعيسى ابن مريم عليه السلام نبي مرسل معصوم من أولي العزم من الرسل ، وأمه صديقة في الدرجة الثانية بعد الأنبياء ، وفي الدرجة الأولى التي ترقى إليها مكانة امرأة عند الله ، وتنحدر من أشرف بيت لبني البشر ، وهم آل النبوة ، ومع ذلك لم يرد في كتاب الله تعالى ، ولا فيما ذكره المفسرون ، والفقهاء ، من نسبة عيسى عليه السلام إلى آل بيت النبوة ؛ لأنه ينتسب إلى أنثى ، فكيف ينتسب من كان دونه ؟ !

العلاقة بين الآل والإل :

بقي في هذا الجانب مسألة واحدة وهي قوله تعالى : ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ .

فهل هناك علاقة بين الآل والإل من حيث المبنى ، أو المعنى ؟

فأما من خلال المبنى فإن الجذر الثلاثي لكلمة ( آل ) على ما سبق وبيناه

(1) المائدة ، 72 .

(2) الصف ، 6 .

من خلال المعاجم هو ( ء ، ا ، ل ) همزة مفتوحة وألف ساكنة بعدها لام .  
وأما ( إلّ ) فجزؤها الثلاثي هو ( ل ، ل ، ل ) همزة مكسورة ولام ساكنة  
بعدها لام .

فالجذر اللغوي لكلا اللفظين مختلف ، واختلاف الجذر اللغوي هو  
اختلاف في المعنى ضرورة ؛ إذ من المعروف : أنه ليس هناك كلمتان في اللغة  
العربية تعطيان معنى واحداً مطلقاً .

ولكن تشتمل إحداهما على صفة ، أو أكثر من صفات الأخرى  
ولا تطابقها ألبتة ، وهذا ما يعرف بالترادف اللغوي ، ولو كانت مطابقة لها ؛  
لانتفت الحاجة إلى إحداهما .

وأما من حيث المعنى ، فإن ( الآل ) بمعنى الرجوع ، وآل الرجل : ما  
انحدر من صلبه ؛ لأنه يرجع في أصله إليه .

والإلّ ليست كذلك ، وإن كانتا تدل على صلة القرابة . غير أن القرابة  
درجات ، ومعنى درجات أنها معانٍ غير متطابقة ، وعلى هذا الأساس قامت  
أنصبة الموارِيث ؛ إذ لو كانت كل القربات بدرجة واحدة لاستوى الجميع فيها  
وتساوت أنصبة الوارثين ، ولَمَا أنزل الله آياتِ الموارِيث في الذكر الحكيم .

ولذا فاختلاف درجات القربى من الصلب ، أو الرحم أدّى إلى اختلاف  
المعنى ، وإن اشتملت إحداهما على صفة ، أو أكثر من صفات الأخرى .

« والإلّ قُربى الرَّحِم . قال :

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ فِي قُورَيْشٍ كِلَالُ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ » (1)

واضح من البيت الشعري : أنه يريد القرابة ؛ إذ إن السقب هو ابن الناقة  
الذكر أول ولادته ، والرأل فرخ النعام ، فهذا من الأنعام وذاك من الطيور

(1) كتاب العين ، ج 8 ، ص 361 .

ولا قرابة بينهما ، فإن كانت قرابة بين السقب ، والرأل ، فهي مثل قرابة المخاطب بالبيت الشعري من قريش .

وجاء في مجاز القرآن : « الإلُّ : العهد ، والعقد ، واليمين » (1) . وكذلك : « الإلُّ : القرابة ، والذمة ، والعهد » (2) . ومعظم ما جاء في معنى الإلُّ لم يقتصر على معنى واحد ، وإنما يجمع بين معنيين ، أو أكثر ، وعليه لا يمكن الأخذ بأيٍّ منها لاختلافها ، وتعددتها ، إلا أن أوضح معنى منفرد لها - والذي نرجحه - ما جاء عند الأصفهاني : « الإلُّ : كل حالة ظاهرة من عهد حلف ، وقرابة تثلُّ تلمع فلا يمكن إنكاره » (3) . وعليه فالإلُّ صفة معنى معروف مسبقاً للمخاطب ، وصلة لموضوع ، وهو على ذلك لفظ يضاف إليه أربع كلمات ، وهي :

1 - إلُّ عهد .

2 - إلُّ عقد .

3 - إلُّ حلف .

4 - إلُّ قرابة .

5 - إلُّ صلة .

**ولذا فإننا نرى : أن الإلُّ هو الشيء ظهوره ، وبيانه ، وعليه يكون المعنى : بينك وبين فلان إلُّ أنا أعرفه ، سواء أكان عهداً ، أو عقداً ، أو حلفاً ، أو قرابة ، فهو يلمع لي ، وهو ظاهرٌ لي .**

**وعليه : فالإلُّ هي صلة معينة تربط بين شيئين في موضوع ما يخرج عن خصوصية الآل ، وعن خصوصية الأهل ، وعندما تعطي معنى صلة علاقة الدم**

(1) مجاز القرآن ، ج 1 ، ص 45 .

(2) معاني القرآن ، ج 3 ، ص 186 .

(3) غريب القرآن ، ج 1 ، ص 20 .

تكون في الدرجة الثالثة ؛ لأنها قرابة على العموم ، وليس على الخصوص ؛  
لأن درجات القرابة هي :

1 - الآل : قرابة خصوص الخصوص .

2 - الأهل : قرابة الخصوص .

3 - الإل : قرابة العموم من إحدى معانيها .

ولذا فلا تطابق بين الإل ، والآل لا من حيث المبنى اللغوي ، ولا من  
حيث المعنى الدلالي .





## النبي الأمي

**الأمي** : هو الذي لا يعرف ، ولا يعلم بما لم يُعَلِّمْ ، أو يُعَلِّمْ به ، والنبي الأمي هو محمد الذي لم يعلم بأمر الرسالة التي كُلفَ بها قبل نزولها عليه . والذي لا يعلم بالشيء لا يقول شيئاً ، ولذا فالذي يَعْلَمُ يُعَلِّمُ بما أُعْلِمَ به ، ويُعَلِّمُهُ لمن هم لا يعرفون عنه شيئاً .

**الأمي** : « المنسوب إلى ما عليه جَبَلَتَهُ أُمُّهُ ؛ أي لا يَكْتُبُ ، فهو في أنه لا يَكْتُبُ أُمِّي ؛ لأن الكتابة هي مُكْتَسَبَةٌ ، فكأنه نُسِبَ إلى ما يُولد عليه ؛ أي : على ما وَلَدَتْهُ أُمُّهُ عليه » (1) .

وفقاً للتعريف السابق تظهر علاقة قوية بين ( الأمي ، والأمة ، والأم ) فكما أن الأم أصل الحمل ، والرضاعة ، والعناية ، كذلك الأمة هي أصل لكل هوية ، ونسب ، والأمي هو المنسوب إلى الأم ، وهي الأصل ، والمنسوب إلى الأمة ، وهي أيضاً الأصل . ولذلك فالنبي الأمي هو الأصل الذي يجب العودة إليه فيما يقول ، ويفعل .

**والأمي** : هو الصافي الذي لا تشوبه شائبة من أثر قراءة ، أو كتابة مسوقة لخدمة غرض من الأغراض الدينية ، أو الدنيوية ، وهو من لا تلتصق به التُّهم فيما لا يعلم ؛ وإن نعت بها .

**الأمية** : حالة غير دائمة ، وهي قابلة للإزالة من الجميع في دائرة

(1) لسان العرب ، ج 12 ، ص 22 .

النسبية ، ودائرة الممكن المتوقع ، وغير المتوقع ، فمن يكن أمياً يصبح في دائرة الممكن عالماً ، فلا استغراب في هذا الأمر ، ولهذا بالعلم تستنير العقول ، وتطمئن الأنفس ، والقلوب .

ولأن الأمية في دائرة النسبية ؛ فهي غير مطلقة ، فما يكون به الإنسان عليمًا ، أو عالماً يكون به غيره جاهلاً ، والجهل بالشيء عدم معرفته ، وعدم المعرفة بالشيء أُمِّيَّةٌ ، والأمية البعد بالتمام عن معرفة الموضوع محور الاهتمام ، فلا يكون له علمٌ به .

وبما أن الأمية في دائرة النسبية إذًا الذي لا يعلم بالشيء المراد التحدث عنه يكون بالنسبة له أمياً ، وحتى المتعلمون هم بما يجهلون أميون ، فالذي لا يتكلم اللغة الفرنسية بالنسبة للمتحدثين بها هو أمي ، والذي لا يعرف لغة الحاسوب ، واستخداماته فهو بالنسبة لهذا الأمر أمي ، حتى وإن كان من المتحصّلين على الشهادات العالية ، والدقيقة ، أو كان عالماً في علوم الفقه ، والدين ، وهكذا في المقابل بالنسبة لمن يجيد اللغة الفرنسية ، أو أي لغة وهو لا يعلم ، أو لا يعرف شيئاً عن علوم الفقه ، والدين ، أو الأديان ، فهو لا يخرج عن دائرة الأمية النسبية ، ولذلك كل العلماء ، والمتعلمين هم في دائرة الأمية النسبية . والرسول الكريم ﷺ لا يخرج عن دائرة الأمية النسبية ، فهو بالنسبة لعلم القرآن قبل نزوله كان أمياً قراءً ، وكتابة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ (١) إنه قول الله جل جلاله لمحمد - صلوات الله وسلامه عليه - على لسان جبريل عليه السلام ، إنه الأمر الأول الصادر للنبي الأمي : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ولأن محمداً - عليه الصلاة والسلام - أمي ، فقال : ما أنا بقارئ ! فقال له : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ

(1) العلق ، 1-5 .



عَلَّقَ ﴿٢٦﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٢٧﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٢٨﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٢٩﴾ فقرأ ما قيل له ، فأصبح بما قرأ غير أمي .

**الأمية :** كما يقول البعض : هي « الغفلة ، والجهالة ، فالأمي منه ، وذلك هو قلة المعرفة » (1) ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يُظُنُّونَ ﴾ (2) ف : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ للتبعيض وهي عائدة على بعض ممن يجهلون ما جاء في الكتاب المبين ، ويقصد اليهود الذين هم أميون بالنسبة لمن عُلِّمَ ، أو تعلَّم الكتاب المبين ، أو آمن به . وهناك من يرى : أن الأميين هم العرب ، وغير العرب ممن لا يعلمون بالقرآن ، وأمر الرسالة الخاتمة للناس كافة ، فقال : « ويجوز أن تطلق الأمية على جميع أهل الأرض ؛ لأن بعثته ﷺ كان حين ذهب العلم من الناس » (3) .

وهناك من يقول : « ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ : أناس من يهود » (4) .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (5) العرب الأميون ، والذين آمنوا معهم هم المعنيون بقوله : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ ولأنه الرسول ؛ فهو صاحب الرسالة الخاتمة ، ولأنه النبي ؛ فهو الذي أنبأه الله ب : ﴿ النَّبِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ ﴿ (6) ، ولأنه الأمي ؛ فهو لم يكن له سابق علم بما أعلم به ، وكُلِّف .

(1) مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، ج 1 ، ص 42 .

(2) البقرة ، 78 .

(3) نظم الدرر للبقاعي ، ج 9 ، ص 6 .

(4) تفسير الطبري ، ج 2 ، ص 257 .

(5) الأعراف ، 157 .

(6) النبأ ، 2 - 3 .

أمّا قوله : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ ﴾ فهم أصحاب التّوراة ، والإنجيل ؛ الذين يعلمون بأن رسولا خاتماً ، وديناً للكافة سيكون على لسان الأميّ أحمد ، صلوات الله ، وسلامه عليه .

ولأن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لم يعد أمياً بعد الرسالة الخاتمة ؛ فقوله حقّ يستوجب الاتّباع ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ولأن هذا الأمر من الله أعطاه لمحمد هو الحقّ في سبيل إحقاق الحق ، فاتّباعه واجبٌ ، ومن يعصِ أمر محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بالمعروف يعصِ أمر ، الذي أصدر له الأمر وهو الله جل جلاله . ولذا لا يعتقد في أن الله تعالى يعطي أمره لمن يجهل أمره ( أمي ) ولهذا لا يعدّ محمدٌ أمياً وبين يديه أمر الله مكلفاً به .

ولأن محمداً لم يعد أمياً بأسباب امتلاكه المعرفة الواعية ، والكاملة بعد أن قرأ دون سابق قراءة ، فيجوز له حق النهي عن المنكر ، وتحليل الطيبات ، وتحريم الخبائث مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ ولذا عندما كان محمد أمياً ؛ لم يُعط له هذا الحق ، أو هذه الصلاحيات كما تسمّى لدى البعض تحت مظلة لغة العصر ، وإلا هل يُقبل أن يكون أمر التصرف بأمر الطاعة بيد من لا يعلم الأمر ، ومعجزاته ؟ وهل يقبل التحليل ، والتحريم ، والنهي ممّن لا يعلم بما يأمر ، أو ينهى ، أو يُحلّل ، أو يُحرّم ؟

بالطبع : لا !

ولهذا فمحمّد ﷺ بعد أن قرأ بأمرٍ من الله تعالى ؛ فهو القارئ ، وليس الأمي . ولهذا لم يعد حاله كما كان قبل الرسالة . وعليه الكلام ، أو الحديث على محمد قبل الرسالة كلام ، أو حديث عن أميّ ، والكلام ، أو الحديث عن محمد بعد الرسالة ﷺ حديثٌ ، أو كلام عن رسولٍ عالمٍ . ولذلك على المسلمين أن يفرقوا بين الحديثين ، والشخصيتين ( شخصية محمد الأميّ ، وشخصية محمد الرسول النبيّ العالم ) وإلا هل يُقبل أن يوصف النبي الكريم

بالأمي ، ويوصف الذين آمنوا ، وتعلموا على يديه بالعلماء ، والحكماء  
الأجلاء ؟ ! !

وكيف يُقبل أن يكون محمدٌ هو صاحب الرسالة الخاتمة للناس كافة ،  
وهو المرجعية للرسالة ، ونقبل أن يوصف بالأمي ؟ !

وكيف لا نكتشف التناقض في الأمرين :

**الأمر الأول :** أمر محمدٍ الأمي .

**الأمر الثاني :** أمر الذين تعلموا ممّا علمهم به ، فكانوا علماء ،  
وحكماء ؟

**وعليه :** هل يقبل أن يكون للرسالة مرجعية ؛ ورسولها أمي ؟

ولأن محمدًا رسول للناس كافة ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمِثُّوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (1) أي : أن محمدًا رسول الله ﷺ لم يكن رسولاً خاصاً بالعرب ، بل هو للكافة : ﴿ قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

إذاً كيف يُقبل أن يكون رسول الكافة أمياً ؛ والناس يعلمون ؟

أقول : رسول الكافة ليس بأمي ، بل هو بما أُعْلِمَ عَلم ، وبشّر ، وأنذر ،  
وحزّض وحلّل ، وحرّم ، وهو قبل الرسالة محمد الأمي ، وبعدها محمد  
رسول ، ونبيّ ، ولذا فالفرق كبير بين محمد الأمي الذي لا صلاة ، ولا تسليم

(1) الأعراف ، 158 .

(2) سبأ ، 28 .

عليه ، وبين محمد الرسول النبي الذي يصلي الله ، وملائكته عليه ، ومن بعده يصلي عليه ، ويسلم المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين .

**وعليه :** فالقول ب : ( الصلاة والسلام على سيدنا محمد ) هو إقرار بأنه لم يعد ذلك الأمي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ <sup>(1)</sup> قال : ﴿ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ أي الذي أصبح يعلم بالأمر بعد أن كان يجهله ، فكان خير رسول ، وخير نبي ، فله الحق بأن نصلي ، ونسلم عليه تسليماً ، وهكذا الملائكة تصلي ، وتسلم عليه ، وهكذا يكون حال المؤمنين من بعده الذين يقرّون بالحق ، ويتبعونه قولاً ، وفعلًا ، وسلوكًا . ولأننا من الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين ، وآمنوا به واحداً واحداً لا شريك له ، وبمحمد رسولا خاتماً ؛ فإننا نصلي ، ونسلم عليه مباركة وإقراراً بأن ما جاء به هو الحق من الحق المطلق جل جلاله ، ولذا فالصلاة والسلام على محمد هي اعتراف واع بأنه الرسول الذي اصطفاه الله للناس كافة بالرسالة الخاتمة ، ولأنه يعلم بأمر الرسالة أكثر من الذين آمنوا بها على يديه ، أو آمنوا بها من بعده ، لذا فالصلاة ، والسلام إعلان تسليم بالحق ، والرسول الحق المصطفى من الحق المطلق .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ <sup>(2)</sup> . الأميون في هذه الآية الكريمة لا تعني الذين لا يقرؤون ، ولا يكتبون ، بل تدل ، وتعني : أن الأمية هي في دائرة النسبية وليس في دائرة المطلق ، وإلا هل كان جميع العرب لا يقرؤون ، ولا يكتبون ، وكأنهم قوم جهالة بالمطلق ؟ ! هذا القول لا يستقيم إلا بعدم علمهم بالقرآن قبل نزوله على رسولهم الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا مع أنهم حق أميين إلا أن البعض منهم

(1) الأحزاب ، 56 .

(2) الجمعة ، 2 .

يقرؤون ، ويكتبون ، ولذا فهم بالنسبة للدين الجديد ( القرآن ) فهم جميعهم أميون ، وأن أول من أُعْلِمَ هو رسولهم النبي محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، الذي كان أمياً قبل نزول القرآن ، ولأنه أول من أُعْلِمَ ؛ كان مكلفاً بتلاوة القرآن عليهم ، وبتزكيتهم ، وبتعليمهم الكتاب ، والحكمة باعتبارهم كانوا أميين بما أنزل .

**وعليه :** فالرسول الكريم ﷺ كما جاء في الآيات السابقة يتلو القرآن ، ولأنه كذلك ؛ فكيف يحق لنا أن نصفه أمياً ؟ أي : هل يحق لنا أن نصف من يتلو القرآن بأنه أمي ؟ وأيضاً : كيف نصف من يزكي ، ويُعَلِّم المسلمين ، والمؤمنين الكتاب ، والحكمة بأنه أمي ؟ أي كيف نقبل بأن يوصف المعلم بالأمي ، ويوصف المتعلم منه بالعالم ؟

وفي هذه الآية الكريمة تتضح بعض المهام الرئيسة للرسول الكريم ، وهي :

1 - أن يتلو القرآن على الأميين ؛ ليعلموا بالحق ، ويتبعوه ، والقرآن الذي يتلوه عليهم لم يتعلمه بالقراءة ، والكتابة ، كما نحن نتعلم ، بل تعلمه وحياً موحى ، وبهذا فقد علمه أي : أُعْلِمَ به إعلاماً ، والإعلام بالشيء كالخبر به ، والفرق بين هذا ، وذاك هو : أن الإعلام بالشيء ، يكون أمره ( هو كما هو عليه ) ، والإخبار به للعلم بالشيء ، أو ما يتعلق به دون إلزام الأخذ به ، والعلم بالشيء : الإلمام به دون غفلة عن شيء منه ، ولهذا قد علمه شديد القوى ما لم يكن يعلم .

وعليه فالإعلام بالقرآن لا يتم إلا مع من يجهره ، ومن يجهره ( أمي ) وتعليم القرآن يتم مع راغب أو أمي ، ولهذا كان محمد قبل نزول القرآن أمياً به ، أي : لا يعلمه ، ولا يعلم عنه شيئاً بخلاف سيدنا عيسى ، والذين آمنوا برسالاته فهم يعلمون : أن رسولاً سيصطفيه الله برسالاته اسمه أحمد مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ

النَّورِيَّةَ وَمُبَشِّرًا رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ولأن محمداً - عليه الصلاة والسلام - كان أمياً بالرسالات السابقة للرسالة الخاتمة ؛ فهو لم يعلم بالرسالة الآتية التي يعلم بها موسى ، وأتباعه قبل إعلانه ، وعلمه بالقرآن مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ ﴿٢﴾ . إنه القول الحق فلو كان يعلم بالأمر مسبقاً ؛ ما كان أمياً بأمر الرسالة ، وهو أيضاً لم يكن يعرف الكتابة التي تخط بأيدي الكتاب ، ولذا فلو كان قارئاً ؛ لكان كاتباً لما يقرأ ، ولكان في دائرة الموصوفين بالتعلم بدلاً من دائرة الموصوفين بالأمية .

2 - أن يزكيهم ، وتزكيتهم باتباع الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتجنب ما نهى الله عنه ، واتباع ما أمر باتباعه ، والأخذ به ، وتحليل ما أحله الله لهم ، وقول الحق ، وفعل الحق ، والإصلاح في الأرض ، وعدم الإفساد فيها ، أو سفك الدماء بغير حق ، فمن يتبع ذلك يعدُّ زكياً ؛ حيث لا ذنب عليه في شيء ، ولذا فالمزكؤون هم المطهرون .

3 - أن يعلمهم الكتاب ، والحكمة ، وهذه خطوة مترتبة على الخطوة الأولى ( العلم بالقرآن ) والعلم بالقرآن يعني : عدم الجهل به ، ولذا فالعالم به هو من لا يجهله .

فكلمة ( يُعَلِّمُهُم ) تدل على أنه متعلم بعلم الكتاب ، وعلوم الحكمة ، أي : أنه بالعلم كان سابقاً على الأميين في تعلمه ، وإلا ماذا سيعلمهم لو لم يكن متعلماً ؟ ! وبما أنه المتعلم بما علمه الله به لذا لا يحق أن يوصف بالأمي مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا

(1) الصف ، 6 .

(2) العنكبوت ، 48 .

يُظُنُّونَ ﴿ (1) . ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ جاءت للتبويض ، وذلك لإظهار الجزء من الكل ، وهذا يدل على أن البعض الآخر غير أمي ، فالذين يعلمون بالكتب ، والرسول ، ورسالاتهم هم غير أميين ، والذين لا يعلمون شيئاً من هذا هم الأميون ، ولذلك فبعض من اليهود ، وبعض من النصارى ، وبعض من العرب أميون لا يعلمون الكتاب .

ولذلك « الأُمَّة الَّتِي بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا فِيهِمْ مَنْ يَفْرَأُ وَيَكْتُبُ كَثِيرًا كَمَا كَانَ فِي أَصْحَابِهِ ، وَفِيهِمْ مَنْ يَحْسُبُ ، وَقَدْ بُعِثَ ﷺ : بِالْفَرَائِضِ الَّتِي فِيهَا مِنَ الْحِسَابِ مَا فِيهَا ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ عَامِلُهُ عَلَى الصَّدَقَةِ ابْنِ اللَّتْبِيَةِ حَاسِبَهُ . وَكَانَ لَهُ كُتَابٌ عِدَّةٌ - كَأَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، وَعُثْمَانُ ، وَعَلِيٌّ ، وَزَيْدٌ ، وَمُعَاوِيَةُ - يَكْتُبُونَ الْوَحْيَ ، وَيَكْتُبُونَ الْعُهُودَ ، وَيَكْتُبُونَ كُتُبَهُ إِلَى النَّاسِ إِلَى مَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَرُؤُوسِ الطَّوَائِفِ ، وَإِلَى عُمَّالِهِ ، وَوُلاَتِهِ ، وَسُعَاتِهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ » (2) . وعليه كان الرسول محمد - عليه الصلاة والسلام - أمياً قبل نزول الرسالة عليه ؛ أي : أنه أمي قبل الرسالة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْلَوْنَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطُلُونَ ﴾ (3) أما بعد نزول الرسالة عليه ؛ فهو ليس بأمي ، وذلك لأنه أول من قرأ القرآن ، وأول من أعلم به الناس ، وأول من علمه لهم ، وأول من صلى بهم قارئاً ، قال تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (4) .

ولأن البعض أمي قال تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا

(1) البقرة ، 98 .

(2) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٦ ، ص 71 .

(3) العنكبوت ، 48 .

(4) البقرة ، 151 .

لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ولأنه قرآن كريم نزل ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ويدمغه ؛ حتى يزهد ، لهذا قال : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ أي : بعض من أهل الكتاب ، وليس كلهم ، فلا تعميم حيث البعض يؤمن جانبه ، والبعض لا يؤمن جانبه ، ومن لا يؤمن جانبه إذا دابته بدين لا يرده إليك ، فهؤلاء هم مثل الذين يأكلون الربا مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ (2) ، ومثل الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (3) .

### الأمية في دائرة النسبية :

هناك من يرى الأمية بمنظور عدم معرفة القراءة ، والكتابة ، ونحن نقول ونحن في القرن الواحد والعشرين : الأمية لا تخرج عن دائرة النسبية ، ولهذا أتساءل :

### بلغة من تكون القراءة والكتابة ؟

أقول : الذي يقرأ ، ويكتب بلغة العرب ، ولا يعرف القراءة ، والكتابة بلغة الأعاجم ألا يعد أمياً بأسباب عدم معرفته لتلك اللغة ؟ وحتى وإن عرف المتعلم مجموعة من اللغات ألا يعد جاهلاً ، وأمياً باللغات الأخرى التي لم يتعلمها ؟ لذا يُعدُّ تعريف الأمية قاصراً بقصوره على كون المتعلم هو الذي يقرأ ، ويكتب ، وكذلك حتى وإن تعلم جميع لغات العالم ، ولهجاته ، ولم يتدبر ، ويؤمن بما تعلم ألا يعد أمياً بجهله الذي لم يُمكنه من بلوغ التدبر ، والإيمان ؟

(1) آل عمران ، 75 .

(2) البقرة ، 275 .

(3) النساء ، 10 .



وأقول أيضاً : حتى من بين الذين آمنوا فإنَّ بعضاً منهم لا زالوا في دائرة الأمية النسبية ، فالذي آمن ، وأسلم ، ولم يتدبر القرآن التزاماً ، وطاعة للأمر ألا يكون من ضمن الذين هم لا يزالون في دائرة الأمية النسبية ؟ قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (1) جاء في هذه الآية الكريمة استغرابٌ بقوله : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ أي : لو تدبروه ؛ لعلموا الحق ، ولأنهم لم يتدبروه ؛ فهم يجهلون ( أميون ) أي : هم بالنسبة للذين يتدبرونه أميون . وقوله : ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ القلوب التي عليها أقفالها هي القلوب التي لم تتدبر القرآن ، ولأنها كذلك ؛ فهي لم تُفتح بما يجب أن تتعلمه ، وتتدبره ، فالتدبر تدخل الحكمة إليها ، ولهذا القرآن الكريم لا يقتصر أمره على القراءة ، والكتابة ، بل يمتدُّ ليشمل التدبُّر ، ولذلك فالأمي هو الذي لا يعرف الأمر الذي يُسأل عنه ، وعليه كلُّ سؤالٍ موضوعيٍّ ، ومنطقيٍّ يُطرح ، ولا يجاب عليه يُعدُّ الجاهلون به ، أو الغافلون عنه أميين في دائرة النسبية .

وبالعودة إلى القول بأنَّ محمداً - عليه الصلاة والسلام - : « أنه ( أمي ) على معنى : أنه من الأميين - أي : من غير اليهود - فما هذا ممَّا يعيبه . بل إنه لشرف له : أنه من الأميين ؛ أي : أنه من غير اليهود » (2) . إنه رأيٌ قد يكون على دلالة من الصواب باعتبار : أن محمداً - عليه الصلاة والسلام - وبني قومه ليسوا من الذين جاء استثنائهم من الانتساب للأمة الأمية ، والرسول الأمي . فاليهود بوصفهم أصحاب ديانة ، ورسالة خاصة فقد لا يشار إليهم بالأميين ، فهم لم يكونوا من الذين لا يدينون بها ( الأميون ) ، أقول : نعم إن العرب ، والرسول الكريم هم أميون بالنسبة للرسالة قبل نزولها على الرسول الكريم ، وهم الذين أصبحوا غير أميين بعد تلقيهم الرسالة ، وتعلمهم الكتاب ، والحكمة ، وتدبرهم القرآن ، وإسلامهم لله رب العالمين .

(1) محمد ، 24 .

(2) موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ ، ج 6 ، ص 3 .

ويكون الأميون من بعدهم هم الذين كانوا غير أميين قبل نزول الرسالة الخاتمة للناس كافة ، فاليهود الذين آمنوا برسالة موسى عليه السلام هم غير أميين ، وهم من بعد رسالة عيسى عليه السلام أصبحوا أميين ؛ إن لم يؤمنوا بها ، وهكذا حال اليهود ، والنصارى ، فهم أميون إن لم يؤمنوا بمحمد ، ورسالته التي جاءت للناس كافة ، ولذا في دائرة الأمية النسبية من كان يشار إليه بالأمية ؛ أصبح عالمياً بأمور دينه ، ودينه حلالاً ، وحراماً ، ومن كان يشار إليه بغير ذلك ؛ أصبح أمياً في دائرة النسبية إن لم يؤمن برسالة محمد ، عليه الصلاة والسلام . وعليه لا أمية إلا في دائرة النسبية .

ولأن القرآن وحيٌ موحى ؛ فهو لم يكن معرفةً سابقةً لمن هم على قيد الحياة ، ولم يكن مسطّراً في ألواح ، أو كتب ، وذلك لخروجه عن دائرة الممكن التي تحصره بين متوقع ، وغير متوقع ، فالوحي لا يأتي إلا من آفاق المستحيل الذي لا يحوطه شيء ، ولذلك فكل السابقين على نزوله عليهم ، أو إليهم هم أميون ، وكل الذين آمنوا به بعد نزوله هم غير أميين . ولذا كانت « أروبة الأمية تزخر بالجهل ، والحرمان ، بينما كانت الأندلس تحمل إمامة العلم ، وراية الثقافة في العالم » (1) .

وفي دائرة الأمية النسبية قد يقول قائلٌ ، أو يتساءل : أين المسلمون في دائرة الأمية النسبية من التقدم العلمي ، والتقني الذي يشهده العالم المتقدم علمياً ، وتقنياً ؟

**أقول :** بالنسبة للرسالة الخاتمة من لم يؤمن بها هو أميٌّ في دائرة الأمية النسبية ، وفي المقابل من يؤمن بها ، ولا يأخذ بما بلغه العلم ، والتطور التقني سيكون في دائرة الأمية النسبية أمياً لا محالة .

**وقد يتساءل آخر :** ألا يكون الاتصاف بالأمية علامةً من علامات النقص الذي يلحق بالإنسان المخلوق في أحسن تقويم ؟

(1) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، ج 2 ، ص 173 .

في هذا الأمر يقول ابن تيمية : « الأُمِّيَّةُ صِفَةُ نَقْصٍ لَيْسَتْ صِفَةُ كَمَالٍ فَصَاحِبُهَا بِأَنْ يَكُونَ مَعْدُورًا أَوْ لَى مِنْ أَنْ يَكُونَ مَمْدُوحًا » (1) .

ونحن نقول وفقاً لقاعدة الاحتمالات : كلُّ شيء في الحياة الدنيا نسبيٌّ . ولا مطلق إلا من عند الله تعالى ، فما يمدحه البعض يذمه البعض الآخر ، وما يُقبل من البعض يُرفض من البعض الآخر ، ولذلك فالأُمِّيَّة لا يمكن أن تكون صفةً لكمال ، بل هي في دائرة النسبية ، ويجب التخلص منها ، ومقاطعتها إلى الأبد .

### الأمة الأُمِّيَّة ( لا تكتب ولا تحسب ) :

قال رسول الله ﷺ : « إنا أمةٌ أُمِّيَّة ، لا نكتب ، ولا نحسب » (2) . الأمة الأُمِّيَّة ، هي الأمة قبل الرسالة ، ولذلك فالأمة الأُمِّيَّة كانت شيعاً ، وأحزاباً ، وقبائل ، والفتن ، والعداء ، والفرقة واقعةٌ بينهم مع تعدُّد ما يعبدون مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (3) وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٤﴾ (3) . آيات تبين المقارنة بين عصر الأمة الأُمِّيَّة وعصر الأمة العالِمة . فالأمة الأُمِّيَّة لم تكتب تاريخاً ، ولم تصنع هويةً ، ولم تحسب حساباً لما كانت تقوم به ، ولم تحسب حساباً لعاقبة الأمور ، ولذا قال فيهم : ﴿ كُنْتُمْ أَعْدَاءً ﴾ ، وقال : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ ولهذا فهم الضالون الذين قال فيهم تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴾ (4) .

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج 6 ، ص 71 .

(2) تفسير الطبري ، ج 2 ، ص 257 .

(3) آل عمران ، 103-105 .

(4) البقرة ، 198 .

وقوله ﷺ : « إنا أمة أمية لا نكتب » إشارة إلى ما كانت عليه الأمة قبل الرسالة ، ولهذا جاء القرآن حريصاً على الأمة العالمة ، فأوجب الكتابة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئاً ﴾ (1) .

ولذا فالأمة العالمة هي التي تعلم ما يجب ، وتُقدِّم عليه ، وما لا يجب فتمتنع عنه ، أو تتجنبه ، أو تُغيِّره ، ولهذا قال فيهم : ﴿ فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ وقال : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ ولأنهم أمة عالمة ؛ فهم يحسبون لكلِّ حسابه ، فيدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولهذا فهم المفلحون مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (2) ، وعليه أتساءل : هل يمكن أن تثقل موازين الخيرات ؛ إن لم يحسب المؤمن ألف حساب لما يقول ، ويفعل ؟

وأيضاً قد يتساءل البعض : من المتهيين لأن يكونوا من المفلحين ؟

بطبيعة الحال هم الذين يحسبون ألف حساب لما يقولون ، ولما يفعلون ، أي : هم الذين يميزون بين ما يجب ، ويقدمون على قوله ، أو فعله ، وبين ما لا يجب ، ويتجنبون قوله ، أو فعله ، وهؤلاء هم الذين موازينهم بالخيرات ثقلت ، ولذا فهم المفلحون بأعمالهم ، وحساباتهم بعد أن علموا الحق الذي من قبله كانوا يجهلون .

وعليه فالأمة الأمية ( لا تحسب ) والأمة العالمة ( تحسب ) قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝

(1) البقرة ، 282 .

(2) المؤمنون ، 102 .

بِحُسْبَانٍ ﴿١﴾ . لمن عُلِّمَ القرآن ؟ عُلِّمَ للأُمَّةِ الأُمِّيَّةِ حتى أصبحت به عالمة ، وتعليم البيان جاء تبياناً ، ودليلاً على أَنَّ الأُمَّةَ التي كانت لا تحسب هي الآن على قمم الأمم التي تحسب ببيان واضح كوضوح الشمس ، والقمر أمام الناظرين ، والمبصرين ؛ الذين يميزون بين حركة الشمس ، وحركة القمر ، وكذلك يميزون بين اتجاهات حركة كلٍّ منهما ، وسرعتيها ، وتزامن كسوفيهما ، وخسوفيهما على الأرض ، وأثر ذلك على تنوع الفصول الأربعة ، وما يتميز به كل فصل عن الفصول الأخرى ، وهذا هو الحساب الذي اشتهر بمعرفته العرب بعد الإسلام ، وعَلِّمُوهُ بعد أن عَلِّمُوهُ ، ونشروه في بقاع المعمورة التي تولته بالبحث ، والتقصي ، والتطوير .

قال تعالى : ﴿ مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ (٢) ( الكتاب ) هو القرآن المُنزَّل على محمد ، وهو يعلم يقيناً : أنه لا يغادر صغيرة ، ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهذا لا يتأتى إلا بحساب دقيق ، لا يسمح بمغادرة صغيرة ، ولا كبيرة إلا عِلِمَ بها ، وحَسِبَ لها كم من حساب ، ولأن محمداً هو الرسول الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، فهو الذي يَعْلَمُ يقيناً كلَّ كبيرة وصغيرة جاء بها القرآن ، ولذا فهو بطبيعة الحال يعلم علم الحساب الذي يمكنه من المعرفة التامة التي ترشد إليها الآيات الكريمة .

وبالعودة إلى قول الرسول محمد ﷺ : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » أقول : إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يعود على الأمة الأمية ؛ أي : يعود على حالها قبل الرسالة ، وحالها قبل الرسالة حال من سكن في دائرة الأمية ، ومن سكن في تلك الدائرة لا عيب أن يقول كنت هناك ، ليقارن حاله ، وحال الذين تربطهم به علاقات تلك الدائرة المنغلقة عن الكتابة ، والحساب مع دائرة العلم ، والمعرفة الحقة ، وهذا هو يقين المؤمن وليس أدل عليه من حديث

(١) الرحمن ، ١- ٥ .

(٢) الكهف ، ٤٩ .

جعفر الصادق - رضي الله عنه - أمام النجاشي ملك الحبشة في الهجرة الأولى ، يقول : « أيها الملك ! كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ؛ حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا لتوحيد الله ، وألا نشرك به شيئاً ، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة ، والصيام . . . » (1) . ولذا : فدائرة منغلقة عن الكتابة ، والحساب ؛ هل يشك في أنها ليست بأمية ؟ ولذلك فالأمية تدل على الجهل بالأمر ، وعدم معرفته كما يجب ، مما يستدعي المقارنة بما تمت معرفته ، وتدبره ، ولهذا جاء قول الرسول : « إنا أمة أمية ، لا نكتب ، ولا نحسب » لأجل المقارنة التي تبرز بكل وضوح الفارق الكبير بين اتباع الباطل ، واتباع الحق ، ولذا مع أن الكتابة حق ، والحساب حق إلا أن الأمة الأمية كانت غافلة لا تلتفت إليهما ، ولهذا كانت الأمة في ظلمات ، ولهذا جاء الحق ؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِي عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّل لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) .

إن قوله : ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ تعود على الرسول الكريم ، والمعنى : ليخرجكم من الأمية التي جعلتكم على الكفر ، والضلال إلى العلم ، والإيمان ؛ لتعرفوا الكتابة ، والحساب ، ولتتقوا الله فيما تقولون ، وما تفعلون .

إذاً قول الرسول ﷺ : « إنا أمة أمية لا نكتب ، ولا نحسب » جاء لأجل

(1) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ج 1 ، ص 266 .

(2) الحديد ، 9 .

المقارنة ، ولمعرفة كيف كان حالهم ، وكيف أصبح ، ولذلك فهو قولٌ يستوجب الحمد ، والشكر من بعده على الفضل الذي منَّهم به الله جلَّ جلاله .

وكلمتا : ( لا نكتب ) و ( ولا نحسب ) تدلان على الغفلة المتعلقة بما يجري من معاملات بين الناس وبين ما سيأتي مترتباً عليها ، أي : لا يكتبون معاملاتهم لتكون شاهداً عليهم ، وشاهداً لهم ، وشاهداً بينهم ، ولا يحسبون للعاقبة حساباً ، فما لا يُكتب تترتب عليه خلافاً ، وصراعاتٌ ، واقتتالٌ ، وفتنٌ ، ولو كُتِبَ ؛ لنجوا منها . وبطبيعة الحال الذين لا يكتبون ، ولا يحسبون لا يخافون الله ، ومن لا يخاف الله أميٌّ في دائرة النسبية .

ولأنَّ أساس البقاء الحق هو الكتابة ، والحساب حُجَّة بين الناس ، وحُجَّة عليهم جعل الله مِنْ خلقه رُسُلًا كُتِبَ كراماً ، لا مهمة لهم إلا الكتابة ؛ لتكون شاهدة على الناس ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (1) والذي يُكتب ؛ يُحفظ إلى يوم الحساب . قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (2) ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (3) فَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كِتَابِهِ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ﴿١٦﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَةَ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كِتَابِهِ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَأَرْثُوتَ كِتَابِيَةَ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ ﴿٢٦﴾ يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةٌ ﴿٣٠﴾ (3) .

وبناءً على ما تقدّم قد يسأل سائلٌ : هل الذي يُكتب ، ويحسب ليس بأمي ؟

أقول مرةً أخرى : لا أمية إلا في دائرة النسبية ، فأمام العالم اليوم في حالة

(1) الزخرف ، 80 .

(2) غافر ، 17 .

(3) الحاقة ، 18-29 .

تنافس علمياً ، وتقنياً ، وكل شيء في منافساتها بحسبان ، وكلُّ حساب مكتوب في عمليات المنافسة الحرة ، ولو كانت الكتابة ، والحساب مُخرجين من دائرة الأمية ؛ لكانت معظم أمم العالم ، وشعوبه خارجين من دائرة الأمية ، ولكن وفقاً لقاعدة ( الأمية نسبية ) أقول : حسابات من لم يُسلم وجهه لله رب العالمين ، ولا يؤمن بالرسالة الخاتمة هي حسابات في دائرة الحياة الدنيا التي تمكنهم من الكسب : حلاله ، وحرامه ، وهؤلاء هم الأميون الغافلون عن الحساب ؛ الذي لو حسبوا له حساباً ؛ لجنّبهم عن حسابهم على الباطل يوم لا ينفع مال ، ولا بنون ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ (١) .

#### وعن قضية أخرى البعض يتساءل :

- هل ما يكتب بأيدي الناس يعدُّ شاهداً لهم ، وشاهداً على خروجهم من دائرة الأمية ؟

**أقول :** ليس بالضرورة ، فعندما يُكتب الحق ، ولا شيء غيره ؛ يعدُّ ما كُتِبَ شاهداً لمن كتبه ، وعندما يُكتب الباطل ، ولا شيء غيره ؛ فلا يعد المكتوب إلا شاهداً على من كتبه ، أي : شاهداً عليهم لا شاهد لهم ، قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢) . إذا : الذين لهم الويل ﴿ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ هم الأميون لا غيرهم ، أي : هم الذين لم يحسبوا لما سترتب على ما يكتبون بأيديهم ، وعلى ما يكسبون .

مع أننا كتبنا عن الأمة الأمية إلا أن البعض قد يعيد السؤال : من هي الأمة الأمية ، ومن هو الأمي ؟

(١) الشعراء ، 88-91 .

(٢) البقرة ، 79 .



## أقول على احتمالين :

**الأول :** إنّ الأمة الأمية هي الأمة التي لم تنزل عليها رسالة من الله تعالى ، وهذا الأمر ينطبق بالتمام على جميع الأمم قبل الرسالة الخاتمة للناس كافة وبما فيهم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالى : ﴿ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (3) .

**الثاني :** إنّ لا أمة أمية بعد الرسالة الخاتمة ، ولكن هناك أميون منهم من يقرأ ، ويكتب ، ومنهم ما دون ذلك لا يقرأ ، ولا يكتب . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (4) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَاقِي ﴾ (5) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (6) .

**وعليه :** فالأمة الأمية هي الأمة التي لم تُدرِك الحالة التي هي عليها من كفر ، وشرك ، وضلال ، وجهل بأمور الدارين ، وهي التي لم تأخذ بأسباب العلوم ، وتطوّراتها من أجل إصلاح الأرض ، وإعمارها حتى يتمكن كل فرد من أخذ نصيبه منها دون أن يطمع في نصيب الآخرين ، أو يُحرَم من نصيبه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ

(1) البقرة ، 134 .

(2) الأنعام ، 108 .

(3) يونس ، 47 .

(4) الأنبياء ، 107 .

(5) التكوين ، 27 - 28 .

(6) سبأ ، 28 .

الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١﴾ ومعنى قوله : ﴿ أُمَّةٌ وَسَطًا ﴾ أمة عدل ، تقول الحق ، وتعمل بأفعاله ، فلا تظلم أحداً ، ولا تنحاز إلا لإحقاق الحق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (٢) .

قوله : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم ﴾ جاءت : « إذا » أداة شرطية ، أي : إذا قبلوكم فتأخذكم الناس حكماً ؛ لتحكموا بينهم ؛ فلا تميلوا ، ولا تنحازوا ، واحكموا بينهم بالعدل ، ولهذا كان جواب شرطه قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ .

إذاً مَنْ هي الأمة التي يمكن أن تحكم بالعدل ؟

بالتأكيد لا أمة تحكم بالعدل غير الأمة الوسط ، ولهذا رسول الأمة الوسط هو الرسول الذي لا يميل ، ولا ينحاز إلا للحق ، وإحقاقه ، ولأنه كذلك كانت رسالته للكافة ، وكان رسولاً خاتماً .

ولأنه كذلك فمن يؤمن برسالته الخاتمة ليس له بدٌّ إلا أن يكون حكماً عادلاً ، وإذا كان كل من يؤمن برسالته لا شرط له في الحياة الدنيا إلا أن يكون عادلاً ؛ إذاً كل من يؤمن برسالته هو من الأمة الوسط التي تحقق الحق ، وتدمغ الباطل حتى يزهد . وإذا كان كل واحد من أبناء الأمة التي تدين برسالة الكافة حاكماً بالعدل بين الناس ؛ إذاً بطبيعة الحال لا بد أن يكون شاهداً على الذين حكم بينهم بالحق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ ، ولأن الرسول الكريم محمداً - عليه الصلاة والسلام - هو الذي نزل عليه دين الحق ، وبشّر به ، وأنذر ، فهو الشاهد على الشهداء من الناس الذين حكموا بينهم مصداقاً لقوله : ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ أي : يكون الرسول شهيداً على المبشّر ، والمبشّر .

(١) البقرة ، 134 .

(٢) النساء ، 58 .

وعليه قد يتساءل البعض :

هل الأمة الأمية هي أمة الوسط ؟

أقول : لا .

ومع ذلك قد يتساءل البعض الآخر : لم لا ؟

أقول : الأمة الأمية هي الأمة العربية قبل الرسالة .

أمّا أمة الوسط ؛ فهي ( أمة محمد عليه الصلاة والسلام ) دماً ، وانتماءً دينياً .

ولذلك فأمة الوسط هي ( أمة المركز ) التي لا تدور العجلة إلا بها ؛ أي : لا تصلح الأرض إلا بها ، ولذلك فأمة الوسط لا تُفَرِّق بين أحدٍ من رسله ، ولا تُكره أحداً على الدين ، وتُصلح الأرض ، ولا تُفسد فيها ، ولا تسفك دماً بغير حق ، ولأنها أمة المركز الوسط ؛ فهي حاملة الأطراف على إحقاق الحق ، ولهذا في الميزان العدل لا يكون الأمر بينها إلا شورى .

وبناءً على ما تقدم فإن سائلاً قد يسأل :

هل ما كُتب في هذه الصفحات عن الأمة الوسط ( الأمة المركز ) هو على قيد الحياة يُفعل ؟

**أقول نعم :** إنه على قيد الحياة ، ولكن يا ليتهُ يُفعل . والذي يُطمئن أصحاب القلوب هو اليقين بأن ما جاء به محمد هو الحق ، والحق طال الزمن ، أو قصر لابد أن يُحقّق ، والله دائماً مع الصابرين مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۖ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ۖ ﴾ (١) وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ .

(1) ق ، 39 - 42 .

## إذا من هو النبي الأمي ؟

الإجابة على أربعة احتمالات :

**الاحتمال الأول :** محمد قبل الرسالة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطُلُونَ ﴾ (1) .

**الاحتمال الثاني :** الرسول النبي محمد - عليه الصلاة والسلام - بعد الرسالة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَعَزُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (2) . أي : أن الله نزل على نبيه محمد آيات الذكر الحكيم التي بها أصبح محمدٌ دارياً ، وعالماً بالحق المطلق ، وفي هذه الحالة لم يعد ذلك الأمي كما هو حال بني قومه ، مما أوجب عليه التبشير بالآيات البينات في اللوح المحفوظ ، وهداية الناس من حوله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (3) . فقلوه : ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ للتأكيد على أنه لم يكن من بناء أفكار محمد ، ولأنه وحي من عند الله تعالى ؛ فهو على غير سابق معرفة به ، ولهذا كان محمد رسول الله ﷺ أمياً بالنسبة للوحي قبل أن يعلمه له شديد القوى ، وقوله : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ نزل بلغة العرب ؛ لما فيها من الوضوح ، والبلاغة ، والجمال في إظهار العبر ، والقصص ، والحكم التي تمدُّ العقل بالاستقراء ، والاستنباط المُمْكِن من التفكُّر ، والتدبُّر ، والتدبُّر .

وقوله ﴿ لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ لتبليغهم به ، وأم القرى ( مكة ) مكان قبله المسلمين الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ المحيط الذي جعل الله له الكعبة قبله ، ومركزاً يتجهون إليه ؛ وهم موحدون غير

(1) العنكبوت ، 48 .

(2) الحديد ، 9 .

(3) الشورى ، 7 .

مشركين ، ولذا جعل الله تعالى الكعبة مركزاً لما تحاط به من معمورة ، وقبلة لكافة سكان المعمورة ؛ أي : ( للناس على الأرض كافة ) .

وبما أن القرآن موحى لمحمد وحياً ، إذاً لا شك في أنه كان أمياً بالنسبة له ( بالنسبة للقرآن ) ، أي : لا يعلمه أبداً ، ولذا فمن بعد وحيه إليه لم يعد أمياً باعتباره أصبح يعلمه ، ومن يعلم الوحي ( القرآن ) لا يمكن أن يوصف بالأمي بل هو في دائرة النسبية يوصف بالعالم به .

ولأن محمداً قد أعلم بالرسالة ، وعلم بها ، فأصبح نبياً ، ورسولاً يهدي بها للتي هي أقوم ، ويجادل بالتي هي أحسن ، وينذر ، ويحرض ، ويبشر ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويسارع في أفعال الخيرات أمراً بإصلاح الأرض ، وعدم الإفساد فيها ، وعدم سفك الدماء بغير حق رسولاً يأمر بما أمر الله به ، وينهى عما نهى عنه ، فكونه يوصف بالأمي أمر لا يقبل ، ولا يقبل التصديق .

**الاحتمال الثالث :** الرسول الأمي : هو رسول الكافة ، عالميها ، وجاهليها ، ومسلميها ، وكافريها ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ <sup>(1)</sup> ، فقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ تعني : أرسلناك رسولاً لكل الأمم من مشارق الأرض ومغاربها ، ولهذا يكون هذا الاحتمال الثالث : أن الأمي هو من ينسب أممياً ، أي هو النبي الذي يوحد الأمم على كلمة سواء ، وهو الذي لا يغالب أمة على أمة لعرق ، أو لنسب ، بل هو العادل بين الناس ؛ ليحكم بينهم بالعدل فيما يختلفون فيه . ولذلك جاء وصف محمد رسولاً أمياً مثلما جاء وصف إبراهيم : أمة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ <sup>(2)</sup> أي : وكان إبراهيم أمة بأسرها ، وذلك لأنه

(1) سبأ ، 28 .

(2) النحل ، 120 .

يحسُّ بحالها ، ويفرح لفرحتها ، ويتألم لآلامها ، ولهذا وصف بالأمّة على سبيل الإطلاق لا على سبيل التخصيص ، « كان إمام هدى مطيعاً تتبّع سنّته ، ومِلّته » (1) ، وقوله : ﴿ أُمَّةٌ قَانِتًا ﴾ يعني : « الأمّة : الذي يعلم الخير ، والقانت : المطيع لله » (2) .

إذاً قوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ يعني : أن إبراهيم لم يكن للخصوص ، بل هو نبيّ أمّة بكاملها ، ولهذا مثلما كان محمد رسولاً للكافة كان من قبله إبراهيم رسولاً للكافة . وفي الأساس : أن جميع أمم الرسل هي أمّة واحدة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿ (3) .

**وعليه :** فالنبيّ الأمي هو نبي الأمّة في العموم ، وليس في الخصوص ، ولهذا بعث الله محمداً رسولاً ، ونبيّاً للناس ، ولم يخصّ به المسلمين ، وبعثه للجنّ مثلما بعثه للإنس ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (4) قال : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ ﴾ دون أيّ استثناء ؛ أي : أن المستهدفين بالكلم الفصل الذي يفصل بين الحق ، والباطل هم جميع العالمين . وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (5) ، فقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ تؤكد هذه الآية الكريمة على أن الرسول الأمي يقصد به رسول الناس جميعاً ، وليس من لا يقرأ ، ولا يكتب كما يظن البعض ، أو يفسرون ،

(1) تفسير الطبري ، ج 17 ، ص 318 .

(2) المصدر السابق ، ص 317 .

(3) المؤمنون ، 51 - 52 .

(4) الفرقان ، 1 .

(5) الأعراف ، 158 .

وأيضاً : فهو لم يكن لأمة خاصة ، بل هو رسول الأمة على العموم .

**الاحتمال الرابع :** الرسول الأمي هو مستهدف الأميين بالرسالة ، والأميئون هم الذين لا يعلمون الرسالة الخاتمة ، وهم على احتمالين :

**الأول :** الذين لم يسبق أن خُصُّوا برسالة من عند الله ، وهؤلاء هم الأميئون على المطلق عرباً ، وغير عرب .

**الثاني :** الذين خُصُّوا ، وسبق إبلاغهم برسالات أو أنباء من عند الله تعالى ، وهم اليهود ، والنصارى ، ومجموعة من الأمم ، والأقوام ، والشعوب السابقين ، ومع أن هؤلاء سبق إبلاغهم ، أو إنباؤهم إلا أنهم بالنسبة للرسالة الخاتمة هم أميئون ، لا يعرفونها أبداً .

ولذا فالنبي الأمي هو محمد قبل الرسالة الذي في ذلك الوقت لم يصل الله وملائكته عليه ، فهو كسائر الناس ، أمّا محمد بعد الرسالة ؛ فهو الذي صلى الله عليه ، وأمرنا أن نصلي عليه ، ونسلم ، فالحمد لله إننا من المصلين ، والمسلمين عليه ! ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ <sup>(1)</sup> . وعلينا أن نميّز بين قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ وبين قوله : ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، فالأولى : إنّ الله وملائكته يصلون على النبي ، ولا يُسلمون عليه ، والثانية : يُصلُّون عليه ويسلمون تسليماً ، ولأن الصلاة على النبي مباركة ، وهي تقدير له ؛ فالله ، وملائكته يباركون الرسول ، ويرضون عنه ، ولأن التسليم طاعة ؛ فالله يُطاع ، ولا يُطيع ، ولهذا الذين آمنوا يباركون الرسول ، ويطيعونه ، ويسلمون عليه تسليماً ، إيماناً ، وتسليماً بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ <sup>(2)</sup> ولأن أمر التسليم طاعة ، وإتباع للرسول ؛ قال

(1) الأحزاب ، 56 .

(2) النساء ، 59 .

الحواريون لعيسى ؛ وهم طائعون ، ومصدقون له كما جاء على لسانهم في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (1) .

### مفارقات لغوية في المفهوم والمصطلح :

بناء على ما سبق عرضه من معلومات بإمكاننا أن نفرق بوضوح لا لبس فيه بين الأمية ، والأمي ، والأممية ، والأُمِّي .

مع أن بعض اللغويين يقولون : إن الأمية هي دليل إثبات عدم القراءة والكتابة ، إلا أننا نقول لهذا الحكم من حيث المفهوم لا يصاحبه الإطلاق ، مما يدخله في دائرة النسبية التي تسمح لنا ، ولغيرنا بأن يطرح أفكاره ، وأراءه التي لها ما يسند لها من القرآن الكريم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ أَهْتَكُوا ﴾ (2) فالذين أوتوا الكتاب هم اليهود ، والنصارى وهم من نزلت فيهم التوراة ، والإنجيل ، وهؤلاء هم الذين يعلمون بأمر ما أنزل فيهم ، ومع أنهم يعلمون ما أنزل في كل منهما من توراة ، وإنجيل إلا أنهم ليسوا جميعاً يعرفون القراءة ، والكتابة ، ولذا فمنهم من لا يقرأ ، ولا يكتب ، ولذلك في مقابل الذين ﴿ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ جاء ﴿ وَالْأُمِّيَّةَ ﴾ ، ولذا فالذين أوتوا الكتاب يعلمون ما جاءهم فيه ، والذين لم يأتهم كتاب لا يعلمون شيئاً عما لم يأتهم ، ولهذا فهم أميون ، وسيظلون كذلك إلى أن يأتهم الكتاب ، ولأن أمر الأمية لا يقتصر كما يظن البعض على عدم معرفة القراءة ، والكتابة ؛ فإن العرب الذين وصفوا من قبل البعض بالأميين على الإطلاق هم في حقيقة الأمر أميون بالنسبة للتوراة ، والإنجيل ، ولكنهم ليسوا أميين بالمطلق ؛ حيث منهم من كان يقرأ ، ويكتب قبل نزول الرسالة الخاتمة ، « فنحن طبعاً نقرأ في كتب السيرة : أن النبي ﷺ قد استعان بعدد من كتّاب الوحي لتدوين القرآن الكريم فور نزوله ، أيضاً نقرأ : أن

(1) آل عمران ، 53 .

(2) آل عمران ، 20 .



عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد أسلم بعد أن قرأ جزءاً من سورة طه ، أيضاً نقرأ : أن مشركي مكة قبل الهجرة قد كتبوا صحيفة مقاطعة للمسلمين ، ووضعوها في الكعبة ، كذلك كان في أسرى معركة بدر من الكفار من أراد افتداء نفسه أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة ، و الكتابة ، وفي التاريخ نقرأ عن المعلقات السبعة ، وهي قصائد عُرف عنها : أنها كانت تُكتب على صحائف ، وتعلق في الأسواق ، والمتنديات العربية قبل الإسلام . . . وغير هذا مما يدل على أن العرب كان علم القراءة و الكتابة معروفاً لديهم » <sup>(1)</sup> . وتشير الكثير من أشعارهم في الجاهلية إلى هذه المعرفة ، فقد عرفوا أدوات الكتابة كالقلم ، ويشير إليه الشاعر الكاتب عدِيُّ بن زيد في قوله :

له عنقٌ مثل جذع السحو      ق والأذن مُضَعَّةٌ كالقلم

ثم العسيب الذي يمثل ورق الكتابة ، واليه يشير امرؤ القيس بقوله :

لَمَنْ طَلَّ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي      كَخَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيبٍ يَمَانِي  
ثم تجد وصفاً دقيقاً لعملية الكتابة لا تتأتى إلا لمن اطلع على عملية أدائها أمامه ، كما قال لبيد :

وَجَلَا السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا      زُبُرٌ تَجِدُ مَتَوْنَهَا أَقْلَامُهَا  
وقال حاتم :

أَتَعْرِفُ أَطْلَالاً وَنَوِيّاً مَهْدَماً      كَخَطِّكَ فِي رَقٍّ كِتَاباً مُتَمَنِّماً  
وقال الهذلي :

عَرَفْتُ الدِّيَارَ كَرُشَمِ الْكِتَابِ      بِ يَزُبْرِهِ الْكَاتِبُ الْحَمِيرِي  
وقال المرقش :

(1) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، ج 7 ، ص 3 .

الدار وحش والرسوم كما رقص في ظهر الأديم قلم  
وهم بعد ذلك لديهم كتبٌ يحفظون بها ما يعتقدون بأهميته كالعادات ،  
والمعارف ، كما يذكر بشر بن أبي خازم :

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرَّكُضِ الْمُعَارِ  
أَوْ كِتَابَةِ الْأَحْلَافِ كَمَا فِي قَوْلِ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ فِي شَأْنِ بَكْرِ ، وَتَغْلِبُ :  
وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قَدْ دَمَّ فِيهِ الْعَهْدُ وَالْكَفْلَاءُ  
حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدِّيِّ وَهَلْ يَنْدُ قُضَ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ  
وكذلك الدّين كما في قول علباء بن أريم :

أَخَذْتُ لَدَيْنِ مُطَمِّئِنٍ صَحِيفَةً وَحَالَفْتُ فِيهَا كُلَّ مَنْ جَارَ أَوْ ظَلَمَ  
فالعرب عرفوا القراءة ، والكتابة ، لكنهم أميون بالكتاب السماوي ،  
وهو قول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ  
وَالْأُمِّيِّينَ ﴾ : « أهل الكتاب : يعني : اليهود ، والنصارى ، و ( الأميين ) الذين  
لا كتاب لهم وهم مشركو العرب » <sup>(1)</sup> ولذا يكون الاتفاق مع ما قصد إليه الإمام  
القرطبي في تفسيره لهذه الآية وفقاً لما أوردناه تحليلاً ، وتفسيراً ، واقتباساً .

الأمية : هي لا معرفة بالشيء المشار إليه معرفة ، ولذلك تتساوى الأمية  
كونها شيئاً مع المعرفة كونها شيئاً آخر ، ولكن كلٌّ منهما يختلف عن الآخر ،  
فالأمية شيءٌ معروف ، ولا علم توحيد فيه ، والمعرفة شيءٌ معروف ، ولا أمية  
فيه ، ولذا فكل منهما حقيقة معلومة في دائرة الوجود إلا أنّ الأمية معلومة  
بانعدام العلم اليقين ، والمعرفة معلومة بالعلم اليقين ، ولذا فكلٌّ منهما حقيقة  
ماثلة أمام الآخرين ، وهؤلاء الآخرون هم الذين أمام كلٍّ منهم اعتقاد : أنه  
المستهدف من الآخر ، وذلك لعلم العالمين بأضرار الأمية على القيم ،

(1) المصدر السابق ، ص 3 .

والفضائل الإنسانية ؛ التي يرتضيها الخالق - جل جلاله - في دائرة الإيمان ، وعلم الأميين بأخطار رسالات العالمين على ما يفعلون في دائرة الأمية المتمركزة على الكفر ، والشرك لا الإيمان .

**وعليه :** فالأمي هو المنسوب إلى دائرة انعدام المعرفة الإيمانية ( معرفة التوحيد ) التي سبق الإعلام ، أو العلم بها ، والعالم هو العارف ، أو المُدرك قبل غيره بما تمّ الإبلاغ به من معرفة إيمانية ( معرفة التوحيد ) .

**وعليه أتساءل :**

هل العالم بعلم التوحيد هو كما العالم بعلم غيره ؟

**أقول :** العالم بمعرفة التوحيد غير العالم بمعرفة العلم الحديث في الطبّ ، والرياضيات ، والحاسوب ، وتقنية المعلومات ، وغيرها كثير ، فالعالم الأول يقابله الأمي ، والعالم الثاني يقابله الجاهل ، أي : أن الأول علمه في دائرة الكمال ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (1) وقوله : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (2) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (3) أمّا الثاني فعلمه في دائرة النقص ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (4) . ولذلك فما يعلمه العالم بعلم الكتاب لا يساويه ما يعلمه آخر ، وهو لا يعلم بعلم الكتاب ، قال تعالى : ﴿ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (5) ، وقال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَفِي إِلَى اللَّهِ

(1) الأنعام ، 38 .

(2) هود ، 6 .

(3) النمل ، 75 .

(4) الإسراء ، 85 .

(5) الأعراف ، 62 .

وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ وقال الذين أوتوا العلم وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ ، وعليه فعلم التوحيد تنزيلي من الخالق تعالى ، والعلم من غيره علم مخلوق ، ولذا لا مجال للمقارنة بين العلم الكامل ، والعلم المنقوص .

ومن المفارقات اللغوية في المفهوم ، والمصطلح أقول : هناك علاقة قوية أخرى تظهر بين مفهوم ومصطلح الأم ، والأمة ، والأمة .

أم : كلمة نكرة تدل على كل أم ، وهي الأصل الذي يحوي ما يُحمل ، ويُحجب عن الآخرين مشاهدة مباشرة ، وهو كذلك عنه يُحجب ما يتعلق بهم من أمر ، ولذا فهذا الحمل لا يعلم شيئاً ، وهو محاط بقوة حامله .

والأمة : هي المظلة التي يستظل تحتها من هم من صلبها ، أو من هم في حالة انتماء إليها ، ولذلك فكما أنَّ الأم مظلة ، وذات خصائص بحملها ، كذلك فالأمة مظلة اجتماعية تطبع أفرادها ، وجماعاتها بخصائصها .

ولأن اللغة جذوراً ، واشتقاقات ، واصطلاحات ، ومفاهيم ، فما يستخدم في زمن معين ، ومكان معين قد لا يستخدم كما هو في زمن ، أو مكان آخر ، وهو من مظاهر تطور دلالة اللفظة ، ولذا جاءت كلمة ( أمة ) على عدة أوجه ، ومعانٍ ، منها :

1 - جاءت على معنى ( الجماعة الصغيرة ) كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ (3) .

(1) يوسف ، 86 .

(2) الروم ، 55 - 56 .

(3) القصص ، 23 .

- 2 - جاءت على معنى ( فترة زمنية ) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ (1) .
- 3 - جاءت بمعنى ( المفرد ) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ (2) ولذلك ورد في تفسير الطبري للأمة ، هو : « الذي يُعَلِّمُ الناس الخير » (3) .
- 4 - جاءت على معنى ( القوم الذين هم على أصل ، وانتماء ) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (4) .
- 5 - جاءت على معنى ( دين وملة ) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ﴾ (5) .
- 6 - جاءت على معنى ( شمول الناس ) قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (6) .
- 7 - جاءت على معنى أمة ( لأي دابة ، وأي طير ) قال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ (7) .

(1) يوسف ، 45 .

(2) النحل ، 120 .

(3) تفسير الطبري ، ج 17 ، ص 316 .

(4) فاطر ، 24 .

(5) الزخرف ، 22 .

(6) البقرة ، 213 .

(7) الأنعام ، 38 .

8 - جاءت عليّ معنيّ ( أمم الجن والإنس ) قال تعالى : ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾ (1) .

9 - جاءت عليّ معنيّ ( عموم الخلق ) كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالى : ﴿ قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾ (3) الله خلق الناس أمة ، ثم كانت منهم الأمم ، وكان الجن أمة ، والطير أمة ، والنحل أمة ، والنمل أمة ، والجماعة الصغيرة أمة ، ولذلك وردت في الآيات السابقة كلمة ( أمة ، وأمم ) لتفصح مجال الاجتهاد في دائرة العلم ، والمنطق ، وإظهار الحق من الباطل .

### وبناء عليّ ما تقدم فمن هو الأمي ؟

**أقول :** في الحياة الدنيا كل شيء في دائرة النسبية ، فأمية الزمن تلتصق بمن ينسب إليها : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ ، وأمية الجماعة الصغيرة تلتصق بمن ينسب إليها ، وكذلك صفة الأمة العالمة تلتصق بمن ينتسب إليها ، وهكذا ينسب الأمي لأتمته التي هو منها سواء كان من الجن ، أو الإنس ، أو الطير ، أو النحل ، أو النمل ، فله في خلقه شؤون .

وعوداً عليّ بدء أقول : إنّ علاقة قوية تربط الأمي بالأمية ، والأممية ، ولهذا كان محمد - عليه الصلاة والسلام - أمياً عليّ حُجج سبع :

**الحُجّة الأولى :** أنه أمي من حيث إنه لم يكن من أهل الكتاب ، ولم يكن يعلم بأمر الرسالة الخاتمة قراءة ، وكتابة ، بل علّم بها وحيّاً يُوحى ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ وَهُوَ

(1) الأعراف ، 38 .

(2) الأعراف ، 181 .

(3) هود ، 48 .

بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿١١﴾ (1) .

**الحجة الثانية :** أنه أميٌّ من حيث نسبه للأمة التي لم يسبق لها أن اهتمت كما اهتمدى أهل الكتاب من قبلها ، وبقيت على حالة من الجاهلية التي لا تفرق فيها بين حلالٍ ، وحرام .

**الحجة الثالثة :** أنه أميٌّ لانتسابه إلى الكافة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (2) .

**الحجة الرابعة :** أنه أميٌّ ؛ لتجاوزه رسولاً ، ونبياً لأمم الإنس ، إنه المبعوث للثقلين ، وبذلك فهو النبي المتجاوز انتماءً لحدود الأمة الواحدة . ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢٩) قَالُوا يَتَّبِعُونَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَتَّبِعُونَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ (3) ، وقال تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٢) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٣٣﴾ (4) .

**الحجة الخامسة :** أنه النبي ( الأمة ) الذي يعود إلى آل إبراهيم ( الأمة ) ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (5) ، أي : كما أن إبراهيم أمةٌ ، وجعل الله النبوة في ذريته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ

(1) النجم ، 4-11 .

(2) سبأ ، 28 .

(3) الأحقاف ، 29-31 .

(4) الذاريات ، 55-56 .

(5) النحل ، 120 .

إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴿ (1) كَذَلِكَ كَانَ مُحَمَّدٌ ( أمة ) من حيث كونه نبياً للعالمين : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (2) ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (3) ، ولأن الله جعل النبوة في ذرية إبراهيم ؛ فإبراهيم هو أبو الأنبياء ، ومحمد هو خاتم ذريته ، وخاتم أنبياء الأمة التي كان عليها إبراهيم ، عليهم الصلاة والسلام ، وهو الذي به اكتملت رسالتها ، ولذا فهو أمة .

**الحُجَّة السادسة :** أنه الرسول النبي الأمي ؛ أي : الذي ( استهدف الأميين برسالته ، ودعوته ) ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (4) إنه المبعوث للأميين الذين ينتمي إليهم ، ويعني بالأمة الأمية : « الأمة التي ليس فيها كتاب يقرؤونه ، فبعث الله نبيه محمداً رحمة ، وهدياً يهديهم به . وسميت أمة محمد ﷺ الأميين ، لأنه لم ينزل عليهم كتاب ، وقال جل ثناؤه : ﴿ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ يعني من الأميين » (5) . ولهذا لا يعني : أنه غير مبعوث لغيرهم ، فهو بدون شك أمي ، ومن أمة أمية ؛ لكنه مبعوث لهم ، ولغيرهم من الأمم الأخرى بما فيهم أهل الكتاب ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (6) .

**الحُجَّة السابعة :** إنه أمي حيث ( لا أمة أمية من بعده ) ، فهو آخر

(1) العنكبوت ، 27 .

(2) الأنبياء ، 107 .

(3) سبأ ، 28 .

(4) الجمعة ، 2 .

(5) تفسير الطبري ، ج 23 ، ص 372 .

(6) المائدة ، 19 .



رسول ، ونبي من آخر أمة أمية ، ولهذا فقد اكتسب الصفة التي لن تتكرر على أمة بأسرها ، كما كان حال أمته ﷺ ، مع العلم أن صفة الأمية ستتكرر مع أفراد آخرين إذا ما أصروا على الكفر ، والشرك والضلال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (1) .

وقد يتساءل أحد :

كيف يكون محمد للكافة ، ورسالته للكافة ، وهو رسول من الأميين ؟

أقول : ثلاث حقائق :

**الحقيقة الأولى :** إنه رسول الكافة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (2) ، وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (3) .

**الحقيقة الثانية :** إن رسالته للكافة ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (4) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا فِي بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (5) ، وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (6) .

**الحقيقة الثالثة :** إنه من الأمة الأمية التي لم يسبق لها علم الكتاب ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْنَابٍ

(1) فاطر ، 24 .

(2) الأنبياء ، 107 .

(3) سبأ ، 28 .

(4) آل عمران ، 85 .

(5) آل عمران ، 19 .

(6) المائدة ، 3 .

﴿ الْمُبْطُلُونَ ﴾ <sup>(1)</sup> ولأن محمداً كان أمياً فهو لم يسبق له أن تلا كتاباً ، ولا خطه يمينه ، ولهذا فحاله في الأمية لا يختلف عن حال أمته التي هو منها : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ ، و﴿ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ تعني : أن حاله كحالهم لا فرق ؛ حيث كلٌ منهم أميٌّ بهذا المعنى ، ولهذا لا أحد منهم يتلو كتاباً من الكتب السابقة : ( التوراة والإنجيل ) ولا يخطه يمينه .

**وعليه :** فالأمية لا تقتصر على الذين لم يسبق لهم أن تلوا الكتاب ، وخطوه بأيديهم ، بل تحتوي حتى أولئك الذين تلوا ، وخطوا ، وذلك لأمتهم بآيات الكتاب الحكيم ؛ الذي يعلمون بأنه سينزل على نبيٍّ ليس منهم ، وأسمه أحمد ، أي : رسول من الأميين في الزمن الذي هم لا يعدون فيه من الأميين . قال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا ﴾ <sup>(2)</sup> يقول الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ : يا محمد ! قل لأهل الكتاب من المِلِّيِّين وكذلك المشركين : ( الأميين ) هل أسلمتم ؟ ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا ﴾ إلى الحق ، وأصبحوا من المؤمنين الذين يدينون بالرسالة الخاتمة للأمة الكافة ، وإن فعلوا ؛ فلن يكونوا من الأميين الذين هم غافلون ، وضالون ، ومشركون .

ولنا بعد هذه المحاوراة الفكرية أن نتساءل .

أمن المعقول : أن النبي ﷺ يوصف بالأمية التي هي نقيض العلم ؟ !

أمن المقبول أن توصف أمة النبي ﷺ بالأمية بمعنى الجاهلة ؟ !

وهذه التساؤلات تحيلنا إلى أن نبحت بحث المتعمق ؛ ليصل إلى جوهر الحق ، والمتعلق ببصيص النور ؛ ليصل إلى صفاء المعرفة ؛ التي لا يحيطها أدنى لبسٍ .

(1) العنكبوت ، 48 .

(2) آل عمران ، 20 .

## وبدايةً نتساءل :

ما المعاني التي تناولتها اللغة حول كلمة : الأمي ، والأمة ، والأم ، والأم ؟ لنستبين منها السبيل الأوضح لنصل إلى وجه الحقيقة الأبلج . ولنبدأ بمعاني الأمي :

1 - الأمي : الرجل الجامع لخصال الخير <sup>(1)</sup> ، فالأمي هنا لم تعن بأية حال من الأحوال صفة سلبية ، ولكنها تتطابق مع ما عرف عن أخلاق النبي ﷺ قبل البعثة ، وبعد البعثة ، فأخلاقه قبل البعثة يكفي ما عرف عنه ﷺ من صدق ، وأمانة ؛ حتى مع مَنْ حرص على قتله ، والنيل منه ، والترصّد له ، فهم حريصون على أذاه ، وفي الوقت الذي يأتمنونه على نفائسهم ؛ هو يريد هدايتهم ، وهم يريدون حبسه ، أو قتله ، أو نفيه ، وهو ﷺ يحرص على ردّ أماناتهم ، فيعرض ابن عمه عليّ بن أبي طالب لخطر النوم في فراشه برغم ما يترصده من خطر جم من المتربصين الحاقدين ، فأخلاقه ، ونقاء سريرته جعلته يحرص على ردّ الأمانات التي عنده . وهذا ما ترويه كتب السيرة مبيّنة للموقفين : موقف الجامع لخصال الخير ( الأمي ) وموقف الجامعين لخصال الشر أهل الربا ، والبطش ، والاستعباد ، والبيوت ذات الرايات الحمر ، فقد قال أبو جهل : أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلدًا نسيباً وسيطاً ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه بأجمعهم ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم .

وصدق الله إذ قال في وصف نبيه ﷺ : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ

(1) القاموس الفقهي ، ج 1 ، ص 25 .

رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١﴾ .

يا لها من أخلاق لا تكون إلا ( لأمي ) يجمع خصال الخير ، هو سيدنا محمد ﷺ ! هم الحريصون على الفتك به ، وهو الحريص على هدايتهم ، والأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة . يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم ، أي : من جنسهم ، وعلى لغتهم ، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ (2) ، فلم يقل للعرب : رسول جاهل لا يدري ، ولا يعلم ما يقول ، بل رسول منكم تعرفون فيه الصدق ، والأمانة ، وهما صفتان من الصفات الفضلى لهم كتجار ، ومن المعلوم : أن التاجر الناجح هو الذي يتصف بهاتين الصفتين . هذا بالإضافة لما عرف عنه ﷺ من تحلٍ بصفات ، وأخلاق إنسانية سامية ، منها ما روي عن وصف السيدة خديجة أم المؤمنين لأخلاقه ﷺ قبل البعثة ، وهو خلق نبياً ، لا خلق شخص عادي ، فقد قالت - رضي الله عنها - بعد نزول الوحي عليه ﷺ : « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروح ، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - لقد خشيت على نفسي ! فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ! إنك لتصل الرحم ، وتقري الضيف ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق » (3) .

فهذه صفات ( الأمي ) الجامع للخير لا الجاهل كما يدّعي البعض .

ومن صفته في سفر شعيا النبي في التوراة : « أوحى الله إلى شعيا : إني باعث نبياً أمياً أفتح به أذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وأعيناً عمياً ، مولده بمكة ، ومهاجره بطيبة ، وملكه بالشام ، عبدي المتوكل المصطفى المرفوع ، الحبيب

(1) التوبة ، 128-129 .

(2) البقرة ، 129 .

(3) سبل الهدى والرشاد ، ج 1 ، ص 101 .

المنتخب المختار ، لا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ، ويصفح ، ويغفر ، رحيماً بالمؤمنين ، يبكي للبهيمة المثقلة ، ويبكي لليتيم في حجر الأرملة ، ليس بفظاً ، ولا غليظاً ، ولا صخاباً في الأسواق ، ولا متزين بالفحش ، ولا قوال بالخنا ، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشي على القصب الرعراع ، يعني اليابس ، لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه مبشراً ، ونذيراً ، أسدده لكل جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، أجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة معقوله ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو ، والمغفرة ، والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدي به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأسمي به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغني به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين قلوب ، وأهواء متشتتة ، وأمم مختلفة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، أمراً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر ، وتوحيداً لي ، وإيماناً بي ، وإخلاصاً لي ، وتصديقاً بما جاءت به رسلي ، وهم رعاة الشمس ، طوبى لتلك القلوب ، والوجوه ، والأرواح التي أخلصت لي ، ألهمهم التسييح ، والتكبير ، والتحميد ، والتوحيد في مساجدهم ، ومجالسهم ، ومضاجعهم ، ومنقلبهم ، ومثواهم ، يصفون في صلاتهم » (1) .

ومن جميل قوله ﷺ - وقوله كله جميل - : « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ » (2) ، فالأمة لم تكن كل أخلاقها سيئة ، بل كانت المكارم موجودة وخصال أخلاقهم محمودة ، والدليل هو ﷺ فقد جمعت خصال الخير فيه ﷺ من نشأته ؛ حتى لقي ربه .

فنبئ هذه بعض أخلاقه ، يجمع الخير كله بين ثوبيه ، أينسب إلى الأمية التي حرفوا معناها ، فجعلوها مساوية للجهل ؟

(1) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 15 .

(2) موطأ مالك ، ج 5 ، ص 386 .

أم هي تتطابق مع ما جاء في المعنى الذي أورد « أن الرجل الأمي الجامع لخصال الخير ؟ !!! » .

2 - الأمي في كلام العرب : الذي لا يحسن الكتابة <sup>(1)</sup> .

3 - هو الذي لا يعرف الكتابة ، ولا القراءة <sup>(2)</sup> .

**وهنا نثبت :** أن النبي ﷺ لم يقرأ ، ولم يكتب بالمعنى الذي يجعله قارئاً وكاتباً ، كعليٍّ ، وأبي بكر ، وعمر ، ومعاوية ، وغيرهم ممن أتقنوا القراءة ، والكتابة ، وهذا عينه هو الدليل الأدمغ على صدقه فيما بلغ عن ربه ؛ لأنه ﷺ جاء لينذر أمة حاذقة في ضروب البلاغة ، والفصاحة ، والشعر ، والأدب ، وهو ﷺ لم يعهد عليه أن استشهد بشعر سليم ، أو رواه ، لذا كان صرف الله له عن إتقان القراءة ، والكتابة لأمرٍ منها :

أ - ليتحدى العرب فيما نبغوا فيه ، وتميزوا .

ب - ليتحدى أهل الكتب السماوية فيما جاء به من أنباء صحيحة صادقة ، وشرائع طمسوها ، وأخفوها ؛ ليشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً .

ج - ليثبت الله : أن هذا الكتاب الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو من عند الله .

وسنناقش بالتحليل كلاً من هذه الأمور الثلاثة :

أ - تحدي العرب فيما نبغوا فيه :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ يعني : الوليد ﴿ فَكَّرَ ﴾ في شأن النبي ﷺ والقرآن و﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أي : هيأ الكلام في نفسه ، والعرب تقول : قدرت الشيء : إذا هيأته ، وذلك : أنه لما نزل : ﴿ حَمِّمْ ﴾ ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾

(1) المصباح المنير ، 1 / 23 .

(2) القاموس الفقهي ، 51 .

أَلْعَلِمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ ، سمعه الوليد يقرأها ، فقال : وألله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإنَّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ، ولا يُعلو عليه ، وما يقول هذا بشر . فقالت قريش : صَبَأُ الوليد لتصبونَّ قريش كلُّها . وكان يقال للوليد ريحانة قريش ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه . فمضى إليه حزينا ، فقال له : مالي أراك حزينا ؟ فقال له : ومالي لا أحزن ، وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ، ويزعمون : أنك زينت كلام محمد ، وتدخل على ابن أبي كبشة ، وابن أبي قحافة ؛ لتنال من فضل طعامهما ؟ ! فغضب الوليد ، وتكبر ، وقال : أنا أحتاج إلى كسر محمد ، وصاحبه ، فأنتم تعرفون قدر مالي ! واللات ، والعزى ما بي حاجة إلى ذلك ! وإنما أنتم تزعمون : أن محمداً مجنون ؛ فهل رأيتموه قط يخنق ؟ قالوا : لا والله ! قال : وتزعمون : أنه شاعر ؛ فهل رأيتموه نطق بشعر قط ؟ قالوا : لا والله ! قال : فتزعمون : أنه كذاب ؛ فهل جربتم عليه كذباً قط ؟ قالوا : لا والله !

قال : فتزعمون : أنه كاهن ؛ فهل رأيتموه تكهن قط ، ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً ، وتخالجاً ، فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا : لا والله !  
وكان النبي ﷺ يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه .

فقالت قريش للوليد : فما هو ؟ ففكر في نفسه ، ثم نظر ، ثم عبس ، فقال : ما هو إلا ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل ، وأهله ، وولده ، ومواليه ؟ ! فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ ﴾ أي : في أمر محمد ، والقرآن ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ في نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما (2) .

فهذه شهادة من عدوٍّ تثبت كل صفة حسنة للنبي ﷺ وما زاد من رسوخها

(1) غافر ، 1-3 .

(2) تفسير القرطبي ، ج 19 ، ص 74 .

أنه ﷺ لا يقرأ ، ولا يكتب ، ولم يعهد عليه ذلك ، فيقال إنه نقله عن غيره ، وادعاه لنفسه ، ولكنه من البداية أعلن : أن هذا الكلام الخارق لعادة لغة العرب هو كلام ربِّ العالمين ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿الْم ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ (1) وقوله تعالى : ﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ (2) ، وقوله تعالى : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ (3) ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتُتْلَىٰ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِنَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ (4) .

فالمدقق في قوله تعالى ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ﴾ وهذا العمر الذي لبثه فيهم ، والذي بلغ أربعين عاماً لم يؤثر عنه في خلالها شعر ، ولا كهانة ، ولا بحث عن علم من العلوم ، ولا تردد على معلم ليتعلم منه ، ولا غير ذلك ، فلمّا بلغ الأربعين تحدّث بالعلم النافع ، والهدي القويم ، والخير العميم ، وتحول (الأمي) إلى معلم للعالم ، وليس معلم زمان واحد ، أو جيل واحد بل لكلّ زمان ، ومكان معلماً للعالم بأسرها ، بكل ألوانها ، وأجناسها .

فنفي القراءة ، والكتابة عين المعجزة التي أخرست ألسن العرب ،

(1) السجدة ، 1-3 .

(2) يس ، 1-6 .

(3) الزمر ، 1-2 .

(4) يونس ، 15-16 .



وحَيَّرَت ألبابهم ، والله در صاحب البردة إذ يقول :

كَمْ جَدَلْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ مِنْ جَدَلٍ فِيهِ وَكَمْ خَصَمَ الْبُرْهَانُ مِنْ خَصِمٍ  
كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجَزَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالنَّادِبِ فِي الْيُثْمِ<sup>(1)</sup>  
تحدي أهل الكتب السماوية :

لما ورد في صفة النبي ﷺ أنه لا يقرأ ولا يكتب هذا كان أقوى في ثبوت نبوته ؛ لأن أهل الكتاب كانوا يحرفون الكتاب المقدس ، ويخفونه ابتغاء مال مائل وعرض زائل ، وقد أخبر الله عنهم بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾<sup>(2)</sup> فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾<sup>(2)</sup> .

هنا نبطل الرأي القائل : أن الأمية تقتصر فقط على العرب ؛ لأن الله وصف اليهود بهذه الصفة ، فمن الممكن أن يكون الإنسان قارئاً ، وغير متخصص في علم الدين ، وهذا الأمر لا لبس فيه مشاهد بيننا الآن .

« فالمراد بقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ اليهود لأنه تعالى لما وصفهم بالعناد ، وأزال الطمع عن إيمانهم بين فرقهم ، فالفرقة الأولى هي الفرقة الضالة المضلّة ، وهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه . والفرقة الثانية : المنافقون ، والفرقة الثالثة : الذين يجادلون المنافقين ، والفرقة الرابعة : هم المذكورون في هذه الآية ، وهم العامة الأميون الذين لا معرفة عندهم بقراءة ، ولا كتابة ، وطريقتهم التقليد ، وقبول ما يقال لهم ، فبين الله تعالى أن الذين يمتنعون عن قبول الإيمان ليس سبب ذلك الامتناع واحداً ، بل لكل قسم منهم سبب آخر ، ومن تأمل ما ذكره الله تعالى في هذه الآية من شرح فرق اليهود وجد ذلك بعينه في فرق هذه الأمة ، فإن فيهم من يعاند الحق ، ويسعى في

(1) ديوان البوصيري ، ص 33 .

(2) البقرة ، 78-79 .

إضلال الآخرين ، وفيهم من يكون متوسطاً ، وفيهم من يكون عامياً محضاً مقلداً « (1) .

وبيّن الله تناقضهم من خلال قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (2) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿٣٠﴾ (2) .

ونبين التناقض الأكبر في قول مَنْ يدّعي الأمية بمعنى الجهل بالعلم ، أو الجهل بالله من خلال النصّ القرآني الذي هو الحجة الدامغة على خلطهم للأمور هم ومن سار على نهجهم ، فإن كان أمياً ؛ فهم قد أثبتوا لأنفسهم الكذب ، فكيف يقولون : إنه قد تعلم على يد معلم هم قد سمّوه ، وقالوا : إنه أحد القساوسة ، أو أحد الأخبار ، فإن كان أمياً ما تعلم من بشر ، فكيف يتعلم الإنسان كلّ هذه العلوم ؛ وهو لا يقرأ ، ولا يكتب ؟ !

وكيف يحتفظ بها مدة ثلاث وعشرين سنة ليُخرج منها ما يناسب للمواقف الحياتية الآتية والحادثة في مواقف مختلفة كالإفك ، والظهار ، وتخلف المتخلفين ؟

وإن كان قارئاً ، وكاتباً ؛ لعلم أهل مكة ذلك ، وغير أهل مكة ، وما قالوا عليه : إنه أمي .

المراد من هذه الآية : ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ حكاية شبهة أخرى من شبهات منكري نبوة محمد ﷺ ، وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن محمداً إنما يذكر هذه القصص وهذه الكلمات ؛ لأنه يستفيد منها من إنسان آخر ، ويتعلمها منه . واختلفوا في هذا البشر الذي نسب المشركون النبي ﷺ إلى التعلم منه ، قيل : هو عبد لبني عامر بن لؤي يقال له : يعيش ، وكان يقرأ

(1) تفسير الرازي ، ج 2 ، ص 170 .

(2) النحل ، 103-105 .

الكتب ، وقيل : عداس غلام عتبة بن ربيعة ، وقيل : عبد لبني الحضرمي صاحب كتب ، وكان اسمه : جبراً ، وكانت قريش تقول : عبد بني الحضرمي يُعَلِّم خديجة ، وخديجة تعلم محمداً . وقيل : كان بمكة نصراني أعجمي اللسان اسمه بلعام ، ويقال له : أبو ميسرة يتكلم بالرومية . وقيل : سلمان الفارسي . وبالجمل : فلا فائدة في تعدد هذه الأسماء ، والحاصل : أن القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ، ثم إنه يظهرها من نفسه ، ويزعم : أنه إنما عرفها بالوحي ، وهو كاذب فيه (حاشا لرسول الله ﷺ ! ) .

ثم إنه تعالى أجاب عنه بأن قال : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ومعنى الإلحاد في اللغة : الميل ، يقال : لحد ، وألحد : إذا مال عن القصد ، ومنه يقال للعادل عن الحق : ملحد . وأما قوله : ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ فقال أبو الفتح الموصلي : تركيب ( ع ج م ) وضع في كلام العرب للإبهام ، والإخفاء ، وضد البيان ، والإيضاح ، ومنه قولهم : رجل أعجم ، وامرأة عجماء : إذا كانا لا يفصحان ، وعجم الذنب سمي بذلك لاستتاره ، واختفائه ، والعجماء : البهيمة ؛ لأنها لا توضح ما في نفسها ، وسموا صلاتي الظهر ، والعصر عجموين ؛ لأن القراءة حاصلة فيهما بالسر لا بالجهر ، فهذا هو الأصل في هذه الكلمة ، ثم إن العرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ، ولا يتكلم بلسانهم أعجم ، وأعجمياً . قال الفراء ، وأحمد بن يحيى : الأعجم الذي في لسانه عجمة ؛ وإن كان من العرب ، والأعجمي ، والعجمي الذي أصله من العجم . قال أبو علي الفارسي : الأعجم الذي لا يفصح ، سواء كان من العرب ، أو من العجم (1) .

فهل كان النبي أعجمياً وهو أفصح العرب ؟ !

وأمية النبي ﷺ التي تعني عدم القراءة والكتابة التي نتوافق مع مدلولها في هذا السياق تأخذنا إلى أن نحتج بحجة القرآن ؛ إذ لو أن القرآن من عند

(1) تفسير الرازي ، ج 9 ، ص 467 .

غير الله ؛ لكان فيه اختلافٌ كبير ، ومع هذا فقد تحدّى الله الخلق بأن يتدبروا القرآن ، ويخرجوا منه تناقضاً واحداً ، فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ <sup>(1)</sup> وذلك لما حكى عن المنافقين أنواع مكرهم وكيدهم ، وكان كل ذلك لأجل : أنهم ما كانوا يعتقدون كونه محققاً في ادعاء الرسالة صادقاً فيه ، بل كانوا يعتقدون : أنه مفتر متخرّص ، فلا جرم أمرهم الله تعالى بأن ينظروا ، ويتفكروا في الدلائل الدالة على نبوته . فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ فاحتجّ تعالى بالقرآن على نبوته ، وظاهر الآية يدلُّ على أنه تعالى احتج بالقرآن على نبوة محمد ﷺ .

**فالأمية :** ليس فيها أي معنى سلبي ينال من الرسول الكريم ﷺ ، ولكنها دليل صدق على أخلاقه العظيمة الجامعة لخصال الخير ، ودليلٌ زاهقٌ لباطل ما يفتريه المفترون .

**بقي أن نقول :** إن هناك معاني آخر للأمية ، فلماذا لا يكون الأمي من النسب إلى الأم بمعنى الأصل ؟

ولماذا لا يكون النسب إلى الأم بمعنى : أم القرى « مكة ؟ » أي : المكي ؟ ؟ ؟

وهذا الذي ننظر له من التطبيق الفعلي فيما جاء في كتب التفسير في قول الله تعالى : ﴿ وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ <sup>(١٥٦)</sup> الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ذَرَوْا عَنْهُمْ وَاتَّبَعُوا النَّوْرَ الَّذِي

(1) النساء ، 82 .

أُنزِلَ مَعَهُ أُؤْتِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١﴾ .

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ الذي نوحى إليه كتاباً مختصاً به النبي ؛ أي : صاحب المعجزة ، وقيل : عنوان الرسالة بالنسبة إليه تعالى ، وعنوان النبوة بالنسبة إلى الأمة ( الأمي ) بضم الهمزة نسبة إلى الأم ، كأنه باقٍ على حالته التي وُلد عليها من أمه ، أو إلى أمة العرب ، كما قال - عليه الصلاة والسلام - : « إنا أمة لا نحسب ، ولا نكتب » أو إلى أم القرى ، وقرئ بفتح الهمزة ؛ أي : الذي لم يمارس القراءة ، والكتابة وقد جمع مع ذلك علوم الأولين والآخرين » (2) .

وفي كتب المعاجم من المعاني التي تعضد حجتنا ومنها تفصيل لما سبق أن أجملناه ، « الأمُّ بالفتح القصد أمه يؤمُّه أمّا : إذا قصده » (3) ، فلو كان الأمي نسبة إلى الأم فيكون معناه المقصود ، وعليه فلا سبيل إلى اعتماد معنى الجهل ؛ لأن النبي ﷺ مقصد من يريد الهداية وهو ﷺ مخرج الناس من ظلمات الجهل بالله إلى نور المعرفة به . قال الله تعالى : ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥٧﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥٨﴾﴾ (4) ، والذي يخرج من الظلمات إلى النور هو النبي ﷺ والدليل القرآني على ذلك قوله تعالى : ﴿الرَّكَتَبُ

(1) الأعراف ، 156-158 .

(2) تفسير أبي السعود ، ج 3 ، ص 50 .

(3) لسان العرب ، ج 12 ، ص 22 .

(4) المائد ، 15-16 .

أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ .

« والإمة والأمة : الشرعة ، والدين ، وفي التنزيل العزيز ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ (2) » .

وجميع الدلالات هنا لا تحيل إلى معنى من معاني الجهل بل تحيل إلى معانٍ إيجابية في حالة لو نسبنا إليها .

- وهناك حديث يعتمد عليه من يدعي جهل الأمة جاء بألفاظ مختلفة وقد بتر من اعتمد عليه ذكر المناسبة التي قيل فيها ، وإذا ذكر سبب قوله ؛ بطلت حجة من يحتج به ، وسنضع الأمر جلياً ؛ ليكون الحكم للحقيقة التي ستظهر : أن الأمة ليست جاهلة ، بل هي مدعوة للبحث في علم الفلك لا الركون إلى علم ثابت لا يتماشى وحركة الكون . وهذا الحديث مجرد من سبب ، فعن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ ، وَلَا نَحْسُبُ ، الشَّهْرُ هَكَذَا ، وَهَكَذَا . يَعْنِي : مَرَّةٌ تِسْعَةٌ وَعِشْرِينَ ، وَمَرَّةٌ ثَلَاثِينَ » (3) .

ونؤكد هنا على معنى آخر لمن يدعي : أن أمة النبي ﷺ أمة جاهلة ، اعتماداً على حديث صحيح ، محرّف في التفسير ، ويبطل ذلك الانحراف : أن هذا الحديث لم يأت إلا على وجه خاص وفي حالة خاصّة ، وهي الصوم ؛ إذ إن الحديث ورد في الصوم فالأمة تصوم لرؤية الهلال ، وتفطر لرؤيته ، ولم تكتب الأمة ، ولم نكتب نحن متى سيكون رمضان ، ومتى ستكون نهايته ؟

ولو فعلنا ذلك ؛ لرفعنا عن الناس العناء في تحرّي الهلال ، ولكن لنظام الأرض ولعالمية الإسلام الذي لا يخلو جزء منها من مسلم فيكون الصوم لرؤية

(1) إبراهيم ، 1 .

(2) لسان العرب لابن منظور .

(3) صحيح البخاري ، ج 6 ، ص 487 .

الهلال ، والفطر هكذا ، وهذا المعول عليه إلى الآن ، وفي المستقبل ، وإلى أن يرث الله الأرض ، ومن عليها .

**والسؤال :** هل الأمة إن كانت جاهلة ألم تخرج من طور الجهل طيلة هذه المدة منذ بعث النبي ﷺ إلى الآن ؟

الجواب سيحتاج إلى مراجعة النفس ، والعقل ، والموروث ، كما أن المعنى السابق الذي أكدته كتب اللغة ، والتفسير في أن الأمة بمعنى الدين . قال الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (1) .

ف : ( كنتم ) تدل على الماضي ، وما تعلمناه : أنها للمستقبل كيف ؟ وإخبار عن حال الأمة بعد النبي ﷺ مع أن ( كنتم ) الناقصة للماضي !!!

إذا ظاهر الآية يشير إلى أن هذه الأمة كانت خير الأمم ديناً ، لأنها على دين الإسلام الخالص الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام ثم إسماعيل ، وأمه هاجر ، وذريته ومن عاش في مكة إلى أن ابتعد جلهم عن الصواب ، فعبدوا الأوثان ؛ ليقربوهم إلى الله زلفى ، فبعث الله فيهم الرسول ﷺ ليرد من ضلّ منهم إلى ما كانوا عليه .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ ( كنتم ) من ( كان ) الناقصة التي تدل على تحقق شيء بصفة في الزمان الماضي « (2) .

وفي قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ ﴾ ، قولان :

**أحدهما :** أنها على أصلها ، والمراد بها الماضي ، ثم فيه ثلاثة أقوال :

(1) آل عمران ، 110 .

(2) تفسير حقي ، ج 2 ، ص 262 .

**أحدها :** أن معناه : كنتم في اللوح المحفوظ .

**والثاني :** أن معناه : خُلِقْتُمْ ، ووُجِدْتُمْ . ذكرهما المفسرون .

**والثالث :** أن المعنى : كنتم مذ كنتم . ذكره ابن الأنباري (1) .

وهذا ما أكدته لغة العرب ومنه ما جاء في اللسان : « والأُمَّةُ : الطريقة ، والدين ، يقال : فلان لا أُمَّةَ له ؛ أي : لا دينَ له ، ولا نِحْلةَ له . قال الشاعر :

وَهَلْ يَسْتَوِي ذُو أُمَّةٍ وَكَفُورٌ ؟

وقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ قال الأخفش يريد أهل أُمَّةٍ ؛ أي : خير أهل دين .

وأنشد للنابعة :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبةً      وهل يَأْتَمَنُ ذُو أُمَّةٍ وهو طائعُ ؟

**والأُمَّةُ :** الدينُ . قال أبو إسحق في قوله تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أي كانوا على دين واحد . والأُمَّةُ القصد ، والأُمَّةُ العلم الذي يتبعه الجيش ، والإمام المِثالُ ، وأُمَّةُ القوم ، وأُمَّةُ بهم : تقدّمهم ، وسيدنا رسول الله ﷺ إمامُ أُمَّتِهِ ، وعليهم جميعاً الائتِمامُ بسُنَّتِهِ التي مضى عليها ، ورئيس القوم أُمَّتهم والقرآنُ إمامُ المُسلمين ، وسيدنا محمد رسول الله ﷺ إمامُ الأَئِمَّةِ ، والخليفة إمام الرِّعِيَّةِ ، وإمامُ الجُنْدِ قائدهم (2) .

والمعاني السابقة جميعها لو نسبنا إليها ما كانت هناك غضاضة ؛ لأنها صحيحة ، ولم تلحق الأذى بالشعور الجمعي لأمة رفع الله من قدرها ، وأراد

(1) زاد المسير ، ج 1 ، ص 396 .

(2) لسان العرب ، 22 / 12 .



المرجفون أن يضعوه . وقيل : الأُمَّةُ : الرجلُ « الجامع للخير » (1) .

### هنا يأتي السؤال :

هل أمة النبي ﷺ هي العرب فقط ؟

إن كانت الإجابة بـ : « نعم » ، فقد ظلم المجيب نفسه .

وإن كانت بـ : « لا » فقد أقام على نفسه الحجة .

والإجابتان لا تجعل من الأمة في مصاف الجهلة لأسباب :

- العرب كلهم لم يكونوا في جهل بدليل أن لهم من النقوش التي تملأ أرجاء الجزيرة حتى بلاد الشام من النقوش الصفوية ، وغيرها ، وهذا يرجع له في كتب علم اللغة العربية .

- وجود حضارات عربية ممتدة من الحيرة بالعراق ، فالغساسنة ، فبصرى ، فبلاد النبط في الشام .

ثم التجارة الرائجة التي تعتمد على القراءة ، والكتابة في واحات العرب ، مثل يثرب ، والطائف ، وخيبر ثم هبوطاً إلى بلاد اليمن السعيد وحضارته التي لا تنكر .

- وجود مكة كعاصمة دينية ، وتجارية ، وثقافية وهي حلقة الصلة بين شمال بلا العرب وجنوبها .

- وجود لفيف من كل هذه الأماكن ، وغيرها حول النبي ﷺ من الصحابة ، فبلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي ، ومعاذ بن جبل اليمني ، وأشرف مكة من أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وغيرهم ممن علم عنهم العلم ، والعقل الراجح .

- الأنصار المجاورون لليهود الذين جاؤوا ليرتجوا خروج النبي الخاتم

(1) لسان العرب ، ج 12 ، ص 22 .

الذي ما فتئوا يبشرون به حتى سبقهم إليه الأوس ، والخزرج أخوال جده شيبة الحمد ، وأمه السيدة آمنة الزهرية ، وهؤلاء الأنصار يمينو الأصل لديهم من العلم ، والدراية ما يخرجهم عن وصف الجهل .

- انتشار القراءة ، والكتابة في العرب وفي مكة على وجه الخصوص ؛ لأن فيها حجهم الأكبر ، وملتقاهم الأدبي واللغوي الأشهر في عكاظ ، وهو ما أكدته أشعارهم التي ذكرنا منها فيما سبق .

- معرفتهم للعهود ، والمواثيق من مثل حلف الفضول ، والوثيقة التي علقوها على باب الكعبة لمقاطعة المسلمين ، وحصارهم في الشعب .

والعرب كانوا على علم بالله ، وأنه المعبود بحق ، ذلك لوجود الأسماء الدالة على العبودية ، فعبد الله والد النبي ، عليه الصلاة والسلام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن جحش وغير ذلك من أسماء تدل على علم أهل مكة ، ومن جاورها بالله ، وبأنه المعبود بحق .

إذاً فلم تكن الأمة ، ولا النبي ﷺ في حال الأمية التي تعني الجهل ، وقد فندنا ذلك كله .

وبناء على ما تقدم نتساءل : هل الأمية في دائرة المطلق تنسب لأي قوم ، أم أنها لها مجال نسبي ، يمكن أن يستحوذ على مساحة ما من المعرفة ، ويترك مساحة أخرى ؟

فالأمية بالمطلق لا نستطيع أن نلحقها كصفة عامة على أمة من الأمم ، أو على شخص من الأشخاص ، فأمة العرب لها نصيب من الأمية بمعنى أن بعضها لا يقرأ ، ولا يكتب ، وبعضها يعلم من علم الدين ، وبعضها لا يعلم .

وهذا النصيب ( عدم القراءة والكتابة ) كان من حظ النبي ﷺ ، وهذا الحظ الذي لازم النبي هو عين معجزته التي أيده الله بها كما أسلفنا ، مع أن علمه يسع الثقلين ؛ لأنه تلقاه من لدن الحكيم الخبير ، وعنده علم الكتاب من لدن آدم إلى ما أنزله الله عليه ، والذي يدعي : أنه كان لا يعلم من هذا العلم

شيئاً اعتماداً على قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٥٦) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿ (1) ، نقول له مسافرين : نعم كان لا يدري ، ثم أصبح يدري ، فخرج من دائرة عدم الدراية إلى دائرة الدراية الكلية .

كما أن الأمية في دائرة النسبية هي التي يمكن أن تنسحب على جماعات كثيرة ، لا الأمية في دائرة المطلق ، وإلا ؛ فليخبرنا من يدعي العلم ، هل يوجد من يطلق عليه عالم بالمطلق ؟ أو هل يوجد أمة يمكن أن تطلق عليها عالمة بالمطلق ؟ !

ونعود لنلقي نظرة عقل ، وتأمل على لفظ الأمي بفك الإدغام ( أ م ي ) فإنها تعني النبي الأمي ؛ أي : العالمي الذي أرسل للأمم كافة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

وهل الناس إلا أمم ؟ !! ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (3) .

وقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (4) .

» فقوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ يقول : تبارك الذي نزل الفصل بين الحق ، والباطل ، فصلاً بعد فصل ، وسورة بعد سورة . ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾

(1) الشورى ، 52-53 .

(2) سبأ ، 28 .

(3) الأنبياء ، 107 .

(4) الفرقان ، 1 .

محمد ﷺ ، ليكون محمد لجميع الجن ، والإنس ، الذين بعثه الله إليهم داعياً إليهم ، ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعني : منذراً ينذرهم عقابه ، ويخوِّفهم عذابه ؛ إن لم يوحده ، ولم يخلصوا له العبادة ، ويخلعوا كلَّ ما دونه من الآلهة ، والأوثان . . . وقرأ ﴿قُلْ يَتَّيِّهُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وقال : لم يرسل الله رسولاً إلى الناس عامة إلا نوحاً ، بدأ به الخلق ، فكان رسول أهل الأرض كلهم ، ومحمد رسولاً للإنس والجن « (1) .

**وبعد هذا :** فعلى المتأمل في لفظة (الأمي) أن يدقق في معانيها العديدة ؛ ليرى : أنها أوسع من أن تكون بمضمون واحد فقط ، بل هي بمضامين عديدة ، ودلالاتها تتعلق بالسياق الذي ترد فيه ، وعليه : فلا مجال لجهل للنبي ﷺ ولا للأمة . والله ينفع من علم ، وعلم ، والحمد لله رب العالمين !



(1) تفسير الطبري ، ج 19 ، ص 233 .

## القديم

**القديم :** حال الموصوف بالقدم ، فهو قديم ، ولمناقشة صحة إطلاق اسم القديم على أنه اسم من الأسماء الحسنى ينبغي وضع محاور ، وتساؤلات ننطلق منها في ذلك ، وعلى النحو الآتي :

**المحور الأول :** المضمون اللغوي والاصطلاحي :

**أولاً : اللغة :**

يقول ابن منظور في اللسان : « والقَدَمُ : العِتْقُ مصدر القَدِيم . والقَدَمُ : نَقِيضُ الحُدُوثِ ، قَدَمٌ ، يَقْدُمُ ، قَدَمًا ، وَقَدَامَةً ، وَتَقَادَمَ ، وهو قَدِيمٌ ، والجمع : قُدَمَاءُ ، وَقُدَامَى » (1) .

- ويقال : « قدم العهد ؛ أي : طال ، وبلي ، وكل ما يقدم فهو قديم ، وقَدَمٌ » (2) .

- ويقال : « رجل دُهْرِيٌّ : قديم مُسِنَّ ، نسبةً إلى الدهر » (3) .

- ويقال : « قديمٌ بالٍ ، ويقول الرجل للرجل : هل بقي في بلادكم كلاً ؟ فيقول : لا إلا غفة من الأرض ، إما كان أخضر ؛ فكان قليلاً ، وإما كان يابساً ؛ فكان قديماً شديد البلى » (4) .

(1) لسان العرب ، ج 12 ، ص 465 .

(2) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 91 .

(3) لسان العرب ، ج 4 ، ص 292 .

(4) المخصص في اللغة لابن سيده ، ج 5 ، ص 342 .

وهكذا فإن معنى القديم ، ودلالته اللغوية تدل على نمطين من الدلالة :

**الأول :** مرتبط بالزمن بمعنى أن تقول : هذه الدار أقدم من هذه ، فتشير إلى زمن بنائها ، أو تقول : هذه دار قديمة ، فأنت تشير إلى استغراقها زمناً أطول من غيرها .

**والثاني :** مرتبط بالهيئة ( الحال ) ، فأنت تقول : هذا قميص قديم تعني : أنه بال مستهلك ، فهو قديم ، ولم نعرف في كل ما راجعنا من كتب المعاجم ما يخرج عن هذا المعنى .

وهاتان الدالتان لا يمكن بكل حال من الأحوال لمؤمن أن يجعلها ترتبط باسم ، أو بصفة لله عز وجل ؛ لأن الأول فيه ما يدل على زمن معين ، وإن لم يحدد ، وهذا مما لا تقبله عقيدة المؤمن ؛ لأن الله سبحانه خالق الزمن ، فهو مهيمن عليه ، ومحيط به ، وهو قبل الزمن ، وبعد الزمن ، فالزمن لا يحيط به ، بل هو يحيط بكل شيء ، جل في علاه ! ولنا أن نسأل سؤال المؤمن عن لحظة توقف الزمن ؛ حيث لا شمس ، ولا قمر نعدُّ من خلال حركتهما زمناً لنا ، بل هو زمن جديد كل مقاييسنا عاجزة عن إدراكه ، يقول الحق سبحانه : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (1) .

أما الدلالة الثانية ؛ فهي خارج حيز القبول من عقل كل مؤمن ، فلا يصح أن يقال عن الله سبحانه ما يشير إلى : أنه عتيق ( وفق الدلالة المعجمية للفظه قديم ) لأن الله هو الباقي الذي لا يتغير له حال ؛ فكيف يقبل القول بأن الباقي جل وعلا يقدم فيكون عتيقاً ؟ !

**لا شك :** أن مثل هذا القول يجعل المؤمن يعيد التفكير في دلالة صفة القديم ، ومناسبتها لذات الله ، سبحانه وتعالى !

**وفي اللغة :** إذا قبلنا بتحكيم القديم ؛ أي : أن ( الله قديم ) فقد يتجاوزنا آخر بسؤال : ألا يكون قبل القديم من هو أقدم ؟ أي : ألا تترتب اللغة على موازينها القياسية ، بين قديم ، وأقدم ، والأقدم ؟ .

### ثانياً : الاصطلاح :

إن ما قيل بشأن الدلالة الاصطلاحية لمصطلح القديم على أن دلالتها أزليٌ ؛ فهذا مقبول من حيث المنطق ، لكن نقول : إن الاتفاق غير حاصل بين العلماء على أن دلالة القديم هي الأزلي ، مع أنه من الجلي : أن لفظة الأول هي الأصح من حيث الإطلاق على الذات الإلهية من القديم ، وذلك يرجع إلى الآتي :

- كلُّ قديم يقابله محدث .
- لكلِّ قديم أقدم .
- لكلِّ قديم أحدث .
- كلُّ حديث قديم بالنسبة للأحدث .
- كلُّ قديم حديث بالنسبة للأقدم .

فالقديم هو بكل تأكيد أقدم من المحدث ، وأحدث من الأقدم ، وبناءً عليه نقول : إن من أهم الأسباب الرئيسة لرفضنا إطلاق اسم القديم على الله - جل وعلا - عدم قدرة المصطلح على التعبير عن صفة الله ، بينما كل الأسماء التي سمى الله بها نفسه قادرةً على التعبير بوضوح عن طبيعة الذات ، فـ : ( الأوَّل ) من أسماء الله ، وهو الأول الذي لا أول سواه : ﴿ هُوَ الأوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ <sup>(1)</sup> ، فهل تعرف قبل الأول شيئاً ؟

(1) الحديد ، 3 .

وهل لك أن تسمي وإن اجتهدت في البحث ، والتقصي أن تجد قبل الأول أولاً مذكوراً ، أو معروفاً ، أو متخيلاً ؟

فإذا عجزت تكون الحجة عليك ، وما عليك إلا أن تقرّ : أنه الأول ، وهذا اسمه الذي يليق به ، جلّ ، وعلا . وكذلك الباقي الذي لا يبدل ، ولا يتغير ، فهو الباقي .

أما إذا سألك سائل عن قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ <sup>(1)</sup> ؛ فقد أفاض العلماء في تفسير ذلك ، وكله يصب في دلالة : أن الله هو الباقي ، يقول الإمام الرازي : « المراد سوق المقادير إلى المواقيت ، ومعناه : أن القلم جف بما يكون في كل يوم ، ووقت ، فإذا جاء ذلك الوقت ؛ تعلّقت إرادته بالفعل فيه ، فيوجد ، وهذا وجه حسن لفظاً ، ومعنى . وقال بعضهم : شؤون يديها ، لا شؤون يبتديها » <sup>(2)</sup> .

وهكذا فإن اسم ( القديم ) بدلالته القائمة على ثنائية ( الزمن ، والحال ) لا يعبر عن ذات الله ، أو صفة من صفاته ، والدليل يظهر في :

- ثنائية الزمن والحال لا تنطبق على الذات أو إحدى صفاتها .

- استبعاد الزمن يُبقي على الحال . وهذا لا يستقيم .

- استبعاد الحال يبقي على الزمن . وهذا محال بحق الله ، وصفاته .

- استبعاد الاثنين معاً يُفْرِغ اللفظة من محتواها .

وهكذا يتجلى عجز اسم ( القديم ) دلاليّاً عن القيام بمهمة التعبير عن الذات ، أو وصفها ، بينما نجد ألفاظاً أخرى قادرة على القيام بذلك بدقة مطلقة . يقول الحق : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ <sup>(3)</sup> ،

(1) الرحمن ، 29 .

(2) تفسير الرازي ، ج 15 ، ص 85 .

(3) الحديد ، 3 .



ومن جميل إشارته عز وجل أن جعل اسمه الأول أولاً في ترتيب الأسماء الواردة في الآية تأكيداً لنا ، وتفهماً على حقيقة وصف الذات ، وكذلك لفهم : أنَّ ما بين الأول ، والآخر مطلقاً يكون فيه المحدث ، وقديمه ؛ إذا عرفنا : أن كل محدث قديم في لحظته ، فهو قديم بالنسبة للمحدث في لحظة المستقبل ، وكل قديم محدث في لحظة الماضي عن الأقدم بالنسبة له ، هنا نسأل : أين القديم ؟

- هل هو بين الأول والآخر ؟

- هل هو في الأول ؟

- هل هو في الآخر ؟

فإذا قلت : إنه بين الأول والآخر ؛ فقد حددت زمناً ، وهذا محال في حق الله سبحانه وتعالى ، وإذا قلت : إنه في الأول ؛ فما هو في الآخر ؟ هل هو محدث ؟ ( حاشا لله ) ، وإذا قلت : إنه في الآخر ؛ فما هو في الأول ؟

### المحور الثاني : أسماء الله حسنى :

إن القاعدة التي يقوم عليها البحث في الأسماء ، والصفات هي أن تكون أسماء الذات حسنى ، وخلاف ذلك لا يمكن تصور أن يكون لله اسماً خارج قاعدة الحسنى ، والحسنى كما يذكر الإمام الرازي هي : « لا معنى للحسن في حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، وهي محصورة في نوعين : عدم افتقاره إلى غيره ، وثبوت افتقار غيره إليه »<sup>(1)</sup> . فإذا أتينا بالقديم لنطبق عليه دلالة الحسنى ؛ فلن نجد أي تناسب بين معنى القديم ، ومضمون الحسن لا افتقار القديم في دلالة إلى شيء من خصائص الحسنى . كما أن كل الأسماء في دلالتها الظاهرة تشير إلى أنها حسنى ، مثل : الرحمن ، الرزاق ، الرحيم ، اللطيف ، لكن دلالة القديم لا تدل على أنها

(1) تفسير الرازي ، ج 7 ، ص 307 .

حسني' إلا تأويلاً ، حيث يتأول القائل بالقديم على الأولية دون حاجة لذلك لوجود اسمه الأول سبحانه وتعالى ، ثم يتأول الأزلية التي لم تكن في أسماء الله ، أو صفاته .

وفي كل آيات القرآن الكريم لم يقترن أي اسم من أسماء الله بالسلب مطلقاً ، فكلها حسني' اقترنت بالحسن ، لكن القديم ورد في القرآن بمواضع السلب لا الإيجاب إشارة واضحة إلى خلوه من الحسن الذي يليق بالله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (1) ، والعرجون القديم هو عرجون النخلة بعد أن انحنى ، ويس ، وفقد ثماره . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (2) « والافك هو الكذب الفاحش القبح ، مثل الكذب على الله ورسوله ، أو على القرآن ، ومثل قذف المحصنة ، وغير ذلك مما يعظم قبحه » (3) . وقال تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ (4) .

### المحور الثالث : القديم بين الأسماء :

إن كل أسماء الله - جل وعلا - دالة على صفاته التي هي منه - عز وجل - لخلقه ينتفعون بخيرها ، ويرتقون بأسرارها ، فهي رحمة الخالق بمخلوقاته ، فاسم الرزاق يدل على صفته - عز وجل - رزاق ، وبرزقه سبحانه وتعالى ينتفع الخلق على اختلاف أنواعه ، وهكذا كل الأسماء هي حسني' بما فيها من نفع للمخلوق ، فهي من الأعلى إلى الأدنى ، فالرحمن اسم الذات لانتفاع الخلق ، والذات غنية عن الحاجة إلى الرحمة ، والرزاق هو لرزق العباد ،

(1) يس ، 39 .

(2) الأحقاف ، 11 .

(3) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 307 .

(4) يوسف ، 95 .

والذات غنية عن الحاجة إلى الرزق ، فما هو موقع القديم بين الأسماء الحسنی في هذا السياق ؟ !

وإذا كان على الخليفة أن يتخلّق في الدنيا ، ويأتسي بدلالة الأسماء ، والصفات الحسنی ؛ فكيف هو مع القديم ؟ كيف يكون قديماً ، وهو في حال من التقدم في إعمار الأرض ، والقيام بأمر الاستخلاف عليها ؟ لاشك : أن هناك بوناً يفصل بين الخليفة ، وبين اسم القديم ، يجعل الخليفة في غنى عن القديم ، فإذا كان كذلك ؛ فلم يكن الاسم من الأسماء الحسنی التي لا غنى لأحدٍ عنها ، أو عن أحدها .

**ومعلوم :** أن الصفة تُستمدُّ من الموصوف ، فالقوة من القوي ، والرحمة من الرحمن ، والعزة من العزيز ، والعدالة من العدل ، والبقاء من الباقي ، والأحدية من الواحد ، والصمود من الصمد ، والغنى من الغني ، والأولية من الأول ، والآخرة من الآخر ، وهكذا جميع صفات الله تستمد من أسمائه الحسنی . والقدم ليس من أسمائه الحسنی ، فكيف لنا بأن نصفه ، أو نلصقه به ؟ !

**كما أن القول :** إن الله قديم بمعنى : أزلي غير دقيق ، ونحن نعتقد : أن الفرق كبير بين مصطلح قديم ، ومصطلح أزلي ، فالقديم يرتبط بالزمان دون أن يرتبط بالبقاء المطلق في المستقبل المطلق ، والأزلي يرتبط بالديمومة ، والبقاء الذي يفني كل شيء ، ولا يفنيه شيء .

**واسم القديم :** « مع أنه لم يرد في الكتاب إلا أنه لا يفيد التقدم على كل شيء إنما يفيد التقدم تقدماً نسبياً ، ولا يفيد التقدم على كل شيء كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ حَقَّ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ . يسمى : العرجون القديم ؛ إذا وجد العرجون الجديد ، لكن ليس متقدماً على كل شيء » (1) .

(1) شرح العقيدة الطحاوية ، عبدالعزيز الراجحي ، ج 1 ، ص 18 .

ولذا فالقديم يرتبط بالماضي ، والماضي في الحياة الدنيا لا يعود ثانية ، ولا يكون إلا ذكرى ، ومن يسلّم بذلك ؛ يجد نفسه مع المسلمين بالنهاية ، وأستغفر الله أن يكون الله قديماً حيث في القدم النهاية ، وكيف يكون ذلك ؛ والله تعالى هو الباقي الحي الذي لا يموت ؟ !

- والذي قال : « الله ( قديمٌ بلا ابتداء ، دائمٌ بلا انتهاء ) <sup>(1)</sup> » ألا يكون من الأفضل لنا نحن المسلمين أن نقول ما قاله الله عن نفسه ، أو سمى به نفسه : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ <sup>(2)</sup> ؟ نعم : إنه ﴿ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ ولا شيء غير أسمائه الحسنی التي سمى بها نفسه تعالى ، ولا صفة له إلا منها .

#### المحور الرابع : تصنيف القديم :

تعارف علماء العقيدة على تقسيم الأسماء الحسنی إلى أسماء جلال ، وأسماء جمال .

« أما أسماء الجلال ، وصفات الجلال ؛ فضابطها : أنها الأسماء ، والصفات التي فيها معاني جبروت الله - جل وعلا - وعزته ، وقهره من مثل اسم الله العزيز ، والقهار ، والجبار ، والقوي ، والمنتقم ، ونحو ذلك من الأسماء ، والصفات ، فمعاني العزة ، ومعاني الجبروت ، ومعاني القهر ، ونحو ذلك ، هذه كلها جلال ؛ لأنها تورث الإجلال ، وتورث التعظيم ، وتورث الخوف ، والهيبة لله - جل وعلا - ومن الله ، جل وعلا <sup>(3)</sup> . فهل في القديم شيء من الجلال ، والعزة ، والجبروت بما يورث العظمة ، والهيبة ؟

وهو كذلك ليس اسماً من أسماء الجمال ؛ لأن « أسماء الجمال ما كان

(1) شرح العقيدة الطحاوية ، صالح آل الشيخ ، ج 1 ، ص 31 .

(2) الحديد ، 3 .

(3) شرح العقيدة الواسطية ، ج 12 ، ص 84 .

فيها فتح باب المحبة من العبد لربه - جل وعلا - من أسماء ، وصفات الرحمة ، كصفة الرحمة ، والأسماء المأخوذة منها ، كالرحمن ، والرحيم ، ونحو ذلك من جهة ، أو من مثل اسم الله - جل وعلا - الجليل ، أو صفة الجليل صفة الجمال لله ، واسم الله - جل وعلا - ( النور ) أو صفة النور لله جل وعلا ، وأن الله - جل وعلا - رزاق اسم الله ( الرزاق ) وأنه ذو الرزق ، ونحو ذلك مما فيه إحسان بالعباد »<sup>(1)</sup> ، فأين القديم من صفات الجمال ؟ وأين حسنه للعبد ؟

### المحور الخامس : المطلق والنسبي :

نأتي لمناقشة قضية أخرى ، وتتمثل في التعارض الواضح بين مفهوم وصف ( المطلق ) الذي اتفق العلماء - على اختلاف مناهجهم - أن يصفوا الذات به ، وبين مفهوم القديم ( النسبي ) ، والتعارض يكمن في عدم إمكان وصف المطلق بالقدم ؛ لأن في هذا الوصف تحديداً ، والمطلق غير محدد ، وهنا يظهر التناقض بين الإطلاق والتحديد ، وللتأكيد على ذلك خذ أي اسم لله ، عز وجل ، أو أي صفة له ؛ فستجد : أن لا تعارض ، ولا تناقض بينها ، وبين المطلق ، مثلاً عندما تقول : الله باق صفة له من اسمه الباقي ؛ ستجد ، ولا شك انسجاماً ، واندماجاً مع المطلق بكل تأكيد ، ثم خذ ( الأول ) اسمه - جل في علاه - فستجد المطلق لائقاً به ؛ لأن لا أول سواه ، وإن أعيت نفسك بالبحث ، أو التخيل .

وهكذا فإن كل الأسماء والصفات تتناسب ، وتتطابق مع المطلق ، لكن وصف القديم لا يتناسب مع المطلق ؛ لأن فيه التحديد ، والتحديد نسبي ، وإلى ذلك يذهب بعض علماء العقيدة بالقول : « قوله هنا عن الله - جل وعلا - ( الأول ) يعني : الذي لا يوصف بأنه حادث ، ولهذا قال بعض الناس : إن معنى الأول : أنه هو معنى اسم الله الذي سموه به ( القديم ) ، قالوا : إن

(1) شرح العقيدة الواسطية ، ج 12 ، ص 84 .

(الأولية) هي (القدم) وهذا غير صحيح ؛ لأن القديم وإن كان يحتمل الأزلية ؛ لكنها احتمال من الاحتمالات ، وذلك : أن اسم القديم يطلق في العربية ، وجاء استعماله أيضاً في القرآن على نحوين :

- **الأول** : أن يكون مطلقاً ، يعني : من الزمن ، يعني قدماً على جميع الأشياء .

- **الثاني** : أن يكون قدماً نسبياً ، يعني : أن يكون قديماً ؛ يعني : إطلاق اللفظ : (قديم) على بعض الأشياء .

الأول واضح ، والثاني كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾<sup>(1)</sup> ، وقال : ﴿ أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴾<sup>(2)</sup> وهذا فيه قدم نسبي ، ولهذا لما احتمل هذا اللفظ أن يكون فيه المعنيان : معنى القدم المطلق ، والقدم النسبي ؛ لم يصح أن يطلق في أسماء الله - جل وعلا - وأن يقال : إن من أسمائه القديم ، وذلك للاحتمال .

فأسماء الله - جل وعلا - كلها حسنى ، كلها أسماء كمال ، وأما الاسم الذي يحتمل شيئين ؛ فإنه لا يطلق في أسماء الله - جل وعلا - وليس من أسماء الله الحسنى ، وهذا مثل : (الصانع) ومثل : (المريد) وأشباه ذلك .

أما الصفات ، أو الآثار - آثار الصفات - فإنها قد يطلق عليها : أنها قديمة ، كما قال النبي ﷺ : « أعوذ بوجهك الكريم وسلطانك القديم » وهذا أخص من أن يكون إطلاق اسم (القديم) عليه - جل وعلا - بل هو إطلاق على بعض ماله ، جل وعلا .

« أعوذ بوجهك الكريم وسلطانك القديم » ف : (القديم) ليس نعتاً لله ،

(1) يس ، 39 .

(2) الشعراء ، 76 .

جل وعلا ، بل نعت للسلطان ، ولهذا لا يصح أن يقال : إن من أسماء الله جل وعلا ( القديم ) لهذا الأمر » (1) .

**ومعلوم :** أن كل الأسماء حسنى بالمطلق ، وبالنسبي لغير الله ، عز وجل ، فألله هو الرحمن بالمطلق ، فإذا كان العبد رحماناً فهو دون الإطلاق ، وإنما رحمن نسبي ، أما القديم ؛ فهو مطلق لله ، ولغير الله ، فإذا قلت : الله قديم ؛ فذلك يعني بالمطلق ، وإذا قلت : الباب قديم ؛ فلا شك : أنه قديم بالمطلق ، وفي ذلك اشتراك واضح في مطلقية الصفة بين الخالق ، والمخلوق ، وهذا مما لا يجوز على الله ، عز وجل .

#### المحور السادس : التبعض والتعدد :

عندما يقال عن الشيء قديماً ؛ فلعله فيه بانت على بعضه هيئة ، أو حالاً ، وصفة القدم تطلق على بعض الشيء ، وليس كله ، فهل يمكن القبول بوصف ( حاشا لله ) بعض الذات ؟ ! لا شك : أن في ذلك دلالة على نعت الجزء من الشيء ، وبما أنه جزء ؛ فهو قابل إلى أن يتجزأ إلى أجزاء أقل منه ، وكل ما هو قابل للتجزؤ قابلٌ للاتحاد مع جزئه الذي تجزأ منه ، وهذا محال بحق الباقي ، عز وجل .

وإذا قبلت بالقديم ؛ لابد أن تقبل بالأقدم الذي يفضي لا محال إلى القول بالتعدد ( حاشا لله ) ، قال تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (2) . يفهم من هذه الآية الكريمة لو كان فيها أكثر من إله ؛ لفسدت ، وذلك بالمشادات التي ستحدث بين القديم ، والأقدم ، أو الأقدم منهم جميعاً ، ولأنه الله الواحد القهار ؛ فالأمر كلُّ الأمر بيده لا شريك له .

(1) شرح العقيدة الواسطية ، ج 12 ، ص 131 .

(2) المؤمنون ، 91 .

### المحور السابع : القول بالقديم تسليم بالمحدث :

هذا الأمر بالنسبة للمسيحيين مفضل ، وبالنسبة للمسلمين يعدُّ إقراراً بالشرك ، ولهذا من يقبل بقديم الله تعالى عليه أن يقبل أن له ابناً هو المسيح ﷺ « ولما قال أريوس : القديم هو الله ، والمسيح هو مخلوق اجتمعت البطارقة ، والمطارنة ، والأساقفة في بلد قسطنطينية بمحضر من ملكهم وكانوا ثلاثمئة وثمانية عشر رجلاً ، واتفقوا على هذه الكلمة اعتقاداً ، ودعوة ، وذلك قولهم : ( نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء ، وصانع ما يرى ، وما لا يرى وبالأبن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها ، وليس بمصنوع إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شيء من أجلنا ، ومن أجل معشر الناس ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، وصار إنساناً ، وحبل به ، وولد من مريم البتول ، وقُتل ، وصُلب أيام فيلاطوس ، ودفن ثم قام في اليوم الثالث ، وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى بين الأموات والأحياء ) <sup>(1)</sup> إنه أمر شرك ، فمن يُسلم به ؛ فقد أشرك ، وكذلك من يقبل بأن الله قديم يقبل بالابن المحدث ، وإذا قبل بالابن المحدث بالنسبة للأب القديم قد يأتي يوم يقال فيه : إن الابن يحل محل أبيه ، وحينها عليه أن يقبل بما يجعله مشركاً يدري ، أو لا يدري ، ومن يقبل بأن المسيح ابن الله عليه إنكار : أنه رسول ؛ حيث جميع الرسل يتمُّ اصطفاؤهم اصطفاً ولا يولدون ممن لا يلد ، ولم يولد مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ يُولَدٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾ <sup>(2)</sup> ، ولذا لقد كفر الذين قالوا غير ذلك : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ

(1) الملل والنحل ، ج 1 ، ص 221 .

(2) الإخلاص ، 4-1 .



لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لِيَمَسَّنَ الذِّبْنَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ  
إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ  
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ  
نُبِّئْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنْ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا  
يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ ولذا نصلي ونسلم على  
المسيح ، كما نصلي ونسلم على نبينا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين - عليهم  
الصلاة والسلام - الذي كلما نصلي عليه ، ونسلم نصلي ، ونسلم على جميع  
الأنبياء ، والرسل ؛ حيث لا نفرق بين أحد من رسله طاعة لأمره تعالى :  
﴿ ءَامَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ  
لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ  
الْمَصِيرُ ﴾ (2) .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ  
لَهُ قَلْبٌ نُّوْنٌ ﴾ (3) ، نزلت هذه الآية الكريمة في يهود المدينة ؛ حيث قالوا :  
﴿ عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ ﴾ وفي نصارى نجران ؛ حيث قالوا : ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾  
وفي مشركي العرب ؛ حيث قالوا : الملائكة بنات الله . ولأن الله هو الباقي  
لا يمكن أن يكون له الولد ، أي : الذي يكون له الولد هو الزائل الذي  
لا يمتلك صفة البقاء ، أما الباقي ﴿ مَلِكٌ أَلَمُّكَ ﴾ ليس في حاجة ، ولهذا  
فالحاجة للولد ، أو الأبناء لأجل سد النقص ، واستمرار النوع ، ولأن الله  
البقاء ، والكمال ؛ فكيف يُقبل أن يكون له الولد ؟ ! ومع ذلك الخاطبة  
قالوا : « للعالم إلهان ، قديم هو الله ، ومحدث هو المسيح ، والمسيح هو  
الذي يحاسب الناس في الآخرة » (4) . ولأجل إحقاق الحق نحن نعتقد

(1) المائدة ، 73-76 .

(2) البقرة ، 285 .

(3) البقرة ، 116 .

(4) التعريفات ، ج 1 ، ص 31 .

جازمين : أَنَّ اللَّهَ ( هو الله الباقي ) الذي لا يقدم ، ولا يكون له الولد ، ولا المثل ، ولا الشبيه ، وهو جل جلاله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

### المحور الثامن : العلاقة بين القديم والمحدث :

القديم هو كما سبق تبيانه ، والمحدث هو المخلوق الذي لم يسبقه شيء يطابقه بالتمام ( قولٌ ، أم فعلٌ ، أم صورة ) قال تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرِ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (2) . فكلمة مُّحَدَّث لا علاقة لها بالقديم بل لها علاقة بالسابق ، واللاحق في دائرة ما يحدث ، والمُحَدَّث غير المُحَدَّث ، فالمُحَدَّث له علاقة بالقديم ، والمُحَدَّث مستقل بذاته عن كل مطابقة مع آخر ، ولهذا كل أمر من أمر الله تعالى هو مُّحَدَّث ، وكل أمر من أمر البشر قابل لأن يُحَدَّث . ولذلك فقولته تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (3) يجيب على أن صفة القدم لا تتعلق به أبداً ، وذلك لديمومة مشيئته ، وإرادته ، وقوته ، وقدرته ، واستماعه ، واستجابته في كل حين ، ولهذا جاء الشيء نكرة ( أي شيء ) يريد أن يكون في أي وقت يكون بأمره مفعولاً ، هذا إذا أَرَادَهُ أَنْ يَكُونَ ، ولكن إذا لم يرد أن يكون ؛ فالأمر بمشيئته تعالى .

**وعليه :** فالقديم هو القديم في ذاته والمُحَدَّث هو المُحَدَّث عن غيره ، ولهذا الشيء في ذاته يُقَدَّم بالزمن ، أمّا المُحَدَّث مع غيره في التزامن ، أو التعاقب ، والتلاحق سيظل باقياً كما غيره باقٍ عبر الزمن إلى النهاية . فالورقة على سبيل المثال تقدم وتبلى في ذاتها ، والإنسان كفرد يكبر ، ويعجز ، ويقدم بالعمر الذي يقضيه في حياته ، وهكذا تبديد المباني ، وتبلى ، وتقدم ، ويظل

(1) الحديد ، 3 .

(2) الأنبياء ، 2 .

(3) النحل ، 40 .

الإنسان كُمُحَدَّثَ باقياً كالأرض ، والقمر ، والشمس ، والنجوم ، والطيور ، والنبات ، والأسماك ، والحيوانات الأخرى متعددة الأنواع مُحَدَّثَات إلى النهاية ، ولهذا فالمُحَدَّث يَبْقَى ، والمُحَدَّث يقدم ، ويتجدد ، ثم يقدم ، ويتجدد إلى النهاية .

إذاً لا يتم الاتفاق مع الذين يعتقدون في أن القديم لا يسبقه شيء ، وإذا قبل البعض بالقديم لا يسبقه شيء ، فأين يكون مكان الأقدم من ذلك المشار إليه بالقديم ؟ ! وكذلك القبول بالقدم يُظهِر في المعنى ، والدلالة بأن الجديد ، والمتجدد سيكون من بعده ، ولذا كيف يتم القبول بأن الله قديم في ضوء اللغة التي أبوابها مفتحة ، ولا تسد أمام الأقدم ، والجديد ، والمتجدد ، واللاحق ، والمتعاقب ، والمنتظر ! وأمام العقول ، والقلوب غير المقفلة ؛ التي تتأمل ، وتدبر في القرآن مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَأْمُرْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا ﴾ (1) .

ولأننا نتكلم عن المُحَدَّث ؛ فنحن نعلم : أن كل مُحَدَّث مخلوق ، وأن من ورائه مُحَدَّثاً له ( خالقاً له ) ، ولذلك فإن « كل ما كان غير الله تعالى ؛ فإنه مُحَدَّث ، ومخلوق » (2) ولأن المُحَدَّث مخلوق إذاً بطبيعة الحال يكون من ورائه خالق ، ولأن الخالق هو الباقي الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فكيف يقدم ، أو يوصف بالقدم ؟ !

**وعليه :** فالذي يقدم ، ويقبل الوصف بالقدم هو الذي يَلِد ، أو وُلِد ، وهو الذي له المثل ، والشبه ، ولهذا فالذي لم يكن له كفواً أحد ؛ لا يقبل الوصف بالقدم ، وذلك ؛ لأنه ليس له كفواً أحد ، ولذا فلو كان له كفواً أحد ؛ لكان بطبيعة الحال يكون أحد قديماً ، والثاني أقدم منه ، والثالث جديداً ، والرابع أجدد منه ، وهكذا .

(1) محمد ، 24 .

(2) تفسير النيسابوري ، ج 3 ، ص 442 .

## وعليه أتساءل :

المُحَدَّث بالنسبة لمن هو مُحَدَّث ؟

بالنسبة لمُحَدِّثه ليس بمُحَدَّث ، وبالنسبة للمُحَدَّث من أجله فهو المُحَدَّث ، ولذلك كل مُحَدَّث قابل للقدم ، وقابل للزوال ، ويظل مُحَدِّثه المطلق باقياً لا يزول .

المُحَدَّث دائماً مسبق بمُحَدِّث له ، ومُحَدِّث المحدثات لا يقارن بمُحَدِّثاته ، ولأنه لا يقارن بما يُحَدِّث ؛ إذاً بالنسبة لمن يكون قديماً ؟ ولذا فالقاعدة تقول : ( الخالق لا يقارن مع ما خلق ) . ولهذا فقوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ « استئناف في سياق تبيين : أن له ملك السموات والأرض ، وأن ملكه دائم في عموم الأزمان ، وتصرف فيهما في كل الأحوال ؛ إذ هو الأول الأزلي ، وأنه مستمر من قبل وجود كل محدث ، ومن بعد فنائه ؛ إذ الله هو الباقي بعد فناء ما في السموات والأرض » <sup>(1)</sup> . بناء على ذلك أتساءل :

من هو القديم ؟ هل هو الذي يبلى ، ويقدم بالزمن وينتهي ؟ أم هو الذي سيظل باقياً يوم لا يكون على ظهرها أحد ؟ ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ <sup>(2)</sup> . إذا البقاء للواحد ﴿ مَلِكِ الْمَلِكِ ﴾ الذي يوم يطرح سؤاله مباشرة على من خلق يومها يعرفون : أنهم القدماء ، وهو الذي لا يقدم ، ولا يوصف بالقدم ، سبحانه لا إله إلا هو جل جلاله !

ولأن الله تعالى خالق الأيام ، والأعوام التي يقاس بها من يقبل الوصف بالقدم ، فكيف لنا بوصفه قديماً ؛ وهو لا يدخل في الدائرة التي يقاس بها القدم ، والحادثة ( دائرة الزمن ) ؟

(1) التحرير والتنوير ، ج 1 ، ص 4294 .

(2) غافر ، 16 .

ومن يقبل : أن الله قديم يقبل بأنه قابل للمقارنة ، ومن يؤيد ذلك يقبل هو الآخر : أنه تعالى قابل للماثلة ، والمشابهة . وهذا أمر كفر ، وشرك ، لا يقره من أسلم الله وجهه . ولهذا فالمقارنة لا تكون إلا مع المثل ، والشبيه في القول ، أو الفعل ، أو الصورة . قال تعالى : ﴿ قَالُوا تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ <sup>(1)</sup> مع أن هذه الآية تقارن ضلالاً بضلal ، وهي مقارنة صائبة إلا أن وصف الضلال في هذه الآية لرأي يعقوب ، أو قوله في غير محله ، وذلك بأسباب القول الكذب كما هو حال الدم الكذب الذي وضع على قميص يوسف عليه السلام .

### المحور التاسع : مناقشة أصحاب الاعتقاد باسم القديم :

يقول أصحاب مذهب اعتماد ( القديم ) صفةً لله : « القديم يطلق على الموجود الذي لا يكون وجوده من غيره ، وهو القديم بالذات ، ويطلق القديم على الموجود الذي ليس وجوده مسبوقاً بالعدم ، وهو القديم بالزمان ، والقديم بالذات ، يقابله المحدث بالذات ، وهو الذي يكون وجوده من غيره ، كما أن القديم بالزمان يقابله المحدث بالزمان ، وهو الذي سبق عدمه وجوده سبقاً زمانياً ، وكل قديم بالذات قديم بالزمان ، وليس كل قديم بالزمان قديماً بالذات ، فالقديم بالذات أخص من القديم بالزمان ، فيكون الحادث بالذات أعم من الحادث بالزمان ؛ لأن مقابل الأخص أعم من مقابل الأعم ، ونقيض الأعم من شيء مطلق أخص من نقيض الأخص » <sup>(2)</sup> .

ونرد على هذا بالقول : إن الله سبحانه وتعالى هو الأول ، ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ <sup>(3)</sup> ، وإذا قلنا : إنه غير محدث ؛

(1) يوسف ، 95 .

(2) التعريفات ، الشريف الجرجاني 1 ، 55 .

(3) الحديد ، 3 .

فبالتأكيد سيكون غير قديم ؛ لأن الله عز وجل خارج دائرة المقارنة مع المحدث لأسباب من أهمها :

- لا يتقابل الله - عز وجل - مع غيره في اسم أو صفة .

- لا نقيض لله ، عز وجل .

- إنه عز وجل من غير جنسه ( المحدث ) فلا يقارن به : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (1) .

- الله هو المحدث ، فلا يقارن بالمحدث : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (2) .

ويؤكد علماء الاصطلاح اللغوي : أن هناك فرقاً واضحاً بين القديم ، والباقي ، والفرق بين الباقي ، والقديم : أن الباقي هو الموجود لا عن حدوث في حال وصفه بذلك ، والقديم ما لم يزل كائناً موجوداً على ما ذكرنا . وأنت تقول سابقاً هذا المتاع لنفسى ، ولا تقول سأقدمه ، وتقول : استبقيت الشيء ، ولا تقول : استقدمته ، وقال قوم : القديم في اللغة مبالغة في الوصف بالتقدم في الوجود ، وكلما تقدم وجوده حتى سمي قديماً ؛ فذلك حقيقة فيه ، وقال من يرد ذلك : لو كان القدم يستفاد ؛ لجاز أن تقول لما علمته سيبقى طويلاً : إنه سيقدم ، كما تقول : إنه سيبقى (3) . فالباقي إذاً غير القديم ، ولا يمكن القول بأن الباقي هو القديم ؛ لأن كلاهما غير الآخر ، والباقي أكثر تحديداً لوصف الحال من القديم .

والى هذا ذهب بعض علماء العقيدة ، فقالوا : إن القديم لا يليق بأسماء الله ، ولكن يجوز أن يُخبر عنه بذلك ، فقالوا « الأول : هذا اسم من

(1) الشورى ، 11 .

(2) النحل ، 17 .

(3) الفروق اللغوية 1 ، 91 .

أسمائه هو الأول يعني : المتقدم على كل شيء ، فكل مخلوق كل ما سوى الله فإنه محدث بعد أن لم يكن مسبقاً . والله تعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء ؛ لأنه لا بداية لوجوده - سبحانه وتعالى - فهو قديم ، لكن ( قديم ) لم يرد في النصوص ، فلا يعد من أسمائه - تعالى - لا يقال من أسماء الله القديم لكن معناه صحيح ، فيصح الإخبار عن الله ، فيقال : الله قديم . نعم قديم متقدم في وجوده على كل شيء لا بداية لوجوده ، فهذا المعنى حق ثابت للرب سبحانه ، لكنه يغني عنه اسمه : الأول ، فالأول هو من أسماء الله الحسنی « (1) ، ولذلك قال علماء العقيدة : إن الأول يغني عن القديم .

ويقول الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : « إن الذي يُعلم قطعاً هو : أن الله قديم واجب الوجود كامل ، وأنه لا يجوز عليه الحدوث ، ولا الإمكان ، ولا النقص ، لكن كون هذه الأمور التي جاءت بها النصوص مستلزماً للحدوث ، والإمكان ، أو النقص هو موضع النظر ، فإن الله غني واجب بنفسه ، وقد عرف : أن قيام الصفات به لا يلزم حدوثه ، ولا إمكانه ، ولا حاجته ، وأن قول القائل بلزوم افتقاره إلى صفاته اللازمة بمنزلة قوله : مفتقر إلى ذاته ، ومعلوم : أنه غني بنفسه ، وأنه واجب الوجود بنفسه ، وأنه موجود بنفسه ؛ فتوهم حاجة نفسه إلى نفسه . وإن عني به : أن ذاته لا تقوم إلا بذاته ؛ فهذا حق ؛ فإن الله غني عن العالمين ، وعن خلقه ، وهو غني بنفسه » (2) .

ويذهب الذين يعتقدون في ( قدم الله ) : إلى تأكيد عدم حدوثه ، « واختلف المتكلمون في معنى القول : إن الله قديم : فقال بعضهم : معنى ( الله قديم ) : أنه لم يزل كائناً لا إلى أول ، وأنه المتقدم لجميع المحدثات لا إلى غاية ، وهذا قول الجبائي » (3) . وأقول : الله هو الله ، لا يحوطه

(1) شرح البراك للواسطية ، 1 ، 42 .

(2) مجموع الفتاوى ، 11 ، 359 .

(3) مقالات الإسلاميين ، ج 1 ، ص 126 .

زمان ، ولا يحوطه مكان ، أما قولهم : إنه قديم : فالقدم لا يمكن أن يكون إلا في دائرة الزمان ، والحركة . ولذا أستغرب بقبول فكرة القدم ، وإصاقها بالباقي الذي لا يقدم أبداً !

ولذا وإذا قبلنا بمقولة ( قدم الله ) ألا نقبل في هذا المصطلح تضمين الزمان في اعتراف البعض بقدمه ، عندما نقبل بقدم الله ؛ نقبل أيضاً بمقارنته بمن لا قدم له ، وهكذا يُنفى ، والله يؤمن به ، وفي دائرة الممكن يمكن أن يكفر به ، ويمكن أن يشرك به ، ولكنه لا ينفى ، سبحانه لا إله إلا هو !

- وإذا كان القول ( بقدم الله ) هروباً من المحدث ، ألا يكون في القدم حدوث في ذلك الزمن الأول ، أو إحداث ؟ ! وإذا كان كذلك ألا يكون ذلك مخالفاً للصفات التي لا تقدم ؟

- وأيضاً ألا يكون قبولنا بربط الله بالقدم هو الذي يفتح الباب أمام الآخرين ليجادلونا في حدوثه ؟ نحن نقول : استغفر الله ، إنه جل جلاله لا يرتبط بالقدم ، والحدوث ، بل هو الباقي الدائم لا إله إلا هو !

- وكذلك ألا يكون ( قدم الله ) مصطلحاً من بنات أفكارنا ، واجتهاداتنا فيما نفكر فيه ، وهو ليس بنص قرآني ؟ ولأنه كذلك ألا يكون محفوفاً بالنقص ، لا بالكمال ؛ حيث لا كمال إلا لله تعالى ؟ ولأن الله سمى نفسه بأسماء الكمال التي تحتوي الصفة ، والفعل ، والزمان ألا يكون هو الذات التي لا توصف بالقدم ؟

- ألا يكون القول بقدم الله قبولاً بالمقارنة وفقاً لدائرة النسبية ، أي : ( قديم بالنسبة لمن ) ؟ ولذا كيف يستقيم هذا الأمر أمام مطلعية الله تعالى في الصفات ، والأفعال ؟

- وإذا وصفنا الله بالقدم ؛ ألا يعني أننا جعلنا القدم محتوية لله تعالى في الوقت الذي يحتوي فيه الله كل شيء ، ولا يحتويه شيء ؟

- والذين يدللون على قدم الله يحتجون بالآية الكريمة : ﴿ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا



يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١﴾ ، ونقول هذه الآية تدل على أنه الأول ، والآخر ، وليس على أنه قديم ، بل هذه تدل على اسمه الباقي جل جلاله ، أي : بما أنه الباقي بالمطلق وهو مالك الملك ، والأمر ، فمتى شاء أمراً قضى به ؛ فيكون أمراً مفعولاً ، ولذلك جاء معنى : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا ﴾ مرتبطاً بالماضي ، والمستقبل ، وليس بالماضي فحسب ، والمستقبل دائماً مستمر وفقاً لاستمرار الأمر الذي متى ما أراداه ؛ قضاءه : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

والقول بعلم الله قديم ، وعلم الخلق حادث يدل على قبولنا بالمقارنة ، وإن قبلنا بذلك ؛ أدخلناه في دائرة التساوي ، وهذا باطل ، فكيف لنا القبول بذلك ؛ ونحن نعلم : أن علم الخلق زائل ، وعلم الخالق باقٍ ؟ ولذا سمى نفسه تعالى ( الباقي ) والاسم ( الباقي ) يحتوي ثلاثة معطيات :

## 1 - صفة البقاء : حيث لا باقي بالمطلق إلا هو جل جلاله .

وهناك من يقول : « الله تعالى قديم بصفاته التي هي مضافة إليه في نفسه ، وقد سئل : هل الموصوف القديم ، وصفته قديمان ؟ فقال : هذا سؤال خطأ لا يجوز أن ينفرد الحق عن صفاته ، ومعنى ما قاله من ذلك : أن المحدث محدث بجميع صفاته على غير تفصيل ، وكذلك القديم تعالى بجميع صفاته » (2) .

2 - فعل البقاء : قال تعالى : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي : أن بقاءه بقاء قوة ، وقدرة لا تزول ، ولا تضعف ، ولا تبطل ، ولا تبلى ، ولذا فهي لا تقدم ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (3) الإرادة في هذه الآية الكريمة مشيئة ، فمتى ما شاء لشيء أن يكون يفعله بقوة الأمر ( كن ) فيكون مفعولاً .

(1) البقرة ، 117 .

(2) العقيدة ، أحمد بن حنبل ، ج 1 ، ص 112 .

(3) النحل ، 40 .

3 - **مطلقية البقاء** : وهي الديمومة التي تدلُّ على استمرار الزمن به لا استمراره بالزمن ، ولأنه المستمر بالزمن ( والمستمر بالزمن هو الفاعل له ) سبحانه إنه الباقي قبل الزمن ، وبعد الزمن ، وهو ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ .

ولأن الله هو ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ إذاً هو الأول الذي لا قديم قبله ، وهو الآخر الذي لا محدث بعده ليقارن به ، ولأنه هو جلّ جلاله ؛ فهو لا يقدم ، ولا يوصف بالقدم ، بل يسمى بالأول ، والآخر كما هو تعالى سَمَى نفسه .

كما إن القول بقدم كلام الله باعتباره غير مخلوق مردودٌ ؛ لأن الله هو الخالق ، وكلام الخالق خلاق ، وليس مخلوق ، أي أن صفة قوله لا تكون إلا به ، ولأنه الخالق ؛ فقوله لا يوصف بالقدم بل دائماً قول الخالق خلاق ، والخلاق متجدد بقوله ، وبقائه على ما هو عليه من قولٍ ، وفعلٍ ، فلا يبلى بالزمان بل بالزمان يستمر هو كما هو ، ولذا فهو الباقي هو كما هو .

ولأن من أسماء الله الحسنی ( الواحد ) فالواحد معلومٌ غير مجهول ، أما ( واحد ) فمجهول ، والمجهول لا يمكن أن يكون إلا في دائرة الزمان ، ودائرة الزمان لها بداية ، ونهاية ، ومحيط ، أما الذي لا يحاط بشيء ، وهو يحيط بكل شيء فلا يدخل في دائرة القياس الزماني ، والحركي ، والمكاني ، ولذلك لا يوجد من هو خارج هذه الدائرة إلا ﴿الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ القاهر بأمره ، وملكه لكل كمٍّ ، وكيف .

**وعليه** : عندما يقال : ( واحد ) يعرف : أنه رقم يعد بالموجب ، أو السلب ، أما عندما يقال : ( الواحد ) فيعلم : أنه خالق العدد الذي بدايته واحد ونهايته واحد وإن كثر .

وبما أن الواحد هو الواحد الذي لا يعدُّ ؛ إذاً لا صفة له إلا أنه أول ، والأول اسم لا يوصف بالقدم ، بل يوصف بالبقاء ، وذلك حيث لا ثاني من بعده هو كما هو ( الباقي ) .

**والخابطية :** ( وهم أصحاب أحمد بن خابط ) يقولون : « للعالم إلهان ، قديم هو الله ، ومحدث هو المسيح ، والمسيح هو الذي يحاسب الناس في الآخرة ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ . وهو المعني بقوله : إن الله خلق آدم على صورته » <sup>(1)</sup> . إنه أمر خطير يتم فيه قبول الاثنين في الوقت الذي لا يكون فيه الشرك ، وإلا كيف للمسلم أن يقول قول الخابطية ، وكذلك كيف نقبل بقولهم خلق آدم على صورته ؟ ألا يعني ذلك القبول بأن لله صورة ؟ أستغفر الله ! إنه المصور الذي لا يصور سبحانه جل جلاله !

**وعليه :** فكلمة ( القديم ) لم يسم بها نفسه ؛ أي : لم ترد من مجموع أسمائه الحسنی المنصوص عليها في القرآن الحكيم ، لكن ورد من أسمائه الدالة على أزليته اسمان ، هما : الأول ، والآخر ، وهما اسمان لأزلية الله ، وأبديته ، ولهذا فإن قول الطحاوي : ( قديم بلا ابتداء ) لا تساوي اسم الأول الذي سمى به نفسه تعالى ، وقوله : ( دائم بلا انتهاء ) لا تساوي اسم الآخر الذي سمى به نفسه كما سماها بالأول ، ولهذا فتسمية الله بأنه القديم أمر محدث ، أحدثه أهل الكلام أمّا السابق على هذا المسمى هو ما سمى به نفسه تعالى : ﴿ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ أي : أنه الأول الذي لم يسبقه أول ، والآخر الذي لا يأتي من بعده آخر .

وثبت في صحيح مسلم الدعاء المشهور : أن النبي ﷺ قال : « اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ ، وَرَبَّ الْأَرْضِ ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ ، وَالْإِنْجِيلِ ، وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ! اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ ، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ ، فَلَيْسَ

(1) التعريفات ، ج 1 ، ص 31 .

دُونَكَ شَيْءٌ أَقْضَى عَنَّا الدِّينَ ، وَأَغْنَيْنَا مِنَ الْفَقْرِ » (1) .

هذا الحديث فيه إثبات أربعة أسماء لله عز وجل : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهذه الأسماء الأربعة كلُّ اسمين منها متقابلان في المعنى ، والمعنى واحد لواحد ، فالأول ، والآخر متقابلان والظاهر ، والباطن متقابلان ، وكلاهما واحد للواحد .

وفي أدبيات الفقه ، والتفسير الكَلَابِيَّة ، وهم أتباع عبد الله بن سعيد بن كَلَّاب هم أول من أحدث القول بأن كلام الله قديم ، وهو معنى نفسي ، وتبع ابن كلاب على ذلك الأشعري ومن تبعه على مذهبه . وأول من أحدث في الأمة : أن القرآن كلام الله مخلوق هم : الجعدية ، والجهمية ، والمعتزلة . ولمَّا ترك الأشعري المعتزلة ، وخلع مذهبه ؛ ذهب في بغداد دار الخلافة العباسية يُدَرِّس فيها في المساجد ، كان المعتزلة يُدَرِّسون ، والكَلَابِيَّة يُدَرِّسون ، والكرامية ، وأصحاب كل مذهب لهم حلقات ، فلحق بحلقة أتباع عبد الله بن سعيد بن كَلَّاب ، فسمعهم يتكلمون في مسألة الكلام ، فأعجب بكلامهم في أن كلام الله جل وعلا قديم ، وأنه معنى نفسي ، وأنه يختلف بالعبارة ، فأخذ كلامهم ، ونصره ، وصار كَلَابِيًّا ، وهو أبو الحسن الأشعري ، ولذا يعدُّ مذهب الأشاعرة مذهباً كَلَابِيًّا (2) .

### وعليه أتساءل :

- إذا قبل البعض بما جاء في الاقتباس السابق بأن كلام الله قديم ؛ ألا يفتح ذلك القول أبواب المقارنة الزمانية ، والمشابهة الكلامية ؟
- وأيضاً : ألا يعد ذلك القول قولاً محدثاً لارتباطه بقول أصحاب الكلام ؟

(1) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 78 .

(2) قسم العقيدة ، ج 12 ، ص 368 .

والذين يقولون : ( كلام الله قديم ) . نقول لهم : ( كلام الله باقٍ ) . وبقاء كلام الله ديمومته ، ولأن الله هو الخالق ، والخالق لم يتوقف عن الخلق ، وذلك بدوام خلقه الذي نعرفه ، والذي نتعرف عليه ، والذي لا يكون في وسعنا بالمطلق معرفته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَضَيْتَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ <sup>(1)</sup> إنه الأمر الدائم الباقي وفقاً لمشيئته تعالى ، ولذا فكلامه باقٍ وليس بقديم ، ولأن الله تعالى لم يكن في الوجود ، ليقال عنه قديم ، أي أن الله تعالى هو خالق الوجود ( الشيء ) وخالق الوجود ( الشيء ) لا يمكن أن يكون فيه ، فلو كان فيه ؛ لكان محاطاً ، وإذا قبلنا بذلك ؛ قبلنا بما لا يليق بالخالق الذي يحيط كل شيء ، ولا يحوطه شيء . ولذا لا يُقبل وصف الخالق الحي الدائم الباقي بالمطلق بأنه قديم ، أو أنه في دائرة الوجود الذي لو لم يخلقه ما كان وجوداً ، وما كنّا من المتحدثين عنه ؛ حيث لا وجود لنا إلا فيه ، وعليه : فإن القول بأن الله قديم هو أخذ بمقياس وجودي في وصف الله سبحانه وتعالى وهذا منكّرٌ ؛ لأنه يدخل في باب المقارنة والمباشرة وهو على غير ذلك جل في علاه .

### وعليه أتساءل : هل الإنسان قديم ؟

بالطبع لا يمكن لنا القول بذلك ، فالإنسان هو الإنسان إلى يوم القيامة ، لا يوصف بالقدم ، ولا بالحدثاء ، بل يقال : إنه المخلوق على صفاته التي هي في أحسن التقويم . ولذلك لا علاقة للإنسان بالقدم ، أو الحدثاء ، بل البشر الذين هم على هيئات ، وألوان ، وأعراق ، أو أقوام ، وأمم ، ولغات هم الذين تكون لهم علاقة مباشرة مع التاريخ بالقدم ، أو الحدثاء .

**وعليه أتساءل :** ما هي المعطيات التي تجعل البعض يصف الله بالقديم ؛ وهو القائل : ﴿ أَنَا أَنُحْيِ وَأُمِيتُ ﴾ والقائل : ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وقال : ﴿ وَإِذَا قَضَيْتَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ومن سمى نفسه بالحي ، والباقي ،

(1) البقرة ، 117 .

- وإذا سلمنا افتراضاً بقدّم الله ؛ فما هي الصفة التي يرغبها الداعي ليدع القديم بها حتى تكون الاستجابة شافيةً للأمر الذي دُعي بها إليه ؟ فنحن نعلم : أن الفقير يدعو الغنيّ ، وأن المحتاج يدعو المغنيّ ، أو الكريم ، أو الرحيم ؛

(2) الحديد ، 3 .

لتكون الاستجابة عليه غني ، ورحمة ، ومكرمة ، أو يدعو الأول ليجعله من الفائزين الأوائل ، وهكذا كل الصفات الحسان ، أمّا القديم ؛ فلاجل أيّ حاجة يدعى لتكون الإجابة ؟ !

ومناقشة ما جاء في الدعاء الذي نسب إلى حديث : « نعوذ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِكَ الْقَدِيمِ » أقول : إن الدعاء مكون من جزأين : ( نعوذ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ ) و ( نعوذ بسُلْطَانِكَ الْقَدِيمِ ) فالوجه الكريم يحتوي على اسمه الكريم جل جلاله وهو من الأسماء الحسنی ، والدعاء به حق مطلق ، والسلطان القديم مضاف ، ومضاف إليه لا يرتبط أيّ منهما في هذه الجملة بصفة من صفاته ، ولا باسم من أسمائه الحسنی ، ولذلك فالقديم جاء وصفاً للسلطان ، ولم يكن وصفاً لأيّ اسم من أسماء الله تعالى ، ولذا فهو لا يندرج في هذا الحديث مع قائمة الأسماء الحسنی ، أو غير الحسنی .

والقديم ياؤه تُمد تطويلاً لتعبّر عن البقاء في القدم طويلاً ، وهذا العمق والبقاء لا يكون إلا تحت الإحاطة ، أو في دائرتها ، والله تعالى محيط بكل شيء ، لا يحوطه شيء ، فكيف يقبل البعض أن يكون باقياً في القدم في الوقت الذي يكون فيه القدم جزءاً من الشيء ، وليس كل شيء الذي يعبر عنه اسمه الباقي بالمطلق سبحانه جل جلاله . فالباقي إذاً وصف بالقدم ، وضع في دائرة الإحاطة ، فعلى سبيل المثال : عندما يقال : الباقي القديم يعني : أن الباقي محاط بدائرة القدم ، أما عندما يقال : الباقي دون إلحاق القدم به يكون هو الاسم الحسن الذي يحيط بكل شيء ، ولا يحاط بشيء ، وكذلك عندما يقال : الأول القديم ، أو الآخر القديم ؛ يصبح المعنى ذا دلالة على أن الأول ليس بالأول ، والآخر ليس بالآخر ، وذلك لاحتواء المعنى على دلالة الأول القديم ليس بالأول ، أو ليس بالأول الحديث ، والآخر القديم ليس بالآخر الذي نتحدث عنه ، أو ليس بالآخر الآتي في المستقبل .

ويذكر بعض علماء العقيدة : أن اسم القديم من وضع المتكلمين : « المتكلمون الذين أدخلوا اسم القديم من أسماء الله مخطئون في ذلك ؛ لأن

القديم في لغة العرب يطلق على الشيء البعيد العهد ، وقد يكون له بداية ولا يختص بما لا بداية له « (1) .

وأيضاً : القديم قد يكون قديماً قبل العدم ، وقد يكون قديماً بعد العدم ، ولذا فالعدم ليس بالضرورة أن يكون بعد الموت ، كما هو الحال في مراحل النمو البشري ، والحيواني ، والنباتي ، بل قد يكون بعد الانتهاء ، فمع أن آدم هو آدم إلا أن آدم قبل الهبوط من الجنة غير آدم بعد الهبوط منها ، وهكذا أمر المصنوع الذي يكون شيئاً أثناء المصانعة ، ويكون شيئاً آخر من بعدها ، وهكذا يكون بعد العدم وإعادته على شكله السابق ، أو على الشكل الأفضل منه في دائرة النسبية .

ولأن من أسماء الله الحسنى ( الحق ) فالحق يبقى ، ولا يبلى ، ولا يقدم ولهذا : القديم فاقداً للصفة التي تليق بالأسماء الحسنى ، وهي صفة البقاء الدائم ( الباقي هو كما هو ) .

**وعليه :** إذا قبلنا بأن الله تعالى قديم ؛ علينا أن نقبل بقدم كل شيء ، وإذا قبلنا بقدم كل شيء ألا يدل ذلك على : أنه خلق كل شيء ، وتوقف ؟ وإذا قبلنا بذلك ؛ ألا نكون قد أقررنا : أنه لن يخلق شيئاً جديداً ؟ وإذا قبلنا بذلك ؛ كيف يكون حالنا أمام قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (2) ؟

أي : كيف يكون حالنا أمام ( إذا ) الشرطية ؟

- وكيف يكون حالنا أمام : ( أمراً ) أي أمر يراه ، ويقضي به متى ما يشاء ؟

- وكيف يكون حالنا أمام الفعل : ( يقول ) الفعل المستمر الذي لم

(1) شرح العقيدة الطحاوية للحوالي ، ج 1 ، ص 183 .

(2) البقرة ، 117 .



نعرف بدايته ، ولن نعرف نهايته ، ولا مواقيت حدوثه ، ولا الأمر الذي سيحدث ؟

- وكيف يكون حالنا أمام فعل الأمر : ( كن ) ؟

- وكيف يكون حالنا كلما كان ذلك الأمر العظيم : ( كن ) ؟

- وكيف يكون الحال أمام قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْءًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (1) .

فهل هذه الآية الكريمة تقتصر على قديم ؟ أم أنها مستمرة ؟ وهل هي مقتصرة على شيء بذاته ، أم أنها مطلقة في كل شيء ، ومع كل شيء ؟ ولأن كلامه حق ، والحق يبقى ، ولا يقدم ، ولا يزول ، إذاً : هو الباقي الذي لا تلتصق صفة القدم به أبداً ، ومن وصفه بذلك ؛ جهله مع أنه هو ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (2) .

قال تعالى : ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (3) . يفهم من هذه الآية الكريمة لو كان فيها أكثر من إله لفسدت وذلك بالمشادات التي ستحدث بين القديم ، والأقدم ، أو الأقدم منهم جميعاً ، ولأنه الله الواحد القهار فالأمر كل الأمر بيده لا شريك له .

**وعليه :** فمن يقبل بأن الله قديم يقبل بأن القرآن قديم ، وأن جميع الأنبياء قدامى بما فيهم محمد ، عليه الصلاة والسلام ، وأن الجنة قديمة ، والنار قديمة ، والحساب قديم ، والثواب قديم ، والعقاب قديم ، وكل ما خلق قديم ، وكأنهم يودون أن يقولوا : لا شيء يمكن أن يكون محدثاً إلا ما يخلقه

(1) ياسين ، 82 .

(2) الحديد ، 3 .

(3) المؤمنون ، 91 .

الإنسان ، ونحن نقول : ما يخالف ذلك : الله الباقي ، والقرآن باقٍ ، والأنبياء باقون أنبياء ، ومحمد خاتمهم باقٍ رسولا لله الباقي ، وكذلك الجنة باقية ، والنار باقية ، وكل ما خلق باقٍ ، وهو الخلاق العليم وهكذا سيظل الباقي الخالق ، ويبقى قوله تعالى باقياً : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ (١) ولذا كل شيء منه وبه باقٍ ، ولن يبقى ما يخلقه المخلوق ، بل لا بد أن يفنى ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، ويكون الجميع شهداء على أنه الباقي يوم يسألهم : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ ؟ فتكون الإجابة : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ويومها يعلم الجميع : مسلمٌ ، وكافرٌ ، ومشركٌ ، وضالٌّ : أنه الباقي هو كما هو سبحانه جل جلاله ، ولهذا لا يتم القبول ، أو التسليم بأن ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ هي آية في دائرة القدم وكذلك حال الآية الكريمة : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ أي : إذا قبلنا بذلك في دائرة القدم ؛ نقبل بأنهما خارج دائرة البقاء ، ولذا فاستواؤه على العرش لا يقدم ، ولا يبلى ، وبقاء عرشه على الماء لا يقدم ولا يبلى ، فكما هو عرش مستوٍ هو يبقى ، وكما هو عرش على الماء هو يبقى ، ولذلك فهو ذو العرش المجيد ، وهو الفَعَّال لما يريد : ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ (٢) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ .

وإذا سلم البعض بأنه قديم ؛ فكيف يواجهون قوله الباقي : ﴿ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعِيدُ ﴾ (٣) ؟ أي : أنه لا يتوقف عند البدء ، بل هو يعيد ما بدأ متى ما شاء ، ولذلك فهو الفَعَّال لما يريد متى ما أراد ، والذي يفعل ما يريد متى ما أراد ، وكيفما يريد ، فهو الباقي على ما هو عليه من القوة ، والقدرة ، وكل الصفات الحسنى ، والأفعال الحسنى ، ولأنها حسنى فهي لا توصف بالقدم ، ذلك لأن

(1) يس ، 81-83 .

(2) البروج ، 15-16 .

(3) البروج ، 13 .

القدم يشوه الصفة ، والموصوف بالتبذل ، والتغيّر ولذا نحن نستغفر ، ونؤكد على أنه الباقي ، ولأنه كذلك ، فهو الفَعَال لما يريد متى ما أراد .

وبالعودة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعِيدُ ﴾ يتبين لنا : أن الذي يبدئ هو الخالق الباقي ، وأن ما يبدؤه مخلوق يقدم ، ولا يبقى ، ولذلك فما يبدؤه يقدم ، وينعدم ، ويفنى ، وهو الباقي الذي يعيده من جديد مجدداً .

ولأن القرآن كلام الله الباقي ؛ فهو باقٍ ( هو كما هو ) لا يبلى ، ولا يقدم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ نَّجِيدٌ ﴿٢٦﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ <sup>(1)</sup> ومعنى ذلك : أن القرآن الكريم لا يقدم ، بل هو باقٍ ( هو كما هو منزل ) واللوح المحفوظ ليس المصحف الذي يبلى بالقدم ، وتمزق أوراقه ، بل هو الذاكرة اليقينية التي منها استُمدّت الذاكرة العقلية بالنسبة لبني الإنسان ، ولذا فاللوح المحفوظ هو المعجزة التي لا يمكن تحديدها في مفهوم ، أو مصطلح ، ولكن بالتحليل ، والتعليل يتم استيعاب مراميها التي تدلّ على أن اللوح المحفوظ هو الذي لا تمسه أيدي المخلوقات ، ولا تمسه الحركة ، والزمن ، والسكون ، ولذلك فاللوح المحفوظ باقٍ لا يقدم ، ولهذا لا يُقبل أن يقال : ( القرآن قديم ) القرآن كلام الله ، ولأن الله هو الباقي ، فكلامه لا ينفصل عنه ، فهو الباقي سبحانه جل جلاله !

ولأن القرآن كلام الله ؛ فكلام الله بطبيعة الحال لا يكون إلا في اللوح المحفوظ ، ولذا علينا أن نميز بين كلام الله ، والأحرف الناقلة لكلامه ، فالأحرف تبدي ، وتبلى في الصفحات التي تكتب فيها ، ويبقى كلام الله باقياً لا يبيد ، ولا يبلى ، وعليه فالأحرف والجمل المكتوبة بها ، والصفحات المكتوب عليها ، والكتّاب تبدي ، وتقدم ، وتفنى ، ويبقى كلام الله في اللوح المحفوظ الذي لا يتبدل ، ولا يتغيّر ، ولا يكون بين أيدي العباد . ولذلك فالكلمات المخطوطة ، والمكتوبة تقوم مقام الكلمات المحفوظة في اللوح

(1) البروج ، 21-22 .

المحفوظ ، ولكنها لا تحل محلها ، وحاملها يقوم مقام الفعل المراد تحقيقه من الله تعالى ، ويتصف بصفاته ، ولكنه لا يحل محله . وللتمييز بين الكلمة المحفوظة في اللوح المحفوظ ، والكلمة المحفوظة في المصحف المكتوب ، والمخطوط ، أقول : فإنَّ كلام الله باقٍ لا يتغيَّر ، ولا يفصل عن ذاته ، وصفاته ، وأفعاله الحسان ، أمَّا الكلام المكتوب والمخطوط يتأثر بالمصطلح ، والمدلول ، والمشبه ، والموصوف وبالأحرف التي يكتب بها ، فالكلم الذي نزل بلسان عربي مبين لا يمكن أن يكون هذا الكلم ( هو كما هو ) إلا باللسان المبين الذي أنزل به ، ولذا فعندما ينقل للألسن الأخرى يحتاج إلى ترجمة ، وتفسير ، وهذا الأمر قد لا ينقله للآخرين ( هو كما هو ) بأسباب اختلاف ، وتنوع المصطلحات ، والمفاهيم ، والدلائل ، والتشبيهات ، والعبارات ، وكذلك بأسباب اختلاف الأحرف الناقلة للكلم المبين .

وإذا سلّم البعض بأن القرآن كلام الله تعالى قديم ؛ ألا يجدوا أنفسهم على اتفاق مع الكفرة الذين قال فيهم تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (1) ؛ أي : فسيقولون هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ أكاذيب من أخبار الأولين قديمة ، وهذا المعنى يستوجب على المؤمنين ألا يربطوا صفة القدم بالقرآن ، كما ربطها أولئك الكفرة المشار إليهم في هذه الآية الكريمة ، وبطبيعة الحال إذا سلمنا بقدم القرآن ؛ علينا أن نقبل بما يلتصق به من إفك ، ولأننا على اليقين ندرك : أن القرآن هو كلام الله الباقي في اللوح المحفوظ ( هو كما هو ) لا يقدم ، ولا يبلو ، ولا يبيد .

وبالعودة إلى القرآن الكريم لا يوجد ما يدل على أن الله قديم ولا ينبغي أن يتصف بالقدم ، فلم يرد في القرآن بهذا الخصوص إلا الآيات التالية التي احتوت على كلمة ( قديم ، والقدم ) وهي لا علاقة لها بالموضوع بتاتاً . قال

(1) الأحقاف ، 11 .

تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ <sup>(1)</sup> العرجون القديم هو عرجون النخلة بعد أن انحنى ، وبيس ، وفقد ثماره ، والأمر هنا في محل وصف عائد على القمر في نهاية الشهر عندما يعود هلالاً ؛ أي : وصف الله مخلوقاً بمخلوق ( العرجون القديم بالقمر في نهاية الشهر ) ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ <sup>(2)</sup> وقال تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ <sup>(3)</sup> هذه أيضاً تعود على المخلوق : ( على يعقوب عليّاً ) .

**وعليه :** فأسماء الله الحسنى سمى بها نفسه ، ولم يسمه بها أحد ليقال : إن من بين أسمائه الحسنى اسمه ( القديم ) ، أما ما جاء في الحديث « أَعُوذُ بِوَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ » <sup>(4)</sup> فالقديم عائدة على السلطان ، وغير عائدة على اسم من أسمائه الحسنى ، ويقصد بالقديم هنا السلطان الدائم ، وليس ذلك الذي يبيد ، ويفنى ، « سلطان الله القديم الذي هو صفة تدبيره سبحانه ، وهذه ليست راجعة إلى الاسم القديم الذي يدلُّ على الذات ، كما هو معلوم : أن الأسماء تدل على الذات ، وتدل على الصفات » <sup>(5)</sup> .

- القدم صفة ترتبط بالشيء الذي يمضي ، ويكون من بعده من هو آتٍ ليصفه في دائرة المقارنة ، ولذا فالقدم صفة للمخلوق ، وليس كما يظن البعض صفة للخالق . والذي يمضي يقاس في دائرة النسبية بالزمان ، والحركة ، والمكان ، والذي يقاس بذلك له بداية ، ونهاية ، ويحاط ، والباقي جل جلاله هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ؛ الذي ليس له بداية ، ولا نهاية ، يحيط ، ولا يُحاط ، سبحانه لا إله إلا هو !

(1) يس ، 39 .

(2) الأحقاف ، 11 .

(3) يوسف ، 95 .

(4) شرح العقيدة الطحاوية - صالح آل الشيخ ، ج 1 ، ص 43 .

(5) إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل ، ج 3 ، ص 5 .

إذاً الله تعالى هو الباقي ، وكلامه باقٍ ، وعلمه باقٍ ، ومن يقبل بأنه قديم ؛ فقد ربطه بالماضي ، ومن يربطه بذلك فقد قبل إثباتاً بارتباطه بالزمن ، ومن يقبل بذلك يصعب عليه نفي دائرة النسبية التي لا يليق أن يتصف بها من يحيط بكل محيط ( يحيط ، ولا يحاط ) ، ومن يقول بكلامه قديم ، وعلمه قديم يضعه في دائرة المقارنة بالزمن ، وكأن له كلاماً جديداً ، وعلماً جديداً يختلف عن ذلك القديم ؛ أي : وكأن كلامه ، وعلمه لم يكن في اللوح المحفوظ باقياً ( هو كما هو ) .

قال تعالى : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ <sup>(1)</sup> فقلوه : ﴿ هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ تدل على أنه غير القابل للوصف بالقديم البعيد ، ولهذا قال : ﴿ هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ ولم يقل : ( القرآن ) دون أن يسبقه بكلمة ( هذا ) الدال على الإشارة للقريب ، والإشارة للقريب تختلف عن الإشارة للبعيد ، ولذا فلو كان القرآن قديماً بعيداً ؛ ما جاء قوله : ﴿ هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ .

ومن يقبل بأن القرآن قديم ليس له بُدٌّ إلا أن يقبل بما نهى عنه دون اجتناب ونهي ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ <sup>(2)</sup> حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ <sup>(2)</sup> لذا فمن يقبل بالقول : إن كلام الله قديم ، وإن القرآن قديم يقبل بأن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ ويقبل : أن

(1) الإسراء ، ٨٨ .

(2) النساء ، 22-23 .

قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ... ﴾ إلى آخر الآية قديم ، وإذا قبل بذلك ؛ قد يجد نفسه يفعل مع من نهى عنه ، وحرّم ، وأيضاً من يقبل بذلك قد يجد نفسه في موضع بين شيئين :

**الشيء الأول :** أنّ هذا القول قديم ، وبالتالي لا يؤخذ به لعدم مناسبته لما يجب .

**الشيء الثاني :** أنّ هذا القول قديم ، وعليه بالمحدث ، أو ينتظر محدثاً .

وفي كلا الحالتين هذا التفكير وما هو على مثله كفرٌ ، وشركٌ ، حيث لا مُحدث مع ( الباقي ، والأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ) ولذا فعلى المسلم أن يقول قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لا شريك لله وبذلك أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٦﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١﴾ .

قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْنَقِيسُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنِ ﴾ (2) ، إذا قبل أحدٌ بأنّ تحريم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير قولٌ قديم ، أو كلام قديم ؛ ألا يعني مما يعني : أن ذلك القديم لا داعي للأخذ به ؟ وكذلك عندما يقبل بأن قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَسْنَقِيسُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَمْ فِسْقٌ ﴾ هو قديم ألا يعني مما يعني : أن ذلك الأمر لم يعد الأخذ به ، وعليكم باستقسام الأزام ؟

ولإثبات : أنّه الباقي ، وقوله باقي قال : ﴿ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

(1) الأنعام ، 162-164 .

(2) المائدة ، 3 .

دِينَكُمْ ﴿ فَكَلِمَةٌ : ﴿ الْيَوْمَ ﴾ تعني : كل يوم من أيامه المخلوقة ، وهذه دليل البقاء للقول الذي أنزله ( هو كما هو ) لا يبيد ، ولا يقدم ، ولا يقبل الوصف بذلك . ولذا فمن الأفضل أن نقول : كلام الله باقٍ ، والقرآن باقٍ ، حتى لا يدخل الظنُّ نفوس الظانين بالله ظنَّ السوء ؛ أي : لا ينبغي أن نقول : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ وما تلاها من المحرمات كلام قديم بل نقول كلام باقٍ ، وهكذا لا ينبغي أن نقول : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ ﴾ وما تلاها من المحرمات كلام قديم ، بل نقول ؛ ونحن على اليقين : إن الله باقٍ ، وكلامه باقٍ ، والقرآن باقٍ ، لا يقدم ، ولا يلبى . ولا ينبغي أن نقول : النهي عن الخمر ، وما تلاه من المنهي عنه كلام قديم ، بل نقول ؛ ونحن على اليقين : أنه كلام باقٍ لا يتبدل ، ولا يتغير ، ولا يبيد ، ولا يقدم ، ولا يلبى . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴾ (1) ؟ أي : هل أنتم منتهون عن كلٍّ محرَّم ، وعن كل رجس من عمل الشيطان مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (2) ، ولهذا فالأمر بالانتهاء عن الشيء المحرم ، والمنهي عنه بالمطلق سيظل باقياً ، ولا يقدم ، فمثل ما هو باقٍ كلامه باقٍ ، لا يبيد ، ولا يقدم كما يستشهد ابن تيمية على ذلك بكلام بعض المؤيدين الذين قالوا : « كلام الله غير مخلوق ، ولا قديم » (3) .

وبعد فإن اسم القديم لا يستقيم مع أسماء الله الحسنى ؛ التي سمى بها نفسه ، وعلمنا طرق تحرِّيها ، وإحصائها لعله في مضمون اسم القديم لا تناسب صفة من صفات الذات ، فهو لا يليق أن يكون اسماً من الأسماء الحسنى .



(1) المائدة ، 91 .

(2) المائدة ، 90 .

(3) مجموع فتاوى ابن تيمية ( التفسير ) ج 1 ، ص 349 .



## العدم

إنَّ البحث في هذا النوع من الموضوعات لا يتوقف على المادية العلمية ولا على الميتافيزيقا البحتة ، وإنما هو إجابات لتساؤلات عن قضايا فكرية أثَّرت البحث العلمي في مختلف حقول المعرفة ، من أجل الوصول إلى إرواء غليل الفكر الإنساني في القضايا الكبرى التي كانت ، وما تزال مصدر الاهتمام ، ومحور التفكير ، وخاصة في الوجود ، والعدم .

فهل أنَّ الوجود من العدم ؟

أم أنَّ العدم جزءٌ من الوجود ؟

هل الإجابة خارج الفكر الإنساني ؟

إن تناول هذا الموضوع ( العدم ) من وجهة نظرنا وحسب ما تبدَّى لنا من المصطلح سيكون من الخطورة بمكان ، لما نشأ عليه أجيال متعاقبة مما رسخ من الفهم في دلالة اللفظة التي ألفتها تلك الأجيال من كل مَنْ تكلم به ، أو قرأ عنه في وضوح دلالاته المقصودة عند استخدام تلك اللفظة من أن العدم هو اللاشيء .

**لذلك نقول للقارئ الكريم :** ألا يصدر حكماً قبل أن يفرغ ، ولا يفرغ قبل أن يعي ، وحسبنا فيما نقول أننا لم نخرج في شواهدنا عن كتاب الله تعالى ، وعن أحاديث نبينا ، عليه الصلاة والسلام ، والاحتكام إلى لغة القرآن .  
ففي التعريفات : العدم : « فقدان الشيء ، وذهابه ، وعدم الشيء : فقده ، فلم يعثر عليه » (1) .

(1) تفسير الطبري ، ج 1 ، ص 55 .

وكذلك في كتب اللغة : أن العدم هو : « فقدان الشيء ، وذهابه » (1) .  
 « إنه تعالى هو المنعم على عبده ، بإخراجهم من العدم إلى الوجود ،  
 وإسباغهم النعم الظاهرة والباطنة » (2) .

« إنه هو الذي أحيا الخلق من العدم ، ثم يميتهم ، ثم يبعثهم » (3) .

وبما أن في علم اللغة العدم ( فقدان الشيء وذهابه ، وفقده ، وعدم  
 العثور عليه ) فكيف يكون ذلك المفقود شيئاً ، وفي ذات الوقت لا يمكن  
 العثور عليه ؟ فيما أنه شيء لا يمكن أن يخرج عن الوجود ، وإذا كان العدم هو  
 وجوداً ؛ إذاً ليس له مفر من أن يكون مخلوقاً ، وإذا سلمنا بذلك ؛ فلا يحق لنا  
 القول : إن الله خلق المخلوقات من العدم ، أي : وكأننا نقول لو لم يكن العدم  
 ما كان الخلق . نحن نقول : إن الخالق خلق الحياة أولاً من لا شيء ، مما  
 يجعل الحياة شيئاً مخلوقاً ، له بداية ، ونهاية ، ثم خلق الأزواج فيها ، حيث  
 قال تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا  
 لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (4) ثم خلق الموت لملاحقة الحياة ليكون لكل بداية ونهاية في  
 الحياة الدنيا ، من أجل الوصول إلى الآخرة في المراحل التي يمرُّ بها الخلق  
 وهي :

1 - الحياة .

2 - الموت .

3 - العدم .

4 - البعث .

(1) العين ، ج 1 ، ص 97 ، وتهذيب اللغة ، ج 1 ، ص 237 .

(2) تفسير ابن كثير ، ج 1 ، ص 194 .

(3) المصدر السابق ، ج 4 ، ص 531 .

(4) يس ، 36 .

5 - موت الموت .

6 - الخلود .

ومع هذا لم نغفل عن قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ <sup>(1)</sup> في هذه الآية دليل على خلق الموت العادم للحياة ، وإن تقدم الموت على الحياة ، فليس من باب أسبقية الموت على الحياة ولا تقديم الحياة على الموت ، وإنما خلق الله بفعل : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ بصرف النظر عن المادة ، والمدة ، ومع هذا لا تناقض فيما ذهبنا إليه من أن الموت يلاحق الحياة ، فهي تتقدمه ، وهو يتبعها ، فكيف يكون ذلك ، ولا يعارض الآية .

إذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ <sup>(2)</sup> علمنا : أن هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فعندما خلق الخلق أمواتاً ، وجب أن يقول : ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ ليناسب السياق القرآني ، والله تعالى لم يبت في الإنسان الحياة ، وإنما بث فيه الروح ، ذلك : أن الحياة عامة بدليل الخلق العام ، فالحياة هي الخلق ، والموت جزء من الخلق ، فهو جزء من الحياة بدليل موته كما سيأتي .

ودليل آخر : أنه لو كان الموت أسبق من الحياة ، لم تكن الآية بالصورة التي هي عليها ، وإنما وجب أن تكون : كنتم أحياء فأماتكم ، ثم يحييكم ، ثم يميتكم . وهذا لا يستقيم لا شرعاً ، ولا عقلاً ، فالدائرة التي انتهت بالحياة يجب أن تكون ابتدأت بالحياة .

الموت عبارة عن عدم صفة الحياة عن مادة تقبلها ، بمعنى : أن الموت ،

(1) الملك ، 2 .

(2) البقرة ، 28 .

والحياة من باب العدم ، والملكة ، فإن الحياة هي الإحساس ، والحركة الإرادية ، والاضطرارية ، كالحاجة ، والتنفس ، والموت عدم ذلك : « عما من شأنه أن تكون الحياة ما يصح بوجودها الإحساس ، والموت عدم ذلك . ومعنى ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ إيجاد ذلك المصحح ، وإعدامه . أي : إيجاد أثر الموت بقطع ضوء الروح عن ظاهر الحي ، وباطنه مع كونه في غاية الاقتدار على الحركة ، والتقلب بنفسه بالإرادة ، وعدم تلك الملكة ليس عدماً محضاً ، بل فيه شائبة الوجود ، وإلا لم يعتبر فيه المحل القابل للأمر الوجودي . فلذلك صحَّ تعلق الخلق بالموت كتعلقه بالحياة ، وبهذا التقرير اندفع ما اعترضوا به من أن العدم حال لا يكون مخلوقاً » (1) .

**وعليه :** لا عدم إلا بعد الحياة المبنوثة بنفخ الروح في الصورة ، ثم لا نهاية للحياة إلا بالموت ، ثم لا موت إلا بعدم ، ولا خروج من العدم إلا ببعث يؤذن بالخلود ، ولا خلود إلا بموت الموت ، ولذلك فمعطيات الحياة وفق ما تقدم هي :

- 1 - خلق الحياة في الأحياء : بث الروح في الصورة .
  - 2 - مفارقة الحياة للأحياء ، إخراج الروح من الصورة ( الموت ) .
  - 3 - دخول الأحياء في العدم .
  - 4 - البعث : الخروج من العدم وبثُّ الروح في الصورة .
  - 5 - موت الموت : في الحياة الآخرة .
  - 6 - الخلود : حياة سرمدية للأشقياء ، والسعداء .
- قال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (2) الكلام موجه للمخلوق الذي خُلق بالأمر ( كن ) بفعل التزاورج وهو أهون من خلقه من

(1) تفسير حقي ، ج 15 ، ص 437 .

(2) مريم ، 9 .

لا شيء ، أي : أن الإنجاب عن طريق الأشياء المخلوقة من كائنات حيوانية وبشرية وغيرها لم يكن أصعب من الخلق من لا شيء ، ولذلك في قولٍ للمقارنة فقط إن توفرت الأشياء فهذا أيسر للخلق ، ولكن أن تيسر أمور الخلق بالفعل ( كن ) دون أن يكون هناك وجود لشيء مخلوق ؛ فهنا ينبغي أن يكون التفكير ، والتدبر من أجل بلوغ المعرفة الواعية المؤدية للإيمان .

- التفكير في الخلق من لا شيء على المستوى الذهني لبني آدم يكون أصعب من التفكير في بعث الأموات أحياء ، وذلك لبقاء الأموات أثراً في عالم الوجود ، فالذي له أثر لوجوده ؛ فبعثه أيسر من الذي لا أثر له ، ولكن لأن مالك الملك يملك الأمر في ملكه فكل شيء له ميسرٌ في ملكه ، ولا فرق في ذلك سبحانه ، إنه الأعظم !

وبما أنه لا عدم إلا لوجود ، أو موجود ، وأن العدم يُعدم ، ويزول ؛ إذاً يُعدُّ العدم من عالم الوجود ، وإلا هل يمكن أن يموت الموت ، وتبقى الحياة سرمدية لو لم يكن العدم موجوداً ؟ ! ولأنه موجود فهو يُفعل ، ولأنه يُفعل يترك أثراً من بعده . فالموت الأول تخرج الروح به من الصورة ، أو الهيئة التي من بعده تصبح هامدة ، والموت الآخر هو الذي يفتك بالموت الأول فتكون الحياة من بعده في عالم الديمومة .

- فلو تساءل أحد : هل العدم موجود ؟

فماذا يتبادر للفكر من إجابات ؟

وفي اعتقادنا : أن الإجابة لا تخرج عن الاحتمالين الآتين :

1 - نعم ، إنه موجود .

2 - لا ، ليس له وجود .

وفي كلا الاحتمالين ( سلباً ، وإيجاباً ) نتساءل :

هل يمكن لك أن تنفي شيئاً لو لم يكن موجوداً ؟

تكون الإجابة بالطبع : لا .

هل يمكن لك أن تعترف بشيء لو لم يكن موجوداً ؟

أيضاً تكون الإجابة بالطبع : لا .

إذاً في كلتا الإجابتين اعتراف واضح لا لبس فيه بوجود العدم ، وبما أنه موجود ( مخلوق ) فلا بد من ورائه واجد ( خالق عظيم ) .

ولأنه كذلك فهو يتساوى مع المخلوقات الأخرى من حيث كونه مخلوقاً ويتميز عن غيره من المخلوقات بالخصوصية كما غيره يتميز عنه بالخصوصية التي خلق عليها .

ولذلك لا يتم الاتفاق مع القائلين بأن العدم هو الأصل « الأصل هو العدم » <sup>(1)</sup> . فالأصل هو السمة السائدة ، والغالبة ، وبمقارنة العدم بالحياة ، نلاحظ : أن السرمدية هي للحياة ، وليس للموت ، وبهذا تكون الصفة السائدة والغالبة بالقوة هي الحياة .

وعليه فالحياة حياتان :

1 - في الدنيا : الحياة فانية بالموت .

2 - الحياة الباقية : الحياة الدائمة بعد موت الموت ، وهذه السمة الدائمة ( سمة الحياة ) . « فجنس الموت كله ينقضي ، وينتهي ، والحياة ثابتة دائمة ، ولذلك ورد ما صح عنه عليه السلام في أن الموت يُذبح ، إعلماً بانقضاء جنسه ، وثبات الحياة » <sup>(2)</sup> .

حيث قال عليه الصلاة والسلام : « يؤتى بالموت يوم القيامة في هيئة كبش أملح ، فيقال : يا أهل الجنة ! فيطلعون خائفين وجلين مخافة أن يخرجوا مما

(1) تفسير الرازي ، ج 1 ، ص 53 .

(2) نظم الدرر للبقاعي ، ج 1 ، ص 48 .

هم فيه فيقال : تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ! ثم يقال : يا أهل النار ! فيطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا مما هم فيه ، فيقال : أتعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ! فيأمر به ، فيذبح على الصراط ، فيقال للفريقين : خلود فيما تجدون لا موت فيها أبداً<sup>(1)</sup> .

**والقول :** « بأن القَبَلِيَّة تقتضي العدم ؛ الذي هو صفة المخلوق »<sup>(2)</sup> قول يحتاج إلى إضافة ، وهي : كل قبلية ، وبعدية في ثنائية ( الحياة والموت ) تقتضي العدم إلى أن يتم بلوغ الحياة الدائمة بعد العدم الدائم .

**وقد يتساءل البعض :**

- ما هي العلاقة بين الحياة المؤقتة ، والعدم المؤقت ؟

علاقة بداية ، ونهاية . الحياة الدنيا حياة زائلة بالموت ؛ الذي يلاحقها دون أن تفلت منه .

- ما هي العلاقة بين الموت الدائم ، والحياة الدائمة ؟

علاقة سرمدية . الموت لن يبعث من جديد ، وبذلك سيكون في موته سرمدياً ، والحياة الآخرة لن يكون من بعدها عدم ، فتبقى سرمدية .

ولذلك فمن يقول : « الذي أوجدني من العدم في أحسن تقويم »<sup>(3)</sup> يكون صائباً لو قال الذي خلقتني من تراب بدلاً من الذي أوجدني من العدم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾<sup>(4)</sup> ، وذلك لأن العدم شيء ، والتراب شيء آخر سابق عليه ،

(1) رواه البخاري ( 6548 ) ، ومسلم ( 2849 ) وغيرهما ، وانظره في : المستدرک ، ج

1 ، ص 268 .

(2) نظم الدرر للبقاعي ، ج 2 ، ص 58 .

(3) المنتخب ، ج 2 ، ص 139 .

(4) آل عمران ، 59 .

ونحن الذين خُلِقْنَا من التراب ، والطين اللالزب ، ولم نكن مخلوقين من العدم الذي هو الآخر مخلوق لأجل القضاء على الحركة الحياة .

ومن حيث الأسبقية لا يمكن أن يكون العدم أولاً ، فلو كان أولاً ؛ لما كان للحياة وجود ، وهذا المبرر كاف لبقاء المخلوقات على قيد الحياة حتى تعدم بالموت ، فإذا اعتبرنا المعركة حامية الوطيس بين قابيل ، وأخيه هابيل هي المسبب لكشف اللثام عن وجه الموت ، وإعلان نفسه مخلوقاً قادراً على إنهاء الحياة بالأمر ( كن ) الذي أصدره الله إليه ، قال تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ <sup>(1)</sup> ألا يكون ذلك دليلاً على أسبقية الحياة على العدم ؟ أي : دليل على ملاحقة الموت للحياة أينما تكون ؟

- قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ <sup>(2)</sup> من هذه الآية الكريمة يتم الوقوف على أولوية الخلق ( الحياة ) ، أي : خلق الحياة أولاً ، والموت ثانياً ، ولذلك قال : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ، ثم تلاها بقوله : ﴿ وَيُمِيتُ ﴾ ثانياً ، أي : إن الموت مترتب على وجود الحياة ، وملاحق لها ، وهذا الأمر هو الذي جعل ( الحياة أولاً ، والموت ثانياً ) .

ولدفع الوهم الذي يتبادر إلى الذهن من الآيتين اللتين ابتدأتا بالموت وهذه الآية ابتدأت بالحياة نقول : ذلك لمناسبة الآية التي قبلها في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ <sup>(3)</sup> فعندما ذكر الخلق في بداية الآية ، وهي الحياة ، وانتهت بالموت ( الأجل المسمى ) ما كان ينبغي إلا أن يذكر في الآية التالية

(1) المائدة ، 30 .

(2) غافر ، 68 .

(3) غافر ، 67 .



الحياة أولاً ثم الموت ثانياً لمناسبة السياق القرآني ، علماً بأن الموت خلق من الشيء ضمن الخلق العام للحياة كما تقدم .

- وهناك من يقول : « وهو خلقكم أول مرة من العدم » <sup>(1)</sup> هناك لبس في المفهوم من حيث الخلق الأول ، فالخلق الأول كما سبق القول ليس من العدم بل من لا شيء ، ثم خلق الشيء ، ثم خلق الأشياء من الشيء ، وهكذا من ضمن خلقه للشيء خلق الموت ؛ ليلحق الحياة إعداماً لها .

ولذلك كان الخلق على النحو الآتي :

**الأول : خلق الشيء من لا شيء :** قال تعالى : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ <sup>(2)</sup> إذاً خلق الشيء من لا شيء هو الخلق الأول الذي خلق منه الله الأشياء ، وكل مخلوق مناسب في شيء لطبعه ، وصفاته ، وخصائصه خلق التراب والطين لكل صنف ومخلوق وهو الأصل ، والشيء هو البداية ، ولكل بداية نهاية تلاحقه ، فلا تكون إن لم يكن .

**الثاني : خلق الأشياء من الشيء :** ( المخلوق الأول ) خلق آدم من التراب ، وهو الشيء الذي منه الطين اللازب ، أي : أنه خلق الزوجين من الشيء الواحد ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ <sup>(3)</sup> ، وجعل الموت يلاحق ما خلق وفقاً لقاعدة : ( كل شيء بحسبان ) ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكَبْتُمْ مَا Χَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ <sup>(4)</sup> فالذي حولهم فيه تعالى هو الشيء الذي منه ، وله خلقوا ، فالأرض هي الشيء الذي منه خلق المخلوقات الأرضية ( المخلوقة من الأرض ) وهي الشيء ذاته الذي حوله الله تعالى لمن يخلفون في الأرض ؛

(1) المنتخب ، ج 2 ، ص 335 .

(2) مريم ، 67 .

(3) الذاريات ، 49 .

(4) الأنعام ، 94 .

ليصلحوا فيها ، ولا يفسدوا ، ولا يسفكوا الدماء بغير حق .

**الثالث : الخلق من المخلوقين من الأشياء :** الخلق من النطفة المترتبة على خلقه تعالى للزوجين من التراب : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (1) نلاحظ عمليات التطور للخلق في أحسن تقويم ، فكان الخلق من التراب ، ثم من النطفة ، ثم من العلقة ، ثم إخراج الطفولة مولوداً ، وهكذا يستمر النمو لمن لم تكن له النهاية المبكرة في أي مرحلة من مراحل النمو إلى النهاية : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمَيِّتُونَ ﴾ (2) . ووفقاً لما سبق تبيانه ، فالتراب هو الذي منه خلق الزوجين : الذكر ، والأنثى ، ومن الزوجين خلق التكاثر .

**الرابع : خلق البعث :** الذي لا يمكن أن يكون له البقاء إن لم يُعدم الموت من الوجود الحي ، ولذا فالبعث إعادة الحياة لمن سبق وأن عاش الحياة الأولى ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (3) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَماً فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (4) .

يلاحظ من هذه الآيات الكريمة السابقة : أن وراء كل خلق في المراحل السابقة موتاً ، وعندما إلا المرحلة الرابعة ( خلق البعث ) فهي مرحلة الخلق

(1) غافر ، 68 .

(2) الزمر ، 30 .

(3) يس ، 79 .

(4) المؤمنون ، 12-16 .

الدائم ، التي لا يلاحقها عدم ، حيث موت الموت ، ولذلك الدار الدنيا دار فناء ، والدار الآخرة دار بقاء . ولكن أين يكون البقاء فيها ؟

الإجابة على هذا السؤال ترتبط بما قدمت يدا الإنسان من عمل ، فإن كان من المستخلفين فيها ؛ فالجنة هي المأوى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ ﴾<sup>(1)</sup> ، وإن كان من المفسدين فيها ، وسافكي الدماء ؛ فجهنم هي المأوى ، قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۖ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ ﴾<sup>(2)</sup> .

- وهناك من يقول « العدم ليس بشيء »<sup>(3)</sup> ، ونحن نعتقد أنه :

- لو لم يكن شيئاً ؛ ما كان له وجود .
- ولو لم يكن شيئاً ؛ ما كان يفعل .
- ولو لم يكن شيئاً ؛ ما كان له أثر .
- ولو لم يكن شيئاً ؛ ما كانت له النهاية السرمديّة .
- ولو لم يكن شيئاً ؛ ما تحدثنا عنه اختلافاً ، واتفاقاً .
- ولو لم يكن شيئاً ؛ ما كتبنا عنه شيئاً .

فالعدم شيء من الأشياء المخلوقة ، مثله في الخلق مثل جميع المخلوقات الإدراكية ؛ التي لا تتجسد في مادة ، وإنما تلحظ من خلال انعكاس نتائجها على الأشياء المادية ، مثل الخير ، والشر .

ولو أن البعض يقول : « إن الشرَّ إما عدم ، وإما من لوازم العدم »<sup>(4)</sup> .

(1) النازعات ، 40 - 41 .

(2) النازعات ، 37-39 .

(3) مجموع فتاوى ابن تيمية ( التفسير ) ، ج 2 ، ص 368 .

(4) مجموع فتاوى ابن تيمية ( التفسير ) ، ج 5 ، ص 110 .

**ونحن نقول :** إن الشرَّ عمل ، وفعل من أفعالنا ، ولسنا مجبرين عليه ، إنه من اختياراتنا ، وإرادتنا ولم يكن فرضاً لا مفراً منه ، كما هو حال إعدام الموت الذي لا مفر منه أبداً ، قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (1) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ (2) . ولذا فالشر من صفات المفسدين في الأرض ، وسافكي الدماء بغير حق ، والشرُّ أَلَم ، والأَلَم ليس عدماً ، ولأن الشرَّ أَلَمٌ ؛ فهو قد يؤدي إلى العدم ، وإذا ما أدَّى إلى العدم ، فإنه يصبح من مسبباته ، والمُسَبَّب غير السَّبَب ، وغير المُسَبَّب ، ولذلك وراء كل علة معلول .

ولهذا لم نقف في القرآن الكريم على لفظة العدم ، ولم ترد لا بجذرها اللغوي ( عدم ) ولا من اشتقاق لفظها ، ولم تكن من أسماء الله تعالى ولا من صفاته ، لا نصاً ، ولا تصريحاً ، ولا تلميحاً ، وإنما جاء قوله تعالى : ﴿ يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (3) أي : هو مبدعهما ، فقد ابتدعهما ، ولم يكونا شيئاً ، فالبديع هو المبدع ، وهو الذي يدع الأشياء ، ويحدثها ، أو ينشئها على غير مثال سبق ، والإبداع الإلهي هو إيجاد الشيء لا عن شيء دفعةً واحدةً من غير مادة ، ومدة ؛ إذ ليس للعدم وجود ، ولا ذكر .

قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۚ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (4) .

(1) فصلت ، 46 .

(2) ال عمران ، 180 .

(3) البقرة ، 117 .

(4) الرعد ، 15-16 .

وهذه الآيات تلمّ شعث ما تفرّق في هذا الموضوع إن كان ثمّ تفرّق ،  
وذلك ؛ لأنها تدلّ على أن :

أ - جميع الخلق مدعّن الله تعالى .

ب - هناك من الخلق من يشتهب الخلق عليهم .

ج - الله تعالى خالق كل شيء .

د - الله تعالى له القدرة المطلقة في قهر كل شيء .

إن جميع ما خلق الله تعالى هي أشياء ، والشيء لفظ عام يشمل المادي ،  
والمعنوي ، والحسيّ ، والإدراكي ، والمشاهد ، والغيبى ، والنفسي ،  
والذهني ، والروحي ، والقلبي ، كبيره ، وصغيره ، وجليله ، ودقيقه ، وكل  
شيء ما عدا الله تبارك وتعالى .

لذلك قال رسول الله - عليه الصلاة والسلام - : « كان الله ولم يكن شيء  
قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات ، والأرض ، وكتب في  
الذكر كلّ شيء » (1) .

وقد اتفق الفلاسفة ، والمتكلمون ، والفقهاء على الرغم من اختلاف  
آرائهم الفكرية في القضايا ، والكليات ، والجزئيات ، بأن لفظة العالم تضم  
مجموع الأشياء المخلوقة ، وكل ما هو موجود سوى الله ، وعلى كل ما هو  
موجود ليس وجوده بذاته .

فالذين يقولون : هذا شيء من العدم ، فقد أدخلوا العدم ضمن الشيئية ،  
فإذا دخل ضمن الشيئية ؛ كان جزءاً من الخلق ، وطالما : أنه جزء من الخلق ؛  
فهو إذاً مخلوق ، وطالما : أنه مخلوق ؛ فقد أوجده موجد الأشياء ، وأما  
ظهوره ، وخفاؤه ، بالنسبة للمحسوسات ، فظهورها وجوداً ، وخفاؤها

(1) صحيح البخاري ، ج 24 ، ص 237 .

عدم ، وبالنسبة للمدركات يستوي فيها الظهور ، والخفاء ، وتدرج من خلال اتصاف المحسوسات بها ، أو عدم اتصافها عندما تفارقها .

وعلى هذا يكون فقدان الشيء هو عدم وجوده بعد أن كان موجوداً ؛ أي : أنه خرج من حيز الوجود إلى حيز العدم ، وهنا يمكن أن نقول : إن العدم عالم من عوالم ما بعد خلق الشيء ، وليس قبله ، وبهذا يكون إعدام المعدومات ، هو انتقالها من حالة الظهور إلى حالة الخفاء ، بصرف النظر عن ماهيتها وتغير طبيعتها ، فإعدام الأنفس مثلاً لا يعني وصولها إلى ما وراء اللاشيء ، فقد قال تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (1) .

والذي ثبت ، وصحَّ من فهم هذه الآية : أن الحياة المذكورة إنما هي ضمُّ الجسد إلى النفس ، و نفخ الروح فيه ، وأن الموت المذكور ليس إعداماً لا للنفس ، ولا للجسد ، إنما هو التفريق بين الجسد ، والنفس ، والروح .

- وبالعودة إلى قانون المادة ( لا تفنى ، ولا تخلق من عدم ) .

نقول : المادة ستظل باقية في صورتها التي خلقت عليها ، أو تتغير بأسباب ، ومهما تغيرت ستظل مادة ؛ وإن تغيرت ، فالرماد مادة تغيرت من الحطب الذي التهمته النار ، فقبل أن يصبح الحطب حطباً كان شجراً أخضر ، ثم أصبح الحطب رماداً ، وفي كلا الحالتين انعدم الحطب ، وبقي الرماد مادة ، ومع أن الحطب سابق على الرماد إلا أنه لم يخلق من العدم ، وذلك لأن مصدر خلقه معلوم ، وسابق عليه ، وهو ( الأرض ) ، ولهذا يتساوى خلق الإنسان مع خلق الحطب من حيث أنهما مخلوقان من الأرض ؛ حتى وإن اختلفت عناصر خلقهما ؛ حيث خلق الإنسان في أحسن تقويم ، و خلقت الأشجار غير مساوية له .

(1) البقرة ، 28 .

قال تعالى: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (٢) ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيظٌ﴾ (٣) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ﴾ (٤) ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٥) ﴿وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسِيَ وَأُنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٦) ﴿تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْهُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (٧) ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (٨) ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ (٩) ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (١٠) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ (١١) ﴿وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ (١٢) ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (١٣) ﴿أَفَعَيَّنَا بِالْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٤)

فقلوه ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ تعني بعد الموت تتحول الأجساد إلى تراب (عدم) أي: أصبحت على هلاك لا صورة لها أو وكأنها غير ذات علاقة بما كانت عليه قبل الموت والعدم. ولذلك فقلوه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ بأسباب التغير مثلما تغير الحطب، وأصبح رماداً، وستظل المادة تتغير بأسباب الحركة، والسكون، والزمان، ومع أنها تتغير إلا أنها لن تفنى في الحياة الفانية، ولذا فهي دائماً قابلة للبعث من جديد بأمر من يملك أمر الكينونة جل جلاله. وقوله: ﴿أَفَعَيَّنَا بِالْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ الخلق الأول هو الخلق من لا شيء؛ أي: أنه المرحلة الأولى لخلق الأشياء من لا شيء، وبعد الخلق الأول خلق الموت الذي يترتب عليه فعل العدم، فالإنسان على سبيل المثال: يخلق حياً، ثم يموت، ثم يصبح عدماً مصداقاً لقلوه تعالى: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيظٌ﴾ ثم يبعث من جديد، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢).

وهنا نقف على تساؤلات حول ما قبل الحياة، وأثنائها، وما بعد الموت:

(1) ق، 3-15.

(2) النمل، 65.

- 1 - هل إن الخلق عندما كانوا نطفاً في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم جيلاً قبل جيل معدومون أم إنهم كانوا موجودين في العدم ؟
- 2 - إخراجهم من الأصلاب والأرحام إلى الحياة هل كان من العدم ، أم من الأشياء ؟

3 - دخول الأحياء في الموت هل هو إعدام ، أم دخول في العدم ؟

**فالإجابة على التساؤل الأول نقول :** إنهم لو كانوا عدماً ؛ لما وجدوا ؛ لأنهم قبل اللاشيء ، وقبل اللاشيء ، أي : لا وجود ، وقبل اللاوجود كان الله ، ولا شيء معه ، ثم خلق الله الأشياء بالكينونة . والعدم من الأشياء ، إذاً هو مخلوق ، فإن كانوا في العدم ، فقد كانوا به ، بعد خلقه ، وعلى هذا فهم خرجوا من الظرفية أشياء ، ولم يخرجوا من الكلية أجزاء ؛ بمعنى : أنه خرج شيء من العدم الذي هو شيء من الخلق ، ولم يكن جزءاً من العدم اللاشيء .

**الثاني :** بعد أن اتضح الأمر الأول أصبح من اليسير فهم إخراج الموتى من الموت الأول إلى الحياة عن طريق أصول أسيائهم ، وهذا يعني : أنهم لم يأتوا من العدم اللاوجودي الذي اصطلح على فهم معناه بهذه الدلالة البعيدة عن حقيقة المعنى ، وإنما خرجوا من الظرف العدمي الذي يضمّ المعدومات بأسباب إعدامها ، وتخرج منه بأسباب وجودها .

**الثالث :** دخول الأحياء في الموت مرةً أخرى لا يعني إعدامها من ضمن دائرة الوجود ، وإنما دخولها ظرف العدمية الخفي ، وليس على شكل وجودها الأول الذي خرجت منه بعودتها إلى أصول أسيائها ، وإنما استقلت ، وأصبحت أشياء معدومات بذواتها .

ورب قائل يقول كيف يكون عدماً ؛ ويكون معروفاً ؟

فهنا عود على بدء ما أسلفنا ممّا أقرّه أصحاب العقول على اختلافاتهم ، وأثبتته الشريعة بالأدلة النقلية ، والعقلية من أنه كان الله ، ولا شيء معه ، وهو



قبل كل شيء ، ثم خلق الأشياء بمشيئته ، وخلق العدم من جملة الأشياء ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

**فمن قال غير هذا ؛ فقد جعل العدم عديمين :**

1 - عدمٌ مخلوق يضم المعدومات التي أعدمته ، والتي لم توجد بعد .

2 - عدمٌ مفترض ، توجد منه الأشياء إلى الوجود ، وهو مخالفٌ للمشيئة .

فالعدم الثاني هذا كيف يكون ؛ ولم يشأه الله ، والله تبارك وتعالى شاء الشيء ، وخلق منه الأشياء ؟ ! وهذا العدم كيف يكون شيئاً ؛ وهو خارج الشيء ، فما كان خارج الوجود لا وجود له ؟ !

وأما نحن فنقول : إن العدم مخلوق يضمُّ المعدومات ، وهو مصاحب للموجودات ، ونستطيع أن نقف عليه كونه مخلوقاً ؛ حيث من المعروف : أنَّ علماء الأصول برهنوا على أن الاستصحاب أربعة أقسام ، والذي يعيننا منها أولها ، وهو استصحاب العدم : « الأول استصحاب العدم الأصلي حتى يرد الناقل عنه ، وهو البراءة الأصلية ، والإباحة العقلية . كقولنا : الأصل براءة الذمة من الدين ، فلا تعمر بدَيْنٍ إلا بدليل ناقلٍ عن الأصل يثبت ذلك . والأصل براءة الذمة من وجوب صوم شهرٍ آخر غير رمضان ، فيلزم استصحاب هذا العدم ؛ حتى يرد ناقل عنه » <sup>(1)</sup> .

**ولذا كيف يكون عدماً ، ومستصحباً في الوقت نفسه ؟ !**

**نقول :** هذا الأمر كنفي صلاة سادسة ، وسابعة ، ونفي وجوب صوم شوال بعد رمضان .

فالصلوات خمس معروفة الكيفية ، والذين يصلُّون الخمس يمكن أن يصلُّوا سادسة ، ولكن نفي الوجوب جعلها حاضرة في العدم .

(1) أضواء البيان ، ج 4 ، ص 286 .

وكذلك الصوم ، فهناك من يصوم شهرين متتابعين في النذر مثلاً ، أو كفارة القتل الخطأ ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (1) .

إذاً هناك من يستطيع أن يصوم شهرين متتابعين ، وشوال يتبع رمضان ، فالشهر الثاني موجود ، والذي يستطيع صومه موجود أيضاً ، ولكن نفي الوجوب جعله قائماً في العدم ، فالأمر قائم تصوراً ، وكيفية ضمن الظرف العدمي ، وهذا معنى استصحاب العدم .

وأما إيجاد المعدوم من العدم بعد أن كان عدماً ؛ فمعروف في معاملات البيوع ، وهو دليل على أن العدم مخلوق بما فيه : « إذ ليس في كتاب الله ، ولا في سنة رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، ولا في كلام أحد من الصحابة أن بيع المعدوم لا يجوز لا بلفظ عام ، ولا بمعنى عام ، وإنما في السنة النهي عن بيع بعض الأشياء التي هي معدومة كما فيها النهي عن بيع بعض الأشياء الموجودة ، فليست العلة في المنع لا العدم ، ولا الوجود ، بل الذي وردت به السنة النهي عن بيع الغرر وهو ما لا يُقدر على تسليمه سواء كان موجوداً ، أو معدوماً ، كبيع العبد الآبق ، والبعير الشارد ، وإن كان موجوداً ؛ إذ موجب البيع تسليم المبيع ، فإذا كان البائع عاجزاً عن تسليمه ؛ فهو غرر ، ومخاطرة ، وقمار ، فإنه لا يباع إلا بوكس ، فإن أمكن المشتري تسليمه ؛ كان قد قمر البائع ، وإن لم يمكنه ذلك ؛ قمره البائع ، وهكذا المعدوم الذي هو غرر نهى عنه للغرر لا للعدم » (2) .

ونحن لسنا بصدد المسائل الفقهية ، وإنما الذي يهمنا من الأمر هو عقود بيع العدم التي تجري على المعدومات قبل إيجادها بصرف النظر عن الناحية الشرعية التي ذهب الفقهاء بها في أكثر من مذهب ، إلا أنهم جميعاً ، ممن

(1) النساء ، 92 .

(2) إعلام الموقعين ، ج 2 ، ص 28 .

أجاز بيع بعض العدم دون بعض ، أو الذين لم يجيزوا ذلك على الإطلاق ، فإنهم أقروا بأن هذه الأنواع من البيوع هي عدم سوف تخرج إلى الإيجاد ، فقالوا : « أن يكون موجوداً ، فلا ينعقد بيع المعدوم ، وماله خطر العدم كبيع نتاج التتاج ؛ بأن قال : بعت ولد ولد هذه الناقة ، وكذا بيع الحمل ؛ لأنه إن باع الولد ؛ فهو بيع المعدوم ، وإن باع الحمل ؛ فله خطر المعدوم ، وكذا بيع اللبن في الضرع ؛ لأنه له خطر لاحتمال انتفاخ الضرع » (1) .

وعلى هذا فالمعدوم مخلوق لم يخرج إلى الوجود كما أن الفاني يدخل في العدم ، والشيء ينتقل من الوجود إلى العدم ، كما أن المعدوم ينتقل إلى الوجود ، أي من الظهور إلى الخفاء ، ومن الخفاء إلى الظهور ، وطالما أن العدم شيء ؛ فهو يضم المعدومات ، إذا ما فني وجوداً ؛ فهو موجود عدماً ضمن العدم .

كما أن عدم العلم بالشيء ليس نفياً وجودياً للعلم ، وإنما هو معدوم لغير العالم بالعلم ، وعدم علمه به لا يشغل حيزه اللاوجود ، وإنما يشغله الجهل الذي يحل محل صفة العالم بالعلم ، فإن استُحضر العلم بأسبابه ، فقد خرج من العدم إلى الإيجاد ، وعلى هذا لا يلزم من نفي العلم بالشيء عدمه وجودياً ، وإنما يؤكّد وجوده في العدم .

### العدم بين النفي والإثبات :

إن نفي العدم هو إثبات لوجوده ، ولو لم يكن موجوداً ؛ ما نفي ، بدليل أن النفي والإثبات هما محاور جدلية تدور بين اثنين ، أو أكثر من أجل إثبات وجود قضية ، أو دحضها .

وأي قضية تدخل مجال الحوار لا بدّ من توفر شروطها لدى المتحاورين والعلم بها من جميع الجوانب في أدلة النفي ، والإثبات ، والوجوب ،

(1) بدائع الصنائع ، ج 11 ، ص 71 .

والجواز ، وما تجتمع هذه الأمور إلا في قضية معلومة حساً ، أو إدراكاً ، وعلى هذا يكون مبدأ قضية الحوار :

1 - علم القضية وحيثيتها .

2 - أدلة وجوبها .

3 - أدلة نفيها .

4 - أدلة الجواز فيها .

**الأول :** إذا علم العدم ؛ كان موجوداً ، إذاً هو مخلوق ، والخالق يُدخل الموجودات في العدم ، ويخرج المعدومات إيجاباً ، قال تعالى : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (1) .

**الثاني :** أدلة الوجوب الثقيلة ، والعقلية أكثر من أن تحصى ، فمن الأدلة العقلية : أن كل حي يموت ، وكل ميت داخل في العدم ، وأكدته الأدلة الثقيلة في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّكَ اللَّهُ تَبَعْتُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (2) .

**الثالث :** إذا انتفى العدم ، فأين تذهب المعدومات إذا لم تذهب إلى العدم نفسه ، فإن قال قائل : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (3) فنفي العلم بالشيء نفي من حيث الخلق ينفي الخوض فيه ، أما النفي من حيث عدم العلم به ؛ فلا يقوم دليلاً .

**الرابع :** إذا استوت أدلة الوجوب ، وأدلة النفي ؛ دخلت في الجواز ، والجواز يحمل صفة ضده ؛ لأن علامة الجواز صحة النفي ، فالجواز ينفي أحد الجانبين ، فإن نفت الوجوب ، فقد نفت إثباته بدليل وجوده ، وإن نفت النفي ؛ فنفي النفي إثبات .

(1) الروم ، 19 .

(2) الحج ، 7 .

(3) النحل ، 8 .

**وعليه :** فإن العدم شيء . والأشياء خلق مما خلق الله تعالى ، وعلى هذا فالعدم مخلوق تخرج منه المعدومات إلى الوجود حين تشاء المشيئة ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٦٨) ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) وقد مرَّ بنا سابقاً بيع بعض العدم ، وعسل النحل من هذا القبيل ، حيث يكون موجوداً في العدم قبل أن يخرج إلى الوجود ، ثم بعد أن ينتهي يصبح وجوده عدمياً ، ومثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ ذِي فَرْثٍ وَذِي قَلْبٍ خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) إن جميع المخلوقات في الحياة الدنيا إما موجودة ، أو معدومة ، وفي كلا الحالين تكون القضية نسبية للوجود وللعدم ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (٣) و ( كم ) تعني الكثرة ، أي : قرى كثيرة أهلكها الله تعالى ، ومعنى الهلاك هو دخولها دائرة العدم النسبي ، وإنشاء أقوام آخرين هو خروجهم من دائرة العدم النسبي إلى الوجود النسبي في الحياة الدنيا ، وعلى هذا فالإنسان في الحياة الدنيا يكون نسبياً وجوداً ، وعدمياً .

### أدلة وجود العدم على العدم :

أدلة وجود العدم كثيرة وقد مرَّ بنا بعض منها ، ولكننا سوف نؤطرها وفق قواعد لا تخرج عن هذه الأدلة ، فمنها ما يكون الدليل والمدلول عديمين ، ومنها ما يكون الدليل وجودياً والمدلول عديمياً ، ومنها ما يكون الدليل عديمياً والمدلول وجودياً ، ومنها ما يكون الدليل والمدلول وجوديين ، فهي أربعة أنواع :

(١) النحل ، 68- 69 .

(٢) النحل ، 66- 67 .

(٣) الأنبياء ، ١١ .

- 1 - دليل العدم على العدم ومثاله : عدم الغيم دليل على عدم المطر .
- 2 - دليل الوجود على العدم ومثاله : وجود النهار دليل على عدم وجود الليل .
- 3 - دليل العدم على الوجود ومثاله : عدم الليل دليل على وجود النهار .
- 4 - دليل الوجود على الوجود بعدم نقيضه ومثاله : شروق الشمس دليل على وجود النهار .

فلا يمكن الاستدلال بشيء على شيء من غير جنسه - ما خلال الذات الإلهية - التي يستدل عليها بآيات الخلق .

والمقصود من غير جنسه لا من حيث المادة ، ولا من حيث النوع ، وإنما يدخل في ذلك جنس الخلق المطلق ، بمعنى هل نستدل بال مخلوق على اللامخلوق ؟

فهذا لا يستوي عقلاً ، ولا يستوي تصوراً .

إن البراهين العقلية والمنطقية لا تتفق بالاستدلال على اللامخلوق بالمخلوق ، أو على الالخلق بالخلق ، وعدم الاتفاق اختلاف ، والاختلاف في القضية يدخلها في الجواز ، والجواز يحمل صفة نفيه بنفسه ، والنفي لأحد الأمرين يثبت الآخر ، والآخر أي آخر منهما لا على التعيين ، وبهذا يجوز في كلا الأمرين نفيه ، وثبوته في آن معاً ، وهذا مخالف ومن يسلّم بذلك ؛ يجد نفسه مخالفاً للحجة والمنطق .

وكذلك لا يستوي تصورٌ ذهنيٌّ لـ : ( اللامخلوق ) من حيث اتحاد الصورة ، وتشابهها بين المتصورين لصورة متخيلة ؛ لأن شروط قضية البحث تقتضي الوقوف الذهني على حيثياتها ، من التصور ، والأبعاد ، والماهية ، ونقطة الارتكاز ، وتصور هذا العدم المفترض لا تنطبق له صورة واحدة لدى جميع الأفراد ، واختلاف الصورة يؤدي إلى تعددها ، وهذا التعدد يجعل منها قضايا متعددة في تصورات مختلفة ، يعطي رؤى متباينة لا يخرج بنتيجة

لاختلاف الموضوع ، وبهذا يكون البحث ، والجدل في قضية مختلفة في تصور كل آخر .

فالعدم الذي ما قبل الشيء الذي يدور عليه المصطلح نقول : إنه لا وجود له ، وإنما العدم شيء مخلوق يضمُّ المعدومات ، فلا يمكن أن يكون عدماً فيما وراء الخلق يضمُّ المعدومات المخلوقة .

فمن قال بأنه عدم لا وجود له ، فكيف يتكلم عن العدم ؟ وإن جعله لا داخل الخلق ، ولا خارجه ؛ فقد لجأ إلى حجة فاسدة ، وهي محال .

**فإن قال :** العدم موجود في عدم فقد علم الأول ، وجُهل الثاني ، وهذا لا يقوم دليلاً ؛ لأنها قضية فاسدة عقلاً .

**فإن قال :** العدم الأول مخلوق ، والعدم الثاني خارج الخلق ؛ فكيف يكون المخلوق ضمن اللامخلوق ؟ ! وهو محال أيضاً .

وأما إذا كان المقصود بالعدم هو اللاشيء ، واللاخلق مع يقيننا بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا ﴾ <sup>(1)</sup> فنحن لا نعلم طبيعة ذلك اللاشيء ، وهو خوض في علم الغيب الذي لم يُطلع الله تعالى عليه أحداً من خلقه . وهذا ممتنع من حيث الوصف .

وأما أن يكون هذا العدم الذي يتكلمون عنه مخلوقاً ، أو غير مخلوق ، وفي الحالتين لا نعلمه ، فإذا كان مخلوقاً ، وهو خارج علمنا به ؛ فهو ممتنع من حيث الإدراك .

وإن كان غير مخلوق ونقدّر افتراضه ؛ فهو ممتنع أيضاً عن العقل ؛ لأن الصورة الذهنية المتخيلة لا يمكن أن يكون عليها إجماع من حيث الماهية ؛ لأن الماهيات صور ما قبل الخلق ، ويختلف تصورها من عقل إلى عقل ، ومن ذهن إلى ذهن ، فهو ممتنع أيضاً إما للتعدد ، وإما للتغاير ، وإما للامتناع

(1) الكهف ، 45 .

نفسه . وعلى هذا فالعدم شيء ، والأشياء مخلوقة ، فالعدم خلق من خلق الله تعالى . ونسأل الله العفو عن السهو ، والخطأ ، والزلل !

### أحوال العدم في الإنسان :

قال تعالى : ﴿ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ <sup>(1)</sup> قد علمنا ما ننقص الأرض منهم وعندنا كِتَابٌ حَفِيظٌ (1) ظاهر من سياق الآيتين الكريمتين : أن الذين كفروا ، يظنون : أنهم إذا ماتوا ؛ فإنهم يعدمون وجوداً ، لأنهم أنكروا البعث ، والنشور بعد الموت ؛ لأنه رجع بعيد الوقوع كما زعموا ، غير أن الله تعالى ردّ على دعواهم بعلمه مقدار ما تأخذ الأرض من أجسادهم بعد الموت ، وما يبقى فيها ، وما يتبخر من ماء ، وما يتطاير من غازات من تلك الأجساد بعد أن تفارقها الروح ، وتدخل في الموت .

عندما نتمعن في طيات هذه الآيات ؛ نجدها تحمل معنى القانون العلمي الذي يدل على أن المادة لا تفنى ، بل إنها تدخل في العدم ، ودليل ذلك : أن الوقود المعروف ( النفط ) أو الشمعة عندما تحترق لا تفنى مادتها ، بل إنها تتحول أثناء احتراقها ، وبعده ، إلى مواد : إما غازية ، وإما سائلة ، وإما صلبة ، أو حالتين مما ذكر ، أو اجتماع الحالات الثلاث ، كما في الشجر مثلاً عند احتراقه فإنه يتحول إلى بخار ماء ، وغازات ، ورماد ، ومع هذا فقد دخلت في العدم ، أي : إعدام الحالة التي كانت عليها ، واستحالته إلى حالة أخرى .

فلو استطاع الإنسان استخلاص عناصرها الجديدة ؛ سوف يجد ما يقابل تلك العناصر ، ولكن بهيئات أخرى من حيث الشكل ، والهيئة ، الذي يدل على إعدامها ، وإعدامها هو دخولها حالة العدم ، وليس انتهاءها وجودياً كما هو الظن السائد من مفهوم العدم .

(1) ق ، 3-4 .



إن حقيقة بقاء الأشياء ، وعدم فنائها من الوجود هو قائم في التحوّلات التي تجري على المادة ، وإنما تدخل في العدم ، لأن العدم من الأشياء المخلوقة من الشيء الأول ، وهو القانون الإلهي ، وسنة الخالق في خلقه : ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ عندما خلق الشيء ، وخلق منه الأشياء .

- إذا كان كلُّ اهتمام مجالات البحث في الجانب الفكري ، والعقلي هي خدمة الإنسان لتقدم له المعرفة من أجل مصلحته ؛ فإن هذا الإنسان الذي هو أكرم مخلوقات الله على الله تعالى هو من التراب ؛ حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ <sup>(1)</sup> وقد ذكر الخاصة من خلقه ، وهم الأنبياء كناية عن تشريفهم على بقية الخلق ، وبهذا يدخل العموم في الخصوص ؛ لأن الخصوص هو الأصل (آدم ﷺ) ، والعموم هو الإنسان ، والإنسان جزء من المادة .

**وعليه :** فإن الإنسان الذي هو جزء من المادة لم يخلق من العدم ، ولمّا كان الإنسان جزءاً من المادة ، والمادة شيء ، وخلق الأشياء من الشيء المادي الذي ترتّب عليه خلق أشياء أخرى من الحركة ، والأقوال ، والأفعال ؛ فعليه تكون أنواع الخلق :

أ - خلق مادي .

ب - خلق معنوي .

ج - خلق روحي .

فالخلق المادي هو هذه الأشياء من المحسوسات التي نشاهدها ونقف عليها ، ونتعامل معها بالشكل ، والحجم ، والعرض ، والطول ، والارتفاع ، والكثافة ، والوزن النوعي ، وما إلى ذلك .

(1) آل عمران ، 59 .

وأما الخلق المعنوي ؛ فالأقوال ، والأفعال ، وما ينتج عنها من تصورات ، وانعكاسات الشعور غير النتائج المادية ، والحركة ، وما ينتج عنها ، مثل الليل ، والنهار ، والسنين ، والأيام ، والإيجاد ، والإعدام في التحولات ، وتبدل الخلق .

وأما الخلق الروحي الذي ندركه ، ولا نعلمه ؛ فذلك لأن الله تعالى اختص نفسه به .

- إن الإنسان كان موجوداً في الشيء ، ومن الشيء خرج ، حيث أوجده الله تعالى من ذلك الشيء المخلوق من الشيء الأول الذي خلقت منه كلُّ مكونات الحياة ، وبعد ذلك يدخل في العدم مرةً أخرى إلى البعث الدائم الذي تأتي منه الحياة السرمدية .

وعلى ما تقدّم فإن العدم هو تغير حالة الشيء الآنية إلى حالة ثانية بإعدام الحالة الأولى ، ولما كان الإنسان من الشيء ، فإنه يجري عليه ما يجري على الأشياء ، من الإعدام ، والإيجاد ، ولذلك يقال : أعدم فلان من الناس ، وهذا الإعدام يكون على مراحل ، نستطيع أن نقف على مرحلتين منها ، من خلال المشاهدة ، والتجريب :

أ - إعدام الحياة ، وهي مفارقة الروح للجسد .

ب - إعدام الجسد في فنائه ، وتحوله إلى عناصر أخرى .

فقد أعدمّت الحياة بمفارقة الروح ، وتوقف الجسد عن الحركة ، والإرادة ، وهو أول تحوّلٍ عديميّ ، ثم يعدم الجسد بالفناء لعدم قدرته في المحافظة على خصائصه ، وهو العدم الثاني .

لقد تكونت الخلائق في أول أمرها من التراب ، وبعد ذلك تناسلوا ، وتغذوا بما تخرجه الأرض من نبات ، وبما يتغذى من الأرض من حيوان ، ثم إنهم بعد ذلك يقبرون ، ثم يبعثون ، ولا ينقصون ، أي : أن الناس نشؤوا نشأتهم الأولى من الأرض ، ثم إنهم إلى الأرض يعودون ، ويؤيد ذلك قوله

تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (1) . ومعنى ذلك : أن الإنسان الذي يُعدم الحياة ؛ فإن جسده يتحلل ، ويصبح رميماً ، وسائلاً ، وغازات في التراب ، والفضاء ، ولم ينته من الوجود ، وإنما ترجع إلى أصلها كما كانت ، فهي محفوظة بأمر الله الخالق ، فقد علم ما أنقصته الأرض من أجسادهم مما تنثر في التراب ، وما تطاير في الفضاء ، فعنده سبحان وتعالى كتاب حفيظ لكل شيء ، وكل ذرة في السموات والأرض ؛ حيث قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (2) وعليه يدخل في ذلك جميع أنواع الخلق من الإنسان ، والنبات ، وأنواع الأحياء كافة لشمول العموم ؛ لأن الخلق لا يخرج عن كونه إما رطب ، وإما يابس ، وجميع هذه المخلوقات يجري عليها العدم ، وهي داخلة فيه .

فكيف يذهب الإنسان - وهو أشرف المخلوقات - هباءً ، ويتبدد سدىً ، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (3) إن مادة أجسام الأحياء لا تنتهي من الوجود بعد موتها ، بل هي باقية موجودة في العدم بصور مختلفة بخلق آخر .

### هل هناك عدم ظاهر ، وعدم خفي ؟

قبل التوغل في ثنايا العدم لابد أن نوضح الفرق بين العدم ، والإعدام ، والمعدوم ؛ كي تتضح غوامض من يلتبس عليه الأمر ، فنقول :

1 - **العدم** : خلق من خلق الله يضمُّ المعدومات قبل خروجها منه ، أو بعد دخولها فيه .

(1) طه ، 55 .

(2) الأنعام ، 59 .

(3) المؤمنون ، 115 .

2 - **الإعدام** : هو ما يسري على المعدومات من فناء الحالة التي كانت عليها حين دخولها في العدم بعد أن كانت موجودة ، وقبل دخولها في الظرف العدمي .

3 - **المعدوم** : هو ما يجري عليه العدم من أشياء ، يفقدها خواصها ، ومميزاتها الحسية ، أو الإدراكية ، أو كليهما معاً .

إن الخوض في متاهات هذا النوع من الموضوعات يتطلب دقة في البحث وملاحظة النتائج من خلال تحليل القضايا ، كي لا يبدو الأمر معالجة للقضايا الحسية التي نستطيع أن نقف عليها بالمشاهدة ، فيستوي في ذلك أولو البصر ، وأولو البصائر ، لذلك سنتناول هنا قضية جزئية من خلق الإنسان يجري عليها العدم ، وهو عدم جزئي يطال الإنسان بأن يأتي على حاسة من حواسه ، ولتكن حاسة البصر .

إن أولي البصر يدركون القضايا الحسية كونها لا تخرج عن الحس في ماديتها ، أما إدراكات ما وراء الحس ، فتحتاج إلى البصيرة إضافة إلى البصر ، وذلك : أن البصيرة هي التي تقف على إدراكات ما وراء الحس من خلال التأمل في آيات الله تعالى ، فقد جاء في محكم التنزيل قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (1) . وهذا الشأن هو التصرف في خلقه لشأن أراد الله لهم في هذا اليوم ، أو الذي قبله ، أو الذي يليه . فمن خلال آيات الله في خلقه نستطيع أن نقف على أنواع من العدم الظاهر ، والعدم الخفي ، والعدم المؤقت ، والعدم الدائم ، وكل هذه الأنواع التي نتناولها إنما هي من معدمات الحياة الدنيا ، وتظهر لنا في شاهد واحد ، وهو عدم البصر .

### عدم البصر :

ربما يكون هذا النوع من العدم فيه من الغرابة ما يستدعي التساؤل لدى القارئ ، كيف يكون عدماً ظاهراً خفياً دائماً مؤقتاً ؟

(1) الرحمن ، 29 .

قال تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ أَیَّتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (1). فمن آيات الله تعالى في خلقه نعمة البصر التي أنعم الله بها على عباده. فالأصل في الإنسان أن يكون له عيان يبصر بهما، وعدم البصر هو وجود العينين، أو ما يدل على وجودهما مع عدم الإبصار، وحالات فقدان البصر هي عدمه، أو عدم وجوده بدرجات مختلفة، وهو ينقسم إلى ثلاثة أنواع:

1 - الأكمه الذي يولد، ويعيش، ولم ير شيئاً، فقد أتى على بصره عدمٌ دائم، وصاحب هذا النوع من العدم لبصره لا يعرف معنى البصر، وإنما يرسم له صورة ذهنية متخيلة لا تنطبق على واقع الرؤيا، والمشاهدة، فتكون صور الأشياء في ذاكرته من خلال حاستي السمع، واللمس في دائرة توقعه لذلك الشيء الذي يغير حقيقة واقع الأشياء المشاهدة، وهنا يكون قد جرى على الأكمه عدمٌ ظاهر دائمٌ بالنسبة للآخرين، وفي الوقت نفسه هو عدمٌ خفيٌّ دائمٌ بالنسبة له؛ لأنه لم يعرف البصر، ولم يدرك حقيقة المبصرات. وهنا يمكن القول: إن الأكمه يمتلك عدماً ظاهراً خفياً دائماً للبصر.

2 - الأعمى الذي ولد مبصراً، ثم فقد بصره، فتكون الصورة في ذهنه مبنية على مشاهدات ما قبل العدم، ولذلك يكون العدم لديه، ولدى الآخرين عدماً ظاهراً.

3 - الأعمى الذي يرتد إليه بصره، وهو عدم مؤقت كالذي جرى على يعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَبْصَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (2) فقد أصابه العمى من شدة حزنه على يوسف عليه السلام، وهو العدم المؤقت بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى

(1) فصلت، 53.

(2) يوسف، 84.

وَجْهَهُ فَأَرْتَدَّ بَصِيرًا ﴿١﴾ (١) فلو لم يكن قد عمي ؛ ما ارتدَّ بصيراً .

وأما عدم جزء الجزئي في البصر فيتمثل في الأخفش ، والأعشى :

1 - الأخفش : هو الذي يضعف بصره في النهار ، فلا يرى بوضوح ، وهو عدمٌ جزئيٌّ للبصر في النهار .

2 - الأعشى : هو الذي يضعف بصره في الليل ، فلا يرى بوضوح ، وهو عدمٌ جزئيٌّ للبصر في الليل .

وما عدا ذلك من البشر فهم مبصرون لا يدخلون في عدم البصر ؛ لأن الأكمه ، والأعمى ، والأخفش ، والأعشى داخل في عدم البصر جزئياً ، أو كلياً ، والمبصرون داخلون في عدم العدم للبصر . فمن خلال هذه القضية الجزئية تبين لنا أنواع العدم في البصر جزئيه ، وكليّه .

### علاقة العدم بالوجود :

إن التساؤل الذي يراود الذهن في استيضاح ماهية العدم ، وكنهه ، والوقوف عليه في الذاكرة الإنسانية أن يقول قائل : ما هو العدم ؟

والإجابة على هذا التساؤل تتمثل في احتمالين لا ثالث لهما :

- العدم شيء .

- العدم لا شيء .

فالذي يقول : إن العدم شيء ؛ فقد أقر بأنه مخلوق تخرج منه المُعدّمات وتدخل فيه المعدومات ، وبهذا يكون قد أنصفنا فيما ذهبنا إليه .

وإن قال إن العدم ليس بشيء ، فقد ابتعد عن جادة الصواب ، وظلم نفسه ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « كان الله ولا شيء غيره ، وكان

(1) يوسف ، 96 .

العرش على الماء ، فكتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق سبع سموات <sup>(1)</sup> . فكان الله تعالى ولا شيء معه ، وعندما خلق الأشياء بفعل المشيئة ؛ كان العدم من ضمن الأشياء المخلوقة ، فهل بعد هذا شك ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ <sup>(2)</sup> . فالله تعالى جعل من الماء كل شيء حي ، ولكن للوهلة الأولى يظن المتتبع : أن الاستشهاد بهذه الآية لا ينطبق على واقع موضوع العدم لذكر ( حي ) . ولكن كلمة ( كل شيء ) استغرقت الموجودات المخلوقة ما علمنا منها ، وما لم نعلم ، وهذا الظن من التساؤل الذي يراود البعض ؛ لأنهم ينظرون إلى الحياة التي اختصت بما اصطلح عليه من أحياء الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والأمر ليس كذلك .

فالخالق - عز وجل - أعلمنا بأن جميع خلقه أحياء ، فغير الأحياء المعهودة لنا من المحسوسات هناك أحياء ما وراء الحس كالجن ، والملائكة ، وحياتهم ثابتة بالنصوص القطعية الدلالة ، وهذه الحياة معلوم بالضرورة : أن لها مواصفات فيزيائية ، وكيميائية تختلف عن حياتنا ، فالملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا ذكورا ، ولا إناثا ، ولا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا يتناسلون ، فهم شيء حي من خلق الله تعالى ، فإذا تدرجنا في أنواع الخلق ؛ سنجد : أن الجمادات لها حياة أيضاً ، ولكن لا نعرف عن طبيعتها شيئاً إلا ما جاء به القطع في وضوح الدلالة بقوله تعالى : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ <sup>(3)</sup> .

وهنا دخل في التسبيح كل ما خطر على قلب بشر ؛ لأن كل ما خلق الله

(1) السنن الكبرى ، ج 6 ، ص 363 .

(2) الأنبياء ، 30 .

(3) الإسراء ، 44 .

تعالى من الموجودات الحسية ، والإدراكية ما علمناه منها ، وما لم نعلمه قد دخلت في لفظ ( شيء ) . ومعلوم : أن التسبيح هو قول ، أو لفظ ، أو إشارة ، أو حركة ، وهي من سمات الأحياء ، وعليه دخلت الأشياء المخلوقة من الشيء الأول في الحياة الخاصة بطبيعة خلقها التي لا نفقه تسبيحها .

ولقائل أن يقول : هناك من نفقه قوله ، ولكنه لا يسبح ، مثل الطبيعيين ، والوجوديين ، والكفار .

إن هؤلاء لا يسبحون لأنهم جحدوا الخالق ، ولكن أعضاءهم ، وجوارحهم من ضمن الشيء الذي يسبح لخالقه ، وهو نفسه لا يفقه تسبيحها . وعليه فإن كل شيء يسبح بحمده ، فمنهم من نفقه تسبيحه ، ومنهم من لا نفقه تسبيحه ، ولا ندركه ، لأنه يسبح ضمن الظرف العدمي بالنسبة للعقلاء ، فلو شاء الله ؛ لأسمعنا تسبيحهم .

فهل أن تسبيح هذه المخلوقات الحية بخصوصيتها هو معدوم ، أم داخل في العدم ؟

إن هذه الأمور وأمثالها معدومة بالنسبة لنا ، قائمة ، وموجودة حقيقة في عدمها ، أو في ظرفها العدمي ، مثلها في ذلك مثل الأشياء الحسية التي تخرج من العدم إلى الوجود ، إلا أن الفرق بينها وبين المعدومات الحسية : أن المعدومات الحسية تخرج إلى الوجود بالمشيئة ، والمعدومات العدمية تبقى في العدم بالمشيئة .

إن كل ما في هذا الكون - ما عدا الله تبارك وتعالى - يدخل ضمن الموجودات في الوجود ، أو ضمن المعدومات في العدم ، والموجودات على قسمين :

1 - وجودٌ حسيٌّ ماديٌّ ، كالأشجار ، والجبال ، والكواكب ، وأمثال ذلك .

2 - وجودٌ معنويٌّ إدراكيٌّ ، كالمعلومات ، والصفات القائمة على



الأعراض ، كالطول ، والعرض ، والجمال ، والقبح ، والفضائل ،  
والرذائل .

وأما المعدومات فهي على ثلاثة أقسام :

- 1 - معدومات عدمية ، لا تخرج من العدم ، وهي قائمة فيه ، كالجن ،  
والملائكة .
- 2 - معدومات وجودية ، تدخل في العدم كجميع الأحياء من الإنسان ،  
والحيوان ، والنبات .
- 3 - معدومات معدومة ، تخرج من العدم إلى الوجود عن طريق اكتسابها  
الأعراض .

وجميع هذه الأنواع إن لم تكن ممكنة ؛ فهي مماثلة للممكن بوجود  
موجباتها الوجودية مثل ما سُخر لسليمان عليه السلام من الأشياء المعدومة لغيره ،  
قال تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (1) إن  
استخدام الجن في العمل ، والكلام مع الطير هو شيء من العدم بالنسبة  
للبشر ، ولكن عندما وجد موجبها ؛ خرجت من العدم إلى الوجود ، وهذا  
النوع ينضوي تحت العدم الحسي الذي وقف عليه قوم سليمان عليه السلام  
بالمشاهدة .

وأما خروج المعدوم الإدراكي ، كالمعلومة ، والصفة من العدم إلى  
الوجود ؛ فإما أن يصاحب الأعراض التي كانت معدومة ، فيظهر بظهورها ،  
كطول النخلة عندما تنشق عنها النواة ، وألوان جذعها ، وسعفها ، وثمرها ،  
أو بوضع موجبات هذا النوع من العدم في وضعها الصحيح ، فمثلاً عندما يفقد  
الحق ، والعدل ، والحرية ، فإن هذه القيم تكون من المعدومات ، مع أن

(1) النمل ، 17 .

موجباتها لم تنعدم ، وإنما دخلت في العدم ، الأمر الذي أدى إلى إعدام تلك القيم .

فعندما تنعدم الحقوق ، والحرية ، والعدل في مجتمع معين ؛ فهي موجودة في مجتمع آخر ، والمجتمع الذي يحاول تحقيق هذه القيم التي انعدمت فيه إنما يسعى إلى إزالة موجبات عدمها من أجل إيجادها ، وإيجادها إنما هو إخراجها من العدم إلى الوجود ، وبما أنها معدومة في مجتمع ، وموجودة في مجتمع آخر ؛ فهذا يعني : أن العدم مسألة نسبية . مثلها في ذلك مثل المعدومات ، والموجودات الحسية التي تخرج من العدم ، وتدخل فيه .

وعليه فإن الله تعالى خلق العدم ، والمعدومات ، والوجود ، والموجودات ، وخلق أسباب وجودها ، وأسباب إعدامها ، فالله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء . قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ <sup>(1)</sup> فالله سبحانه وتعالى هو خالق السموات ، والأرض ، ومبدع الوجود من الشيء ، فهو الذي أعطى كل شيء خلقه الذي هو عليه ، أي : صورته ، وشكله ، وحجمه ، وطبائعه ، وصفاته ، وغرائزه وحدّه ، ومقداره ، ولخص ذلك بقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ <sup>(2)</sup> فكل شيء أعطاه حدّه في الخلق الذي هو مسخر له من أنواع المخلوقات في صورته ، وشكله اللائق به ، مشتملاً على خواصّه ، وصفاته ، ومميزاته .

فالمراد بالخلق المخلوق ، ويفهم منه : أن ضمير الجمع في ﴿ رَبُّنَا ﴾ عام ليس لموسى ، وهارون ، وفرعون فقط ، وإنما لهم ولغيرهم ، لذلك لم يقل ربنا الله ، بل وصفه بأفعاله ليُستدل بالفعل على الفاعل ، ثم هدى وجه كلّ واحد منها إلى ما يصدر عنه ، وينبغي له طبعاً كما في الجمادات ، وغريزة كما

(1) الرعد ، 16 .

(2) طه ، 50 .

في الحيوان ، واختياراً كما في الإنسان ، وإدراكاً كما في المتصورات ، كالجمال ، والحرية ، والعدم ، وهياً كل نوع من الخلق لما خُلق له من الوجود الظاهر ، أو الوجود العدمي ، ودورة الظهور ، والعدم لبعض المخلوقات ، أو الحضور في العدم الدائم لبعض منها ، كالجن ، والملائكة ، أو الوجود الدائم للبعض الآخر الذي لا يدخل العدم بكيته كالأرض ، والشمس ، والكواكب في الحياة الدنيا ؛ لأن لكل نوع من الخلق حياته الخاصة بطبيعته وما هو مسخر لها ، في إيداع صفاتها بها ، والقوى المحركة لها ، والقوى المدركة فيها .

إن لجميع المخلوقات حياةً ، وروحاً ، إما صورية كما في الإنس ، والجن ، والملائكة ، ومن يتبعهم ، وإما معنوية كما في الجمادات ، والنباتات ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (1) .

إن لفظ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ في الآية الكريمة من سورة ( طه ) ، أدخل ما يوصف بالشيء تحت عموم اللفظ ، ومعلوم : أن الفعل ﴿ أَعْطَى ﴾ يأخذ مفعولين ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ مفعول أول - : ﴿ أَعْطَى ﴾ و ﴿ خَلَقَهُ ﴾ مفعول ثانٍ ، وعليه :

- إن لفظ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ أدخل ضمنه العدم ؛ لأنه لا يمكن للعدم أن يكون إلا شيئاً .

- ولفظ ﴿ خَلَقَهُ ﴾ الذي أعطي له دليل على أنه مخلوق .

وهنا لا يمكن الاعتراض على أن العدم ليس شيئاً لشموله بعموم اللفظ في الآية ؛ لأنه دخل في عموم الأفراد ، أي : أعطى كل شيء من الأشياء الأمر الذي طلبه بلسان استعداده من الصورة ، والشكل ، والهيئة في الوجود ، أو العدم ، وكذلك الأمر اللائق بما نيط به من الخواص ، والهيآت ، والصفات المطابقة له ، مثلما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار ، والأذن الشكل

(1) الإسراء ، 44 .

الذي يوافق الاستماع ، وكذلك الأنف الذي هو مهياً للشَّم عن طريق التنفس ، وهكذا بقية أعضاء الإنسان من اليد ، والرجل ، واللسان ، كل واحد منها مطابق لما علق به ، وخلق من أجله ، وكما أن هذه الأعضاء مهياً بالطبع لأداء الوظيفة في الوقت المعلوم إلى الأجل المحدود ؛ كان ضرورة أن يجري عليها العدم لوجود الأجل المحدود الذي كان في العدم ، وخرج إلى الوجود ، فأعدم الشيء بوجوده .

وهنا نستطيع أن نقف على الدليل الذي يعطينا الحجة في أن العدم هو شيء من خلق الله خلقه لاستمرار الحياة لإعدام الموجودات ، وإيجاد المعدومات .

أما قضية الإيجاد من مصطلح العدم بمعنى ( اللاشيء ) فهذا أمر يرجع إلى ما قبل أن يخلق الله الشيء ، وهو محال ، وإنما استحداث موجودات من المعدومات ، فهو أمر ظاهر جلي في الصناعة ، والزراعة ؛ لأن أصولها موجودة في العدم ، ويمكن استحداث أشياء كانت معدومة في الشكل ، والهيئة التي خرجت بها إلى الوجود ، لذلك أظهر الله تعالى عجز كل مخلوقاته أن يخلقوا ذرة من الوجود . فقال تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ (1) ولذلك كان من نظريات علماء المادة ، أن المادة ( لا تفنى ولا تخلق من العدم ) .

**ولذا فنحن نقول :** إن المادة تدخل في ظرفها العدمي بالفناء ، وتستحدث منه بأسباب وجودها .

وهذا حق ، وطبيعي بالنسبة للمخلوق ، وأما الخالق ؛ فهو الذي أخرج هذا الكون من الشيء ، وخلق منه الأشياء ، هو الذي يتصرف فيه بما يشاء ، وأما المخلوق ؛ فإنه أعجز من أن يخلق شيئاً ، لذلك كان الإعجاز في إظهار

(1) الحج ، 73 .

ضعف الإنسان ، وعدم قدرته على الخلق ، بأن ضرب الله مثلاً لإظهار عجز البشر بعدم قدرتهم على خلق أضعف مخلوقاته ، مثل البعوض ، والذباب .

ونحن عندما نتكلم عن الوجود والعدم ، إنما ينصبُّ اهتمام البحث على الموجودات التي أوجدها الله تعالى بما نحيط به علماً حساً وإدراكاً من هذه الحياة الدنيا ، فالحسيُّ هو هذه الموجودات المادية ، والإدراكيُّ هو تلك المعاني ؛ التي ليس لها شكلٌ ، ولا مادة .

لذلك لم يكن من نافلة القول : أن المادة لا تفنى ، ولا تخلق من عدم ، وإنما تدخل في العدم ، وتخرج منه بموجباتها ، وآجالها وفق نظام خلقه الله تعالى لتسيير هذا الكون وفق المشيئة التي أرادها عزَّ وجلَّ دون أن يغيره كما غيره لموسى عليه السلام في ابتلاع عصاه لعصيِّ ، وحبال السحرة ، في الطريقة التي أعدمتم بها تلك العصي ، والحبال بأمرٍ خارج عن العادة ، ويعتبر من الخوارق في معجزات الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام .

**- إنَّ من المسلمات البديهية : أنَّ هذا الكون ممكن ، وليس واجباً ؛**  
فإن كان واجباً فهو واجب بمرجح خارجي ، إذ لا واجب بذاته إلا الله تعالى ، وطالما أنه ممكن الوجود ؛ فيستوي فيه طرفاه - الوجود ، والعدم - وطالما استوى طرفاه ؛ فهو يقبل الوجود ، والعدم : كالمخلوقات التي نشاهدها ، فإنها كانت معدومة ، فقبلت الوجود ، ثم بعد وجودها هي قابلة للعدم ، شأنها في ذلك شأن ما نشاهد من آثار من مضى قبلنا ، وأحوالهم ، خرجوا إلى الوجود ، ودخلوا في العدم ، وبهذا نعلم بمن تقدم من الخلق : أنَّ من تأخر يشاركه في الصفات .

إن ما شاهدناه في ماضينا من المخلوقات ، وما نشاهده منها في حاضرننا هو ممكن : أي : جائز الوجود ، والعدم ، وذلك لأننا نراه يتحوَّل من عدم إلى وجود ، ومن وجود إلى عدم ، وهذا التغيُّر ، والتحول دليل على إمكانه ؛ إذ لو كان واجباً لما سبق وجوده العدم ، ولما لحقه فناء أعدمه ، ولو كان مستحيلاً ، لما قبل الوجود ؛ لأن المستحيل لذاته لا يوجد ، وحيث إننا قد

شاهدناه موجوداً بعد أن كان عدماً ، ثبت : أنه ممكن ، وعليه يمكن أن يكون معدوماً بعد وجوده .

**وحيث ثبت :** أن العالم ممكن ، والممكن ما استوى طرفاه - وجوداً ، وعدماً - بالنسبة إلى ذاته ، فوجوده ليس من ذاته ، وعدمه بعد وجوده ليس من ذاته أيضاً . إذاً لا بد له من سبب يرجح وجوده على عدمه ؛ إذ لو وجد بدون سبب خارج عن ذاته وحقيقته ؛ للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح خارجي ، وهو محال .

ولو أوجد الممكن نفسه بنفسه للزم من ذلك أن يكون متقدماً على ذاته باعتباره خالقاً لها ، ومتأخراً عن ذاته باعتباره مخلوقاً لها ، وتقدم الشيء على ذاته ، وتأخره عنها محال بالضرورة ؛ لما فيه من التناقض ، والامتناع .

**وعليه :** فإن الممكن لا بُدَّ له من موجد غير ذاته ؛ كي يوجد ويدبر شؤونه في كل أحواله ، وصفاته التي اختصَّ بها .

ولذا لا يمكن أن يوجد المستحيل ؛ لأن المستحيل ممتنع محال ، وفاقد الشيء لا يعطيه ؛ لأن المستحيل غير موجود .

وهنا يبقى الواجب ، والجائز الممكن .

فأمَّا الجائز فيستوي فيه الوجود ، والعدم .

وأما الواجب ، فإمّا واجب بذاته وهو الله تعالى .

وإمّا واجب بغيره وهو الممكن الجائز .

فمن خلال ما تقدم ظهرت بعض التساؤلات حول الواجب ، والممكن ، الجائز ، والمستحيل :

- هل العدم واجب الوجود ؟

- هل العدم مستحيل الوجود ؟

- هل العدم جائز ممكن الوجود ؟

بالنسبة للتساؤل الأول ، فإن القول بوجود الوجود بالذات ، فقد اختصت به الذات الإلهية ، وهذا ثابت في العقل ، والنقل ، وبهذا يخرج أيُّ شيء عن وجوب الوجود بالذات ، ويدخل إمّا في المستحيل كشروق الشمس من الجنوب ، وقيام الساعة الآن ، وإما في الممكن . وربّ قائل يقول : ألا يقدر الله على ذلك ؟ فنقول : بلى ، ولكن سبقت مشيئته بما جرى به القلم .

وهذا يقودنا إلى التساؤل الثاني ؛ إذ لو كان العدم مستحيلاً ، لما انشغلت به العقول على اختلاف توجهاتها الفكرية ، فالمستحيل غير متحقق ، وعليه فالعدم لا يتحقق في هذا الباب .

**نخلص مما تقدّم :** أنه لا مناص من أنه ممكن ، والممكن لا يكون إمكان وجوده إلا بمرجح خارج عنه ، ولما شغل موضوع العدم أفكار العلماء ، والفقهاء ، والفلاسفة ؛ فإن هذا الشاغل هو قضية ، والقضايا على قسمين :

- إمّا حسية .

- وإمّا إدراكية .

ولما انتفت عنه الحسية ، فهو قضية إدراكية ، وعليه : فالقضايا أشياء ، والعدم شيء من الأشياء ، وطالما : أن الأشياء مخلوقة ؛ فالعدم مخلوق ، منه تخرج المعدومات ، وبه تدخل ، وبذلك ثبت : أن موجدته هو الواجب بذاته ، وهو الله تعالى ، فقد ترجح العدم بمرجح خارجي .

لأن الشيء الذي قبل الوجود ، والعدم هو شيء بعينه يقبل الوجود والعدم ، فهو خرج من الظرف العدمي ، ودخل في الظرف الوجودي ، ثم يخرج من الوجود ليكون في العدم .

وهذا يدلُّ على أن كل الموجودات الحسية هي بالضرورة داخل الظرف الوجودي ، وبما أن هناك معدومات تدخل في هذا الظرف الوجودي ، وموجودات تخرج منه ؛ إذاً هناك ظرف عدمي يضم المعدومات .

فهل هذا الظرف العدمي الذي يضم المعدومات واجب الوجود ، أم ممكن الوجود ؟

لقد ثبت بالدليل النقلي ، والدليل العقلي : أنه لا واجب الوجود بذاته سوى الله تعالى . وعليه :

فإن كلّ ما ينضوي تحت لفظ الشيء هو ممكن ، وطالما : أنه ممكن ؛ فهو يحتاج إلى مرجّح لإيجاده ، وليس ثمة من يقول : إن العدم غير موجود ، وعلى هذا فوجوده بمرجّح خارجي ضرورة ، إذاً فالعدم شيء مخلوق .

وعلى ما تقدم ، فما من شيء إلا ويدخل تحت أحد هذه الأقسام الثلاثة :

1 - الوجوب .

2 - الاستحالة .

3 - الإمكان .

لأن جميع المتصورات العقلية ، سواء منها ما كان له وجود خارجي في الكون ، أو وجود داخلي في الذهن لا يخرج عن هذه الأقسام :

- واجب ، وهو الذي لا يمكن عدمه .

- ومستحيل ، ينتفي وجوده .

- وممكن ، يصح في حقه الوجود ، والعدم في دائرة المتوقع ، وغير المتوقع .

وكل المتصورات تدخل تحت هذا القسم ؛ لأنه يصح في حقها الوجود ، والعدم .

فالوجود ، والعدم هو ثنائية تدل على وحدانية الخالق ، عز وجل ، وتفرد ، وربوبيته ؛ لأنه ما من شيء في هذا الكون إلا وهو قائم بما على ثنائية



التجاذب في الذكر ، والأنثى ، كما قال تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (1) وإما على ثنائية التناقض ، كما في الوجود ، والعدم ، والخير ، والشر ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ﴾ (2) .

ولا يقتصر هذا على الذكر ، والأنثى المشاهد المعروف ، بل يتضح في تركيب الذرة ، والنواة التي في داخلها تحمل شحنة موجبة ، بينما الإليكترونات التي تدور حول النواة تحمل شحنة سالبة مكافئة لتلك الشحنة الموجبة .

« وقد ثبت : أن للمادة قرابة الثلاثين نوعاً من أنواع اللبنة الأولية ، وكل واحدة منها لها نقيضها ، كما أن الجسيمات الأولية للمادة لها لكل جسيم نقيضه ، وأن المادة ككل لها نقيض المادة ، وإذا التقت النقاظ ؛ فإن كل واحد منها يفني نظيره ؛ لأنهما يتخيلان عن طبيعتهما المادية ، ويتحولان إلى طاقة تعلن عن فناء المادة ، ومن هنا كان الوجود ، والعدم » (3) . وعليه فإن المادة التي تحولت إلى طاقة تكون قد خرجت من المجال الحسي إلى مجال ما وراء الحس ، وبهذا تكون قد دخلت المادة في العدم بخروجها من الوجود المادي بخصائص فيزيائية جديدة ، وهذا التحول من الوجود إلى العدم لا يعني : أنها أصبحت لا شيء ، وإنما بابتعاد النقاظ عن الالتقاء يمكن للمادة أن تخرج من العدم إلى الوجود مرةً أخرى ، وتستعاد بمواصفاتها التي كانت عليها ، أو بمواصفات مادية جديدة كالمواد العضوية التي تدخل في العدم ، ثم تتحول إلى بترول ، أو غاز ، أو أية مادة أخرى ، أو تستعاد على شكل طاقة غير مدركة ، وإنما يستدل على وجودها بما نقف عليه من نتائجها ، كالكهرباء مثلاً .

(1) هود ، 40 .

(2) يونس ، 11 .

(3) الإعجاز العلمي في القرآن ، ج 39 ، ص 13 .

فهل أن المادة التي أنتجت الكهرباء انعدم وجودها ، أم دخلت في العدم ؟

وهل الكهرباء نفسه عدماً ، أم أنه شيء كامن في العدم ؟

فهذا التحول من المادة الحسية إلى اللامادة لن ينفىها من الوجود ، بل خرجت من الوجود من حيث مواصفاتها ؛ التي كانت عليها في ماديتها ، ودخلت في العدم بخصائص فيزيائية تناسب حالة الإعدام ؛ التي دخلت فيها .



(2) السنن لأبي داود ، ج 5 ، ص 10 ، وسنن الترمذي ، ج 5 ، ص 517 .

باسمه الأعظم الذي إذا دعي به ؛ أجاب ، وإذا سئل به ؛ أعطى ! » (1) .

4 - قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له » (2) . فدعاء ذي النون ﷺ ينفي جميع الآلهة ، وأنواع الإله ، وخاصة : أنه جاء بالضمير المنفصل ﴿ أَنْتَ ﴾ ليؤكد على لفظ الجلالة غير المذكور ، وللدلالة على القرب من جهة ثانية ؛ لأن هذا الضمير لا يخاطب به إلا القريب ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَآئُوسًا بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُ قَرْبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلٍ أَوْرِدَ ﴾ (3) وهو ما يربط بين الآيات التي أوردت لفظ الجلالة ، وهذه الآية التي لم تذكره صراحة ، وإنما نصت عليه باستخدام الضمير المنفصل .

5 - مرَّ النبي ﷺ بأبي عياش زيد بن الصامت الزُّرَقِي ؛ وهو يصلي ؛ وهو يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنْ لَكَ الْحَمْدَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ! فقال رسول الله ﷺ : لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به ؛ أجاب ، وإذا سئل به ؛ أعطى » (4) .

ومن الأقوال التي قيلت في الاسم الأعظم : أنه الحي القيوم . وقيل : إنه اسمه الله . وهذان القولان من أقوى ما قيل في الاسم الأعظم ، والخلاف فيه طويلٌ عند أهل العلم ، والأقوال التي قيلت فيه كثيرة ، لكن من أقوى ما قيل

(1) مسند أحمد ، ج ٥٠ ، ص 159 ، وسنن الترمذي ، ج 12 ، ص 439 .

(2) سنن الترمذي ، ج 5 ، ص 529 ، وصحيح كنوز السنة ، ج 1 ، ص 158 .

(3) ق ، 16 .

(4) صحيح كنوز السنة ، ج 1 ، ص 158 ، ومجمع الزوائد ، ج 11 ، ص 20 .

في ذلك : إنه اسمه الله ، أو : إنه اسمه الحي القيوم . ومن الأسباب المرجحة لكون ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ هو اسم الله الأعظم : أن جميع الصفات ترجع إلى هذين الاسمين . فالحي ترجع إليه الصفات الذاتية ، والقيوم ترجع إليه صفات الأفعال (1) .

والقرآن الكريم فتح الحديث عن اسم الله الأعظم ، بقوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا إِلَهُكَ بِهٖ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (2) ففي هذه الآية الكريمة ذهب المفسرون مذاهب شتى في قوله تعالى ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ من هو ؟ وما هو علم الكتاب ؟ أسئلة تفتح ثنايا البحث في اسم الله الأعظم ضمن دائرة معرفية يتكرر فيها ما قيل عن اسم الله الأعظم ، فقد ذهب الزمخشري في تفسير هذه الآية إلى القول : « الذي عنده علم من الكتاب هو رجل كان عنده اسم الله الأعظم ، وهو : يا حي يا قيوم ، وقيل : يا إلهنا ، وإله كل شيء إلهاً واحداً ، لا إله إلا أنت . وقيل : يا ذا الجلال والإكرام . وعن الحسن ، رضي الله عنه : الله ، والرحمن » (3) .

والتساؤل الذي يطرح هنا : لماذا عمد أكثر المفسرين حين الحديث عن هذه الآية إلى القول : أن علم الكتاب هو معرفة اسم الله الأعظم ، ثم يوردون بعد ذلك الآراء الأخرى ؟ إن هذا التساؤل يشير إلى أن هناك ترابطاً منطقياً بين التفاسير ، وبين الأحاديث النبوية التي ورد فيها ذكر اسم الله الأعظم ، وإن اختلفت الروايات في بيانه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى : أن سياق الآية هنا يحيل إلى أمر عظيم .

(1) تذكرة المؤتسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي ، ج 1 ، ص 35 .

(2) النمل ، 40 .

(3) الكشف ، ج 5 ، ص 84 .

إنَّ كل الآراء التي ذهبت إلى القول في اسم الله الأعظم لم تخرج عن نطاق القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ؛ وإن اجتهدت في البحث عن اسم الله الأعظم . والإبهام المتحقق في البحث عن اسمه الأعظم - جل جلاله - يحيل إلى أسئلة تراود الفكر الإسلامي الذي يحاول التحقق دائماً من سياقات كثيرة تثري فكره ، وتدعوه إلى البحث عن إجابات يتحقّق منها المراد ، أم لا يتحقق . فالإبهام هنا يحيل المسلمين إلى البحث عن اسم الله الأعظم ، وذلك من خلال التفكير ، والتبصر في كل أسماء الله الحسنى التي وردت في النص القرآني ، أم في الحديث النبوي ، وهذا التفكير ، والتبصّر مراده هو معرفة الله تعالى معرفة تزيد من قوة إيمان المسلم بربه ، فيتعرف على عظمته ، وقوته ، وكبريائه ، وسلطانه ، ورحمته ، وكرمه .

ومع هذا لا بد من إيجاد إجابة مقنعة للتساؤل المطروح عن العلاقة بين الاسم الأعظم ، والكتاب ، ولماذا هذا الربط ؟ وهل يمكن أن نصل من خلاله إلى نتيجة ؟

لقد بحثنا عن هذه العلاقة ، وهذا الربط في القرآن الكريم ، وعمدنا بشكل خاص إلى السور المفتحة بالأحرف المقطعة لما لها من خصوصية الإعجاز ، والتحدي للمخلوقين ، وأن هذا الكتاب الذي هو من عند الله إنما يتكون من هذه الأحرف ، حيث إن هذه السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة وعددها ( 29 ) سورة ، قد جاء ذكر الكتاب ، أو القرآن ، أو الوحي بعد هذه الأحرف مباشرة ، إلا في أربع سورٍ منها ، وهي : ( مريم ، والعنكبوت ، والروم ، والقلم ) .

ولما كان الكتاب في آياته ، وسوره يتكوّن من هذه الحروف ، وبالإضافة إلى ما جاء من أقوال العلماء ، والمفسرين فيها <sup>(1)</sup> فإننا نرى فيها دعوة إلى التفكير ، والتأمل في هذا الكتاب الذي يتكوّن من هذه الحروف التي تعرفونها ، غير أنه من عند الله تعالى .

(1) ينظر الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، ص 30 وما بعدها .

- ولما كان هذا الأمر من باب العلم ، و طلب العلم فريضة ؛ فقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » <sup>(1)</sup> حيث دخل طلب العلم في باب العبادات ، ولذلك جاء ذكر الكتاب ، والوحي ، والقرآن في مستهلها بعد الحروف المقطعة وهي دعوة إلى العلم والمعرفة ، وأعلى درجات هذه المعرفة ، هي معرفة الذي أنزل هذا الكتاب ، ودليلنا على ذلك ما جاء في فواتح سور الحواميم ، حيث قال تعالى : ﴿ حَمِّمْ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ <sup>(2)</sup> .

﴿ حَمِّمْ تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ كِتَابُ فَصَّلَتْ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ <sup>(3)</sup> .

﴿ حَمِّمْ عَسَقَ ﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ <sup>(4)</sup> .

﴿ حَمِّمْ ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُؤْمِنِ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ <sup>(5)</sup> .

﴿ حَمِّمْ ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُؤْمِنِ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ <sup>(6)</sup> .

﴿ حَمِّمْ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ <sup>(7)</sup> .

فإذا تأملنا جميع الآيات لهذه السور ؛ سنجد الكتاب مرتبط باسم معين في تنزيله ، أو وحيه ، وهذا الاسم إما أن يعود على لفظ الجلالة صراحةً بنصٍّ

(1) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 4 ، ص 177 .

(2) غافر ، 2-1 .

(3) فصلت ، 3-1 .

(4) الشورى ، 3-1 .

(5) الزخرف ، 3-1 .

(6) الدخان ، 3-1 .

(7) الجاثية ، 1 ، 2 ، والأحقاف ، 1 ، 2 .

اللفظ ، كما في سور غافر ، والشورى ، والجاثية ، والأحقاف .

وإما باسمين من الأسماء الحسنی لا يفسران إلا بلفظ الجلالة كما هو في سورة فصلت : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ . فلا يصح أن نسأل من هما الرحمن الرحيم ، فالسؤال يكون ، من هو الرحمن الرحيم ؟ والجواب القطعي هو لفظ الجلالة ( الله ) .

وإما أن يعود على ضمير يعود على لفظ الجلالة كما هو في سورتي : الزخرف ، والدخان ، حيث أتى ضمير الرفع المنفصل ( إنَّ ) أي : نحن ، دلالة على التعظيم ، وأكد على ذلك عندما اتصل هذا الضمير بالفعل زيادة في التأكيد ( جعلناه ، أنزلناه ) أي : نحن ، فهل يعود الضمير على غير لفظ الجلالة .

بقي شيء واحد وهو أن آية الشورى تعطي الدلالة ، وتوضح العلاقة بشكل جلي ، في الربط بين الاسم الأعظم ، وبين الذي عنده علم من الكتاب ؛ لأن الوحي إلى الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، وإلى الذين من قبله ، إنما هو من الله تعالى ، والذي عنده علم من الكتاب ، لا بدّ : أن عنده علم ، وإيمان بالذي أنزل الكتاب .

بعد هذا التبسيط نستطيع أن نقف على علاقة الآية في قوله تعالى : ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ فيما ذهب إليه بعض المفسرين في أن الذي عنده علم الكتاب ، عنده اسم الله الأعظم دون أن يعطوا دليلاً ، وأما بالنسبة لنا ؛ فقد وضعنا العلاقة بين الكتاب ، وعلمه ، ولفظ الجلالة من الكتاب .

### لفظ الجلالة :

لقد ذهب اللغويون ، والفقهاء في معنى لفظ الجلالة ( الله ) مذاهب شتى في أصل اللفظة ، وجذرها اللغوي ، ومعناها ، ومعظم هؤلاء قالوا بأنها مشتقة من ( أَلَه ) التي منها اشتق لفظ ( إله ) ثم أدخلت عليها ( أل ) التعريف ، فأصبحت ( الإلاه ) ثم حذفت الهمزة ، فاجتمعت لآمان : أحدهما



ساكنة ، والأخرى متحركة ، فأدغمت إحداهما بالأخرى ، فصارت ( الله ) .  
 فقد جاء أن : « كلمة ( إله ) على وزن ( فعال ) وتأتي أحياناً بمعنى ( فاعل ) وتأتي أحياناً بمعنى ( مفعول ) وهي لغة مشتقة من ( ألّه ) بمعنى : عبَدَ ، وقال بعض اللغويين : إنها من : ألّه ، يألّه : إذا تحيّر ، ف : ( ألّه ) فلان يألّه ، أو تألّه : إذا تحير ، وسمي الإله عندهم إلهاً ؛ لأن الأبواب تحيّر في كُنه وصفه ، وكُنه حقيقته . وهذا القول ليس بجيد ، بل الصواب : أن كلمة ( إله ) ( فعال ) بمعنى ( مفعول ) وهو المعبود » (1) .

وكذلك قالوا : « الله : لفظ الجلالة أعرف المعارف ، وهو علم على الرب - سبحانه وتعالى - ، ومتضمن لصفة الألوهية ، فالله ذو الألوهية ، والعبودية على خلقه أجمعين ، كما قال ابن عباس ، وأصل الله : الإله ثم حذفت الهمزة فاجتمعت لآمان إحداهما ساكنة وأدغمت إحداهما في الأخرى فصارت الله » (2) .

**ونحن نرى : أن القولين ليسا جيدين ، ولا صائبين ، وسنبرهن على ذلك بما يحمل الاسم من خصائص ، وسمات .**

### 1 - خصائص لفظ الجلالة :

أ - إذا أعدنا كتابة لفظ الجلالة على هذا النحو الذي أقرّه جميع النحاة ، واللغويين وفق هذه القاعدة في إدغام المثليين بعد حذف الألف ، سوف يكون رسم لفظ الجلالة مختلفاً تماماً عما هو مثبت في القرآن الكريم ، وما تلاه من كتب بعد ذلك ، لا نستثنى منه أي علم من العلوم التي أوردت رسم لفظ الجلالة بالصورة التوقيفية ؛ لأن رسم المصحف هو رسم توقيفي ، لا يخضع لقواعد النحو والإملاء ، وذلك : أن علماء رسم الخط خاصة ، وأهل اللغة ، والنحو عامة من المشاركة ، والمغاربة ، ومن القدماء ،

(1) التمهيد لشرح كتاب التوحيد ، ج 1 ، ص 87 .

(2) تعليقات على شرح لمعة الاعتقاد ، ج 1 ص 21 .

والمحدثين ابتداءً من أبي الأسود الدؤلي ، ومروراً بالخليل ، وسيبويه ، وأبي عمر الثقفي ، وأبي عمرو بن العلاء ، وأبي عمرو الداني ، والأخفش ، والكسائي ، وغيرهم قد أقرأوا : أن رسم الخط العربي على ثلاثة أنواع :

1 - **رسم المصحف** : وهو توقيفي كما جاء عن كتبة الوحي ، وأقره ﷺ عن جبريل عليه السلام ، عن اللوح المحفوظ ، عن رب العزة جلّ جلاله .

2 - **الرسم العروضي** : وهو إثبات الرسم بالحروف المنطوق بها دون زيادة ، أو نقصان ، وهي الكتابة الموسيقية .

3 - **الرسم الكتابي** : وهو الرسم الذي يخضع للقواعد التي أقرّها العلماء ، وتواطأت عليها الأجيال في اللغة ، والنحو ، والإملاء .

وهذا إجماع لم يظهر فيه خلاف ، أو معارضة ، أو استثناء على مرّ العصور من أحد ، فالمصحف رسمٌ توقيفي ، ولفظ الجلالة من هذا الرسم ، هذه الخصيصة الأولى .

ب - قولهم : أَلَهْ بمعنى عَبْدَ ، فهذا القول لا يستقيم لعقل ؛ لأن أله إن كان معناه إله فهو معبود ، وعبد هو عابد ، فكيف يشتق أله من عبد وهو بعيد كل البعد عن أصل جذره اللغوي ؟ ! فإن قالوا : إن أله بمعنى عبد ؛ نقول : ليس هناك كلمة واحدة في اللغة العربية وضعت لمعنيين . فإن قالوا : هو من باب الترادف اللفظي ، فالترادف اللفظي لا يعطي المعنى المطابق للكلمة المرادفة ، وخاصة إذا علمنا : أن المردف هو التالي للأول ، لا يكون هو نفسه بحال من الأحوال ، وإنما يشترك معه في بعض الصفات بزيادة ، أو نقصان ، وعلى سبيل المثال من الألفاظ المترادفة قولنا : طويل ، ومديد ، وباسق ، وشامخ ، فالأول معلوم المعنى ، والثاني طويل في انبساط ، واتساع ، والثالث طويل في زهو ، والرابع طويل في فخر ، واعتزاز .

**علماً** : أن أله ، وعبد ليستا من الترادف ، ولا من المشترك اللفظي ، بل

هما من التضاد اللغوي ؛ لأن أحدهما إله ، والآخر عبْد ، ولهذا لا نسلّم باشتقاق لفظ الجلالة من هذا الجذر اللغوي .

وهي الخصيصة الثانية التي لا يشترك فيها مع لفظ الجلالة أيُّ مفردة أخرى ، ولا يجب .

ج - وأما اشتقاقها من أله وأن أصل ( الله ) إله فأدخلت الألف واللام فصارت الإله ثم حذفت الهمزة ، وأدغمت في اللام التي تليها فأصبحت ( الله ) فسوف نطبق هذا الرأي على اللفظة ، ونرى ما ينتج عن هذه القاعدة :

إلاه : هكذا رسم اللفظ ، فحذفت الألف لكثرة الاستعمال ، وهذا مطرد في كلام العرب ، ولغتهم ، مثل حذف ألف ( هذا ) وألف ( لكن ) وهو معروف ، ومسلم به ، فيصبح رسمها هكذا ( إله ) بهمزة مكسورة ، ولام ، ثم أُلِف محذوفة ، وهاء .

إله : أدخلت عليها ( أل ) التعريف فأصبحت ( الإله ) أي ألف وصل ، ولام ، وهمزة مكسورة ، ثم لام وألف محذوفة بعدها هاء .

الإله : حذفت منها الهمزة المكسورة ( الألف ) ، فاجتمعت لآمان الأولى ساكنة ، والثانية متحركة ، فأدغمت الأولى بالثانية ، وهذا لا يخالف قواعد العربية في إدغام المثليين في حرف واحد ، وتشديده ، فيكون الرسم وفق القاعدة التي انطلقوا منها هكذا ( إله ) أي : ألف ، ولامين ، وألف محذوفة ، وهاء ، والرسم الذي يستخدمونه هو هكذا ( الله ) ألف وثلاث لامات ، وألف محذوفة وهاء .

وبين لفظ الجلالة الذي ينتج عن اشتقاقه من ( أله ) وبين لفظ الجلالة في رسم المصحف فرق في عدد الحروف أثناء نطق لفظ الجلالة ، حيث أن اللفظة التي تنتج عن القاعدة تتكون من خمسة أحرف ، بينما اللفظة في رسم المصحف تتكون من ستة أحرف ( ا ل ل ل ل - ا - هـ ) ، وقد ذكرنا : أن رسم المصحف هو رسم توقيفي ، أقره العلماء من أهل الرسم ، ومن اللغويين ، والأصوليين

على حدّ سواء ، ولما خالفت القاعدة الرسم التوقيفي ؛ لجأ من قال بهذا الرأي إلى تعميم القاعدة ، واستخدام رسم المصحف ؛ ليتعدوا عن الإشكال .

هذه الخصائص التي ينفرد بها لفظ الجلالة عن بقية الأسماء الحسنی تعطينا مرجحاً لأن يكون ( الله ) هو الاسم الأعظم .

## 2 - سمات لفظ الجلالة :

### آ - لفظ الجلالة اسم للذات الإلهية :

إن لفظ الجلالة من دون الأسماء الحسنی جميعها ، والتي وردت في روايات أحاديث الأسماء الحسنی المتفقة منها ، والمختلفة ، نقول : هو الاسم الذي لا يتصرف منه شيء ، لا في الأفعال ، ولا في الصفات ، ولا في المصادر . بمعنى : أنه لا يكون منه فعل ، ولا فاعل ، ولا مفعول به ، ولا اسم فاعل ، ولا صفة مشبهة ، ولا صيغة مبالغة ، ولا مصدر ، فهو اسم للذات الإلهية ، بخلاف جميع الأسماء التي تقبل التصريف لجميع الصيغ ، أو بعضها ، فعلى سبيل المثال لا الحصر اسم الرحمن :

الفعل الماضي منه : رحم .

الفعل المضارع : يرحم .

الفعل الأمر : ارحم .

اسم الفاعل : راحم .

اسم المفعول : مرحوم .

صيغة المبالغة : رحيم .

فإن كان لفظ ( إله ) أو ألّه هو الجذر الثلاثي للفظ الجلالة وهو من المشتقات ؛ فما هو معنى لفظ الجلالة غير دلالته على الذات الإلهية ؟

إذ من المعلوم : أن أيّ اسم مشتقّ يجب أن يكون له دلالة معنوية ، أي :

اسم له دلالة عدا اسم الذات الإلهية ، فإذا أخذنا الجذر ( أله ) وقلبناه في التصارييف التي تقبلها الأفعال والأسماء ؛ فهل نستنتج من هذا التصريف لفظة ( الله ) ومع ذلك سنحاول قبل إصدار الحكم .

الجذر الثلاثي : ( أ ل هـ ) .

الماضي منه : أله .

المضارع : يأله .

الأمر : إأله .

اسم الفاعل : آله .

اسم المفعول : مألوه .

لا تأتي منه صفة مشبهة ؛ لأن الصفة المشبهة ( من باب فرح وكرم ) .

لا يأتي منه اسم تفضيل ؛ لأن التفضيل يدل على شيئين اشتركا في صفة واحدة ، والإله الحق خارج المفاضلة .

وأما اسم الآلة ، وأسماء الزمان ، والمكان ، فلا يصح منها شيء فيه ؛ لأن الآلة تدل على أداة الفعل ( فتحت الباب بالمفتاح ) ، وأما الزمان ، والمكان ؛ فالإله الحق خارج هذين الحيزين .

وعليه جميع المشتقات من الجذر ( أ ل هـ ) لا ينتج منها لفظ الجلالة فكيف يكون هذا الجذر أصلاً للفظ ( الله ) وعلى هذا فاللفظة اسم توقيفي على الذات الإلهية .

**ومن المعلوم أيضاً : أن ( إله ) يطلق على الخالق ، وعلى المخلوق ، والله تعالى لا يسمى باسمه ، فقد جاء في قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (1) .**

(1) الأنبياء ، 22 .

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ (1) .

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ (2) .

﴿ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ (3) .

**فمن هنا نقول :** إن لفظ الجلالة اسم توقيفي ، وليس مشتقاً ، وهو علم للتعيين ولا يتضمن إشارة حسية مثل التي تدل عليه بقية الأسماء ، لذلك نجد الأسماء التي تلي لفظ الجلالة تبين صفات الذات الإلهية ، ولا تعطي معنى اللفظ ، وهذا سياق مطرد في القرآن الكريم مثل : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (4) .

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (5) .

﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (6) .

**ب - يتصدر جميع الأسماء وتكون هي تالية له :**

لم يأت لفظ الجلالة لا في الكتاب ، ولا في السنة تالياً لبقية أسماء الله الحسنی وإنما يتصدرها ، فلا نجد مثلاً : الرحمن الرحيم الله ؟ ! وإنما يأتي لفظ الجلالة ، وبقية الأسماء تالية له ، وذلك ؛ لأنه الاسم الأعظم ، فلا يتقدم عليه اسم حتى من أسمائه الحسنی ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (7) .

(1) المؤمنون ، 117 .

(2) الفرقان ، 43 .

(3) الأعراف ، 138 .

(4) الجاثية ، 2 .

(5) المؤمنون ، 116 .

(6) الصافات ، 126 .

(7) النمل ، 30 .

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ  
الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ (1) .

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ (2) .

﴿هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (3) .

وأما قوله تعالى : ﴿أَنْقَلَبُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ (4) . فلم يكن لفظ  
الجلالة تالياً لـ : ( رب ) لأنه فصل بينهما بالضمير وهو ياء المتكلم .

### ج - ليس له مفردة من لفظه :

إن لفظ الجلالة ليس له من لفظه كلمة تشاكله ، أو تفسره ، أو ترادفه ،  
لذلك كثرت الأقاويل في أصل جذره اللغوي لمن قال بالاشتقاق :

فمنهم من قال : مادته ( ل ي هـ ) من لاه يليه : إذا ارتفع .

ومنهم من قال : مادته ( ل و هـ ) من لاه يليه : إذا احتجب .

ومنهم من قال : مادته ( أ ل هـ ) أله ، يأله : إذا فزع إليه .

ومنهم من قال : مادته ( و ل هـ ) من وله لطرب العقول عند ذكره .

فمن المعلوم : أنه ليس هناك اسم في العربية وقع فيه اختلاف في مادة  
اشتقاقه ؛ لأنه معلوم المصدر ، والذين قالوا بالاشتقاق ذهبوا إلى ما يقرب من  
عشرين رأياً في أصل الجذر اللغوي للفظ الجلالة ، وهذا التفاوت الكبير دليل  
على أن من ذهب إلى رأيي ؛ فهو اجتهادي ، لا يستند إلى أساس إجماع لا عند  
بعض الفقهاء الذين قالوا بالاشتقاق ، ولا عند اللغويين . إضافة إلى ذلك :

(1) الحشر ، 23 .

(2) الحشر ، 24 .

(3) سبأ ، 27 .

(4) غافر ، 28 .

فإن الاجتهاد يحتمل الصواب ، والخطأ ، وكثرة الاختلاف ترجح الخطأ أكثر من الصواب ، وعلى هذا فهو اسم توقيفي ، وأنه ليس له دلالة حسية مادية ، وإنما هي دلالة عقلية إدراكية إلى ما وراء الحس ليس المتخيل ، وإنما الحس اليقيني الكامن في الاعتقاد القلبي .

وهذه السمات التي تميز بها لفظ الجلالة عن بقية أسماء الله تعالى تضيف لنا مرجحاً آخر فيما نعتقد من أنه هو الاسم الأعظم .

د - لا يذكر ، ولا يؤنث ، ولا يثنى ، ولا يجمع ، ولا يضاف إلى ضمير بخلاف جميع الأسماء :

إن جميع الأسماء الحسان عدا لفظ الجلالة ، يجري عليها ما يجري على الأسماء في اللغة من التثنية ، والجمع ، والتذكير ، والتأنيث ، والإضافة إلى الضمائر .

فالعليم ، والحكيم ، والظاهر ، والباطن ، والأول ، والآخر ، والسلام ، والمؤمن ، والمهيمن ، والحفيظ ، وجميع الأسماء تقبل ما ذكرناه في حال تعريفها كونها أسماء ، أو في حال تجريدتها من ( أل ) كونها صفات ، ولناخذ لكل منهما مثلاً :

الاسم :

الحكيم : الحكيمان ، الحكماء ، الحكيمة ، الحكيمتان ، الحكيمات ، وهكذا في جميع الأسماء .

الصفة :

عليم : عليمان ، علماء ، عليمة ، عليمتان ، عليمات ، وهكذا في جميع الصفات .

ومما يؤكد : أن ( الله ) هو الاسم الأعظم :

1 - كل الأسماء الحسنی يُتصف بها نسبياً .



2 - ( الله ) اسم ذات لا يُتصِف به ؛ لأنه لا يُشتق منه شيء ، ولا يتصرف منه شيء ، ولا يثنى ، ولا يجمع .

3 - أسماء الله الحسنی عندما تعود على الله تعالى بصفاته ، وأفعاله لا تثنى ، ولا تجمع ، ولا تذكّر ، ولا تُؤنث .

4 - عندما يسمّى بها المخلوقون ، أو يتصفون بها ، فإنها تعامل معاملة الأسماء في اللغة من الاشتقاق ، والتصريف ، والتذكير ، والتأنيث ، والتثنية ، والجمع .

فإذا أتينا إلى لفظ الجلالة ؛ وجدناه يفارق جميع الأسماء بتفرده عنها ، بحيث لا يقبل شيئاً مما تقبله ، وإنما اختص لفظ الجلالة بشيء آخر لا تقبله بقية الأسماء الحسان ، ولا يجري عليها ، فهو تلحقه ميم في آخره ، وهي عوضاً عن أداة النداء ( يا ) فقولنا : اللهمَّ معناه ( يا الله ) ، وبهذا الرأي قال جميع النحاة ، وكتب إعراب القرآن ، إن هذه الميم عوض عن حرف النداء ، وهو ما نرجحه ونؤكد عليه ، ونعتقده . بدليل أن لفظ الجلالة لم ترد مسبوقه بأداة النداء ( يا الله ) في القرآن الكريم مطلقاً ، وإنما ورد نداء لفظ الجلالة متصلاً بهذه الميم التي هي بدل من ( يا ) النداء خمس مرات ، وكلها مسبوقه بالقول إلا في سورة يونس جاءت : دعواهم فيها اللهمَّ ، ودعواهم هو قولهم ، قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ (1) .

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (2) .

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (3) .

(1) آل عمران ، 26 .

(2) المائدة ، 114 .

(3) الأنفال ، 32 .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (1) .

﴿دَعُونَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (2) .

### 3 - نداء لفظ الجلالة :

من السمات التي تفرد بها لفظ الجلالة : أنه لم يرد في القرآن الكريم مسبقاً بأداة النداء مطلقاً ، و نحن نقول يجب أن يكون هكذا ، حتى لا يتساوى نداء الخالق بندااء المخلوقين .

فألله تعالى نادى الخاصة من خلقه ، والعامّة بأداة النداء ( يا ) ، وخصّ نفسه بندااء مغاير .

فمن نداء الخاصة قوله تعالى :

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (3) .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (4) .

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ (5) .

ومن ندائه للعامّة قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ﴾ (6) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (7) .

(1) الزمر ، 46 .

(2) يونس ، 10 .

(3) البقرة ، 35 .

(4) الأحزاب ، 45 .

(5) المائدة ، 110 .

(6) النساء ، 1 .

(7) آل عمران ، 102 .

﴿يَتَأْهِلَ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (1) .

والنداء عندما يكون من الأعلى للأدنى ، فهو للتنبيه ، ومن الأدنى للأعلى يكون للاستغاثة ، ومع هذا فالله تعالى ترفع عن نداء الاستغاثة للفظ الجلالة بما ينادى به المخلوقون دلالة على عظمة الاسم ، فخصّ لفظ الجلالة بأداة خاصة للنداء في القرآن الكريم ، وليس هناك لفظة ، أو مفردة في اللغة غير كلمة ( اللهم ) تكون الميم فيها للنداء عوضاً عن ( يا ) النداء ، فالله تعالى ينادى بلفظ : ( اللهم ) .

أمّا في غير القرآن الكريم فإن لفظ الجلالة هو الاسم الوحيد المعروف ب : ( أل ) الذي ينادى ب : ( يا ) مباشرة فنقول : ( يا الله ) وأمّا بقية الأسماء المعروفة ب : ( أل ) فلا تنادى مباشرة إلا أن يسبقها أيها للمذكر ، وأيتها للمؤنث ، وقد أجاز الكوفيون نداء المعرف مباشرة (2) .

وأمثلة ذلك من نداء المذكر قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ (3) .

وقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِي يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ (4) .

وقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (5) .

ومن نداء المؤنث قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (6) .

(1) آل عمران ، 70 .

(2) ينظر مفتاح العلوم ، ج 1 ، ص 43 .

(3) البقرة ، 21 .

(4) المائدة ، 41 .

(5) الأنفال ، 64 .

(6) الفجر ، 27 .

بقي نقطة مهمة في الفرق بين النداء بـ : ( يا ) والنداء بـ : ( بميم )  
العوض المختصة بلفظ الجلالة .

إن المنادئ لا يخلو أن يكون قريباً ، أو بعيداً ، فإن كان قريباً ينادئ بالهمزة مثل : ( أزيد اقرأ ) ، وإن كان بعيداً ينادئ بـ : ( يا ) ومن المعلوم : أن المنادئ البعيد يجري عليه حكم بعد المسافة ، والنائم ، والغافل الساهي :  
أ - نداء البعيد : قال تعالى : ﴿ يَمْرِيْمُ أَفْنِيْ لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِيْ وَأَرْكَعِيْ مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴾ (1) .

ب - نداء النائم : قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ (2) « يعني به النبي ﷺ قد تدثر بثيابه ، ونام » (3) .

ج - نداء الساهي : قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ أَلْحَقُ بِأَلْطَلُفٍ ﴾ (4) .

لذلك اختصت ( يا ) بهذا النوع من النداء ؛ لكي يكون زمن النداء ؛ طويلاً من أجل تنبيه المنادئ في استغراق الزمن ، وكذلك فإن الياء ، والألف هما من الحروف الهوائية التي لا ينغلق معهما أي مخرج من المخارج الصوتية ، فهما يستغرقان أطول زمن قياساً لجميع الحروف ؛ لأن الهواء يخرج من الجوف إلى أقصى المخارج الصوتية وهما الشفتان فيستغرقان أطول زمن ، ولهذا كانا من حروف المد .

وأما الميم ؛ فهي من الأحرف الشفوية مع الفاء ، والباء ، وخاصة الميم التي تخرج من أقصى المخارج الصوتية ، وهما أطراف الشفتين بأقل جهد

(1) آل عمران ، 43 .

(2) المدثر ، 1-2 .

(3) تفسير ابن عباس ، ج 2 ، ص 115 .

(4) آل عمران ، 71 .

مقارنةً مع أيّ حرف آخر ، وهنا يتضح الفرق بين النداء بـ : ( يا ) والنداء بـ : ( الميم ) العوض .

خصائص النداء بـ : ( يا ) :

- أ - أداة تنبيه تسبق المنادى .
- ب - ينادى بها البعيد ، والنائم ، والساهي .
- ج - تتكون من حروف المد بحيث تستغرق أطول زمن من بين الحروف .
- د - الهواء الذي يكوّن صوت ( يا ) يمرّ على جميع المخارج الصوتية .

خصائص النداء بـ : ( الميم ) العوض :

- أ - أداة نداء من حرف واحد .
- ب - تلحق نهاية لفظ الجلالة .
- ج - تخرج من آخر المخارج الصوتية .
- د - تستغرق أقلّ جهدٍ ، وأقلّ زمن من أيّ حرف آخر .
- هـ - خاصة بنداء لفظ الجلالة .

وهنا نجد : أن ( اللهم ) تعطي قرب المسافة في اختصار الزمان ، والمكان ، والنداء بها يكون يقينياً ، فهو قريب ، وسميع ، ومجيب ، وهذا جزء مما يفسر لنا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (1) .

فلو كان النداء بـ : ( يا ) يعطينا هذا المعنى القريب ، لانتفت الحاجة إلى تعلق الميم بلفظ الجلالة ، ألا ترى لو قلنا : يا الغني ، فإنه يعطينا إجابة قريبة ، أو بعيدة ، فقد يغنيك اليوم ، أو بعد سنة ، ولذا فإن الذي يدخل ( يا ) على لفظ الجلالة يعطي زمن البعد ، ولا يحدّد زمن الإجابة ، وهذا دليل على

(1) البقرة ، 186 .

تميزه عن جميع الأسماء التي تقبل النداء بـ : ( يا ) ولا تدخل عليها ميم العوض .

إن جميع أسماء الله الحسنی تنادى بـ : ( يا ) عدا لفظ الجلالة الذي ينادى بميم العوض ، وهو ما يعزز رأينا في أنه الاسم الأعظم ؛ لأن ( يا ) :

1 - أداة للتنبيه .

2 - ينادى بها البعيد .

وهذا مناف لله تعالى ، فهو كما وصف نفسه بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ <sup>(1)</sup> وعليه : لا يجوز تنبيه الذات الإلهية بالنداء بـ : ( يا ) وإن وجدت فهي من مجازات اللغة ، وهو قريب من خلقه لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ <sup>(2)</sup> .

فالذي تناديه بـ : ( يا ) قد يسمعك ، وقد لا يسمعك ؛ لأنه بعيد ، وقد يسمعك ، ولا يجيبك لأنه لاه عنك ، وغير منتبه إليك ، لذلك تحتاج في ندائه إلى ( يا ) كي تنبهه ، ذلك : أن صوت الياء طويل ، وجاء طوله من حروف المدّ لبعد المسافة التي يستغرقها الصوت من الزمن في الوصول إلى المنادى .

وأما النداء بميم العوض في قولنا : ( اللهم ) فإننا نجد : أن كل الأسباب التي ذكرناها في النداء بـ : ( يا ) النداء قد تلاشت ، وذلك لعلمنا علماً يقينياً : أنه سميع مجيب ، ولذا كانت الميم دليلاً على القرب ، والقرب دليل على أنه سميع مجيب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ <sup>(3)</sup> .

(1) البقرة ، 255 .

(2) البقرة ، 186 .

(3) هود ، 61 .

- إن صيغة نداء لفظ الجلالة بميم العوض ( اللهم ) لا تجد فيه فاصلاً زمنياً ، أو مكانياً بين الداعي ، والمدعو :

1 - انعدام الفاصل الزمني بحيث إذا وقعت على اللفظ بميم ساكنة ( اللهم ) تكون الميم جزءاً من الهاء .

2 - انعدام الفاصل المكاني باتصال الميم بلفظ الجلالة ، وشدة تلاحمها معه .

ولذا يشعر الداعي بشدة اندماج الميم مع لفظ الجلالة حتى كأنها من أصل الكلمة ، ولذلك يكون الدعاء بـ : ( اللهم ) دعاء متميزاً لما فيه من العزم على الاستجابة بسبب قرب المدعو مما يعطي نشوة بالتوحيد بين الداعي ، والمدعو ؛ لما يغمر الداعي من شعورٍ روحيٍّ ، ونفسيٍّ ، و يقينيٍّ في استجابة دعائه .

بينما عند استخدام ( يا ) النداء ( يا الله ) نشعر بامتداد المسافة ، وتطاول الزمن بحيث ينفصل الداعي عن المدعو بهذا الامتداد الذي تحدثه ( يا ) النداء . وهنا تظهر دلالة جديدة تؤكد : أن ( الله ) هو الاسم الأعظم بهذه السمة التي انفرد بها دون بقية الأسماء .

إن لفظ الجلالة جامع مانع ، فهو جامع لجميع أسماء الله الحسان ، ممتنع عليه ما يجري على بقية الأسماء ، والمسألة اللافتة في لفظ الجلالة ، والتي تدلُّ على أنه الاسم الأعظم الذي يدعن له كلُّ شيء ما جاء في فواتح سور التساييح الخمس : وهي الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن بأن التسبيح لا يكون إلا لله ، بهذا الاسم فقط ، دلالة على العظمة ، والشمول . قال تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (1) .

(1) الحديد ، 1 .

- ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (1) .
- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (2) .
- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (3) .

وذلك : أن لفظ الجلالة يحمل جميع الأسماء ، والصفات ، فجميع الأسماء عدا لفظ الجلالة يمكن أن يشترك بها الخالق ، والمخلوق نسبياً ، لذلك وصف نفسه جل شأنه بأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ .

#### 4 - لفظ الجلالة لا يجرد من الألف واللام :

إن رسم لفظ الجلالة توقيفي ، وليست الألف واللام فيه للتعريف ، وإنما هي من جنس اللفظة ومن أصل بنيتها ؛ إذ إن الاسم المضاف ، يعرف بالإضافة بعد حذف ( أل ) التعريف ، ولا يمكن أن يجتمع في الاسم ، التعريف ب : ( أل ) والتعريف بالإضافة بحال من الأحوال ، كأن تقول في العليم مثلاً : ( العليمن ) ، وإنما يجب أن تحذف إحدى أداتي التعريف فيما أن نقول : العليم ، أو عليمن . ولذا نرى أن ( أل ) لفظ الجلالة من أصل الكلمة إذا فارقتها تغيرت بنية الكلمة وأعطت معنى آخر بدلالة أخرى فإذا حذفت ( أل ) لم يبق من اللفظ سوى اللام الدالة على الملكية والضمير العائد على الملك .

ولذلك لا يمكن أن يجرد لفظ الجلالة من الألف واللام التي في بداية اللفظ ، ولا نسميها ( أل ) التعريف ، وعندما تحذف منه همزة الوصل أي الألف الأولى تنبثق منه لام الجر وفق قواعد اللغة فنقول الله ( الله ) بحيث لا تضاف لام الجر وتلتصق بها بعد حذف الألف وهي سمة أخرى في لفظ

(1) الحشر ، 1 ، الصف ، 1 .

(2) الجمعة ، 1 .

(3) التغابن ، 1 .



الجلالة وهذا دليل على أن لام الجر التي تعطي معنى الملكية هي من أصل لفظ الجلالة ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ لأن من قال بحذف (أل) من لفظ الجلالة ويبقى (له) فهذا لا يدل على الذات كما نقول مثلاً الباب ونحذف منه (أل) التعريف يبقى باب يدل على ذات - والله المثل الأعلى - وكلما تقدمنا في البحث في لفظ الجلالة يعطينا دليلاً جديداً على أنه الاسم الأعظم لله تعالى لسماته ، وصفاته ، وتميزه ، وتفردته عن بقية الأسماء .

فضلاً عن ذلك ، فإن صفوة القول : إن ما جاء من أحاديث في الاسم الأعظم في رواية : أنه في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾<sup>(1)</sup> وفي آل عمران في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾<sup>(2)</sup> وفي رواية أخرى أضافت إليهما قوله تعالى من سورة طه : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾<sup>(3)</sup> .

إن الآيتين من البقرة ، وآل عمران يتصدرهما لفظ الجلالة ، هذا في الرواية الأولى ، وهذا يعني : إن لم يكن لفظ الجلالة هو الاسم الأعظم ؛ فهو لا شك : أنه الركن الأعظم في الاسم الأعظم .

ومن جانب آخر ، فإن لفظ الجلالة الذي تصدر الآيتين في البقرة ، وآل عمران ، ثم تلاه (الحي القيوم) ولم يكن كذلك في آية طه نقول :

- إن آية سورة البقرة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قد سبق ذلك في الآية التي ما قبلها ذكر لفظ الجلالة ، أربع مرات في قوله تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا

(1) البقرة ، 256 .

(2) آل عمران ، 2 .

(3) طه ، 111 .

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ (1) فلما كان السياق ذكر لفظ الجلالة ، وجب أن يأتي لفظ الجلالة مقدماً على الحي القيوم ؛ لأن كل الأفعال التي ذكرت كانت صادرة عن الذات الإلهية بلفظ الجلالة دون بقية الأسماء الحسنی . هذا من جهة ، وكذلك مناسبة للسياق القرآني في أسلوبه من جهة أخرى ، وفضلاً عن ذلك : فقد ورد ذكر لفظ الجلالة في سورة البقرة ( 271 مرة ) .

- أما آية آل عمران ؛ فإنها في مستهلّ السورة ، والسورة مفتوحة بالأحرف المقطعة ، وسياق السورة المفتوحة بالأحرف المقطعة أن يليها ذكر الكتاب ، أو الوحي ، أو القرآن ، أو ذكر الله تعالى ، أو الجمع بينهما . حيث قال تعالى : ﴿الْعَمَّ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۝﴾ (2) ، ومعلوم : أن الحي القيوم اسمان مختصان لا تبدو صفة العلم ظاهرة فيهما ، لذلك قدم عليهما لفظ الجلالة لشمول العموم في تنزيل الكتب السماوية من الله تعالى ، وذكر الحي صفة ذات ، والقيوم صفة فعل ، وقد ذكر فيها لفظ الجلالة ( 200 مرة ) .

- وأما آية سورة طه فإنه لم يتصدرها لفظ الجلالة ، وذلك لسبب . وهو أن الآيات التي سبقتها كانت أسماء مختصة لا تتطلب العموم ، لذلك جاء بصفة الذات ، وصفة الفعل دون اسم الذات ؛ حيث قال تعالى : ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۝ عِلْمًا ۝ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۝﴾ (3) فواضح : أن الأمر لا يتطلب ذكر لفظ الجلالة لسببين :

**الأول :** أن الأفعال السابقة للآية لم تصدر عن الذات الإلهية ، وإنما عن صفة ذات .

(1) البقرة ، 253 .

(2) آل عمران ، 1-4 .

(3) طه ، 108-111 .

**الثاني :** مناسبة السياق القرآني أن يأتي ( الحي القيوم ) دون لفظ الجلالة .

ومع هذا فقد جاء بالضمير الذي يعود على لفظ الجلالة ، وينتهي هذا التساؤل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ ﴿ وَعَنْتَ الْوُجُوهَ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ وسبقت الإجابة عن ذلك من الله تعالى في سورتي البقرة ، وآل عمران بأن الحي القيوم هو الله تعالى ، ولأجل درء التعارض ، وإظهار التوافق أتى بالضمير الذي يعود على لفظ الجلالة ، ولم يذكره صراحة مراعاة لسياق النص القرآني .

والملاحظة الأخيرة في هذا الخصوص : أن لفظ الجلالة في سورة طه لم يتكرر سوى ( 6 مرات ) ، علماً : أن عدد آياتها ( 135 آية ) وهذا ما ذهبنا إليه في مراعاة السياق القرآني في أسلوبه ، مع العلم : أن أول ما ذكر لفظ الجلالة في سورة طه في الآية الثامنة بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ <sup>(1)</sup> وعلى هذا تكون عنت الوجوه لله الحي القيوم .

وهذا ما نقوله في الرواية الثانية التي أضافت آية سورة طه ، إلى البقرة ، وآل عمران ، حيث اجتمع لفظ : ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ في الآيات الثلاث ، فهذا يعني : أن لفظ الجلالة هو فعلاً الركن الأعظم ، فإذا جئنا إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ <sup>(2)</sup> فالأسماء الحسنی لله ، والحي القيوم هو الله ، صفة للذات الإلهية ، ولفظ الجلالة علم للذات الإلهية ، وكل الأسماء الحسان تعود له ، جلّ جلاله ، ولأن جميع الأسماء ، والصفات تعود لله ، فإذا دعونا بلفظ الجلالة ؛ نكون قد دعونا بهذه الأسماء ، والصفات جميعاً ، ولهذا نقول : إن لفظ الجلالة هو الاسم الأعظم .

وعليه أتساءل :

(1) طه ، 8 .

(2) الأعراف ، 180 .

- هل لفظ الجلالة ( الله ) من ضمن الأسماء الحسنی ؟

- هل الله تعالى للأسماء الحسنی ؟

- هل الأسماء الحسنی لله تعالى ؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات واضحة جليّة في القرآن الكريم ؛ حيث قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (1) .

إذاً فالأسماء الحسنی هي لله ، وهي أسماء المدح ، والثناء ، والتعظيم في محامد الله تعالى ، وتمجيده ، والثناء عليه بما هو أهله ، فهي تعود على صفات ذاته ، وصفات أفعاله التي تُعرّف عليه من خلال آياته في الخلق ؛ التي تتجلى بها تلك الأسماء الحسان ، فهي وصف الكمال للذات الإلهية من حيث إدراكنا ، ولفظ الجلالة اسم للذات الإلهية ، ولذا فإن لفظ الجلالة ( الله ) هو الاسم الأعظم ، وبقية الأسماء هي تعريف للخلق بالذات الإلهية ، وتقريب لعقولهم بكيفية الجمع بصفات منتهى الكمال في التعرّز بالقدرة ، والتفرد بالوحدانية ، وشمول الإحاطة .

**وعليه :** فمن تكون له هذه الأسماء الحسنی المطلقة في جميع صفاتها ، فلا بد أن يكون هو الاسم الأعظم دون لبس ، أو شك .

وأما ما ورد من الأحاديث في الدعاء بالاسم الأعظم ؛ فقد جاء فيه : أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول : « اللهم إني أسألك بأني أشهدك : أنك لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » . فقال رسول الله ﷺ : « لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به ؛ أعطى ، وإذا دعي به ؛ أجاب » (2) .

وعن أنس بن مالك ؛ قال : كنت مع رسول الله ﷺ جالساً في الحلقة ،

(1) الأعراف ، 180 .

(2) سنن الترمذي ، ج 12 ، ص 439 .

ورجل قائم يصلي ، فلما ركع سجد ، وتشهد ، دعا ، فقال في دعائه : « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت الحنان المنان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حيّ يا قيوم ، اللهم إني أسألك » . فقال النبي ﷺ : « أتدرون بما دعا » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! فقال : « والذي نفسي بيده ، لقد دعا باسمه العظيم الذي إذا دعي به ؛ أجاب ، وإذا سئل به ؛ أعطى ! » (1) .

إن الحديثين على اختلاف ألفاظ التمجيد فيهما لله تعالى ، قد افتتحا بلفظ الجلالة المنادى بالميم التي هي عوض عن أداة النداء في الأسماء ، وأما ألفاظ التمجيد ؛ فهي من باب الثناء على الله تعالى ، التي لا نحسن بها الثناء عليه ، كما أثنى هو على نفسه جل شأنه .

والتساؤل الذي يتجلى دائماً في مجال هذا البحث هو : هل هناك اسم من الأسماء الحسنی أعظم من الاسم الذي سمى به نفسه سبحانه وتعالى ؟

- نحن لا نتسرع الإجابة ، ولكننا سوف نسوق الأدلة ؛ حتى يقف القارئ على الإجابة بنفسه من خلال آيات الذكر الحكيم ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ (2) .

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۖ ﴾ (3) .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۖ ﴾ (4) .

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۖ ﴾ (5) .

(1) صحيح ابن حبان ، ج 4 ، ص 276 .

(2) الأعراف ، 180 .

(3) الإسراء ، 110 .

(4) طه ، 20 .

(5) الحشر ، 24 .

وردت الأسماء الحسنی في القرآن الكريم بأربع آيات في أربع سور ،  
وأول سورة ذكرت فيها الأسماء الحسنی منسوبة لله تعالى هي سورة الأعراف ،  
وما جاء بعد ذلك فهو تالٍ لها .

هذا يعني نفي الشك عن نسبتها للرحمن في سورة الإسراء ؛ لأنها  
حددت نسبتها للفظ الجلالة في سورة الأعراف بداية ، وفي بداية سورة الإسراء  
كذلك ، ثم أتى بالضمير الذي يعود على لفظ الجلالة زيادةً في التوكيد ؛ حتى  
لا يتوهم القارئ : أنها منسوبة للرحمن .

وأما سورة الحشر فإن لفظ الجلالة قد تقدم جميع الأسماء الحسان في  
بداية كل آية ، ولذا ما من شك : أن أعظم الأسماء هو لفظ الجلالة ، وإن كان  
كل اسم عظيم بصفة من صفات ذاته ، أو صفات أفعاله ، ويبقى الاسم الأعظم  
هو اسم الذات المنسوبة إليه بقية الأسماء .

- ما من مؤمن ، ولا كافر إلا ويعلم : أن الله تعالى له ملك السموات  
والأرض ومن فيهن ، بصرف النظر عن درجة إيمان المؤمنين ، وبصرف النظر  
عن إلحاد الملحدين ، وشرك المشركين ؛ فقد قال تعالى : ﴿ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ  
وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ  
السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ  
بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ  
لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ (١) وعليه فالأسماء الحسنی تعود للفظ الجلالة ، وجميع  
الخلق يعرفون الذات الإلهية بلفظ الجلالة ، على اختلاف الألسن ،  
واللغات ، ولذا : فالله هو الاسم الأعظم .

إن البحث في اسم الله الأعظم يتطلب التدقيق المتأن في ما ورد في  
كتاب الله تعالى من أسمائه الحسنی ، وما ورد عن رسول الله - عليه الصلاة

(1) المؤمنون ، 84-89 .

والسلام - من أحاديث الأسماء الحسنی بالغة ، والأسلوب اللذين وردا به .  
لقد وجدنا : أنَّ أسماء الله الحسنی التي وردت متوالية في الكتاب ،  
والسنة ، قد جاءت دون عطف بحرف ( الواو ) وهو عطف النسق الذي يفيد  
مطلق الجمع بين المتغيرات ، مثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ  
لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ <sup>(1)</sup> فلماذا لم تعطف الأسماء الحسنی بـ : ( الواو ) ؟

### إن شروط العطف بالواو هي :

- 1 - أن يكون المعطوف ، والمعطوف عليه متغيرين ، مثل أخذت القلم ،  
والكتاب .
- 2 - العطف بالواو يحتاج إلى قرينة توضح النسبة ، مثل : أخذت القلم ،  
والكتاب ( قبله ، أم بعده ، أم أخذتهما معاً ؟ ) .

والمثال الذي يوضح شروط العطف بالواو قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ  
وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ <sup>(2)</sup> فقد أفادت الواو مطلق الجمع بين ﴿ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ ﴾ من  
حيث التغير ، مع القرينة الموضحة ﴿ صَفًّا صَفًّا ﴾ . لذلك وجب العطف  
بالواو في هذا المكان وفق السياق ، وعدم عطف الأسماء الحسنی بالواو له  
شروطه ، ومبرراته .

لقد جاءت الأسماء الحسنی المتوالية بالصيغة التي وردت بها ، وهي  
صيغة عطف البيان التي لا تكون بين متغيرات ، ولا تحتاج إلى قرينة  
موضحة ، وذلك أنَّ خصائص عطف البيان :

- 1 - أنه يفيد المدح .
- 2 - يعطي معنى التوكيد .
- 3 - التوافق بين التابع والمتبوع .

(1) الحشر ، 24 .

(2) الفجر ، 22 .

4 - المعطوف على المعطوف عليه هو نفسه .

5 - إظهار خاصية الاسم .

ولذا جاءت الأسماء الحسنی معطوفة على لفظ الجلالة عطف بيان ، لأن كل اسم لاحق هو نفسه الاسم السابق الذي ينتهي إلى لفظ الجلالة ، وهو الاسم الأعظم بدليل : قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (1) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (2) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (3) .

﴿ يَمْوِسِيْ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (4) .

وهذا مطرد في جميع الأسماء المسبوقة بلفظ الجلالة في القرآن الكريم ، دلالة على أن التواب ، الرحيم ، الغني ، الحميد ، الرزاق ، المتين ، العزيز ، الحكيم هو الله تعالى جل شأنه ، فإنه الاسم الأعظم .

**وعليه أتساءل :** هل تصح المفاضلة بين أسماء الله الحسنی بأفعل التفضيل بحيث يكون هذا الاسم أعظم من ذاك ؟

إن شروط التفضيل بين الأسماء على وزن أفعل ، والتي تلحقها ( مِنْ ) الدالة على المفاضلة هي :

- 1 - أن يشترك الاثنان في صفة تصح فيهما نسبة ترجيح أحدهما على الآخر .
- 2 - أن يكون مجرداً من ( أل ) حتى تلحقه ( مِنْ ) التفضيلية ، ومثال ما يجمع

(1) التوبة ، 118 .

(2) لقمان ، 26 .

(3) الذاريات ، 58 .

(4) النمل ، 9 .



الشرطين قوله تعالى: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾<sup>(1)</sup>.

أما إذا كان معرباً ب: (أل) فتفضيله يكون مطابقاً لما اقترن به ، وبما أن الأسماء الحسنی هي جميعها معارف أصلاً ، فلا يجري عليها التفضيل بما تقدم ذكره .

ولما كانت الأسماء الحسنی كلها معارف كانت مفاضلتها بما يقترن بها ، إذن الذي يصح فيها هو :

1 - الله الأعظم .

2 - الرحمن ، الرحيم أعظم .

3 - الخالق ، البارئ ، المصور كلها أعظم .

4 - الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن كلها أعظم .

وذلك لشروط التفضيل في هذا النوع من الأسماء وهي :

1 - تعريف الأسماء ب: (أل) التي هي في الأسماء الحسنی من أصل الاسم ، وبنيته .

2 - اختصاص الاسم ، وعدم الاشتراك بالصفة .

والجدير بالذكر : أن قاعدة المفاضلة تنتفي مع الله جلّ جلاله اسماً ، وفعلاً ، وصفة ؛ حيث لا مفضول منه ، ولا وجه مفاضلة ، فهو تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾<sup>(2)</sup> فالأكرم اسم تفضيل لا يقابله مفضول لانتفاء وجه المفاضلة ، وانعدام التفضيل بين الله تعالى وأحدٍ سواه .

وبما أن كل اسم من الأسماء الحسان يحمل صفة مطلقة في اختصاص

(1) الكهف ، 34 .

(2) العلق ، 3 .

التسمية ، فلذلك لا تصح مفاضلته ، فهو الأعظم في هذا الاسم مطلقاً . وبما أن هذه الأسماء العظمى بعضها صفة ذات ، وبعضها صفة أفعال ، ولفظ الجلالة علم للذات الإلهية ، فهو الأعظم بهذه الخصيصة من بين الأسماء العظمى ، وعليه : فالله هو الأعظم .

ومع هذا لا بُدَّ من البحث في هذه المسألة ، و تناولها ولو بشكل مقتضب ، وهي :

### فهل من الممكن المفاضلة بين أسماء الله العظمى :

المفاضلة في اللغة تكون بين اثنين ، أو أكثر لإظهار ما يتفاضل به أحدهم عن الآخر ، أو الآخرين ، فيكون فيها مفضَّلٌ ، ومفضَّلٌ عليه ، والمفضَّلُ أتمُّ من المفضَّل عليه من حيث الصفة التي يتفاضلون فيها ضمن دائرة النسبية .

ولا يمكن أن تكون المفاضلة بين الشيء وذاته في الزمن الآن ، لعدم تغير الصفة ، أو تفاضلها فيه .

فالقول : ( زيد أعلم من عمرو ) يفهم منه : أن هناك مفاضلاً يقوم بعملية المفاضلة ، وهناك أفضل ، وهو زيد ، وهناك مفضَّل ، هو عمرو ، وهناك متفاضل فيه ، هو درجة علم كلِّ منهما ، فعمرو علمه أقل درجة من علم زيد ، وعليه فالمفاضلة تنفي المماثلة بين المتفاضلين ، فلا يكونان متماثلين ، ولا متطابقين فيما تَمَّت فيه المفاضلة .

ولهذا فهل يمكن المفاضلة بين أسماء الله الحسنى ؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب طرح مجموعة من التساؤلات ، ومحاولة البحث فيها :

- لمن الأسماء الحسنى ؟

- هل الأسماء الحسنى تعود على واحدٍ ، أو متعدد ؟

- هل هناك فرق بين الأسماء الحسنى ؟

وهنا لنا أن نجيب بأن هذه الأسماء الحسنی كلها لله تعالى ، وهي أسماء صفاته ، وأفعاله ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (1) وعليه فالأسماء الحسنی تعود على واحدٍ أحده هو ( الله ) ولا تعود على متعدد ، فالرحمن هو الله ، والقوي هو الله ، وكذلك العزيز ، والودود ، والجبار ، والمهيمن ، كلها أسماء لله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (2) .

إن الاسم الأعظم ، وبقية الأسماء الحسنی جاء ( بألف ولام ) وهذا يعني : أنها من أصل بنية الكلمة ، أو اللفظ مثل : الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، العليم ، الحكيم ، الحليم .

وعندما ترد في القرآن الكريم مجردة من ( أل ) تكون صفة من صفات الله تعالى وليست اسماً من أسمائه جرد من ( أل ) وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ (3) وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (4) وهنا عليم ، وحليم ، وحكيم هي صفات من صفاته تعالى ، وليست أسماء تم تجردها من ( أل ) التعريف .

**وعليه :** فأسماء الله الحسنی هي معارف ، والألف واللام هي من أصل الاسم . لذلك لا تقبل التعريف ، وعليه لا يمكن أن تجوز المفاضلة بينها ، فهي لا تقبل التعريف كونها معارف مطلقة ، وأما بالنسبة للبشر إذا اتصفوا بها ؛ فهم معارف غير مطلقة ، لأنهم يشتركون بصفة معينة في نسب متفاوتة ، وعندما يتميز أحدهم عن الآخرين بهذه الصفة ؛ فهو يحتاج إلى ( أل )

(1) الأعراف ، 180 .

(2) الإسراء ، 110 .

(3) النساء ، 12 .

(4) النساء ، 26 .

التعريف لتبرزه من بين الذين يشتركون معه في هذه الصفة ، أو تلك ، فيصبح بذلك معرفة نسبية .

**وعليه :** فلا مفاضلة بين أسماء الله تعالى الحسنی من حيث كونها أسماء تعود على الذات الإلهية ( الله ) وإن ظهرت فيها عظمة الصفات كلاً على حسب خصوصية الاسم ، فاسم الرحمن تظهر فيه صفة الرحمة عظيمة على وجه الخصوص من باقي الصفات المتضمنة في نفس الاسم ( الرحمن ) والدائمة لخصوصية صفة الرحمة فيه ، فلو لم يكن هو الحق ؛ ما كان بنا رحيماً ، ولو لم يكن ودوداً ؛ ما كان رحيماً ، ولو لم يكون قادراً ؛ ما كان بنا رحيماً ، ولو لم يكن هو المهيمن ، والعزیز ، والجبار ، والغني ، والمغني ما كان بنا رحيماً .

ولأنه هو ( الله ) المتَّصف بكل الصفات ، والأسماء الحسنی فهو بنا رحيماً .

إذا فالمفاضلة تنتفي بين أسمائه تعالى الحسنی ، ونستطيع أن ندرك هذا فيما يأتي :

### أولاً - نظام الكون :

إن هذا الكون هو أكبر مسرح لعرض ترابط ، وتمائل أسماء الله الحسنی ، فالمتأمل فيه سيجده يسير وفق نظام واحد ثابت لا يتغير ، والذي تَكُونُ بنسب معينة ، وقوانين لا يمكن أن يصل إليها البشر في دقتها ، وكمالها ، وهذا الكون هو تجسيد لأفعال الله تعالى بداية من خلقه ، فهو الخالق تعالى . قال عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) ، وتجسيد لصفاته من إبداع ، فهو

(1) البقرة ، 164 .

البديع ، قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) ، ومن رحمة ، فهو الرحيم ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (2) . فلو لم يكن هذا التوازن في الصفات ، والأفعال ؛ لانعكس على نظام هذا الكون بما فيه من خلق مختلف أجناسه ، فلو كان المعطي - مثلاً - أعظم من المانع ، والمحبي أعظم من المميت ، والرحمن أعظم من القوي ؛ لاختلت الموازين ، ولانعكس ذلك على طبيعة العلاقة بين الخالق والخلق ، وعلى علاقة الخلق بعضهم ببعض .

فإبداعه رحمةً بنا ، وهذه الرحمة هي نفسها التي تشعنا بإبداع المخلوقات التي تتجلى فيها أسماؤه تعالى ، بحيث إن الخالق هو الرزاق ، والمحبي هو المميت ، والمبدئ هو المعيد ، والمنتقم هو اللطيف ، وهو الغفور ، الودود ، الحليم ، العليم ، الحكيم ، وهو مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، فجاء كل ما في الكون متوازناً في التنظيم ، والإبداع الذي سخره الله تعالى ، وقدر كل شيء فيه تقديراً . قال تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦) . وَإِنَّ لَهُمْ لَآيَاتٍ لَكُمُ الْيَوْمَ فَادْفَعُوا عَنْهُمْ أَفْئِدَتَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ وَأَعْيُنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ٣٧ ﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ ٣٨ ﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿ ٣٩ ﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿ ٤٠ ﴾ (3) ، فرحمته تكمن في قوته ، ولطفه يكمن في إبداعه ، وإبداعه رحمةً بنا ، فهو الودود بانتقامه ، والرحيم بعظمته ، والبارئ في تصويره ، والمهيمن في إحاطته ، وإحصائه ، وبتكامل صفات أسمائه ، وصفات أفعاله تجلى باسمه الأعظم : ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

(1) الأنعام ، 101 .

(2) القصص ، 73 .

(3) يس ، 36 - 40 .

وبتكامل هذه الأسماء ، والأفعال يظهر لنا جلياً عظمة اتحادها في اسمه ( الله ) الذي نجد فيه كل هذه الأفعال ، والصفات الحسان ، وهذا الكون هو الميدان الذي ندور فيه للوصول إلى توحيده تعالى ، وتعظيمه .

### ثانياً - الإحاطة :

المفاضلة تتطلب أن يكون المفاضل الذي يفاضل بين المتفاضلين محيطاً بمقدار ما يتفاضلون فيه عند كل منهما ، فللمفاضلة بين أسماء الله الحسنى ، يتطلب أن يكون المفاضل قد أحاط بمقدار كل صفة ، ودرجتها ، فتكون لديه القدرة على إجراء هذه المفاضلة .

فهل من المعقول أو من الممكن أن يحيط المخلوق بصفات الخالق حتى يفاضل بينها ؟

من المستحيل أن يحيط بالله تعالى شيء لأنه هو المحيط بكل شيء ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ۝ ﴾ (1) وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ ﴾ (2) . سبحانه وتعالى أن يدرك كنه أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله أحد من الخلق ، فالله تعالى يدرك كل شيء ولا يدركه شيء . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٦٦﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝ ﴾ (3) .

وعليه : فلا يمكن أن يكون هناك تفاضل بين أسمائه الحسنى تعالى ،

(1) النساء ، 126 .

(2) البقرة ، 255 .

(3) الأنعام ، 102 - 103 .

فلا نقول : إن الرحمن أعظم من القوي ، والحليم أعظم من الجبار ؛ لأنه لا يمكن أن نحيط بمطلق حلمه ، ورحمته ، وجبروته ، وقوته حتى نفاضل بينها .

ولذا فأسماء الله تعالى جميعها عظيمة نستشعر عظمتها في كل حاجتنا ، ومطالبنا ، وتظهر في كل اسم عظمة صفة خاصة عن بقية الصفات ، والتي هي مُضَمَّنَةٌ في الاسم ذاته .

### ثالثاً - التفاضل :

لو بحثنا عن مقياس للتفاضل بين البشر ؛ لوجدنا : أن ( التقوى ) هي ذلك المقياس ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (1) . والتقوى هي : خشية الله تعالى ، والتزام أوامره ، والاتصاف بصفاته تعالى الظاهرة في أسمائه الحسنی ، وتجنب ما نهى عنه . وهذا يوضح انتفاء التفاضل بين أسمائه الحسنی ؛ لأنه لو كانت هناك صفة غالبية في العظمة على باقي الصفات ؛ لكانت هي مقياس التفاضل بين البشر ، فلو كان مثلاً اسمه تعالى القوي أعظم من باقي أسمائه لكان أكرم الخلق أقواهم عند الله تعالى ، ولو كان اسمه الرحيم غالباً في العظمة على بقية الأسماء الحسان ؛ لاختار تعالى أرحم الناس ليكون أفضلهم ، ولكن كان المقياس جامعاً لتلك الصفات الحسان . عَنْ أَبِي نَضْرَةَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسْطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، فَقَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ! أَبْلَغْتُ ؟ ! » (2) .

(1) الحجرات ، 13 .

(2) مسند أحمد ، ج 51 ، ص 244 .

إذاً لو كان هناك فضل بين اسم من أسمائه الحسنی ، وبقية الأسماء ؛ لتجسد ذلك في أفضلية الإنسان عند ربه .

فعند الدعاء إذا أراد الإنسان شمول حاله ؛ توجه إلى ( الله ) تعالى ، وإذا أراد خصوصية حاجته ؛ توجه إلى الاسم الذي تظهر فيه عظمة الصفة الخاصة بهذه الحاجة .

ولهذا فإن اسم ( الله ) الأعظم هو مفتاح اطمئنان ، وسكينة القلوب ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (1) .

وعليه فلا يكون الدعاء باسم من أسماء الله الحسنی متضاداً مع الدعاء باسم آخر له - سبحانه وتعالى - كأن يطلب الإنسان من ربه الشفاء ، فيدعوه : يا الشافي ؛ لأنه بحاجة للشفاء ، ولكن أحياناً يدعوه بالرحمن طالباً الشفاء كون الشفاء رحمة من الرحمن ، وقد يدعوه باسمه القادر ؛ لأن الشفاء يتطلب المقدرة على ردّ المرض ، ودفعه ، والشفاء منه . وقد يدعوه باسمه الودود ، والمهيمن ، واللطيف . فكل هذه الأسماء الحسنی يدعى بها الله تعالى من أجل طلب الشفاء : الصحة ، والعافية ، وهذا يدل على أنه لا تفضيل لاسم من أسمائه الحسنی على اسم آخر ، وإلا ؛ لا نحصر دعاؤنا باسم واحد من أسمائه للحصول على غايتنا . ولذا :

\* فمهما كانت حاجة الإنسان ؛ فإنه سيجد : أن أي اسم من أسمائه تعالى تحتويها ، وليس اسم واحد فقط ( الله ) .

\* لا تمييز بين اسم وآخر من أسمائه الحسان ؛ لكونها تعود لإله واحد فقط ؛ فكيف يمكن أن تختلف ، وتتميز ؟ ! فالتمييز يعني : علو صفة على حساب أخرى ، وهذا يتنافى في ذات الله تعالى ، فلا فرق بين رحمته ،



- وقوته ، ولا بين سمعه ، وبصره ، ولذا فالاسم الأعظم يظهر لنا جلياً في :
- شهادة الحق : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .
  - تكبيرات الأذان : الله أكبر .
  - تكبيرة الدخول في الصلاة : الله أكبر .
  - تكبيرة الإحرام : الله أكبر .
  - تكبيرة الجهاد : الله أكبر .
  - تكبيرة الذبح في التحليل ، والتطهير : الله أكبر .
- فهذه أدلة على أن لفظ الجلالة ( الله ) هو الاسم الأعظم من بين أسماء الله الحسنى .
- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
- كانت تحية الإسلام المتداولة بين المسلمين بطلب السلام ، والرحمة من ( الله ) .
- بسم الله الرحمن الرحيم .

فكل عمل ، أو قول لابد أن يُذكر في بدايته اسم ( الله ) .

قال تعالى : ﴿ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُفِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرٍ بَهِيمٍ وَأُفْرِسَتَا بِحَبْرٍ قَبِيمٍ ﴾ (٢)

فإن عز وجل عندما أراد أن يعرفنا بذاته العلية وصف نفسه لنا بصفات يمكن أن يدركها العقل البشري القاصر ، ويتصورها قال تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا

(1) النمل ، 29 - 31 .

(2) هود ، 41 .

إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ إِيَّيَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ يَمْوِسَّ إِلَهُهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) فعرف ذاته لهم بأنه ( الله ) ولأن لفظ الجلالة لفظ لا يشتق منه صفة يتصور لها العقل البشري صورة ، أو معنى ليدركه عليها ؛ قرب الله تعالى ذلك للعباد بأن قال لهم : الله هو رب الناس ، وهو العزيز الحكيم ، وكل هذه الصفات يمكن إدراكها ، وتصورها في مستوى النسبية المحدود ، فهو يدرك معنى رب ، ومعنى عزيز ، وحكيم في دائرة النسبية ، فيتعرف بذلك الوصف على ذات الله مع إضفاء المطلقية لهذه الصفات عند وصف الله بها ، فلا رب غيره بالمطلق ، ولا كريم بالمطلق إلا هو ، وهكذا .

فاسم ( الله ) لا يشتق منه صفة ، ولا فعل ، مع أن جميع الأفعال ، والصفات لا تستمد إلا منه ، واسم ( الله ) لا يتعلق بالمحسوسات ، بل بالمعتقدات ، والروحانيات ، فيصعب تصوره ، ولكنه معروف لكل العقلاء المؤمن منهم والكافر . قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (٦) .

ولذا فإن جميع الأسماء الحسنى تعود إلى ( الله ) . فكلها لواحد لا يمكن

(1) طه ، 14 .

(2) القصص ، 30 .

(3) النمل ، 9 .

(4) العنكبوت ، 61 .

(5) الزخرف ، 87 .

(6) الزمر ، 3 .

المفاضلة بينها ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (1) .

إذاً فالبحث في اسم الله الأعظم يدلُّ على أنه تعالى واحد لا شريك له ( الله ) .

**فلو سأل سائل : مَنْ الله ؟** فسيجيب المؤمن : هو الرحمن مثلاً ، ولن تكون الإجابة كافية ؛ لأن الرحمن صفة واحدة ، وليست كل صفاته تعالى ، فتحتاج الإجابة هنا إلى ( الواو ) التي لا تفيد إلا عدم كفاية الإجابة ، وحاجتها إلى ما تتمُّ به من صفات أخرى من صفاته الحسان ، ف : ( الواو ) هنا تعطي معنى التعددية ، والتغاير ، بينما الأمر هنا ليس كذلك ؛ لأن الله تبارك وتعالى هو : الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الكريم ، القوي ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، السميع ، البصير ، وهكذا .

فلو كانت هذه الأسماء معطوفة بالواو ؛ لتغير المعنى ، وكان الرحمن غير الرحيم ، والسميع غير البصير ، والحي غير القيوم ، ولكننا نقول : لله الأسماء الحسنَى .

وكل اسم من هذه الأسماء الحسنَى تظهر فيه عظمة صفة خاصة مع تضمنه لباقي الصفات الأخرى ، فالصفة الظاهرة في الرحمن هي الرحمة مع أن هذا الاسم متضمنٌ باقي الصفات ، فلو لم يكن كريماً ؛ ما كان رحيماً ، وكذلك لو لم يكن قوياً ، عزيزاً ، ودوداً ، مجيباً ؛ ما كان بنا رحيماً ، أما عند السؤال عن الرحمن من هو ؟ أو الكريم ، أو غيره من الأسماء ؛ ستكون الإجابة عندها ( الله ) ولا تحتاج الإجابة هنا إلى ( الواو ) لإتمام المعنى ؛ لأن الله هو اسم جامع لكل الصفات ، منزّه عن كل نقص ، قاطعٌ لأي تساؤل بعده .

(1) الإسراء ، 110 .

**وعليه :** فلا أعظم من الله ، ونحمل أحاديث الرسول الكريم الكثيرة التي تدل على وجود اسم أعظم إذا دُعِيَ به الله تعالى ؛ أجاب على أنها دعوة للعباد ، وترغيبهم للتمتعن ، والتأمل ، والتدبر في اسمه تعالى ، وفي جميع أسمائه الحسنی والتعمُّق في فهم ما فيها من عظمة ، وقوة ، وقدرة ، وكذلك الحرص على التمسك بالقرآن الكريم ، ومعايشة آياته ، والالتزام بالأوامر ، والنواهي ، والتخلُّق بأخلاق القرآن الكريم ، وعندها سيكون هذا العبد على درجة كبيرة من التوحيد ، والتقرب ، والطاعة له تعالى توصله لأن يكون مجاب الدعوة بأيّ أسمائه تعالى دعا ، وتضرع إليه حسب حاجته التي هو طالبها ، فكل هذه الأسماء الحسنی أبواب مفتوحة لمن يريد معرفته ، فهو يصل من خلالها إلى عظمته تعالى ، فهو أعظم في صفاته ، وأفعاله ، وأعظم في ذاته ، وأعظم في اسمه الأعظم من بين أسمائه ، وهو ( الله ) تبارك تعالى .

**الاسم الأعظم :** هو ( الله ) الذي له الأسماء الحسنی ، أي : جميع الأسماء الحسنی هي لله تعالى ، ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ <sup>(1)</sup> في هذه الآية الكريمة ورد اسمه تعالى ثم جاءت الأسماء الحسنی تأكيداً لعظمته ، ولذا علينا أن نعرف : أن الله سمى نفسه باسمه جل جلاله ، ثم قال : إن له ( الله ) الأسماء الحسنی ، ولهذا دائماً يقال الأسماء الحسنی لله ، ولا يقال الأسماء الحسنی للرحمن ، أو القدوس ، أو الكريم ، أو الصمد ؛ ذلك لأن هذه الأسماء وغيرها من الأسماء الحسنی هي جميعها لواحدٍ أحدٍ أعظم هو ( الله ) فادعوا الله بأسمائه ، ولأن الله هو الاسم الأعظم قال تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ <sup>(2)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ <sup>(3)</sup> ، وقال ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ

(1) الأعراف ، 180 .

(2) طه ، 14 .

(3) الأنبياء ، 25 .

وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ .

**وعليه :** فالاسم الأعظم هو الذي تعود له جميع الأسماء الحسنى ، والأفعال الحسنى .

**الاسم الأعظم :** هو الذي لا يقتصر ظهوره على صفة واحدة ؛ حتى وإن كانت تلك الصفة مطلقة الظهور ، ومطلقته في الصفة الواحدة يدل على عظمة تلك الصفة في الخصوص ، وظهور اسمه الأعظم فيها ، ولذا لا يكون ظاهراً بالمطلق إلا في اسمه الأعظم ( الله ) جل جلاله ؛ حيث قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (3) .

فالمتمم لهاتين الآيتين يجد : أن جميع الصفات قد تضمنها لفظ الجلالة بوضوح دلالة الملك المطلق ، وعودة هذا الملك إلى لفظ الجلالة بقوله : ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ، ﴿ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ شمل جميع الأسماء الحسان ؛ لأنه أعظم هذه الأسماء ، لذلك فهو الاسم الأعظم .

**- الاسم الأعظم :** هو ( الله ) الذي في اسمه تعالى تظهر جميع الصفات بالمطلق دون أن تغلب صفة على صفة : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ

(1) الحشر ، 22-24 .

(2) المائدة ، 17 .

(3) المائدة ، 120 .

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ  
السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا  
يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ .

- ولأن ( الله ) هو الاسم الأعظم الذي يظهر جميع الصفات بالمطلق ؛  
فهو لا يُجرد من ( أل ) . فهو إما أن يأتي صريحاً ، أو ضميراً يعود على الاسم  
الصريح ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا  
لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ﴿١٧﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ  
مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢﴾ وقال  
تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانُونٌ ﴾ ﴿٣﴾ وقال تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي  
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ  
وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا  
وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿٤﴾ وقال تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ﴿٥﴾ وقال تعالى : ﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ﴿٦﴾ .

- ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ ﴿٧﴾ وقال تعالى : ﴿ لَا شَرِيكَ  
لَهُ ﴾ ﴿٨﴾ وقال تعالى : ﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٩﴾

(1) الحشر ، 22- 24 .

(2) البقرة ، 107- 108 .

(3) البقرة ، 116 .

(4) البقرة ، 255 .

(5) الأعراف ، 158 .

(6) الأنعام ، 62 .

(7) الأنعام ، 101 .

(8) الأنعام ، 163 .

(9) الأعراف ، 54 .

- وعليه : ف : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ <sup>(1)</sup> و ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴾ <sup>(2)</sup> و ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ <sup>(3)</sup> و ﴿ كُلُّ لَهُ قَدِيرُونَ ﴾ <sup>(4)</sup> .

- ولأنه العظيم بالمطلق ؛ قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ <sup>(5)</sup> ولأنه العظيم بالمطلق ﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ <sup>(6)</sup> ولذلك فهو الذي يُحمد ، ويُشكر ، ولا يُشرك به شيء : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا تَكْبِيرًا ﴾ <sup>(7)</sup> .

- كل الأسماء الحسنی عندما تُجرّد من ( أل ) وهي من أصل الاسم ، وليس بـ : ( أل ) التعريف تعطي صفة واحدة مطلقة ، تسندها صفات أخرى كصفة قوي ، وقادر ، ورحيم ، وكريم ، وهكذا بقية الصفات الحسان ، فصفة قوي صفة واحدة ظاهرة من اسمه القوي جل جلاله ، ولأنه القوي بالمطلق ؛ فصفة القوة مطلقة ، وبما أنه قوي بالمطلق ؛ فلا بد أن يكون قادراً بالمطلق ، ولكن هذه الصفة غير ظاهرة مع صفة القوة ، ولكنها كامنة من ورائها أي : بما أنه قوي ؛ فهو بطبيعة الحال قادر ، ومهيمن ، وجبار ، وغني ، ومغنٍ ، وكل الصفات الأخرى الحسان ، وهكذا بالنسبة لاسمه ( القادر ) الذي تظهر فيه صفة القدرة بالمطلق ، ويتضمن من ورائها كل الصفات الحسان ؛ أي : بما أنه قادر بالمطلق ؛ فهو قوي ، وهو سميع ،

(1) البقرة ، 133 .

(2) البقرة ، 138 .

(3) البقرة ، 139 .

(4) الروم ، 26 .

(5) الحجر ، 9 .

(6) لإسراء ، 44 .

(7) الإسراء ، 111 .

وبصير ، وكريم ، ومهيمن ، ورحيم ، وقدوس ، وصمد ، وعدل ، وحق ،  
فله جل جلاله الحمد ، والشكر .

- وأيضاً بالنسبة لاسمه ( ذو الجلال والإكرام ) عندما يجرد من ( ذو )  
تسود صفتان في وقت واحد ، هما :

صفة الجلال ، وصفة الإكرام ، ولذا فالاسم الحسن يمكن أن يظهر صفة  
واحدة كاسم القوي ، والقادر ، والغني ، والمغني ، وغيرها من الأسماء  
الحسنى ، ويمكن أن يظهر صفتين معاً ، كاسمه : ( ذو الجلال والإكرام ) ،  
ولذلك يكون هو الأعظم في الجلال ، وفي الإكرام .

إن كل أسماء الله الحسنى التي وردت في حديث الترمذي تحيل إلى صفة  
واحدة من ذلك ( العزيز ، الحكيم ، الودود ، العظيم ) إلا ثلاثة أسماء تخرج  
عن هذه الإحالة وهي : ( الله ، ذو الجلال والإكرام ، مالك الملك ) فاسم  
( الله ) تعالى لا يظهر فيه أي صفة ، ولا يحيل إلى أية صفة ، أما اسم ( ذو  
الجلال والإكرام ) ، فإنه يشتمل على صفتي الجلال ، والإكرام ، أما اسم  
( مالك الملك ) فإنه جاء معروفاً بالإضافة في تشكيل مفتوح غير مقيد يدعو إلى  
تساؤلات جمة تداعب الفكر للتعرف على ملك الله تعالى .

إن هذه الأسماء الثلاثة تفتح دلالات عدة في الوصول إلى معرفة اسم الله  
الأعظم ، ولهذا فإننا سنعرضها بطريقة معرفية تصب نهايتها في رأي نعتقد :  
أنه الأرجح من بين الآراء الأخرى ، فاسم : ( ذو الجلال والإكرام ) تشكل من  
صفتين كل واحدة مرتبطة بالأخرى ، فيكون الجلال في الدرجة الأولى ، ثم  
يتبعه بعد ذلك الإكرام ، لهذا الترتيب يُستمد منه : أن الإكرام لا يأتي من  
لا جلال له ، بمعنى : أن الإكرام ليس بالأمر الهين ، فلا بد أن يكون صاحبه ذا  
سلطان ، وكبرياء ، وعظمة ، وقدرة حتى يتأتى له أن يكون مكرماً مع من  
يريد ، فلا يكون مكرماً ؛ وهو لا يملك أيّاً من هذه الصفات السابقة .



يتميز هذا الاسم بخاصية ينفرد بها ، ولا يشترك في هذه الميزة إلا اسم ثانٍ ، وهو ( مالك الملك ) ، هذه الخاصية تتمثل في التركيب الثنائي للدلالة الاسمية المتشكلة من كلمتين إحداهما مركبة : ( ذو الجلال ) ، والأخرى مفردة : ( الإكرام ) ، مع وجود حرف الواو العاطف بين الكلمة الأولى ، والثانية ، وهذه الخاصية اللغوية المتمثلة بالعطف لا تتوفر إلا في هذا الاسم دون بقية أسماء الله الحسنى ، هذا التركيب يطرح عدة استنتاجات أولية نستطيع اكتشافها من خلال تفكيك هذا التركيب دلاليًا ، ولغويًا ، ويمكن وضع هذه الخصائص بالشكل الآتي :

أ - الكلمة الأولى في هذا الاسم صيغة ثنائية متكونة من ( ذي ) التي هي من الأسماء الستة ، وتعني : صاحب ، ولفظ ( الجلال ) لتنتج لنا دلالة تعني : ( صاحب الجلال ) .

ب - الكلمة الثانية في التركيب الثنائي مفردة : ( الإكرام ) . إن لغة الغياب هنا تقتضي وجود الاسم ( ذو ) مرة أخرى إلا أن حضوره في الصيغة الأولى أغنى عن حضوره هنا ؛ لأن كتابة الاسم بشكليته : ( ذي الجلال ) ، وذي الإكرام ) الافتراضية يجعل النطق بها من الصعوبة بمكان ، فضلاً عن التكرار الذي لا داعي له هنا ، وتنكره لغة العرب إذا لم يكن له سبب مقنع ، ولذا فالقاعدة : ما دلَّ عليه الأول ؛ وجب به حذف الثاني .

ج - وجود حرف العطف الواو بين الكلمتين يقتضي التغاير ؛ لأن الواو من حروف العطف التي تعطف الشيء على غيره ، وليس على مثله ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ <sup>(1)</sup> فهذه الآية يستدل بها العلماء على تغاير النبوة عن

(1) الحج ، 52 .

الرسالة من حيث الخصوص والعموم ، فإذا طبقنا هذه القاعدة الدلالية للواو على اسم الله تعالى ( ذو الجلال والإكرام ) فإن ذلك يقتضي : أن الجلال غير الإكرام مع اتحادهما بصيغة اسمية واحدة ، إلا أن هذا التغاير لا يلغي تماماً الوحدة الدلالية المطلقة التي ينبغي أن تتوافر بين صفتي الجلال ، والإكرام ؛ إذ من غير الممكن أن يكون اسم الله تعالى ذا صورة كتابية موحدة ، يتكون من جزأين لا اتصال بينهما ألبتة .

- فما هذا التغاير ؟

- وما هذا الاتصال بين الصفتين : ( الجلال والإكرام ) .

إنَّ هذا التغاير بين الصفتين ليس من قبيل التناقض ، وإنما هو من باب التوافق بحيث إن كل واحدة مغايرة للأخرى في اللفظ متممة لها في المعنى ، فكيف يكون ذلك ؟

لقد وجدنا : أن أسماء الله الحسنى تنقسم على ثلاثة أقسام ، وليس على قسمين كما هو معروف من أنها صفة ذات ، وصفة فعل ، بينما هي في حقيقة الأمر :

أ - اسم ذات .

ب - صفة ذات .

ج - صفة فعل .

فالاسم ( ذو الجلال والإكرام ) جمع بين صفة الذات ، وصفة الفعل ، ولهذا كان التغاير .

أما الاتصال فيتحقق من أن هذا الوصف أي : ( الجلال والإكرام ) قد وصف الله تعالى ذاته به مرتين في سورة واحدة هي ( الرحمن ) ، مرة جاء وصفاً لوجه الله تعالى ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ وَيَقْبِضُ بِجَهَنَّمَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (1)

(1) الرحمن ، 27 .

ومرة أخرى جاء وصفاً لاسم الله تعالى في قوله : ﴿ نَبْرَكَ أَسْمُ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ <sup>(1)</sup> وهذا يعطي إشارة أولية : أن هذين الوصفين المعطوفين أحدهما على الآخر يقتضيان فعلاً واحداً ، ونتيجة واحدة ، تستنتج من معنى الجلال والإكرام ، بمعنى : أن الجلال وحده يمكن أن يفترق عن الإكرام وحده ، إلا أن النظر الكلي للصفيتين معاً بعدهما اسماً واحداً ذا تركيب ثنائي يعطي دلالة العظمة المنبعثة من كلا الصفيتين ؛ إذ الجلال عظم القدر ، والتناهي فيه ، والإكرام تدلُّ على منتهى الكرم ، وليس مجرد الكرم ، وهذا ينتج لنا : أن المراد من الصفيتين هو منتهى الأشياء ، بمعنى : أن الله تعالى تناهى في العظمة ، وتناهى في الإكرام .

#### د - التغاير :

التغاير في استخدام الصيغة الثنائية ( ذي الجلال والإكرام ) ، فيمكن الافتراض : أن التناهي في القدر ، والعظمة مقصود به إرهاب الكافرين ، بينما الإكرام قد خُص به المؤمنون بالتناهي في إعطائهم من المكرمات التي لا حدود لها في الدنيا ، والآخرة ، وهنا نعود إلى سورة الرحمن لتأكيد هذه الفرضية ، نجد : أن الله تعالى قد أخاف الكافرين فيها بصورة متناهية في الإثارة الحركية بقوله : ﴿ فَيَايَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ <sup>(٣٤)</sup> يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴾ <sup>(٣٥)</sup> فَيَايَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ <sup>(٣٦)</sup> فَإِذَا أَنْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ <sup>(٣٧)</sup> فَيَايَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ <sup>(٣٨)</sup> فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ <sup>(٣٩)</sup> فَيَايَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ <sup>(٤٠)</sup> يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَفْقَامِ ﴾ <sup>(٤١)</sup> فَيَايَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ <sup>(٤٢)</sup> هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ <sup>(٤٣)</sup> يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴾ <sup>(٤٤)</sup> فَيَايَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ <sup>(٤٥)</sup> على حين أن باقي السورة تتحدث عن نعم الله على عباده المؤمنين ، من أمور بلغت النهاية في إكرامهم بصورة تدريجية من الكرم إلى الأكرم إلى الإكرام ، وهذا

(1) الرحمن ، 78 .

(2) الرحمن ، 34-45 .

نجدته في عرض صورتني الجنة في سورة الرحمن ؛ إذ إننا أمام صورتين إحداهما للكرم ، والثانية للإكرام ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ (1) ثم يبدأ بتعداد صفات هاتين الجنتين التي نستنتج من خلالها : أنها لا تبلغ نهاية الكرم من خلال توافر صفات ليس هي مبلغ الكمال في الأشياء ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ (٤٦) فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٥٤﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جِئْنَاهُنَّ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ (2) ثم يتدلى بعدها بوصف صورة أخرى لجنيتين أخريين فيهما من الصفات ما يبلغ فيه الكمال في الأشياء ، وبذلك تفترق عن الجنة الأولى بأن هاتين الجنتين فيهما منتهى الإكرام ، يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴾ (٦٢) فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جِئْنَاهُنَّ ﴿٧٤﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ (3) .

فهذا الاسم رغم تشكله بصورة كتابية مختلفة عن باقي الأسماء ، ووجود حرف العطف ، والإحالات التي فيه ، والتناهي الذي فيه الجلال والإكرام إلا أنه لا يحمل الإطلاق إلا في صفتي الجلال ، والإكرام . فالذي يحمل الإطلاق كما نعتقد هو اسم ( الله ) تبارك وتعالى ، ففيه الجلال ، والإكرام

(1) الرحمن ، 46 .

(2) الرحمن ، 46-61 .

(3) الرحمن ، 62-77 .

وكل الصفات الحسان التي ذكرها الله تعالى لذاته ، فلا يمكن أن نذكر صفة دون صفة في اسم ( الله ) تعالى لأن لفظ الجلالة جامع لجميع الأسماء ، والصفات الحسان ، فسمّة الإطلاق فيه لا تتحقق في أيّ اسم آخر ، وهنا تكمن سمّة الاعتقاد التي نشير إليها بأنه الاسم الأعظم .

- أمّا اسمه ( مالك الملك ) جاءت صفته مبهمّة بالمطلق ، ولم تقتصر على صفة واحدة ، ولا صفتين كما هو في صفتي اسمه ( ذو الجلال والإكرام ) ولهذا يدل على أن صفته ( مالك ) دون أن تحدد في نوع من أنواع الملك ، ولهذا جاءت الإضافة بـ : ( المُلْك ) مطلقاً غير محدد .

وأما من جانب اللغة في ( مالك الملك ) فإن صيغة اسم الفاعل ( مالك ) تخالف جميع الأفعال في اللغة من حيث تحديد الزمن ، فهي تعطي الديمومة ، والاستمرار للفعل الذي اشتقت منه ، بحيث لا تحدّد نهاية للفعل ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَيْنَهَا يَافِيْدُ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ <sup>(1)</sup> ف : « موسع » اسم فاعل يدل على عدم انقطاع الفعل ، أو نهاية زمنه ، وقد أثبت علماء الفلك : أن هذا الكون آخذ بالاتساع المستمر ، حتى وإن عجزوا عن إثبات ذلك ، فإننا على يقين من أن الكون آخذٌ بالاتساع المستمر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ لَمُوسِعُونَ ﴾ وهو ما يوضح لنا لماذا جاء مالك الملك مركباً تركيباً إضافياً .

إن اسم ( مالك الملك ) إذا تمعنا فيه تستوقفنا كثير من التساؤلات ، فمن هو مالك الذي جاء غير معرف ؟ ومالك من ؟ وقبل الإجابة عن هذه التساؤلات ، سوف نعمد إلى تفكيك هذا التشكيل ، ومقارنته باسم يقترب منه في الصورة الكتابية إلا أنه يختلف عنه ؛ ألا وهو : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ رغم عدم وروده مع أسماء الله الحسنى .

إن هذا التشكل للاسم يوحي بالعظمة ، والرهبة ، والانفراد ، والجلال ، فإضافة مالك إلى الملك رسمت معلماً من معالم تفرد الله تبارك

(1) الذاريات ، 47 .

وتعالى في هذا الملك العظيم في جميع خواصه ، وأشكاله ، وصوره ،  
 فالإضافة هنا أغلقت كل المنافذ التي يمكن من خلالها تقييد ملك الله تبارك  
 وتعالى ، وجعله ضمن أطر ضيقة يمكن تحديدها ، أو رسم صورتها ، أو  
 الاختصار على صفة واحدة تكون الأبرز بين باقي الصفات ، فلو قال : مالك  
 الرحمة ، أو مالك المغفرة ، أو مالك السموات والأرض ؛ لكان الاسم  
 لا يعبر إلا عن جانب واحد من جوانب عظمة ، وقدره ، وجلال الله تبارك  
 وتعالى . إلا أن وروده في قوله تعالى : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ <sup>(1)</sup> يتسم  
 بالخصوصية الشديدة لذلك اليوم ، وهو يوم القيامة ؛ لأن في ذلك اليوم تتجلى  
 فيه صورة المالك العظيم من خلال ما يحدث يوم القيامة من وقوف الخلائق ،  
 وحضور الملائكة ، والأنبياء ، وحصول عملية الحساب بكل تفاصيلها ، ففي  
 هذا اليوم يظهر للخلائق كمال ملكه ، ودوامه ، وعدله ، وحكمته ، وذهاب  
 كل الأملاك ، وبقاء ملكه العظيم ، إضافة ﴿مَلِكِ﴾ إلى ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾  
 اتسمت بأبعاد عديدة لم تقتصر على جانب واحد بل على جوانب مختلفة ،  
 وهذه الجوانب المختلفة كلها تتعلق بإظهار (مالك الملك) لأن يوم الدين هو  
 جزء من الملك ، فإذا كان هذا الجزء يظهر تلك العظمة لله تعالى ، فما بالك  
 بالملك المطلق . فضلاً عن ذلك : إن الإضافة فيها تخصيص لا يستطيع أي  
 معاند أن يجادل فيه ؛ إذ يقول تعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ  
 الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ <sup>(2)</sup> ففي يوم القيامة لم يعد هناك مجال لإنكار  
 ملك الله تبارك وتعالى ، أو التغاضي عن ذلك ؛ لأن الإنسان حينها يكون  
 مسلوب الإرادة ، وأمام أهوال لا يستطيع فعل شيء تجاهها ، بينما لو كانت  
 الإضافة بأمر دنيوي حاصل في هذه الحياة ؛ لاستطاع المعاند المجادل أن  
 يجادل مرء كما جادل النمرود إبراهيم عليه السلام في الإحياء ، والإماتة مع أن

(1) الفاتحة ، 4 .

(2) غافر ، 16 .

ظاهر الأمر أن إبراهيم عليه السلام لم يرد بالإحياء ، والإماتة ما عناه النمروذ من القتل ، أو عدم القتل ، إنما أراد وهب الحياة من الأساس ، أو سلبها .

إنَّ لفظة ( المُلْك ) التي يبنى عليها اسم ( مالك الملك ) تتسم بالإطلاق غير المقيد ، فهي تحيل إلى رسم صورة عظيمة ، يجمع ما يدور فيها من ملك الله تعالى بحسب ما يمليه التفكير البشري القاصر عن إدراك حجم ، وعظمة ملك الله تعالى ، فهي لم تقتصر على الجانب المادي ، بل كان للجانب المعنوي المكانة الواضحة في هذا الملك ، ومن ذلك الرزق ، والضر ، والنفع ، وإرسال الرسل ، والأمر ، والنهي ، والعدل ، وغير ذلك ، وهذه الصفات لا تكون إلا لله جلَّ جلاله : ﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ .

وبعد التعرف على هذين الاسمين ، ومدى الانفتاح فيهما في الصفات وبخاصة اسم ( مالك الملك ) نعتقد : أن اسم ( الله ) جلَّ جلاله هو الاسم الأعظم ، فهو لا يحيل إلى أية صفة ؛ حتى وإن جُرد من الألف واللام ؛ فان صورته الكتابية لا تحيل إلى أية صفة ، بينما نجد : أن الأسماء الأخرى حين نجردها من الألف واللام ؛ فإنها تحيل إلى صفة ، حتى إن اسم ( مالك الملك ) مع تشكله الذي يحيل إلى انفتاح غير مقيد على ملك الله تعالى ؛ فإن سمة الإطلاق لا تكون إلا لاسم ( الله ) . فمالك الملك بالمطلق هو ( الله ) الذي هو الأعظم . فضلاً عن ذلك : إن الأسماء كلها تعود إلى اسم ( الله ) جلَّ جلاله ، فسياقات القرآن الكريم حين نتبعها نجد : أن بدايتها تكون باسم ( الله ) ثم تأتي بعد ذلك بقية الأسماء ، والصفات ، هذه البداية تشعر : أن البسملة تشير في تركيبها إلى نسقٍ تابعي يوقظ الذهن إلى الأسماء ، والصفات ، فضلاً عن ذلك : إن هذا النسق يحيل إلى اسم الله الأعظم ضمن الرؤيا التي نعتقد بها ، فالبداية كانت باسم ( الله ) ثم توالى بعدها اسم ( الرحمن ، والرحيم ) ، فلم يكن النسق بداية بالرحمن ، أو بالرحيم ، إنما كان باسم ( الله ) تعالى ، وهذا الأمر هو السمة البارزة في التعبير القرآني ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ

عَلَيْكُمْ ﴿ (1) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (2) وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (3) وقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسُوفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (4) ففي هذه الآيات الكريمة ، وغيرها نجد التعبير القرآني حمل نسقاً يدل على اسم الله الأعظم ، فالبداية كانت باسم ( الله ) ثم تأتي بعدها بقية الأسماء ، والصفات ، وإن كان هذا النسق مرتبطاً بالمعنى الذي تحيل عليه الآية ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (5) فقد جاء اسم الله تعالى ( الرزاق ) ضمن نسق تتابعي ؛ إذ كانت البداية باسم ( الرزاق ) ثم جاءت بعدها صفات تدور في فلك الاسم المتحقق ، لترسم صورة قوية ، وموحية : أن الرزق لا يكون إلا من صاحب القوة المتين ، وليس من غيره ، فضلاً عن ذلك : أن الذي يرزق لا بد أن يكون ذا قدرة ، وأن يكون متيناً ، فإذا لم يكن كذلك ؛ فهل يستطيع أن يرزق ؟ هذا السياق فيه إحالة إلى المشركين الذين يعبدون الأصنام ابتغاء الرزق ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْنِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (6) . فالتداخل بين هذه الصفات هنا يتشكل مع الخطاب الخاص الذي تريد الآية تحقيقه على مستوى التأثير

(1) البقرة ، 115 .

(2) البقرة ، 173 .

(3) الأنفال ، 10 .

(4) التوبة ، 28 .

(5) الذاريات ، 58 .

(6) العنكبوت ، 17 .



المراد ، وعلى مستوى بيان طبيعة ما يحمله فكر المخاطب ضمن دائرة محددة يراد لها الإيضاح التام كي تتحقق الصورة النهائية المطلوبة .

**وعليه :** فالمُلك المطلق صفته المطلقة . وهنا يستوجب عرض التساؤل : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ ؟ فتكون الإجابة بالمطلق ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ <sup>(1)</sup> بناء على ما ورد في هذه الآية الكريمة أتساءل :

- من هو الخالق ؟
- لا إجابة بالمطلق إلا ذكر اسم الله .
- من هو البارئ ؟
- هو الله .
- من هو المصور ؟
- هو الله .
- من هو أرحم الراحمين ؟
- هو الله .
- من هو الذي يقول للأمر كن فيكون ؟
- هو الله .
- من هو مالك الملك ؟
- هو الله .

(1) الحشر ، 24 .

- من الذي له جميع الأسماء الحسنی ؟  
هو الله .

- إذاً من هو الأعظم ؟  
هو الله .

- وفي مقابل ذلك يمكن أن يسألنا آخر بقوله :  
من هو الله ؟

الإجابة على هذا السؤال قابلة للتعدد بخلاف الإجابات السابقة غير القابلة للتعدد التي حددت بالمطلق في اسمه الأعظم ( الله ) . فقد يجيب البعض على السؤال : ( من هو الله ) ؟  
بأنه الرحمن .

وقد يجيب بأنه الرحمن الرحيم .

وقد يجيب بأنه القدوس .

وقد يجيب بأنه الغني .

وهكذا يمكن أن تتعدد الإجابات ، ومهما تعددت ، وبما أن كلاً منها هو اسم من أسمائه الحسنی ؛ فكل الإجابات صحيحة دون أدنى شك . ولكن الإجابة المطلقة هي أحد الاحتمالين الآتين :

**الأول : أنه الله .**

**الثاني : الذي له الأسماء الحسنی .**

وعليه ، فإن ذكر بعض من أسمائه الحسنی لا يجيب بالمطلق على السؤال ( من هو الله ؟ ) أي : إذا أجبت بأنه الغني فقط ؛ فقد يقال لك : هذه الإجابة غير وافية ، فهو أيضاً المغني ، والكريم ، والقوي ، والقادر ، ولذا ، ولتكون الإجابة وافية ، وكاملة ؛ فعليك أن تعدد كل الصفات الحسان ، والأفعال

الحسان التي تجتمع في الأسماء الحسنی التي منها المعلوم ، ومنها المجهول على مستوى العقل ، والمعرفة الإنسانية ، وعندما نعدد جميع الأسماء ( إن استطعنا ذلك ) نكون قد أجبنا الإجابة الوافية ، لذلك جاء لفظ الجلالة جامعاً للأسماء الحسنی ، ما علمنا منها ، وما لم نعلم .

- هناك علاقة قوية ، ومتينة بين الصفة ، والموصوف ، والمحتاج ، والمطلب ، فعندما نقول : الغني ؛ فهو اسم الله المطلق في الغنى ، وعندما نقول : يا الغني أغني ، تكون العلاقة بين موصوف بالغنى ، وبين صفة الغنى ، وبين محتاج للغنى وتحديد الطلب . ولذلك فالمحتاج للغنى يتوجه بدعائه للغنى ؛ لتكون له الاستجابة التي لا يمكن أن تتحقق إلا من العظيم بالصفة الخاصة بالغنى . أمّا إذا أراد شمول حاله ؛ فعليه التوجه بطلبه للأعظم ( الله ) لتكون الإجابة متماثلة مع صفاء النفس ، والنية ، والمقصد ، وتنعدم مع انعدامها ، وتناسب مع نسبها . وعلينا أن نتيقن : أن علاقة قوية ، ومتينة تربط المطلب بالاستجابة ، فالطالب ( الداعي المتضرع ) يدعو ، ويتضرع متى ما يشاء ، والمجيب يستجيب متى ما يشاء ، ومع ذلك فقد يتأخر المتضرع بالدعاء ، ويسرع المجيب بالإجابة ، وقد يتسرع المتضرع بالدعاء ، ويؤخر المجيب الاستجابة ، وذلك لعلمه المطلق بالحال ، والحالة ، والنفس التي تأمر بالسوء ، والنفس المطمئنة ، وغير ذلك كثير مما لا نعلمه ، وهو العليم الخبير ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يُعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » ، قالوا : إذاً نكثر . قال : « الله أكثر » (1) .

- الاسم الأعظم : دائماً يتقدّم الأسماء العظمى ، ولأن اسم الله تعالى هو الاسم الأعظم فهو دائماً يتقدم بقية أسمائه الحسنی ، ولا يمكن أن يتقدم عليه اسم من أسمائه في جميع الآيات الكريمة ، ولذا فالله تعالى هو الاسم الأعظم .

(1) مسند أحمد ، ج 23 ، ص 464 .

ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤) ﴾ . أي : قل : هو الله لا غيره ، هو الله أحد ، وقل هو الله لا غيره هو الصمد ، وقل هو الله لا غيره لم يلد ، وقل هو الله لا غيره لم يولد ، وقل هو الله لا غيره لم يكن له كفواً أحد .

- اسم الله الأعظم : ليس سرّاً مكتوماً ، بل هو اسم معلوم من أدركه ( هو كما هو ) بكامل صفاته الحسنی ، أو بصفة من صفاته المطلقة ؛ أدرك شيئاً من معجزاته ، وهذا الأمر ليس بهين ؛ حيث التمكن من معرفة مكان القوة ، والقدرة الإعجازية لله رب العالمين . ولذا فمن أدرك ذلك ، ودعا بما أدرك كانت له الاستجابة وفقاً للمطلب ، والحاجة ، وذلك ؛ لأنه هو السميع ، والمجيب . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝ (٢) ﴾ . وليعلم الجميع بأنه الأعظم عليهم بتدبر التساؤلات التي وردت في قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ (١٦) ﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلَّ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ (١٧) ﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ (١٨) ﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ (١٩) ﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَآتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ (٢٠) ﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝ (٢١) ﴾ بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهُ عَمُونَ ۝ (٢٢) ﴾ . (3)

(1) الإخلاص ، 4-1 .

(2) البقرة ، 186 .

(3) النمل ، 60-66 .

بعد كل ما تقدّم فيما ذهبنا إليه من إيراد الأدلة بأن لفظ الجلالة هو الاسم الأعظم ، نوذ أن نسوق آخر الأدلة في بحثنا ؛ لكي نقطع الشك باليقين ، وهذا الدليل واضح في سورة المجادلة الذي يعزز اعتقادنا في مذهبنا .

**فنقول :** إن سورة المجادلة قد قطعت المجادلة بين الشك ، واليقين ، حيث إن هذه السورة التي عدّة آياتها ( 22 ) آية ، تظهر ما يأتي :

1 - قد ورد لفظ الجلالة في كل آية من آياتها مرة واحدة على الأقل ، وقد ورد في بعض الآيات مرّتين ، أو ثلاث ، أو أربع مرات .

2 - ليس القول الفصل بأن الدليل هو ورودها في كل آية فحسب ، ولكن فضلاً عن ذلك ، لم يرد فيها أي اسم من الأسماء الحسنی غير لفظ الجلالة ، وما سوى ذلك فقد جاء صفات ، مثل : ( سميع ، بصير ، عليم ، عفو ، غفور ، شهيد ، خبير ، رحيم ، قوي ، عزيز ) .

3 - جميع الأفعال هي متعلقة بلفظ الجلالة إما بصدورها عنها ، وإما بنسبتها لها ، أو بإسنادها إليها ، وما ذكر من أسماء بعدها فهي وصف لتدل على أنها صفة من صفات الاسم الذي سبقها .

وقد استعرضنا آيات سورة المجادلة من حيث ورود لفظ الجلالة ، فكانت تشير كل واحدة إلى أن لفظ الجلالة استأثر بكل شيء كما يأتي :

الآية الأولى : إسناد السمع ، والبصر إلى الله .

الآية الثانية : إسناد العفو ، والمغفرة إلى الله .

الآية الثالثة : إسناد العلم ، والخبرة إلى الله .

الآية الرابعة : الإيمان يكون بالله ، والحدود ، حدود الله .

الآية الخامسة : الذي يعاند في الدين ، إنما يعاند الله .

الآية السادسة : إسناد البعث ، والإحصاء ، والشهادة لله .

الآية السابعة : إسناد العلم الظاهر ، والخفي لله .

- الآية الثامنة : إسناد التحية ، والعذاب لله .
- الآية التاسعة : الأمر بالتقوى لله .
- الآية العاشرة : الضرر من الله ، والتوكل على الله .
- الآية الحادية عشرة : التوسع ، والرفع من الله ، وإسناد الخبرة لله .
- الآية الثانية عشرة : إسناد الرحمة ، والمغفرة لله .
- الآية الثالثة عشرة : التوبة ، والطاعة لله ، وإسناد الخبرة لله .
- الآية الرابعة عشرة : الغضب يكون من الله .
- الآية الخامسة عشرة : إسناد العذاب إلى الله .
- الآية السادسة عشرة : الصدُّ ، والابتعاد عن الطريق القويم ، هو صدُّ عن سبيل الله .
- الآية السابعة عشرة : الغنى يكون من الله .
- الآية الثامنة عشرة : إسناد البعث إلى الله .
- الآية التاسعة عشرة : الذي يستحوذ عليه الشيطان ينسيه ذكر الله .
- الآية العشرون : المحادَّة ، والعداء من الكفار إنما هو عداءٌ لله .
- الآية الحادية والعشرون : الغلبة ، والقوة ، والعزة لله .
- الآية الثانية والعشرون : الإيمان بالله ، والرضا من الله .
- لقد تبين من خلال التمعُّن في آيات هذه السورة الكريمة اختصاص لفظ الجلالة دون بقية الأسماء الحسنی بصفات لم تلحق أيَّ اسم آخر من أسمائه تعالى ، وهذا الاختصاص دليل على التفرد في كلِّ شيء ، والتفرد في كلِّ شيء هو دليل العظمة ، وعليه فلا نرى غير لفظ الجلالة هو الاسم الأعظم .

## الله والأسماء الحسنی

هل ( الله ) من الأسماء الحسنی ؟

هل اسم ( الله ) داخل فيها ، أم خارج عنها ؟

هل الأسماء الحسنی هي ما وردت في حديثي الترمذي ، وأبي داود ، وغيرهما فقط ؟

لماذا اختلفت الأسماء في الروايات ؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة لا بد من توضيح بعض معاني الكلمات ، وبعض معاني الحروف التي لها علاقة في صميم موضوع البحث ؛ لأن ذلك سوف يوضح غموض بعض المفاهيم ، ويحل الإشكال الذي قد يبدو للمتبع في العلاقة بين لفظ الجلالة ، والأسماء الحسنی .

**أولاً : ما يخص الاسم :**

**الاسم لغة :** مشتق من السمو ، أي : الرفع .

**وفي الاصطلاح :** الاسم هو ما دل على ذات .

والأسماء الحسنی هي أسماء الله تعالى ، التي وردت في القرآن الكريم ، أو ما جاء منها على لسان رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، وقد وصفها الله تعالى بهذه الصفة ( الحسنی ) حيث قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (1) .

(1) الأعراف ، 180 .

ومعلوم : أن هذه الأسماء تنقسم إلى قسمين :

1 - اسم فعل الذات ، مثل : الخالق ، البارئ ، المصور .

2 - اسم صفة الذات مثل : العليم ، الحي ، القيوم .

وجميع الأسماء بصرف النظر عن العدد الذي ورد في جميع روايات أحاديث الأسماء لا تخرج عن هاتين الصورتين إلا لفظ الجلالة ، فهو اسم للذات الإلهية ، وبهذا يخرج لفظ الجلالة من الأسماء الحسنى ، وستكلم عن حسنه منفرداً .

### ثانياً : ما يخصُّ الحرف :

إن جميع الآيات التي أوردت ذكر الأسماء الحسنى التي هي لله تعالى اقترن اللام الذي هو حرف جرٍّ من حيث العمل إمّا بلفظ الجلالة كقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (1) . وإمّا بضمير يعود على لفظ الجلالة كقوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (2) . وهذا الحرف معناه غير عمله ، فهو يُعْمَلُ الجر في الاسم الذي يليه ، ويمنحه الملكية من حيث المعنى ؛ إن كان خارجاً عنه ، أو الإلصاق ؛ إن كان من لوازمه ، وهذا مطرد في دخول اللام على الأسماء الظاهرة ، والضمائر ، ولها معانٍ كثيرة سنأتي على أهمها مما له صلة بموضوع بحثنا ، أمّا إذا دخل على اسم استفهام كقوله تعالى : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ (3) . فإنه يوضح معنى السؤال .

لام الجر العاملة على أنواع منها :

- مكسورة مع كل اسم ظاهر : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ (4) .

(1) الأعراف ، 180 .

(2) طه ، 8 .

(3) غافر ، 16 .

(4) الروم ، 4 .



- مفتوحة مع كل ضمير : ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ (1) .
- مكسورة مع ياء المتكلم : ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (2) .
- وللآم الجارة اثنان وعشرون معنى (3) ، أهم هذه المعاني :
- أ - الاستحقاق : وهي الواقعة بين معنى ، وذات : ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (4) .
- ب - الاختصاص : ﴿إِنَّ لَهُ أَبَاشِيخًا كَبِيرًا﴾ (5) .
- ج - الملك ، نحو ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (6) .
- د - التملك : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (7) .
- هـ - شبه التملك : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ (8) .
- و - التعليل ، كقوله : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (9) .
- إن معنى اللام فيما تقدم يجعل الأسماء الحسنى مفارقةً للفظ الجلالة لا من حيث الاتصاف بها ، واصفة لذاته وأفعاله .

(1) الشورى ، 15 .

(2) البقرة ، 152 .

(3) ينظر مغني اللبيب ، ج 1 ، ص 78 .

(4) النساء ، 139 .

(5) يوسف ، 78 .

(6) طه ، 6 .

(7) ص ، 43 .

(8) النحل ، 72 .

(9) العاديات ، 8 .

**وعليه :** فإن لفظ الجلالة مختصٌّ بالذات الإلهية ، والأسماء الحسنی هي للذات الإلهية ، وزيادة في التوضيح نقف على ما جاء في محكم التنزيل من آيات تبرهن على ما ذهبنا إليه ، ففي قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ <sup>(1)</sup> . دليل على أن ما من شيء في السموات والأرض إلا ويعود لله تعالى خلقاً ، وملكاً ، وتصرفاً ، وهو أحاط به قدرة ، وعلماً .

وقد جاء التأكيد زيادة في وضوح المعنى قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ <sup>(2)</sup> . فبالإضافة إلى دخول اللام على الاسم الظاهر ( الله ) تلا ذلك لفظة ( ملك ) السموات والأرض للدلالة على امتلاكها بما فيهما من العقلاء ، وغيرهم ، يتصرف فيهن كيف يشاء إيجاباً ، وإعداماً ، وإحياءً ، وإماتةً ، وأمرأً ، ونهياً من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخل في ذلك ، أو أثر ، إظهاراً للقدرة ، والسيطرة بدليل الملك الخارج عن الذات .

وبناء على ما تقدم يكون قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ <sup>(3)</sup> . من هذا الباب في خروجها عن الذات لوجود حاجز بينها ، وبينه ، وهذا الحاجز إمّا صفة الذات ، وإمّا صفة الفعل ، ولذا يبقى لفظ الجلالة خارج الأسماء الحسنی ، وهو ليس منها .

ذلك : أن جميع الأسماء عدا لفظ الجلالة هي مجال اختيار العباد الذين لهم حاجة في الطلب ، والدعاء باسم من الأسماء يختص بتلك الحاجة ، مثل الرزاق ، والرحيم ، واللطيف . ولقائل أن يقول : إنما ندعو الله أن يرزقنا ، ويرحمنا ، ويلطف بنا ، وهذا الأمر صحيح ، ولا يخالف ما ذهبنا إليه لعلمنا : أن الله تعالى هو الرزاق ، الرحيم ، اللطيف ، وليس هناك تعارض ،

(1) البقرة ، 284 .

(2) المائدة ، 120 .

(3) الأعراف ، 180 .

فقد قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (1) .  
فعندما ندعو الله نكون قد استغنيا بالمذكور عن المحذوف لشمول العموم ،  
وذلك : أن أي اسم من الأسماء التي نريد أن ندعو بها إنما تعود لله تعالى ،  
وأما إذا أردنا التخصيص لحاجة دون غيرها ؛ فندعو بالاسم الذي تتعلق به تلك  
الحاجة .

أما في مجال العبادة فالأمر مختلف تماماً ؛ إذ لا يُتعبد بأي من هذه  
الأسماء ، حيث لا تكون العبادة إلا لله تعالى ، لذلك تخرج الأسماء الحسنی  
من مجال العبادة كونها مختصة بالحاجات ، ذلك : أن العبادة كلية كبرى ،  
وهي ليست من الحاجات ، وإنما هي علة الوجود . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ  
الْإِنسَ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (2) . فلما كانت العبادة علة وجود الخلق ، كان  
التعبد لموجد الوجود ، ولذا كانت دعوة العبادة لله تعالى دون الأسماء  
الحسنی :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا  
الطَّاغُوتَ ﴾ (3) .

وقال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا  
تَتَّقُونَ ﴾ (4) .

وقال تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (5) .

إن جميع الآيات التي أمرت بالعبادة لم تدع لغير عبادة الله تعالى دون  
أسمائه الحسنی ، فلو كان لفظ الجلالة مساوياً للأسماء الحسنی لكان من

(1) الإسراء ، 110 .

(2) الذاريات ، 56 .

(3) النحل ، 36 .

(4) المؤمنون ، 32 .

(5) المائدة ، 117 .

ضمنها وواحداً منها ، ولو كان واحداً منها ؛ لجاءت الدعوة في العبادة للفظ الجلالة ولغيره من الأسماء الحسنی ، فنحن لا نعبد الرحمن ، أو الرزاق ، أو اللطيف ، وإنما نعبد الله الذي له هذه الأسماء الحسان التي هي حاجة الخلق ، والخلق علتها ، ولو كان لفظ الجلالة ( الله ) من ضمن الأسماء الحسنی ؛ لصحت العبادة للباسط ، والكبير ، والعظيم ، فالعبادة لا تصح إلا لله دون أسمائه الحسنی ، وذلك :

1 - أن هذه الأسماء صفاتٌ إمّا للذات ، وإمّا للأفعال .

2 - أن هذه الأسماء هناك من يتسمى بها من المخلوقين بالنسبية .

3 - أن الأسماء الحسنی مختصة بلفظها ، ومعناها .

ولذا فلفظ الجلالة ليس من ضمن الأسماء الحسنی .

وعليه نتساءل هل الأسماء الحسنی هي تسعة وتسعون ؟

إنّ تعدد الروايات في أحاديث الأسماء الحسنی فتح باب الاجتهاد حول مطلقة العدد ، أو حصره في تسعة وتسعين ، حيث نرى فريقاً تقيّد بحصر العدد لما جاء في الحديث : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مئةً إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » (1) .

وفريقاً آخر أطلق العدد اعتماداً على أن هذه الأسماء غير محددة ؛ لأنها تشمل كل ما يليق بالذات الإلهية .

ونحن نرى أن هناك مجموعة من الأدلة تؤكد على عدم حصر عددها في التسعة والتسعين مما يفسح المجال للاجتهاد ، وإبداء الرأي ، منها :

- تعدد الروايات ، واختلافها في حصر هذه الأسماء .

- أن بعض الأسماء التي وردت في الحديث الذي ذكره الترمذي لم ترد

(1) صحيح مسلم ، ج 3 ، ص 63 .

في القرآن الكريم ، كالرشيد ، والصبور ، والعدل ، والجليل .

- أن بعض ما ورد في القرآن الكريم لم يرد في الحديث الذي ذكره الترمذي ، كالمولى ، والنصير ، والناصر ، والحفي ، والمدبر ، والمسيطر .

- ورود التوقيف بأسماء تزيد على التسعة والتسعين ، مثل : السيد ، والدیان ، والحنان ، والمنان ، والجميل ، والرفيق .

- أن بعض المعاصرين جمع تسعة وتسعين اسماً مما ورد في القرآن الكريم يرى : أنها هي الأسماء الحسنی المقيدة في العدد ، وهي : ( الآخر ، الإله ، المؤمن ، البارئ ، البر ، البصير ، الباطن ، التواب ، الجبار ، ذو الجلال ، المجيب ، الحسيب ، الحافظ ، الحفيظ ، الحفي ، الحق ، الحكم ، الحكيم ، الحلیم ، الحميد ، المحيط ، الحي ، الخبير ، الخالق ، الخلاق ، الرؤوف ، الرب ، الرحمن ، الرحيم ، الرازق ، الرزاق ، الرقيب ، السلام ، السميع ، الشاكر ، الشكور ، الشهيد ، الصادق ، الصمد ، المصور ، ذو الطول ، الظاهر ، ذو المعارج ، العزيز ، العظيم ، العفو ، العليم ، الأعلى ، العلي ، المتعال ، الغفار ، الغفور ، الغالب ، الغني ، الفاتح ، الفتاح ، ذو الفضل ، القادر ، القدير ، المقتدر ، القدوس ، القريب ، القاهر ، القهار ، المقيت ، القيوم ، ذو القوة ، القوي ، الكبير ، المتكبر ، الأكرم ، ذوالإكرام ، الكريم ، الكفيل ، الكافي ، اللطيف ، المتين ، المجيد ، المالك ، مالك المُلْك ، المَلِك ، المَلِك ، الناصر ، النصير ، ذوانتقام ، المنتقم ، النور ، الهادي ، المهيمن ، الأحد ، الواحد ، الودود ، الوارث ، الواسع ، الوكيل ، الولي ، المولى ، الوهاب ، الأول ) (1) .

ومن الملاحظ أن اختيار الأسماء الحسنی بهذه الصورة قد خضع لرؤية

(1) أسماء الله الحسنی دراسة في البنية والدلالة ، ص 40 .

الباحث دون أن يتقيد بمنهج يكون الاسم بموجبه من الأسماء الحسنی ، لذلك نجد :

- 1 - أنه فصل ذو الجلال والإكرام ، وجعله اسمين .
- 2 - أنه جعل الربّ من الأسماء الحسنی علماً : أنه لم يرد بهذه الصيغة في القرآن الكريم ، وإنما ورد مثل : رب العالمين ، ورب المشارق ، رب الناس .
- 3 - هناك كثير من الأسماء التي يمكن استبدالها ببعض من الأسماء التي وردت في هذه القائمة مثل : العالم ، والمسيطر ، والعاطي ، والحاكم .

- والقول الفصل في عدم حصرها بعدد معيّن قوله عليه الصلاة والسلام : « ما أصاب أحداً قط همٌّ ، ولا حزنٌ ، فقال : اللهمّ إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيّ حكمك ، عدلٌ فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو علمته أحداً ، من خلقك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ؛ إلا أذهب الله همّه ، وحزنه ، وأبدله مكانه فرجاً » (1) .

ومن هنا يتبين : أن أسماء الله تعالى غير محصورة في عددٍ محدد ، وقد كانت محاولة حصرها اجتهداً ممّن تطرق لذكر الأسماء الحسنی ، والبحث فيها ، أو شرحها على ما نعتقد . وعليه : كيف نستطيع أن نوفق بين ما نصّ عليه العدد ، وبين ما هو مطلق غير مقيّد من عدد الأسماء ؟

لقد ثبت مما تقدّم : أن الأسماء الحسنی لله تعالى مطلقة غير مقيدة بعدد محدد ، وزيادة في التأكيد نسوق أدلةً أخرى ، وهي :

(1) مسند أحمد ، ج 8 ، ص 311 .

1 - قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وكذلك : ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾  
وبقية الآيات التي أوردت نسبة الأسماء الحسنی لله تعالى لا يفهم من أيّ  
منها : أنها مُقَيَّدَةٌ بعددٍ ، أو أن عدداً معيناً مُقَيَّدٌ بها ، بل لا يفهم منها  
إلا إطلاق العدد دون تحديد لما يأتي :

أ - أن كل اسم حسن هو لله تعالى .

ب - كل اسم حسن هو في دائرة الأسماء الحسنی .

ج - الأسماء الحسنی أعظم من أن نحصيها ، وإن أحصيت ؛ وقع فيها  
اختلاف .

د - الاختلاف ملازم لمحاولات إحصائها ، وهو دليل على أنها لا تحصى .

هـ - الأسماء الحسنی مطلقة غير مقيدة .

2 - تفسير حديث الأسماء الحسنی في قوله ﷺ : « الله تسعة  
وتسعون اسماً مئةً إلا واحداً ، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ، وهو وتر يحب  
الوتر » (1) .

فالكلام لا يتم بلفظ الحديث : إن الله تسعة وتسعين اسماً ، وإنما تمام  
معناه بقوله : لا يحفظها أحدٌ إلا دخل الجنة ، وهذا مثل قولنا : إن لفلان مئة  
نخلة في سبيل الله ، أو بيت لعابر السبيل ، فهذا لا يعني : أنه لا يملك  
سواها ، فخصص مئة نخلة مما يملك للصدقة ، وهذا البيت دون بيوته لعابر  
السبيل ، وكذلك حديث الأسماء الحسنی ، فلا يعني : أنه ليس لله من الأسماء  
سوى هذه التسعة والتسعين ، وإنما يعني : أن الله أسماء كثيرة تختص تسعة  
وتسعون منها بأن من أحصاها ، أو حفظها دخل الجنة بفضل هذه الأسماء .

3 - جَعَلَ الأسماء الحسنی غير محدّدة في أسماء الله تعالى الواردة في

(1) صحيح البخاري ، ج 21 ، ص 256 .

الكتاب ، والسنة والتي تتجاوز التسعة والتسعين ، وتكون المخصصة لدخول الجنة من ضمنها ، وأخفيت كما أخفيت ليلة القدر في العَشر الأَواخر من رمضان ، وساعة الإجابة من يوم الجمعة ، والصلاة الوسطى من الصلوات المكتوبة حتى يَجِدَ المسلم في طلب الخير ، وتعظيم الأجر ، ويوافق الفضيلة الزائدة في تحرِّي التسعة والتسعين المسببات لدخول الجنة ، كما ورد في رواية الحديث .

### الفرق بين لفظ الجلالة والأسماء الحسنی :

إن لفظ الجلالة من دون أسماء الله الحسنی جميعها ، والتي وردت في روايات أحاديث الأسماء الحسنی المتفقة منها ، والمختلفة ، نقول : هو الاسم الذي لا ينصرف منه شيء ، لا في الأفعال ، ولا في الصفات ، ولا في المصادر . بمعنى : أنه لا يكون منه فعل ، ولا فاعل ، ولا اسم مفعول ، ولا اسم فاعل ، ولا صفة مشبهة ، ولا صيغة مبالغة ، ولا مصدر ، فهو علم للذات الإلهية ، بخلاف جميع الأسماء التي تقبل التصريف لجميع الصيغ التي ذكرناها ، فعلى سبيل المثال لا الحصر اسم الرحمن :

الفعل الماضي منه : رحم .

الفعل المضارع : يرحم .

الفعل الأمر : ارحم .

اسم الفاعل : راحم .

اسم المفعول : مرحوم .

صيغة المبالغة : رحيم .

فإن كان لفظ ( إله ) أو أله هو الجذر الثلاثي للفظ الجلالة وهو من المشتقات ؛ فما هو معنى لفظ الجلالة غير دلالة على الذات الإلهية ؟

إذ من المعلوم : أن أي اسم مشتق يجب أن يكون له دلالة معنوية ، أي



اسم له دلالة عدا اسم الذات الإلهية فإذا أخذنا الجذر ( أله ) وقلبناه في التصاريف التي تقبلها الأفعال ، والأسماء فهل نستنتج من هذا التصريف لفظة ( الله ) ؟ ومع ذلك سنحاول قبل إصدار الحكم

الجذر الثلاثي ( أ ل ه )

الماضي منه : أله .

المضارع : يأله .

الأمر : إأله .

اسم الفاعل : آله .

اسم المفعول : مألوه .

لا تأتي منه صفة مشبهة لأن الصفة المشبهة ( من باب فرح وكرم ) .

لا يأتي منه اسم تفضيل ؛ لأن التفضيل يدل على شيئين اشتركا في صفة واحدة ، والإله الحق خارج المفاضلة .

وأما اسم الآلة ، وأسماء الزمان ، والمكان ؛ فلا يصح منها شيء فيه ؛ لأن الآلة تدل على أداة الفعل ( فتحت الباب بالمفتاح ) ، وأما الزمان ، والمكان فالإله الحق خارج هذين الحيزين .

**وعليه :** جميع المشتقات من الجذر ( أ ل ه ) لا ينتج منها لفظ الجلالة ؛ فكيف يكون هذا الجذر أصلاً للفظ ( الله ) ؟ ! وعلى هذا فهو اسم توقيفي على الذات الإلهية .

ومن المعلوم أيضاً : أن ( إله ) يطلق على الخالق ، وعلى المخلوق ، والله تعالى لا يسمى باسمه ، فقد جاء في قوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (1) .

(1) الأنبياء ، 22 .

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ (1) .

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ ﴾ (2) .

﴿ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ ﴾ (3) .

فمن هنا نقول : إن لفظ الجلالة اسم توقيفي ، وليس مشتقاً ، وهو علم للتعيين ، ولا يتضمن إشارة حسية مثل التي تدل عليه بقية الأسماء ، لذلك نجد الأسماء التي تلي لفظ الجلالة تبين صفات الذات الإلهية ، ولا تعطي معنى اللفظ ، وهذا سياق مطرد في القرآن الكريم ، مثل :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (4) .

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (5) .

﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (6) .

وهذه الأسماء الحسنی ملاحظ فيها معنی الصفات ، و لهذا صحَّ أن تكون إخباراً عن الذات الإلهية وصفاتها ، فالله كريم ، ورحيم ، وعفو ، وحليم ، وله مطلق الصفات الحسنی ، وحسبنا أن نعلم : أن اسم الذات هو هذا الاسم المفرد ، وبقية الأسماء مشربة بالوصفية . ولفظ الجلالة ( الله ) علم للذات الإلهية ، وكل أسماء الله تعالى عدا لفظ الجلالة تتضمن وصف الله تعالى بما تضمنته الأسماء من الصفات ، فكل أسمائه تعالى صفات له .

(1) المؤمنون ، 117 .

(2) الفرقان ، 43 .

(3) الأعراف ، 138 .

(4) الجاثية ، 2 .

(5) المؤمنون ، 116 .

(6) الصافات ، 126 .

### الحسن في لفظ الجلالة ( الله ) :

لقد أثبتنا : أن الأسماء الحسنى غير محددة بعدد معلوم ، وأن لفظ الجلالة ليس من الأسماء الحسنى ، وطالما : أنه ليس منها ؛ فهو غيرها بحيث إنه يجمعها ، ويضمها ، ويحتويها ، فأين يكمن حسن لفظ الجلالة ؟

1 - لقد اتضح : أن لفظ الجلالة يمتاز عن جميع الأسماء الحسنى بسمات تفرّد بها من حيث المعنى ، والتركيب اللغوي ، وأنه لا يتصرف ، ولا يشتق منه أيّ من المشتقات ، وأن نداء لفظ الجلالة في القرآن يكون لاحقاً له ، ولا يكون سابقاً عليه ( اللهم ) فهذه السمات الخاصة بلفظ الجلالة دون الأسماء الحسنى أولى سمات التفرّد في الحسن ، كما تفرّد بالتوقيف .

2 - إن الأسماء الحسنى التي اقتصرت على وصف حسن صفة الذات ، وحسن صفة الفعل لا بدّ : أنها قاصرة عن وصف حسن الذات ، ولأن الأسماء الحسنى لا تغطي وصف حسن الذات الإلهية ؛ فقد اقتصرت على وصف الصفة ؛ لأن الله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ولأنه ليس كمثله شيء ، فلا يوجد شيء يرتقي إلى حسن جلال الله تعالى نستطيع من خلاله أن نعلم شيئاً عن طبيعة ذلك الحسن المطلق .

3 - كما أننا نستدلّ على الله تعالى بأنه الخالق من خلال آيات خلقه ، فإن هذه الآيات نفسها هي دليل على الحسن المطلق لله تعالى ؛ الذي لا نستطيع أن ندركه إلا حسناً ، لذلك فإن نسبة الحسن في آياته يدلّ نسبياً على حسنه تعالى ؛ لأنه لا تدركه الأبصار ، وهو يدركها ، فقد قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ (1) .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (1) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (2) فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (2) .

وهذا فإن التأمل في أسماء الله الحسنى بتبصُّرٍ يفضي إلى تساؤلات غاية في الأهمية :

- ما علاقة الأسماء الحسنى بالله ؟
- هل الأسماء الحسنى مستقلة بنفسها ، أم ذات صلة بالله ؟
- هل ( الله ) من الأسماء الحسنى ؟
- أم ( الله ) هو الذي يمدُّ تلك الأسماء بالحسن ؟
- ما علاقة الأسماء بعضها ببعض ؟
- ما الذي ينظم تلك العلاقة ؟
- ما علاقة الأسماء الحسنى بالخلق : الملائكة ، الإنس ، الجن ، باقي المخلوقات ؟
- هل الأسماء الحسنى التي عرفناها بين آيات القرآن الكريم ، والأحاديث هي كل الأسماء ؟
- هل الأسماء الحسنى منها ما هو معلوم ، ومنها ما هو مجهول ؟
- هل توجد أسماء لله تختص بالدنيا ، وأسماء تختص بالآخرة ؟

(1) الحج ، 5 .

(2) الأنعام ، 95-96 .

ما أهمية أن يعرف الإنسان الأسماء الحسنی ؟

- ما معنى إحصاء الأسماء الحسنی ؟

وغير ذلك من تساؤلات تدور في ذهن المؤمن بالله ، وبأن له أسماء حسناً متصرفة في الكون .

وسنعمد سنداً قرآنياً لحجتنا يعضده قول النبي ﷺ .

- علاقة الأسماء الحسنی بالله :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۚ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

فالمعنى الذي يسبق إلى ذهن القارئ لهذه الآية الكريمة : أن الأسماء لله ، فهي له مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ فهي علاقة ملكية ، وتبعية ، وإضافة بدليل ( ل ) التي تفيد : أنها خاصة به على الوجه المطلق ، وليست لغيره من ملائكة ، أو أوثان ، أو بشر .

لماذا ؟ !

لأن هذه الأسماء من فيض الألوهية ، فهو سبحانه وتعالى قد خص بها نفسه ، ولا ينبغي لغيره أن يتسمى بها ، ولكن يمكن أن يتخلق بها تقرباً إلى الله تعالى عبادةً ، واتباعاً .

كما أن هذه الأسماء ( لله ) لا تنفك عنه ، فلا نقول : إنه سمي بها نفسه ؛ لأن ذلك سيفضي إلى تصور خاطئ ، وهو : أن الله كان بلا أسماء ثم جاءت أسماؤه ؟

ويأتي التساؤل الأول : هل أسماؤه لاحقة عليه ؟

نقول تأسيساً على أنه الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن : إنها له

مطلقاً متحققة بإضافتها له سبحانه ؛ لأن من أسمائه الصفاتية ( الأول ) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) ، وكما ورد في حديث النبي ﷺ « الْأَوَّلُ الْآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ » (2) .

**وعليه :** فالعلاقة تلازمية لا زمنية ، بل بالإضافة ، والاستمداد ، فالله تعالى مُمِدُّ لأسمائه ، وأسماءه لا تُمَدُّه .

لأن القاعدة تقول :

« العليم اسم لله » وليس الله اسماً للعليم « وهكذا تتحقق هذه القاعدة في كل أسماء الله التي ذكرت في القرآن الكريم ، وفي الحديث الشريف .

فالاسم يستمد من واقع الخلق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ كَلَّا نُمَدِّهُنَّوَلَاءَ وَهَنُوَلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (3) .

كما أن أسماءه له ، فيجوز أن ندعوه بأي منها في حال اجتماع النية على أن هذا الاسم لله ؛ وإن تسمي به غيره ممن ادعوا الألوهية ، وهذا يعطينا دلالة أخرى هي دلالة التساوي بين أسمائه ، فالرحمن مثل الرحيم ، مثل الغفور ، ولكن غير المتساوي هو حال الداعي لله بحسب ما تقتضيه حاجته من الله ، فيتوجه إليه بالاسم الذي يراه مناسباً للأمر الذي يريد قضاءه ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (4) .

### التساؤل الثاني :

- هل الأسماء الحسنی أسماء مستقلة ، أم ذات صلة بالله ؟

(1) الحديد ، 3 .

(2) سنن ابن ماجه ، ج 11 ، ص 321 .

(3) الإسراء ، 20 .

(4) الإسراء ، 110 .

تأسيساً على قولنا السابق : إنها تستمد من الله ، وتضاف إليه ، وهو لا يضاف إليها بالمعنى العطائي الإمدادي ، ولا بالمعنى اللغوي . كيف ؟ !

**من المعروف لغة :** أن الاسم النكرة يكون مضافاً ، والاسم المعرفة يكون مضافاً إليه ، وأسماء الله الحسنی وهي معارف في حالة إضافتها إليه ، أو لم تضاف ( وهذا ما توصلنا إليه في موسوعتنا عن الأسماء الحسنی ) في حال كانت دلالتها عائدة على الله ، ولمناقشة العقل اللغوي نقول : الاسم الذي يخلو من ( أل ) يكون نكرة ، ف : ( العليم ) معرفة و ( عليم ) نكرة فهو يقبل أن يكون مضافاً ، ومضافاً إليه . والتساؤل :

هل يمكن أن يقول قائل : كيف يكون ( الله ) نكرة ؟ !

الإجابة مستحيل أن يكون الله نكرة :

- لأن كل المعارف لم تعرّف إلا به .

- لأنه لا يمكن نزع ( أل ) من ( الله ) لأنها ليست للتعريف ، فهي من أصل الحروف التي اختارها الله لتكوين الاسم .

- كما لا يمكن إضافة ( أل + الله ) لأن المعنى سيكون غير مستساغ لغوياً ولا صوتياً ، وهذه خصوصية لله فالله هو الله يعرف الأشياء بقربها منه ، وينكرها ببعدها عنه ، ولا أحد يقدر أن يتجاوز حدود عقله بأن يدلي بدلو في الاسم ( الله ) فهو كما هو ، وكما عرّفنا نفسه ، فالله متقدم أسماءه في القرآن ، والحديث ذكراً ، ولا تتقدمه أسماءه مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ (١)

- ( وهو ) في الآية ضمير غائب كما تعلمنا في اللغة ، والانتقال إلى من الغائب إلى الحاضر ( الله ) يسمى في ( علم البديع ) التفات يثير العقل لأهمية المخبر عنه ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾ (1)

- وعليه : فهو يضاف إليه لغة ، ومدداً ، وعطاءً ، ولا يضاف هو عز وجل لغيره لغةً ، وعطاءً ، وممدداً .

لذا فالأسماء الحسنی من هذا الجانب غير مستقلة بالمرة ، وذات صلة مستدامة بالله ، وهي مستقلة من حيث علاقتها ببقية الأسماء ، فكل اسم من الخصوصية بالصفة ، أو الفعل التي تميزه كغيره من الأسماء .

- ومستقلة من جانب آخر ؛ لكونها جميعاً أسماء الله ، فلا يتشارك أي مخلوق فيها مع الله إلاّ تخلقاً بها على قدر المتخلق ، لا على قدرها .

3 - هل ( الله ) من الأسماء الحسنی ؟

4 - أم الله هو الذي يمد تلك الأسماء بالحسن ؟

- وبمعنى آخر : أسماء الله الحسنی لـ : ( الله ) فماذا يكون ( الله عز وجل ) بالنسبة لها ؟

من خلال النص القرآني والحديث الشريف يتبين : أن الله ليس من الأسماء الحسنی ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۝ ﴾ (2) ، فالأسماء له ؛ لذا فهو غيرها ، لأنها الأسماء ، وهو المسمي ، والمسمى ، وقول النبي ﷺ : « عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً غَيْرَ وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ » (3) ، فهي أسماء الله ، وليس الله اسماً لأحدها ، بل مُسمًى لكل منها ، والاسم لا يحيط المسمى ،

(1) الإخلاص ، 1-4 .

(2) طه ، 8 .

(3) سنن الترمذي ، ج 11 ، ص 412 .



ولا يحتويه ، ولا يغطي صفاته ، فالكريم اسم صفة واحدة لله سبحانه وتعالى ، وله صفات أخر ، عرفنا بها ، ولا تحصي .

**لذا نقول : ( الله )** ممد الأسماء الحسنی بالحسن ؛ لأنه مصدر الحسن فيها ، وفي غيرها ؛ وبما أنه ممدّها فهي لا تمثله ، وعليه فهو ليس من الأسماء الحسنی بل أصل الحسن فيها .

- وبما أن الله تعالى ليس اسماً لغيره من الأسماء ؛ فهو غيرها ، وبما أنه غيرها ؛ فهو ليس منها ، فهو يحتويها ، وهي لا تحتويه ، إنه المطلق ، جل جلاله .

**- وعليه نقول : الله** مطلقة خصّ بها نفسه في كون الأسماء له ، وهو غيرها ؛ لأن كل اسم يوضح ما أراد الله أن يخبرنا عنه من خلال هذا الاسم ، أو ذاك ؛ ولأن الله يحيط بكل شيء ، ولا يحيط به شيء ، فهو يحيط بأسمائه ، وأسماءه لا تحيط به ، وهو يمدّها ، وهي لا تمثله .

- إذاً فالقاعدة تقول :

- الله مسمّى ، ومسمّ ، وليس اسماً لغيره .

- الأسماء تابعة للمسمّى ( الله ) ، والله ليس تابعاً لها .

- الله يحيط بأسمائه ، ولا تحيط أسماءه به .

وعوداً على بدء نستمرّ في مناقشة بقية التساؤلات ، وكالاتي :

- ما علاقة الأسماء بعضها ببعض ؟

- ما الذي ينظم تلك العلاقة ؟

- ما علاقة الأسماء الحسنی بالخلق : الملائكة ، الإنس ، الجن ، باقي المخلوقات ؟

علاقة الأسماء الحسنی بعضها ببعض علاقة توحيد لا تعديد ، فهي جميعها تدل على مدلول واحد ( الله لا إله إلا هو ) كما قال الله تعالى ، ويؤكد هذه الدلالة تتابع الأسماء الواردة في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف بعد

قول الله تعالى ( هو ) التفاتاً من الغائب إلى المتكلم عن الحاضر ، والالتفات « العدول عن الغيبة إلى الخطاب ، أو التكلم ، أو على العكس » (1) . كما في الآيات : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (2) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (3) وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (4) وقوله ﷺ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا مِثَّةً غَيْرَ وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاهَا ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ : هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِمِّنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُدِلُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الْحَفِيفُ الْمُقِيتُ الْحَسِيبُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ الْوَدُودُ الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِي الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاحِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُفْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِي الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُتَّقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ الثَّوَرُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ » (4) .

وبما أن أسماء الله الحسنی له ، لذا فهي في علاقة توافق لا تنافر ، وعلاقة توحيد لا تعدید .

(1) التعريفات ، ج 1 ، ص 10 .

(2) الأنعام ، 102 .

(3) الأعراف ، 158 - 159 .

(4) سنن الترمذي ، ج 11 ، ص 412 .

- كما أنها تعلمنا عن الله بما يمكننا أن نتحملة من علوم بعقول في دائرة النسبية ، والنسبي لا يسع بالقطع المطلق ، وهذا هو العلم القليل الذي يمكن أن نحصله ؛ إن حصلناه مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (1) وأسماءه التي نعلمها ليست كل أسمائه لقول النبي ﷺ : « مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ، وَابْنُ عَبْدِكَ ، وَابْنُ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ ، عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ ، وَحَزَنَهُ ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا » . قَالَ : فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَعَلَّمُهَا ؟ فَقَالَ : « بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا » (2) . وبما أننا لا نعلم كل أسمائه ؛ فعليه نحن لا نعلم عن الله إلا القليل ؛ إن علمناه ، وأسماءه التي علمناها لا تحيط به ؛ لأنها أسماء الله للخلق ، وليست الأسماء التي اختصَّ الله بها أحداً من خلقه المخصوصين بأسماء من العلم الإلهي ( أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ) وكذلك الأسماء التي استأثرت بها في علم الغيب عنده لقوله ﷺ : ( أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ ) .

**وعليه :** فعلمنا بأسمائه ( إن حصل ) التي لا تحيط به علم بغير المحيط .  
 وصدق الله إذ يقول : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ (3)  
 وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ (4)

**وعليه :** فأسماءه لا يقال : إنها ليست عينه ، وليست غير ذاته إلا من

(1) الإسراء ، 85 .

(2) مسند أحمد ، ج 8 ، ص 63 .

(3) طه ، 110 .

(4) البقرة ، 255 .

حيث ما نعقله نحن ، ونستوعبه من تعدد الصفات ، والأسماء ، أو ما يُتَوَهَّم من تضاد .

فصفاتُ الله لا تدرك على حقيقتها الإلهية إطلاقاً ، فهو سبحانه كما وصف نفسه في كتابه واحداً واحداً لا تجزؤه صفاته ، ولا تعددُهُ أسماءهُ ، فهو : ﴿ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (1) و ﴿ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (2) وهو ﴿ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (3) و ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (4) وهو كما أمر النبي ﷺ أن يقول : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٥) اللَّهُ الصَّكَمُ ﴿ (٦) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ (٦) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (5) ، فالفاعل واحد ، والفعل متعدد ، وتعدد الفعل لا يعني تعدد الفاعل ، بل يعني أحديته المطلقة ، وهذا هو عين التوحيد لا التعديد .

والدليل على ذلك قوله تعالى : « له الأسماء الحسنی » ، والأسماء جمع ، والحسنی صفتها ، وهي واحدة (6) . لأن الذات واحدة ( الله ) لا إله إلا هو ، وصفاتها متعددة ، فالمعروف : أن الصفة تتبع الموصوف في العدد ، وفي هذه الحالة الموصوف جمع ، والصفة مفرد ( الحسنی ) وليست الحسنیات ، أو الأحاسن ؛ لأن أسماء الله للتوحيد ، وليست للتعدد .

(1) الكهف ، 38 .

(2) سبأ ، 27 .

(3) الزمر ، 4 .

(4) الحشر ، 22 - 24 .

(5) الإخلاص ، 1 - 4 .

(6) تفسير الطبري ، ج 18 ، ص 275 .

- والذي ينظم العلاقة بين الأسماء هو الله ، فيجعلها بقدر معلوم يتوافق مع حاجة كل مخلوق من المخلوقات التي لها عليه من قبل الله .

- لذا فعلاقة الأسماء بالخلق تنزل بقدرة الخالق لتتوافق مع حاجة المخلوق ، وعلى سبيل المثال الرزق في السماء ، والأرض ، والبحر ، وباطن الأرض ، ولذا فإن الله قدر لكل خلق من خلقه رزقاً يتوافق مع حاجته مع تعدد الحاجات ، واختلافها بين الخلائق فإن الله يحيط بها علماً ، وإحصاءً ، وحاجة فيتصرف كل اسم مع كل مخلوق على قدر حاجته وفق حكمة الله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (1) .

- لذا فكل خلق من المخلوقات المكلفة ، وغير الكلفة لها من نصيب الأسماء الحسنی على قدر حاجتها وفق قدرة الحكيم الخالق .

- وكما أنه من المقبول عقلاً أن تكون أسماء للجن غير الإنس ، وللملائكة غير الاثنين ، وقد يشتركون في أسماء الله ، ويختلفون في أخرى وفق الحاجة لهم ، والحكمة الإلهية المدبرة للكون ؛ لأن اختلاف النوع يوجب اختلاف الحاجات ، ومعها يمكن أن تتعدد الأسماء تبعاً لاختلاف مشبعات الحاجات على وفق النوع .

- **لذا نقول :** إن الأسماء الحسنی منها ما هو معلوم من مثل الذي أنزل في القرآن ، وبينه النبي ﷺ ومنها ما هو مجهول من مثل ما علمه الله أحداً من خلقه ، أو استأثر بها في علم الغيب عنده .

**وعليه :** قد تكون هناك أسماء اختصها الله للدنيا ، وأسماء قد اختزنها الله للآخرة ، لا نعلم عنها شيئاً ، وهي في علم الله .

- وتأتي أهمية معرفة الإنسان بأسماء الله الحسنی لإقرار التوحيد ، ونفي التعديد ، والشرك بالله تعالى ، وإثبات دعائه بأسمائه التي لا إلحاد فيها ، ولا شرك .

- مع التنبيه : أن أسماء الله لا تحصى وفقاً للقاعدة القرآنية : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (1) .

فبما أن نعمه متعلقة بأسمائه ، وأسماءه ، ونعمه لا تحصى إذاً أسماءه لا تحصى .

**ونؤكد القول :** إن اسم الذات الأعظم ( الله ) هو اسم مختص للذات فلا أحد يستطيع أن يتسمى به ، وليس له ذلك ، ولا أحد يستطيع أن يشتق منه ، ولا يحذف منه شيئاً ولا يضيف له شيئاً ، ولا يصغر دلالته ، وليس له أن يبالغ فيه ، الله هو الله اسمه الأعظم الذي لا يشترك معه أحد في معناه ، أو بعض من معناه .

أما الأسماء الحسنی فهي لله ، وكأن هذه الأسماء هي التفسير ، والتفصيل للباحث عن أوجه الاسم واشتقاقاته ، فعندما تقول من هو الرحمن تكون الإجابة الله وتكون الإجابة وافية بالمطلق ، ولكن عندما يسأل سائل من هو الله فلا تكون الإجابة بالرحمن مطلقة ؛ لأن الرحمن اسم من أسماء الله ، أما الله فهو الله سبحانه وتعالى عما يصفون .

**المسألة الثانية :** هي أن اسم الله هو الاسم المطلق الدال على الذات المطلق ، أما أسماء الله ففيها الصفة الدالة على نعمه ؛ لأنها لانتفاع المخلوقات ، فالرزاق من أسماء الله الحسنی لكن الله غني عن الرزق ، فهذا الاسم هو للعباد الذين يرجون الرزق ، فهو نعمة من الله لهم ، وهو الذي حثهم على الدعاء ، ووعدهم الإجابة ، فقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ

(1) إبراهيم ، 34 .

الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿١﴾ ، ولو تأملنا في فعل الأمر ( ادعوني ) لوجدناه دالاً على أمرين ، هما :

كثرة الداعين .

تعدد أنواع الدعاء .

أحدية المجيب .

والأمر موجب للتعدد في أسماء الله التي يدعى بها ، مع التأكيد : أن الدعاء باسم الله يؤدي المراد من الدعاء ، لكن الله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة ، يعلم عن الإنسان وقد خلقه من قبل الحرص ، والطمع ، وقلة الصبر ، فأراد القريب سبحانه أن يتقرب إلى عباده بتلك الأسماء ، فقال لرسوله الكريم : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (2) ، فالله سبحانه قريب ، وهي صفة له ، وهو قريب بالاسم الدال على الحاجات البشرية ، وغير البشرية ، فهي لكل المخلوقات ، وهذه الأسماء هي لإشباع الحاجات ؛ لذلك أمرنا الله أن ندعوه بهذه الأسماء ، فقال عز من قائل : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (3) ، فكل حسن يطلب من الله باسم من أسمائه الحسنی ، وكل خبيث يطلب من غير الله ، والله على كل شيء قدير .

**المسألة الثالثة :** هي نوع الدعاء : الدعاء أنواع ، لكن المولى عز وجل جعله في اتجاهين أساسيين ، هما أصل يتفرع منهما ما لا ينتهي من الفروع : صغيرها ، وكبيرها ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (4) ، عليه فالدعاء على اتجاهين هما :

(1) غافر ، 60 .

(2) البقرة ، 186 .

(3) لأعراف ، 180 .

(4) الأعراف ، 56 .

**دعاء الخوف :** « الخوف : توقع مكروه عن أمانة مظنونة ، أو معلومة » <sup>(1)</sup> ، وهذا المعنى يشير إلى كل المتوقعات من السوء ظناً ، أو يقيناً ، هنا تأتي أسماء الله التي يجد فيها الخائف مطمئناً لخوفه ، فيدعو الضعيف من المخلوقات القوي الخالق ، ويدعو الفقير ربه الغني وفي كل هذه الأسماء كفاية لحاجات الخائف المادية ، وهي في الوقت ذاته مطمئناً للنفس المؤمنة الخائفة ، فموسى عليه السلام عندما مرّ بالخوف دعا المنجي ، فقال : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ <sup>(2)</sup> .

وأيوب المريض دعا الرحيم ، والرحيم قوي ، فقال كما أخبرنا عنه العليم : ﴿ وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ <sup>(3)</sup> ، فاستجاب له ربه مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ <sup>(4)</sup> .

أما مريم الخائفة ؛ فقد استعانت بالرحمن على ما جاءها من الأمر العظيم ، ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ <sup>(5)</sup> . يتبين من ذلك : أن الأنبياء ، والصالحين دعوا الله بأسمائه المشبعة لحاجة كل منهم .

**دعاء الطمع :** الطمع : نزوع النفس إلى الشيء حباً ، ورغبةً ، وربما شهوة <sup>(6)</sup> ، والإنسان إنما ينزع إلى مثل ذلك عندما يكون في حالة من الاطمئنان ، فينطلق عند ذاك لسانه بدعوة الله سبحانه لما يحب ، ويرغب ،

(1) مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، ج 1 ، 327 .

(2) القصص ، 21 .

(3) الأنبياء ، 83 .

(4) الأنبياء ، 84 ، 85 .

(5) مريم ، 18 .

(6) مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، ج 3 ، ص 64 .



ويشتهي ، فعندما شرع إبراهيم ، وإسماعيل برفع قواعد البيت كانا على درجة عالية من الاطمئنان ؛ لأنهما يقومان بطاعة عظيمة هي ذكر الله ، وإيمان به ، فهما في أقصى درجات الإيمان الذي يهب الإنسان طمأنينة ، كما يخبرنا الله عز وجل : ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ (1) ، وكل ذاكر لله يطمئن قلبه مصداقاً ، لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (2) .

فماذا كان دعاؤهما ؟

وبأي الأسماء كان ؟

لقد تضمن دعاء الاطمئنان عدة حاجات كل واحدة منها كانت بالاسم الأقرب إلى إشباع هذه الحاجة ، وهي :

إجابة الدعاء ، باسمي السميع ، والعليم ، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (3) .

بقبول التوبة باسمي التواب ، والرحيم ، ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (4) .

- بالهداية لأمة الإسلام باسمي العزيز ، والحكيم ، ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (5) .

أما زكريا فقد دعا ربه طمعاً في رحمته عندما رأى رحمة الله ، وورقه للصديقة مريم وقد رجا أن يكون له ولد ، ودعاه باسمه السميع ، كما أخبر

(1) النحل ، 106 .

(2) الرعد ، 28 .

(3) البقرة ، 127 .

(4) البقرة ، 128 .

(5) البقرة ، 129 .

العليم الخبير - جل وعلا - فقال : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ <sup>(1)</sup> . كما دعاه باسمه الوارث ؛ لأن زكريا يطلب وريثاً له : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ <sup>(2)</sup> .

وكذلك سليمان فقد دعا ربه أن يهبه الملك ، فدعاه باسمه الوهاب ، فقال كما أخبر عنه الرحمن الرحيم : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ <sup>(3)</sup> ، وهذا دعاء الراسخين في العلم باسم الوهاب ؛ لأنه القادر على أن يهب الحاجات : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ <sup>(4)</sup> رَبَّنَا لَا تُغِخْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ <sup>(4)</sup> .

وأثارت آية من الذكر الحكيم انتباه الفكر ، فكانت مثار البحث ، والتأمل ، يقول الحق : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ <sup>(5)</sup> .

بحث علماء التفسير بهذه الآية ، فوضعوا للوسيلة تفسيرات متعددة ، فقال بعض منهم : إنها العمل الصالح فهي « القربة بالطاعة والعبادة » <sup>(6)</sup> ، وذهب البعض الآخر إلى مناقشة قضية التوسل بالرسول محمد ﷺ وبقية الأنبياء ، والأولياء ، فقال : « أما الأنبياء ، وورثتهم الكمل ؛ فوسائط بين الله تعالى ، وبين الخلق ، ولا بد من طاعتهم من حيث نبوتهم ، ووراثتهم » <sup>(7)</sup> ،

(1) آل عمران ، 37-38 .

(2) الأنبياء ، 89 .

(3) ص ، 35 .

(4) آل عمران ، 7-8 .

(5) الإسراء ، 57 .

(6) تفسير آلوسي ، ج ١٠ ، ص 492 .

(7) تفسير حقي ، ج 7 ، ص 242 .

وذهب آخر إلى أنه التوسل في الدعاء ، فقال : « يتوسلون إلى الله تعالى بالدعاء إلى ما سألوا » (1) .

وفي ضوء هذا التباين وعدم وجود دلالة قطعية متفق عليها ، بل هي مسألة اجتهادية : نقول إنه من المعقول ، والمقبول أن تكون من الوسيلة التي يدعو بها العبد لحاجته الأسماء الحسنی ، فالفقير يتوسل باسم الغني ، والمريض يتوسل باسم الشافي ، وهذا علي ما نعتقد ينسجم انسجاماً واضحاً مع دلالة الآية : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ فهذه الأسماء نتوسل بها إليه ؛ لأنها نعمه إلينا ، دليلنا ، وطريقنا الذي نسلكه ، ونحن ندعو الله الواحد الأحد . ونحن في ذلك نأتسي بالرسول الأكرم محمد ﷺ الذي أمرنا الله أن نأتسي به ، فقال عز من قائل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (2) ، وها هو الرسول يتوسل بأسماء الله ، فيقول : « ما أصاب مسلماً قطُّ همٌّ ، ولا حزن ، فقال : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، وجلاء حزني ، وذهب همي ؛ إلا أذهب الله همَّه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً » (3) .

وعلى ذلك الأولى لنا أن نتوسل نحن بالأسماء الحسنی ؛ ليُستجاب لنا .

فهذه الأسماء من نعمه التي لا تحصى ، وبها تطلب الحاجات ، وإلى ذلك دلَّنا الله سبحانه وتعالى في القرآن المجيد .



(1) تفسير الماوردي ، ج 2 ، ص 435 .

(2) الأحزاب ، 21 .

(3) المستدرک علی الصحیحین ، ج 4 ، ص 423 .



## الخلافة

شغلت لفظة ( خليفة ) حيزاً معرفياً كبيراً في الفكر العربي ، سواء أكان ذلك على الصعيد الشرعي أم التاريخي في تشكُّل يدعو إلى تساؤل عن كثير من الجوانب الفكرية ، والمعرفية التي ترددت بين ثنايا كتب التاريخ حول حقيقة المفهوم .

وبداية حديثنا عن الخلافة في اللغة ، يقول ابن منظور في لسان العرب : « اسْتَخْلَفَ فلاناً من فلان : جعله مكانه . وَخَلَفَ فلانٌ فلاناً : إذا كان خَلِيفَتَهُ . يقال : خَلَفَهُ في قومه خِلافةً . وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ <sup>(1)</sup> وَخَلَفْتُهُ أيضاً : إذا جئت بعده . ويقال : خَلَفْتُ فلاناً ، أَخْلَفُهُ تَخْلِيفاً ، واسْتَخْلَفْتُهُ أَنَا : جَعَلْتُهُ خَلِيفَتِي ، واسْتَخْلَفَهُ : جعله خليفة ، والخَلِيفَةُ : الذي يُسْتَخْلَفُ ممَّن قبله ، والجمع خلائف » <sup>(2)</sup> وفي لغة الفقهاء : أن الخلافة : « من يخلف غيره ، ويقوم مقامه » <sup>(3)</sup> .

ورد لفظ ( خليفة ) في النصِّ القرآني في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ <sup>(4)</sup> وهذا كان ضمن

(1) الأعراف ، 142 .

(2) لسان العرب ، ج 9 ، ص 82 .

(3) معجم لغة الفقهاء ، ج 1 ص 200 .

(4) البقرة ، 30 .

سياق الآيات العظيمة التي كانت تمثل البداية الأولى للبشرية ، فسماع هذه الآية يحيل إلى تشكلات مختلفة كانت تؤشر بداية البشرية ومن بين هذه التشكلات هي الخلافة ، فقد وردت ضمن سياق قصة رسمت البداية الأولى في كل تفاصيلها ، ومن بين هذه التفاصيل كانت الخلافة ، وسياق الخطاب القرآني في هذه القصة اتسم بالتشريف لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فهذا المخلوق شرفه الله تعالى ، وعرضه للملائكة بطريقة ارتسمت فيها عظمة الله تعالى ، وقدرته ، وعلمه : أن خلق ما في الأرض كان لأجله ، فتهيأت نفسه لسماع قصة إيجاد منشأ الناس الذين خلقت الأرض لأجلهم ، ليحيط بما في ذلك من دلائل القدرة مع عظيم المنّة ، وهي منة الخلق التي نشأت عنها فضائل جمّة ، ومنّة التفضيل ، ومنّة خلافة الله في الأرض <sup>(1)</sup> .

**ويلاحظ :** أن لفظة الخليفة في النص القرآني وردت بصيغة التنكير التي تحمل دلالة الإطلاق المنفتح غير متحقق على اسم شخص بعينه ، ولهذا كانت البداية لورود اسم الخليفة بداية لتشكيل نمط معرفي للصورة التي يكون عليها النسق المراد تحقيقه في الأرض .

وهنا تكمن الأصول ، والمعايير ، والتوافقات التي تتحد في ضوء اختيار ربّاني . وهكذا كان الخليفة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ .

فهنا في هذا السياق تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض ، ومنحه مقاليدها على عهد من الله ، وشرط ، وإعطائه المعرفة التي يعالج بها هذه الخلافة ، كما أنها تمهد للحديث عن استخلاف بني إسرائيل في الأرض بعهد من الله ؛ ثم أعطى مقاليدها للأمة المسلمة الوافية بعهد الله ، فتتسق القصة مع الجوّ الذي تساق فيه كل الاتساق <sup>(2)</sup> ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُوكُمْ ﴾ <sup>(3)</sup> . ويلاحظ في

(1) التحرير والتنوير ، ج 1 ، ص 205 .

(2) في ظلال القرآن ، ج 1 ، ص 27 .

(3) البقرة ، 40 .

الآية الكريمة : أن صيغة الخطاب ؛ وإن قصد بها بنو إسرائيل إلا أنها تشمل عموم المؤمنين بالله ، وملائكته ، ورسوله .

وإحياءات لفظة ( خليفة ) ترسم أبعاداً مهمة لما سيتحقق في الأرض بعد خلق آدم ﷺ ، فمهمته لم تكن يسيرة وفق ما تمليه عليه لفظة ( خليفة ) . كما أن الخلافة التي أرادها الله تبارك وتعالى لم تتوقف عنده ، بل استمرت ، وذلك من خلال الرسل الذين بعثهم الله تعالى إلى أمم في أماكن ، وأزمان مختلفة ، إذ يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) ، واستمر هذا النسق إلى مبعث نبينا محمد ، عليه الصلاة والسلام ، فبمبعثه انقطعت الرسالات ، والنبوات ، فكان خاتماً لها . أما من حيث الخلافة ؛ فهي تسير كما نعتقد وفق صيغة مطابقة لاستمرار الرسل ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ تَتْرَا ﴾ فهذه اللفظة ترسم صورة التابع المتحقق للرسل ، لكن هذا التحقق ينتهي بخاتم الرسل ، والأنبياء نبينا محمد ، عليه الصلاة والسلام ، أما الخلافة ؛ فلا تنتهي إلا بنهاية الحياة .

ولم يكن أمر الخلافة مرتبطاً بـ : ( آدم ﷺ ) فقد وردت في سياقات أخرى في النص القرآني ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (2) وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (3) .

(1) المؤمنون ، 44 .

(2) ص ، 26 .

(3) النور ، 55 .

وآية النور الخطاب فيها لرسول الله ﷺ ولمن معه ، وعدهم الله بالنصر على الكفر ، وبوراثة الأرض ، فيجعلهم فيها خلفاء ، كما فعل ببني إسرائيل ، حين أورثهم مصر ، والشام بعد إهلاك الجبابرة ، وأن يمكن الدين المرتضى ، وهو دين الإسلام ، وأن يؤمن سربهم ، ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه ، وذلك : أن النبي ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ، ويمسسون فيه ، حتى قال رجل : ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ، ونضع السلاح ؟ فقال ﷺ : « لا تغبرون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس معه حديدة » . فأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب ، وافتتحوا بعد بلاد المشرق والمغرب ، ومزقوا ملك الأكاسرة ، وملكوا خزائنهم ، واستولوا على الدنيا ، ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم ، فكفروا بتلك الأنعم ، وفسقوا (1) .

وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام كان لا بد أن تستمر الدعوة الإسلامية ؛ وإن تم الدين ، مصداقاً لقوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (2) ، وهذه الدعوة تحتاج إلى من يوجهها ويرسم لها اتجاهاتها العامة والخاصة ضمن دائرة الإسلام ، وعليه تتساءل :

### كيف تسير الأمور الدينية ، والدنيوية ؟

من يقودها ؟

كيف يتحقق الاستخلاف ؟

ومن يُستخلف ؟

وقبل الإجابة عن هذه التساؤلات نستدعي التاريخ ؛ ليطلعنا على ما

(1) الكشف ، ج 4 ، ص 421 .

(2) المائدة ، 3 .



جرى بعد وفاة النبي ، عليه الصلاة والسلام وذلك :

لنرى كيف تحققت الخلافة ؟

ووفق أية معطيات ؟

استأثر الله بنبيه ﷺ وقد أكمل له ، ولنا دينه ، وأتمّ عليه ، وعلينا نعمته ، كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (1) ، وذلك بتكميل الشرائع بما فيها من أصول ، وفروع ، ولهذا كان الكتاب ، والسنة كافيين كل الكفاية في أحكام الدين : أصوله ، وفروعه ، فضلاً عن ذلك : أن الله تعالى اختار ، ورضي ؛ لأن يكون الدين الإسلامي ديننا . قال أنس : « ما نفضنا أيدينا من تراب قبر رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا ، واضطربت الحال ، ثم تدارك الله الإسلام ببيعة أبي بكر ، فكان موت النبي ﷺ ( قاصمة الظهر ) ومصيبة العمر » (2) .

واضطراب الحال تشكل وفق رؤى مختلفة ، كل طرف كان يرى : أنه الأحق بالخلافة من غيره ، وقد تحقق هذا الأمر في سقيفة بني ساعدة « واجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتشاورون ، ولا يدرون ما يفعلون ، وبلغ ذلك المهاجرين ، فقالوا : نرسل إليهم يأتوننا ، فقال أبو بكر : بل نمشي إليهم ، فسار إليهم المهاجرون ، منهم أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة ، فتراجعوا الكلام ، فقال بعض الأنصار : منا أمير ، ومنكم أمير . فقال أبو بكر كلاماً كثيراً مصيباً ، يكثر ، ويصيب . منه : نحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، إن رسول الله ﷺ قال : « الأئمة من قريش » وقال : « أوصيكم بالأنصار خيراً : أن تقبلوا من محسنهم ، وتتجاوزوا عن مسيئهم » . إن الله سمانا : ( الصادقين ) وسماكم : ( المفلحين ) وقد أمركم أن تكونوا معنا حيثما كنا ،

(1) المائدة ، 3 .

(2) العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ ، ج 1 ص 64 .

فقال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ <sup>(1)</sup> . إلى غير ذلك من الأقوال المصيبة والأدلة القوية ، فتذكرت الأنصار ذلك ، وانقادت إليه ، وبايعوا أبا بكر الصديق ، رضي الله عنه <sup>(2)</sup> . فالخلافة تحققت وفق الرؤيا التي طرحت ، وليس من قبل استخلاف رسول الله ﷺ . وفي النص السابق اتضحت سمة الإدراك عند أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - في قوله : ( نحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ) ، ذلك : أن أبا بكر يدرك : أن الخلافة غير متحققة بتكليف شرعي ؛ لأن النبي لا يخلفه إلا نبي ، والرسول لا يخلفه إلا رسول ، بل ركز على الإمارة ؛ لأنه منصب يقوم بأمر الدين والدنيا ، وهذه اللفظة تليق بالمنصب المترتب بعد وفاة الرسول ﷺ فضلاً عن ذلك : أنها تدل على وعي أبي بكر ، وحرصه ، وإيمانه بأنه لا خليفة بعد رسول الله ﷺ ولإيمانه بأن الأمر بعد رسول الله - عليه الصلاة والسلام - شورى .

إن اختيار أبي بكر ، وترجيح كفته لم يكن أمراً اعتباطياً ، بل كان أمراً يخضع لكثير من الأمور منها ما كان بشكل نص قرآني ، ومنها ما كان بشكل اعتباري ، أما النص القرآني ؛ فهو قوله تعالى : ﴿ إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ <sup>(3)</sup> ، هذه الآية الكريمة اشتملت على قصة تُعدُّ البداية الأولى لظهور أبي بكر ضمن اختيار فريدٍ لأمر غاية في الأهمية ؛ إذ كان الاختيار دقيقاً وموحياً بعظمة هذا الرجل ، ومنزلته عند رسول الله ﷺ : خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أول الليل إلى الغار ، وأمر علياً أن يضطجع على فراشه ؛ ليمنعهم

(1) التوبة ، 119 .

(2) العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ ، ج 1 ، ص 70 .

(3) التوبة ، 40 .

السواد من طلبه ، حتى يبلغ هو ، وصاحبه إلى ما أمر الله به ، فلما وصلا إلى الغار ؛ دخل أبو بكر الغار أولاً ، يلتمس ما في الغار ، فقال له النبي ﷺ ، « مالك ؟ » فقال : بأبي أنت وأمي ! الغيران مأوى السباع ، والهوام ، فإن كان فيه شيء كان بي لا بك ! وكان في الغار جحرٌ ، فوضع عقبه عليه ؛ لئلا يخرج ما يؤذي الرسول ، فلما طلب المشركون الأثر ، وقربوا ؛ بكى أبو بكر خوفاً على رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام :

« لا تحزن إن الله معنا ، فقال أبو بكر : إن الله لمعنا » (1) .

إن لفظة الصاحب في النص القرآني لها دلالات عدّة ، ومن أهم هذه الدلالات هي الملازمة ، والملازمة لا تتحقق إلا وفق اختيار مسبق مدروس ، وضمن ضوابط تحدد لها معاييرها ، وصفاتها ، فمصاحبة رسول الله ﷺ تنم عن اختيار الرسول الأعظم لشخصية لها ثقلها ، ورمزها بين الناس ، فضلاً عن ذلك : القيمة التي يدركها الرسول - عليه الصلاة والسلام - في شخصية أبي بكر ، كما أن المواقف التي وقفها أبو بكر في الإسلام تشهد له ، وتمنحه سمة مميزة تؤهله التقدم على باقي الصحابة ، رضي الله عنهم .

ويُعَدُّ تقدّم العمر عند العرب من السمات التي تؤهل صاحبه بأن يتقدم إلى المناصب العليا المتحقق فيها سمات القيادة المهمة ، لذا فعُمر أبي بكر الصديق ، وسبقه أهلاه لأن يكون خليفة للمسلمين ، فقد كان عمره في بداية الستينات ، فعمره كان مناسباً لأن يتولى هذا المنصب الذي يعد الأخطر في تاريخ كل من تقلده ، وهو من السابقين للإسلام . فعاملاً : السن ، والسبق يوجبان التقدير ، والاحترام في الأمور العظام . ووفقاً لهذه القاعدة يكون أبو بكر مقدماً على غيره ، الأكبر عمراً ، والأسبق إيماناً هو الذي يقدم في الأمر ، ولهذا كانت معطيات تقدّم أبي بكر ليست سياسية ، إنما هي متغيرات علائقية تؤكّد القيم الآتية :

(1) تفسير الرازي ، ج 8 ، ص 27 .

- 1 - قيمة التقدير .
- 2 - قيمة الاحترام .
- 3 - قيمة الاعتراف .
- 4 - قيمة الاعتبار .

هذه القيم هي التي صيّرت من أبي بكر خليفة ، ولا أعني خليفة رسول الله ، إنما أخذ هذا اللقب من قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ .

وكان العرب قبل الإسلام يتقاتلون فيما بينهم ، ومن نتائج القتال يسقط منهم قتلى ، فيتطلب ذلك ديات تكون هي الفاصل لكثير من النزاعات ، فكان أبو بكر حاملاً للديات « كان أبو بكر - رضي الله عنه - من رؤساء قريش في الجاهلية ، محبباً فيهم ، مألفاً لهم ، وكان إليه الأشناق في الجاهلية ، والأشناق : الديات . كان إذا حمل شيئاً صدقته قريش ، وأمضوا حمالته ، وحمالة من قام معه ، وإن احتملها غيره ؛ خذلوه ، ولم يصدقوه » (1) . فأمر الديات أمر عظيم ، ولهذا لا يلجأ في هذا الأمر إلا إلى عظيم ، فحَقَّنُ الدماء يمثل صورة السلام الذي يتحقق بين أيديكون صاحبها عظيماً .

لكلِّ عصر من العصور معطياته الخاصة ؛ التي يتميز بها عن غيره من العصور السابقة له ، واللاحقة ، والمبررات التي أوجبت أن يكون هناك خليفة ما بعد رسول الله ﷺ هي مبررات حتمية ، لا مناص منها من أجل أن تستمر الدعوة الإسلامية بالصورة التي أريد لها ، ولهذا فهل يمكن لنا أن نجتهد ، ونستقري تلك الظروف ، ونحن في القرن الواحد والعشرين ؟ إن الإحاطة بهذا الأمر يتطلب الوقوف على كثير من الأحداث التي رافقت تحقُّقه كي يتسنى

(1) أسد الغابة ، ج 2 ، ص 138 .

لنا الحكم ، أو حتى إبداء الرأي الذي يصل بنا إلى الحقيقة ؛ التي هي مطلب كل من يبحث عنها .

إن المتغيرات في كل عصر هي التي تحدّد توجهات الدولة في كل جوانبها : السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، فضلاً عن ذلك الجانب الديني ؛ لا سيما في دولة يكون الدين هو القاعدة الأساسية التي بُنيت عليها ، وهذا ما يجعل الدولة تغير كلّ أهدافها وفقاً للمتغيرات التي تتعرّض لها ، فبعد وفاة رسول الله ﷺ ومبايعة أبي بكر ، خليفة للمسلمين لم يكن في خلد أبي بكر ، أو في خلد المسلمين أن يكون الواقع بعد وفاة رسول الله ﷺ بالصورة التي تحققت ، وفي هذه الفترة الحرجة لا بدّ أن يسير الفكر الديني ، والسياسي ، والاقتصادي ، والاجتماعي على وفق ما يحقق نصرة الإسلام ، والمسلمين ، أو بمعنى آخر : لا بدّ أن تتحقق التعبئة العامة في كل الميادين من أجل أن تنهياً لما حدث ، هذا الاضطراب المفاجئ يحتاج إلى سياسة تتفق مع حجمه ، وهدفه كي يتحقّق الردّ المناسب ، فإن لم يتحقّق الردّ المناسب ؛ تتجه الأمور نحو الهاوية ، أو المصير المجهول الذي يهدم كل ما بُني ، وأريد له الاستمرار ، ولهذا نجد : أن ردّ أبي بكر في أول متغير تعرّض له بعد خلافته يتماشى مع الزمن الذي ظهر فيه ، بمعنى : أن الحزم الذي نهجه أبو بكر في أمر الردّة ، ومانعي الزكاة يتناسب مع المرحلة التي ظهرت فيها ، فهذه الأحداث جاءت بعد وفاة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، في وقت حرج يتطلب فيه الوقوف بحزم ، لكن هذا الحزم يجب أن يتماشى مع الرسالة الإسلامية التي أرادها الله تعالى ، ورسوله الكريم ﷺ . ولنستمع إلى ما دار من حديث بين عمر بن الخطاب ، وأبي بكر : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ فَمَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ ، وَحِسَابُهُ

عَلَى اللَّهِ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ ، وَالزَّكَاةِ ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ ! وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَقَلاً كَانُوا يُؤْذُونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ ! فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ ، فَعَرَفْتُ : أَنَّهُ الْحَقُّ <sup>(1)</sup> . إِنْ مَا قَامَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ فِي هَذَا الْأَمْرِ فِي وَقْتِ اخْتِلَافِ إِيْمَانِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ ، وَاخْتَلَفَتْ آرَاءُ الصَّحَابَةِ فِي قِتَالِهِمْ ، وَلَمْ يَتَزَلَزَلْ أَبُو بَكْرٍ ، وَصَمَّمَ عَلَى قِتَالِهِمْ ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى رَدَّاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَكَانَ قِتَالُ أَبِي بَكْرٍ لِهَؤُلَاءِ بَدَايَةَ النِّهَايَةِ لِمُلُوكِ الْفَرَسِ ، وَغَيْرِهِمْ ، وَبَدَايَةَ لِفَتْحِ الْإِسْلَامِي ؛ الَّذِي أَنْبَلَجَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

إِنْ فِتْرَةُ حَكْمِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - تَخْتَلِفُ عَنْ فِتْرَةِ حَكْمِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، ذَلِكَ : أَنَّ الْمَتَغْيِرَاتِ فِي حَكْمِ أَبِي بَكْرٍ تَخْتَلِفُ عَنِ الْمَتَغْيِرَاتِ فِي حَكْمِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَالْمِمَاثِلَةُ بَيْنَ الْعَصْرَيْنِ غَيْرَ مُتَحَقِّقَةٍ ، ذَلِكَ : أَنَّ الْمَتَغْيِرَاتِ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ لَمْ تَتَحَقَّقْ فِي أَيِّ عَصَرٍ مِنَ الْعَصُورِ الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَهُ ، فَالَّذِي وَقَعَ فِي أَيَّامِ أَبِي بَكْرٍ يَعُدُّ مِنَ الْأُمُورِ الْكُبَارِ ، وَهِيَ : إِنْفَازُ جَيْشِ أَسَامَةَ ، وَقِتَالُ أَهْلِ الرَّدَّةِ ، وَمَا نَعِيَ الزَّكَاةَ ، وَمُسَيْلِمَةَ الْكُذَّابِ ، وَغَيْرِهِ مِنْ مَدَّعِيِ النُّبُوَّةِ .

أَمَّا فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْهُ كَانَتِ الْمَتَغْيِرَاتُ أَكْثَرَ شُمُولاً وَاتِّسَاعاً ، فَقَدْ تَجَاوَزَتِ الرِّقْعَةُ الْجُغْرَافِيَّةُ الَّتِي تَرَكَهَا أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ ، فَكَانَتِ الْفَتْوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي صَاحِبُهَا دَخُولُ مَتَغْيِرَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي الشَّأْنِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ ، وَيَقِفُ عَلَى رَأْسِ الْهَرَمِ مِنْ هَذِهِ الْمَتَغْيِرَاتِ الْإِمْتِزَاجُ الَّذِي اتَّضَحَتْ مَعَالِمُهُ فِي عَنَصَرَيْنِ مُهِمَّيْنِ ، وَهُمَا الثَّقَافَةُ ، وَالْحَضَارَةُ ، هَذِهِ الْمَتَغْيِرَاتُ غَيَّرَتِ الصُّورَةَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْمَجْتَمَعُ الْعَرَبِيُّ الْمُسْلِمُ إِلَى صُورَةٍ جَدِيدَةٍ أَكْثَرَ انْفِتَاحاً عَلَى الْآخِرِ ، حَتَّى نَجِدُ : أَنَّ مِنْ نَتَائِجِ هَذَا الْإِمْتِزَاجِ مَقْتَلُ

(1) صحيح مسلم ، ج 1 ، ص 38 .

الخلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد كان على يد فارسي ، وهو أبو لؤلؤة فيروز ، ولم يكن بيد عربي ، كما أن مقتل الخلافة عمر بن الخطاب يمثل صورة من صور الصراع الذي لم يتحقق قبل ذلك ، مما يفضي إلى فتح صفحة جديدة في تاريخ الدولة الإسلامية يؤرخ فيها لبداية صراع ثقافي ، وحضاري . ومن الجدير بالقول : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقب بأمير المؤمنين إلا أنه موضوعاً هو أقرب إلى أن يُطلق عليه لقب الخلافة بناءً على اختيار أبي بكر الصديق بأن يكون خليفة له .

أما خلافة ذي النورين عثمان بن عفان ففيها كثير من المتغيرات ، ومن أهم هذه المتغيرات هو انفتاح الخلافة عثمان بن عفان على أقربائه ، فكان يقربهم إليه ؛ إذ كان ينظر إلى الأمور من باب : الأقربون أولى بالمعروف . مما نتج عن ذلك قبول لدى بعض المسلمين ، ورفض لدى بعضهم الآخر ، الأمر الذي أحدث نوعاً من الخلاف الذي هباً لحدوث انقسامات حادة بين المسلمين بعد ذلك .

أما زمن سيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فكان زمناً متعدد التغيرات في صورة مترامية الأطراف تنطق بحال الأمة الإسلامية ، فقد كانت البداية لصراع طويل ، ومرير بين أقطاب عدة نظرت لأفكار لم يتحقق فيها السند الشرعي الذي تركه رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ومن أولئك الأقطاب معاوية بن أبي سفيان ، والخوارج ، والشيعة ، فضلاً عن ذلك التعصب الذي بدت بذوره بالنمو ، والظهور على السطح .

وقد كانت خلافة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - تمثل الباب الذي خرج منه كل التأويلات ، والانحرافات المختلفة التي مهّدت لبداية مرحلة جديدة من مراحل الحكم الإسلامي في صورة لم يألفها المسلمون طوال السنوات التي أعقبت وفاة رسول الله ﷺ .

ومع أن لكل فترة من الفترات السابقة معطياتها الخاصة ، وكل هذه الفترات كانت ضمن فترة زمنية وجيزة ، فما بالك بالمتغيرات التي تدخل على

السيادة ، أو السلطة ، أو الخلافة خلال فترة زمنية طويلة .

أما في العصر الحديث فقد ظهر الصدام الحضاري ، والصراع بين الدول الكبرى ، والصغرى ، والصدام بين الدول الكبرى من أجل التهام الدول الصغرى ، وهذا الأمر استوجب مناهضة الاستعمار ، والوقوف بوجهه ، ولهذا نجد : أن المعطيات أظهرت حكم الملك ، والطاغية ، والأمير ، والرئيس ، والزعيم ، والحزب الواحد ، والطائفية ، وحكم الأسرة ، لذا عبر التاريخ لكل مبرراته .

ويظل الحق باقياً لكل من يتعلق الأمر به ، ولن ينتهي الصراع ، أو الصدام إلا إذا كان الأمر بين الناس شورى في كل ما يتعلق بهم من أمر .

ومن العلماء العرب الذين كتبوا عن الخلافة ابن خلدون ، فهي عنده « نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين ، وسياسة الدنيا به ، تسمى : خلافة ، وإمامة ، والقائم بها خليفة ، وإماماً . فأما تسميته إماماً ؛ فتشبيهاً بإمام الصلاة في أتباعه ، والافتداء به ، ولهذا يقال : الإمامة الكبرى . وأما تسميته خليفة ؛ فلكونه يخلف النبي في أمته ، فيقال : خليفة بإطلاق ، وخليفة رسول الله . واختلف في تسميته خليفة الله ، فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للأدبيين في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ وقوله : ﴿ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ . ومنع الجمهور منه ؛ لأن معنى الآية ليس عليه ، وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به ، وقال : « لست خليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله ﷺ » . ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب ، وأما الحاضر ؛ فلا » (1) .

فاستخدام مصطلح ( خليفة ) جاء خطأ ، فالخليفة لابد أن يكون هناك من استخلفه ، والرسول ﷺ لم يستخلف أحداً بعده باتفاق أغلب المسلمين ، يقول تعالى : ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ »

(1) مقدمة ابن خلدون ، ج 1 ، ص 97 .



أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾ ، هذه الآية الكريمة تبين : أن الاستخلاف كان من قبل موسى ﷺ لأخيه ، فلما أراد موسى ﷺ الذهاب إلى ميقات ربه ، استخلف أخاه هارون مكانه ؛ ليتولى مهامه في بني إسرائيل بالإصلاح ، وعمل الخير ، وبعدم اتباع طريق المفسدين . لذا فإن تسمية أبي بكر خليفة رسول الله مسألة فيها نظر ؛ لأنه لم يصح : أن رسول الله ﷺ نصَّ على خلافته فهو ليس خليفته وإنما هو خليفة الله في الأرض بما تهيأ له من طاعة الله ، والقيام بأمر إعمار الأرض .

ففي أي شيء يخلف الخليفة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ؟

هل يخلفه في الرسالة ؟

أم يخلفه في المهمة ؟

أم في أي شيء يخلفه ؟

وما الصلاحيات التي يملكها ؟

جاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - مبشراً ، ونذيراً ، وداعياً إلى الله تعالى ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴿٢﴾ . ومحرضاً ، يقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ﴿٣﴾ . وفضلاً عن ذلك فإن الرسول ﷺ أسوة حسنة ، يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

(1) الأعراف ، 142 .

(2) الأحزاب ، 45-47 .

(3) الأنفال ، 65 .

لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿١﴾ .

وقبل البحث في هذه التساؤلات يمكن القول : إن الخلافة الإسلامية هي نظام من الحكم يسير وفق نسقٍ متحققٍ من الكتاب ، والسنة ، وذلك ضمن قراءة متفحصة للنصوص جميعها دون قطيعة مع أي نص قد يتعارض مع النفس ، والهوى .

كما أن وفاة الرسول ﷺ أظهرت أمراً مهماً ألا وهو بداية الخلاف الإسلامي حيث كان المسلمون عند وفاة رسول الله على منهاج واحد في أصول الدين ، وفروعه غير من أظهر وفاقاً ، وأضمر نفاقاً ، وأول خلاف وقع منهم اختلافهم في موت النبي ﷺ فزعم قوم منهم : أنه لم يمت ، وإنما أراد الله تعالى رفعه إليه كما رفع عيسى ابن مريم ﷺ إليه وزال هذا الخلاف ، وأقر الجميع بموته حين تلا عليهم أبو بكر الصديق قول الله لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ﴿٢﴾ وقال لهم : من كان يعبد محمداً ؛ فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد رباً محمداً ، فإنه حي لا يموت . ثم اختلفوا بعد ذلك في موضع دفن النبي فأراد أهل مكة رده إلى مكة ؛ لأنها مولده ، ومبعثه ، وقبلته ، وموضع نسله ، وبها قبر جده إسماعيل ﷺ . وأراد أهل المدينة دفنه بها ؛ لأنها دار هجرته ، ودار أنصاره ، وقال آخرون بنقله إلى أرض القدس « (٢) وبعد هذا الخلاف تحقق الاتفاق بالرجوع إلى أقواله ﷺ . قال أبو بكر الصديق : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض » . فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي عليه ، فحفر له تحته « (٣) .

وبعد دفن رسول الله ﷺ عرفنا من خلال النص السابق : أن الأمة

(1) الأحزاب ، 21 .

(2) الفرق بين الفرق ، ج 1 ، ص 12 .

(3) هذا النص جزء من حديث برقم 3234 رواه البيهقي في دلائل النبوة ، ج 8 ص 413 .

اجتمعت على أن يكون أبو بكر خليفة للمسلمين ، وهنا نفتح آفاق البحث في الخلافة المتحققة ضمن نصين يحيلان إلى رسم صورة الخلافة وفق انقطاع زمني متحقق ألا وهو في حياة الرسول ﷺ وبعد موته ، النص الأول هو قوله تعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (1) . من جملة ما ورد في سياق الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ وذلك في الأمور « التي تحتاج إلى استشارة ، ونظر ، وفكر ، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية ، والدينية ما لا يمكن حصره :

**منها :** أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله .

**ومنها :** أن فيها تسميحاً لخواطريهم ، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث ، فإن من له الأمر على الناس إذا جمع أهل الرأي ، والفضل ، وشاورهم في حادثة من الحوادث ؛ اطمأنت نفوسهم ، وأحبوه ، وعلموا : أنه ليس بمستبد عليهم ، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع ، فبدلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته ، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم ، بخلاف من ليس كذلك ، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة ، ولا يطيعونه ؛ وإن أطاعوه فطاعة غير تامة .

**ومنها :** أن في الاستشارة تنور الأفكار ، بسبب أعمالها فيما وضعت له ، فصار في ذلك زيادة للعقول .

**ومنها :** ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب ، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله ، وإن أخطأ ، أو لم يتم له مطلوب ؛ فليس بملوم ، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ ( وهو أكمل الناس عقلاً ، وأغزرهم علماً ،

(1) آل عمران ، 159 .

وأفضلهم رأياً ) : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ فكيف بغيره ؟ ! « (1)

أما النص الثاني فهو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (2) وإذ كانت الشورى مفضيةً إلى الرشد ، والصواب ؛ فمن أفضل آثارها : أنه اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام ؛ إذ أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان . وأيُّ أمر أعظم من أمر الإيمان ؟ ! فالشورى هنا تدخل في سياق الانفتاح غير المقيّد على زمنٍ بعينه بل هي تتجاوز الحدود الزمنية ؛ لتبقى أداةً مهمة من أدوات القوة الإسلامية (3) .

والربط الذي عمدناه بين أمر الشورى ، والخلافة هو اعتقادنا : أن الخلافة ليست بالمنصب الرسمي كما صُورت ، إنما هي أمر تحقق وفق سياق أحال إليه القرآن الكريم ؛ كي تستمر الرسالة الإسلامية بالمنهاج الذي أراده الله تعالى . وعلى هذا : فالخلافة تنفيذ ما جاء به الله تعالى لرسوله بعد انقطاع الوحي ، وعلى هذا ينزل مصطلح الخلافة إلى مرتبة الخلافة البشرية بوصف أبي بكر واحداً منهم . فضلاً عن ذلك : إن الأنبياء ، والرسل استظلُّوا بمظلة الكمال ، ومن بعدهم استظل بالعلائق الاجتماعية ، ونظم الدولة ، والصراع السياسي .

والخلافة إنما يُعرف وجوبها بالشرع ؛ لأن أصحاب رسول الله عند وفاته بادروا إلى بيعه أبي بكر ، وتسليم النظر في أمورهم إليه ، ثم استخلف أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - واستخلف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من قبل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فيما يتعلق بالحياة السياسية والاجتماعية للدولة يُعدُّ استخلافاً من بشرٍ لبشر ، فلا يعد أمراً

(1) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 154 .

(2) الشورى ، 38 .

(3) التحرير والتنوير ، ج 13 ص 139 .

مطلقاً مما يستوجب البيعة من قبل الذين يتعلّق الأمر بهم .

أما عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد جعل الخلافة بعده شورى ، فعَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ : أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - خَطَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَذَكَرَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ قَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ دِيكَأً نَقَرَنِي ثَلَاثَ نَقَرَاتٍ ، وَإِنِّي لَا أَرَاهُ إِلَّا حُضُورَ أَجَلِي ، وَإِنَّ أَقْوَاماً يَأْمُرُونَنِي أَنْ أَسْتَخْلِفَ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيُضَيِّعْ دِينَهُ ، وَلَا خِلَافَتَهُ ، وَلَا الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ فَإِنْ عَجَلَ بِي أَمْرٌ فَالْخِلَافَةُ شُورَى بَيْنَ هَؤُلَاءِ السَّتَّةِ الَّذِينَ تُوفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ « (1) . إِنَّ تحقق الشورى على عهد عمر بن الخطاب يعكس أمراً مهماً ألا وهو : أن المتغيرات التي حصلت في عهده ساهمت بطريقة ، أو بأخرى في تحقق الشورى ، ذلك أنها وجدت الأرض الخصبة ، فالاستقرار ، والاطمئنان مهّداً لأن تتحقق الشورى (2) .

وكذا في كل عصر بعد ذلك ، ولم يُترك الناس فوضى في عصر من العصور ، واستقرّ ذلك إجماعاً دالاً على وجوب تنصيب الخليفة . وقد ورد في القرآن والحديث كثيرٌ من النصوص التي تدعو إلى طاعة أولي الأمر ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (3)

وفي الحديث الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَنَّهُ قَالَ « مَنْ أَطَاعَنِي ؛ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِي ؛ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمْرِي ؛ فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَى أَمْرِي ؛ فَقَدْ عَصَانِي » (4) .

(1) صحيح مسلم ، ج 2 ، ص 81 .

(2) العواصم من القواصم ، ج 1 ص 74-75 .

(3) النساء ، 59 .

(4) صحيح مسلم ، ج 6 ، ص 13 .

وغير ذلك من الأحاديث التي وردت في هذا الصدد ، فالبيعة يجب أن تتحقق حتى تُؤدَّ الفتنة ، فيذهب شرُّ كثيرٍ يبرأ منه العباد ، وتسير الدعوة الإسلامية سيراً يتناسب مع ما يراد منها ، وهذا ما تحقَّق جلياً في بيعة عثمان بن عفان ، رضي الله تعالى عنه .

وفي هذا السياق نجد : أن الخليفة لم يترك دون شروط ، بل وضعت له شروط تحدد مهامه ؛ إذ يشترط في الخليفة جملة شروط ، كُلُّها تلتقي في تحقيق كفايته للنهوض بأعباء هذا المنصب الخطير على الوجه المرضي لله تعالى ، والمحقق لمصلحة الأمة . وهذه الشروط هي :

**أولاً :** أميناً ، فهي صفة عظيمة لا بدَّ من تحقيقها ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۚ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ۝ ﴾ (1) هذه الآية ترسم صورة الذي يتولَّى أمر الناس ، فيحفظ ما يُستحفظ لديه ، ويعلم بوجوه التصرف فيه ، فمن خلال ذلك يكون الخليفة ماضياً في أحكام الله تعالى ، وإقامة الحق ، وبسط العدل .

**ثانياً :** مؤمناً بالأمر الذي أوْتَمَنَ عليه .

**ثالثاً :** أن يكون حكيماً في التصرف في الأمور العظيمة .

**رابعاً :** حريصاً على أموال الناس ، فلا يبذر ، ولا يسرف ، ويعطي كل ذي حقَّ حَقَّهُ .

**خامساً :** تقيّاً يخاف الله تعالى في القول ، والفعل ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ ﴾ .

**سادساً :** محققاً للحق ، ومزهقاً للباطل .

**سابعاً :** قادراً على أداء الواجب ، وممكناً من أدائه .

(1) يوسف ، 54 ، 55 .

**ثامناً : قادراً على ممارسة الحقوق ، وممكناً من ممارستها .**

**تاسعاً : قادراً على حمل المسؤولية ، وتحملها .**

والقراءة المتمعنة في التاريخ العربي قبل الإسلام ، وبعده تشير إلى أن الإسلام رتب أمور الأمة الإسلامية وفق صيغة واضحة يراد لها السير ضمن نسقٍ أوجده الإسلام ، فلا يمكن أن تعود الأمور كما كانت قبل الإسلام ضمن تشكّل متفرق إلى قبائل متطاحنة متفرقة ، فالحالة الإسلامية حالة جديدة تلملم المتفرق ، والبعيد ، وتنظمه بنظام يجمعهم وفق سياقات مختلفة تصب في إيجاد الصورة التي أريد لها أن تتحقق ، ألا وهي التوحد الكامل تحت راية : ( لا إله إلا الله محمد رسول الله ) ، فنجد ذلك واضحاً في كل المشاهد التي كان يديرها رسول الله ﷺ . من ذلك معركة بدر ، ومعركة أحد ، ومعركة الخندق ، فضلاً عن ذلك صلح الحديبية الذي يعدُّ صورة واضحة لنظرة المتبصّر بإدارة الأمور بين الناس .

ولهذا فولاية الأمر أمرٌ لا بدّ من تحقيقه بعد وفاة رسول الله ﷺ من أجل أن تستمرّ الدعوة الإسلامية ، وتنتشر في مشارق الأرض ، ومغاربها ، فهذه هي رسالة الإسلام التي لا بدّ لها من التحقق .

فالخلافة الراشدة يمكن القول عنها : إنها كانت نسقاً ترابطياً مطرداً يجمع بين الصفتين : الدينية ، والسياسة ، فهي تهدف إلى حراسة الدين ، وسياسة الدنيا ، ولهذا كان الخليفة إماماً للمسلمين في صلاتهم ، وأميراً لهم في جهادهم ، ورئيساً لهم في إدارتهم ، وشؤونهم ، وبالجملة صاحب الولاية العامة عليهم ، يجمع في شخصه كلّ السلطات ، ويفوض ما يشاء إلى من يشاء . كما يجمع في شخصه أيضاً صفات الحاكم المسلم العادل الذي يحكم بالشورى ، ويستظل بأحكام القرآن وسنة النبي ﷺ ويرعى إدارة تلك النفوس التي اختارته ، أو بايعته ، وسلمت له مصالحها العامة .

يُعدُّ الأنبياء ، والرسل - عليهم الصلاة والسلام - من المستخلفين بأمر الله

تعالى ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) وقوله تعالى : ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (2) بناء على ما جاء في هذه الآية الكريمة لا حكم إلا بين الناس ، ولذا علينا أن نفرق بين ( حكم الناس ) وبين ( الحكم بين الناس ) :

**الأولى :** أن يتم حكم الناس كما يشاء الحاكم .

**والثانية :** أن يتم الحكم بينهم كما هم يرتضون ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (3) ، ذلك لأن العدل مُرَضٍ لكل الناس ، وهذه الآية الكريمة تؤكد على أن الحكم بين الناس ، ولا تأتي بما يشير إلى حكمهم ، ولذا فالذين يحكمون بين الناس بالعدل هم الخلفاء بارتضاء الناس الذين قال فيهم تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (4) .

**وعليه فالخليفة العادل :** هو الذي بحكمه العدل يصلح الأرض ، ولا يفسد فيها ، ولا يسفك دماً بغير حق ، ولهذا جاء قوله : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ولم يقل : ( إذا حكمتكم الناس ) . فالحمد لله على استخلافه لنا في الأرض ، وأمره بالعدل بيننا !

ولذا كان استخلاف داود في الأرض ليحكم بين الناس بالحق : ﴿ يَدَاوُدُ ۖ

(1) البقرة ، 30 .

(2) ص ، 26 .

(3) النساء ، 58 .

(4) البقرة ، 30 .



إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ ﴿١﴾ . وقد يتساءل البعض : ما هي القاعدة التي أسس عليها حكم داود واستخلافه في الأرض ؟

**أقول :** العدل ، وإلا هل هناك من يظن في غير ذلك ، والله تعالى يقول : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ وإلا هل هناك من يظن في أن الحكم بين الناس بالحق لا عدل فيه ؟ !

**أقول :** لا عدل إلا بالحق ، أي : لولا الحق ما كان للعدل وجود .

**وقد يتساءل آخر :** هل يمكن أن يكون الحكم بين الناس بغير عدل ؟

**أقول :** في دائرة الممكن قد يتم الحكم بين الناس باتباع الهوى الذي نهى عنه الله تعالى في قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾ .

**وقد يقول قائل :** بما أن الحكم بين الناس في دائرة الممكن قد يميل بالهوى كما يميل الحاكم للناس ، وإذا ما حدث ذلك ؛ فلا يكون الفرق بين ( حكم الناس ) وبين ( الحكم بينهم ) .

**أقول :** الفرق كبير بين من يحكم الناس ، وبين من يحكم بينهم ، فالذي يحكم الناس يكون الأمر كل الأمر بيده ، والذي يحكم بين الناس يكون الأمر كل الأمر بيد الناس مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (1) .

وفي فترة الرسالة كان الأمر بين الناس مؤسساً على الشورى ، التي تعني فيما تعني : أخذ الرأي بعد تبيان الأمر ، واستيضاحه مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (2) ، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ ﴾ كما يقول ابن منظور : « تعني : استخرج آراءهم » (3) أما الشيخ الشعراوي ؛ فيقول : « فالمشورة هي تلقيح

(1) الشورى ، 38 .

(2) آل عمران ، 159 .

(3) تفسير الجلالين . بيروت : دار الفكر ، ص 94 .

الرأي بآراء متعددة» (1) . ولذلك يستوجب ممارسة الشورى في الأمر . والأمر هو ، كل ما يتعلّق بالإنسان من حقوق ، وواجبات ، ومسؤوليات ، سواء أكان هذا الأمر سياسة داخلية ، أم خارجية ، أو كان هذا الأمر في حالة السلم أو في حالة الحرب ، وسواء كان اقتصاداً أو علاقات اجتماعية ، ولذلك في الآية السابقة يخاطب الله عزّ وجلّ رسوله الكريم ، ويلزمه بالمشاركة في الأمر ، أي : وكأنه يقول : في وجودك يا رسول الله لا ينبغي أن تقرر أيّ شيء يتعلق بالناس نيابة عنهم ، بل ما يتعلق بهم من أمر يجب أن تكون فيه في حالة شورى معهم ، ولذلك جاءت الآية : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ موجهة إلى رسول الله ﷺ لتبيّن له أهمية المشاركة في الأمر مع الذين يتعلّق الأمر بهم .

وفي حالة ما لم يكن الرسول ﷺ معهم يصبح الأمر بينهم شورى ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (2) . إذاً بكل وضوح : إن الأمر الذي يتعلق بالناس في فترة الرسول ﷺ كان في حالة شورى بين الرسول ، والآخرين الذين يتعلّق الأمر بهم . أما من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلّق بهم شورى ، يقررون ما يشاؤون فيه ، وينفذونه كما يشاؤون ، ولهذا لا ينبغي أن يتقدم أحد لينوب عن الناس فيما يتعلق بهم من أمر ، بل عليهم بمن يحكم بينهم بالعدل إذا ما اختلفوا في الأمر .

وكلمة ( أُمْرُهُمْ ) ، تتكون من جزأين هما : ( أُمْرٌ ) ، و ( هُمْ ) ، فالأمر هو ما سبق تبيانه ، أما ( هم ) فجاءت مطلقة أي : كل من هم على علاقة ارتباط مع الأمر ، وهذا يعني : لا وجود في الممارسة الديمقراطية بالمفهوم الفكري الإسلامي لأقلية ، وأغلبية ، بل الوجود لكل دون استثناء ، وكلمة : ﴿ يَنْهَاهُمْ ﴾ الظرفية تعني : أن يقتصر أمر الشورى على الذين يعينهم

(1) محمد متولي شعراوي ، تفسير الشعراوي . القاهرة : أخبار اليوم ، المجلد الثالث ،

ص 1840 .

(2) الشورى ، 38 .

الأمر فقط ، ولا مكان لغير ذلك في المشاركة الديمقراطية ، ولتأكيد هذا الاختصار قال عز وجل : ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ ، ولم يقل : بين ( الحاكم ، والمحكومين ) ، أو بين السادة ، والعبيد ، أو بين المسؤول ، وغير المسؤول .

**وعليه :** لا أمر يجمع الناس إلا وأن يكون بينهم مصداقاً لقوله تعالى : في آيات متعددة في سبع سور من القرآن الكريم ، هي :

- 1 - قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (1) .
- 2 - قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (2) .
- 3 - ﴿ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُذًا وَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (3) .
- 4 - ﴿ إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (4) .
- 5 - ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ ﴾ (5) .
- 6 - ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (6) .

(1) البقرة ، 213 .

(2) البقرة ، 224 .

(3) آل عمران ، 140 .

(4) النساء ، 58 .

(5) النساء ، 105 .

(6) النساء ، 114 .

7 - ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّكَ إِنْ ﴿١﴾ .

وبناء على ما ورد في الآيات الكريمة السابقة فإن الحكم بين المستخلفين فيها لا يكون إلا بين الناس فيما يجمعهم من أمرٍ على قاعدتين :

1 - إحقاق الحق .

2 - إقامة العدل .

ولذلك أرسل الله تعالى أنبياءه إلى الناس يبشرون من أطاعه تعالى ، بالخير ، وحسن الثواب ، وينذرون بالعقاب ، والعذاب من خالف أوامره ، وكذب رسله ، وذلك لكي لا يبقى لمعتذر عذر ؛ إذ يقول تعالى : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (2) هذه هي المهمة التي حملها الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، فهم متساوون في هذه المهمة ، إلا أنهم ينقسمون على قسمين : فمنهم عبد رسول ، ومنهم نبي ملك ، وقد خير الله سبحانه محمداً ﷺ بين أن يكون عبداً رسولاً ، وبين أن يكون نبياً ملكاً ، فاختر أن يكون عبداً رسولاً ، فالنبي الملك مثل داود ، وسليمان ﷺ قال الله تعالى في قصة سليمان الذي قال : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (3) فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39) وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفًا وَحُسْنَ مَكَابٍ ﴿ (4) وسياق الآيات هنا يبين العطاء الذي يتمتع به سليمان ﷺ ، فأعط من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه ، ويترك ما حرم الله عليه ، ويتصرف في الولاية ، والمال بما يحبُّه ، ويختار من غير إثم

(1) ص ، 26 .

(2) النساء ، 165 .

(3) ص ، 35-40 .

عليه ، وأما العبد الرسول فلا يعطي أحداً إلا بأمر ربه ، ولا يعطي من يشاء ، ويحرم من يشاء ، بل يعطي من أمره ربه بإعطائه ، ويولي من أمره ربه بتوليته ، فأعماله كلها عبادات لله تعالى . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إني والله لا أعطي أحداً ، ولا أمنع أحداً ، إنما أنا قاسم ، أضع حيث أمرت » (1) . ولهذا يضيف الله الأموال الشرعية إلى الله ، والرسول ، كقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (2) وقوله تعالى : ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (3) وقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتْحِ أَجْمَعِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (4) .

**ولهذا كان أظهر أقوال العلماء :** أن هذه الأموال تصرف فيما يحبه الله ، ورسوله بحسب اجتهاد ولي الأمر كما هو مذهب مالك ، وغيره من السلف ، ويذكر هذا رواية عن أحمد ، وقد قيل في الخمس : إنه يقسم على خمسة ، كقول الشافعي ، وأحمد في المعروف عنه ، وقيل : على ثلاثة ، كقول أبي حنيفة (5) رحمهم الله .

ويعد النبي يوسف ﷺ من الأنبياء الملوك ، فقد توجت نهاية حياته بمرکز يتناسب مع المؤهلات التي وهبها الله تعالى له ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (6) قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ

(1) صحيح البخاري ، ج 3 ، ص 1134 .

(2) الأنفال ، 1 .

(3) الحشر ، 7 .

(4) الأنفال ، 41 .

(5) أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ج 1 ، ص 20 .

خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظُهُ عَلَيْهِ ۖ (1) طلب الملك أن يكون يوسف عليه السلام خالصاً له ، لا يشاركه فيه أحد ، وهذا كناية عن شدة اتصاله به ، والعمل معه . وقد دلّ الملك على استحقاق يوسف عليه السلام وتقريبه منه ما ظهر من حكمته وعلمه ، وصبره على تحمّل المشاق ، وحسن خلقه ، ونزاهته ، فكل ذلك أوجب اصطفاؤه . واقترح يوسف عليه السلام ذلك إعداداً لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل ، والكمال من ارتياح نفوسهم للعمل في المصالح ، ولذلك لم يسأل مالا لنفسه ، ولا عَرَضاً من متاع الدنيا ، ولكنه سأل أن يوليه خزائن البلاد ليحفظ الأموال ، ويعدل في توزيعها ، ويرفق بالأمة في جمعها ، وإبلاغها لمحالها (2) .

إن صورة النبي الملك المتحققة في سليمان ، ويوسف عليه السلام تتعلق بأمر الخلافة الذي نحن بصددده ، ذلك : أن الأنبياء الملوك لم يستخلفوا أحداً بعدهم ، فهذه المقاربة لا تتقاطع مع أمر الخلافة الذي نعتقد بأنه ليس بالمنصب المتحقق من استخلاف ، وإنما يكون الاختيار ، والاصطفاء للأنبياء ، والاختيار ، والشورى لمن أطلق عليهم خلفاء بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وآله . فمصطلح الاستخلاف لم يتحقق عند كل من الأنبياء الملوك ، ولا لمن جاء بعد النبي محمد صلى الله عليه وآله .

فالنبي سليمان ، ويوسف عليه السلام لم يستخلفا أحداً بعدهم ، وهما في منصب الملك المتوقع منه أن يستخلف أحداً بعده .

أما قوله تعالى : ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصْلُونَنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ۖ ﴾ (3) لم يرد ذكر الخليفة في غير موضع آدم عليه السلام إلا في هذا الموضع ، فالخطاب هنا كان مع النبي داود عليه السلام ، وقبل استبطان

(1) يوسف ، 54-55 .

(2) التحرير والتنوير ، ج 7 ، ص 284 .

(3) ص ، 26 .

الخطاب ، ومعرفة تشكيلاته المختلفة لا بدَّ بدايةً من تحديد المقصود من لفظة ( خليفة ) في الآية الكريمة ، فالخليفة « هو الذي يخلف غيره في عمل ، أي : يقوم مقامه فيه ، فإن كان مع وجود المخلوف عنه ؛ قيل : هو خليفة فلان ، وإن كان بعدما مضى المخلوف ؛ قيل : هو خليفة من فلان . والمراد هنا : المعنى الأول بقرينة قوله : ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ فالمعنى : أنه خليفة الله في إنفاذ شرائعه للأمة المجمعول لها خليفة مما يوحي به إليه ، ومما سبق من الشريعة التي أوحى إليه العمل بها . وخليفة عن موسى عليه السلام وعن أحبار بني إسرائيل الأولين المدعويين بالقضاة ، أو خليفة عمَّن تقدَّمه في الملك ، وهو شاول » (1) . هذه الآراء المختلفة المتعلقة بتوجيه معنى الخلافة في الآية كلها تحيل إلى أمرٍ واحد هو أن الله تعالى هو الذي يستخلف الأنبياء بأنبياء غيرهم في الصورة التي ذكرها تعالى في قوله : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا نَذِيرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) وإن ذهب بعض التفاسير إلى تجاوز الاستخلاف إلى غير الأنبياء .

**وعليه :** إن الخلافة لم تتحقق من نبي إلى نبي ، أي : لم يستخلف أي نبي بعده نبياً ، فلم يرد في النص القرآني أيُّ إشارة إلى هذا الأمر إنما جعل الله تعالى أمر الاستخلاف بيده مطلقاً ، أما ذكر لفظة الخلافة مع داود عليه السلام ، فإننا نعتقد : أن السياق القرآني الذي ورد فيه لفظ ( خليفة ) يحيل إلى أن أمر الخلافة ليس بالأمر الهين ، فبه تتعلق أعظم الأمور ، ألا وهو : الحكم بالعدل الذي لا بد أن يتحقق من الخليفة ، فإن لم يتحقق منه العدل ؛ لا تتحقق معه رسالة السماء التي يؤمر بها ، فيحدث التناقض الذي يزيد الظلم ، ويضعف الحق ، ويفضي إلى وقوع الهرج ، والمرج في الخلق ، ويتحقَّق الهلاك ، والفساد في كل المجالات ، وبذلك يخرج من دائرة الخلافة التي يُراد منها الإصلاح ، لا الإفساد .

(1) التحرير والتنوير ، ج 12 ، ص 215 .

(2) المؤمنون ، 44 .

وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات عدّة تتحدث عن المهاجرين والأنصار في صورة تتبين فيها القاعدة العظيمة التي تشكل منها الإسلام ، فالمهاجرون ، والأنصار صورة الإسلام الأولى التي تجلّت ، وحققت ما يُراد منها بإخلاصٍ وصدقٍ ، وأمانة ، ولهذا نجد : أن الله تعالى أثنى عليهم في كثير من المواضع ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (1) . وقال تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (2) . وقال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَعُضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (3) . وقال تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (4) . وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (5) . وقال تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّفَقَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (6) . وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (7) . وقال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا

(1) التوبة ، 100 .

(2) الفتح ، 18 .

(3) الحجرات ، 3 .

(4) الزمر ، 18 .

(5) البقرة ، 157 .

(6) الفتح ، 26 .

(7) الفتح ، 4 .



سِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾ . سمحت نفوسهم - رضي الله عنهم - بالنفس ، والمال ، والولد ، والأهل ، والدار ، ففارقوا الأوطان ، وهجروا الإخوان ، وقتلوا الآباء ، والإخوان ، وبذلوا النفوس صابرين ، وأنفقوا الأموال محتسبين ، وناصبوا من ناوأهم متوكلين ، فأثروا رضا الله على الغنى ، والغربة على الوطن . هم المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم ، وأموالهم ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون حقاً ، ثم إخوانهم من الأنصار ، أهل المواساة والإيثار ، أعز قبائل العرب جاراً ، واتخذ الرسول - عليه الصلاة والسلام - دارهم أمناً ، وقراراً ، يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) فمن انطوت سريرته على محبتهم ، ودان الله تعالى بتفضيلهم ومودتهم ، وتبرأ ممن أضمر بغضهم ؛ فهو الفائز بالمدح الذي مدحهم الله تعالى به ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) . فالصحابة - رضي الله عنهم - هم الذين تولى الله شرح صدورهم ، فأنزل السكينة على قلوبهم ، وبشرهم برضوانه ورحمته ، فقال : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٤) جعلهم خير أمة أخرجت للناس ، يأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويطيعون الله ورسوله ، فجعلهم مثلاً للكتابين ؛ لأهل

(١) الفتح ، ٢٩ .

(٢) الحشر ، ٩ .

(٣) الحشر ، ١٠ .

(٤) التوبة ، ٢١ .

التوراة ، والإنجيل ، خير الأمم أمته ، وخير القرون قرنه ، يرفع الله من أقدارهم ؛ إذ أمر الرسول ﷺ بمشاورتهم لما علم من صدقهم ، وصحة إيمانهم ، وخالص مودتهم ، ووفور عقلهم ، ونبالة رأيهم ، وكمال نصيحتهم ، وتبين أمانتهم ، رضي الله عنهم أجمعين (1) !

من هنا نقول : إن أمر الخلافة أمر مفتوح ؛ أي : ليس محدداً على شخص بعينه ، وهذا ما نلمس تحققه ضمن سياق التعريف الذي نطق به المهاجرون ، والأنصار في استدعاء النصوص القرآنية التي تشيد بهم ، وبسماتهم العظيمة .

فالأنبياء كان لبعضهم خلافة خاصة ، الخلافة الخاصة فيها خاصة الخاصة كالنبي محمد ﷺ فقد خصّه الله برسالة لعموم الناس ( الكافة ) .

كما يمكن أن تكون الرسالة السماوية برسولين ، وهي في الوقت نفسه موجهة إلى أمة واحدة في زمن واحد ، وهذا ما تحقق في رسالة موسى وهارون ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ (٤٥) قَالَ لَا نَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (٤٦) فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِيبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا أَتَّبِعَ أَهْدَى ﴾ (2) أما بالنسبة للخلافة ؛ فلا يتحقق فيها هذا الأمر ، فلم نسمع : أن خليفتين جلسا للخلافة مجتمعين في مجلس واحد وعلى كرسي واحد .

وعلى مدى أربعة عشر قرناً من وفاة الرسول ﷺ طرحت كثير من التساؤلات حول الخلافة ، والشخصيات التي توالى عليها ، والنسق الذي بدأ بأبي بكر ، ومن ثم عمر بن الخطاب ، ومن ثم عثمان بن عفان ، ومن ثم علي بن أبي طالب ، فقد يتساءل البعض :

لم لم تبدأ الخلافة بعلي بن أبي طالب ، ففي حقه كثير من الآيات ،

(1) تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة لأبي سعيد الأصبهاني ، ج 1 ، ص 1 .

(2) طه ، 45-47 .

والأحاديث النبوية التي رسمته رجالاً اجتمعت فيه كثير من الصفات التي تؤهله لأن يكون خليفةً للمسلمين ، إذاً ما الذي دفعه أن يبايع أبا بكر الصديق ؟ ففي هذا الموقف يمكن القول : إن علم سيدنا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ومعرفته الحققة لفضل أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - جعله يبايع أبا بكر ، رضي الله عنه ، وإلا ؛ لما توانى عن الوقوف بوجهه . وكلامنا في هذا السياق هو استدعاء لأقوال كثيرة تكررت في البحث عن افتراضات لم يكن لها أن تتحقق وفق أفكار جاءت متأخرة أرادت أن تقلب الحقائق المتحققة فيما تريد أن تحققه نظرياً .

وهكذا نقول : لو أن الرسول ﷺ أوصى بالخلافة لأبي بكر الصديق ؛ لجاز للبعض أن يصفه بخليفة رسول الله ، وحينها تكون توصية أبي بكر باستخلاف عمر بن الخطاب من بعده صورة مكررة للخلافة ؛ إذ يجوز أن يقال لعمر بن الخطاب بأنك خليفة خليفة رسول الله ، ولكن الذي حدث : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يسم بعده خليفة ، لذلك لا يجوز أن يقال له : خليفة رسول الله ؛ حتى وإن قبلنا بالمسمى الذي أطلق عليه بأنه خليفة رسول الله ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (1) وقوله تعالى : ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِّمَّقَتٍ رَبِّهِ أَزْبَعِيكَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (2) ، وكان أبو بكر الصديق يرفض لقب ( خليفة الله ) فعن ابن أبي مليكة ؛ قال قيل لأبي بكر : يَا خَلِيفَةَ اللَّهِ ! فَقَالَ أَنَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا رَاضٍ بِهِ ، وَأَنَا رَاضٍ بِهِ ، وَأَنَا رَاضٍ (3) . وفي خطاب المنادي لأبي بكر الصديق ( يا خليفة الله ) ، نحن نعتقد : أن المنادي

(1) ص ، 26 .

(2) الأعراف ، 142 .

(3) مسند أحمد ، ج 1 ، ص 63 .

مدرك لما يقول استناداً على قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ فضلاً عن ذلك : إنه يرى في أبي بكر صفات الخليفة التي يريدّها الله تعالى في الأرض ، كما أن سيدنا أبا بكر متيقن أن لا خليفة لله تعالى مع أنه يرى من المستخلفين فيها ، وأمره الآن يتعلق بما بعد رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، فكيف يمكن أن يكون الاستخلاف من بعده ؟ وعليه لقد وضح أبو بكر مقصده في الحديث السابق : ( نحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ) .

وهكذا كانت الخلافة الإسلامية بكل تفاصيلها صورة معبرة عن الواقع الذي تحقق بعد وفاة الرسول ﷺ . إنه امتحان للأمة جمعاء ، قادهم إلى التفكير ، والتبصر ، والتأمل ، والاجتهاد ، ولانعدام النص الذي يلغي كل اجتهاد ، فالمراحل الأربع للخلافة الراشدة صور مختلفة لتحقيق التأمير المراد على الأمة الإسلامية ، فكل صورة من صور التأمير يرسم فيها الواقع الذي انبثقت منه ، وهذه الصور هي حتمية التكرار إن تحققت فيها الدوافع الحقيقية لبناء دولة الإسلام التي يريدّها الله تعالى ، ورسوله الكريم ﷺ .

**بناء على ما تقدم أقول :**

**أولاً :** لا يخلف الرسول إلا رسول .

**ثانياً :** لا يخلف النبي إلا نبي .

**ثالثاً :** لا رسول ولا نبي إلا واصطفاه الله تعالى .

**رابعاً :** لا رسول إلا برسالة من عند الله .

**خامساً :** لا نبي إلا نبأ من عند الله .

**سادساً :** من يصطفيه الله يسمى رسولاً ، أو نبياً ، أو الاثنين معاً ، ومن يصطفيه الناس لا يسمى ، ولا يلقب ، ولا ينادي بذلك حيث لا شريك له في الملك فهو الذي يؤتي النبوة ، والحكم لمن يشاء مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ <sup>(1)</sup> ، وقال تعالى :

(1) البقرة ، 105 .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومَ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (2) ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (3) .

### وعليه أقول :

من يقول عن أبي بكر - رضي الله عنه - : أنه خليفة رسول الله ؛ فقد أخطأ للأسباب الستة السابقة الذكر .

أبو بكر الصديق هو صاحب رسول الله ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ثَانِيًا أَتَيْنَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ (4) . ولذلك فالفرق كبير بين من يصطفيه الله تعالى ، وبين من يختاره الناس ، فالرسول ﷺ اصطفاه الله جل جلاله ليلبغ الرسالة التي اصطفاه من أجلها للناس كافة ، وأبو بكر اختاره بعض من الناس لإدارة شؤونهم ، ولذا لا مجال للمقارنة ، ولا يجوز القول : إن للرسول الكريم خليفة ، ولذا فأمر الرسل أمرٌ إلهي ترتبط فيه السموات والأرضون بعلاقات يكون الرسل والأنبياء خير منذرين ، ومبشرين ، ومحرضين عليها ، ولذا فهم الفاعلون للخيرات ، والأفعال الحسان ، وهم الوارثون والمستخلفون في الأرض من الله تعالى .

(1) البقرة ، 247 .

(2) آل عمران ، 179 .

(3) آل عمران ، 26 .

(4) التوبة ، 40 .

الرسول لا يخلفه إلا رسولٌ من عند الله : نوح ، وإدريس ، وإبراهيم ، ويعقوب ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، وعيسى ، ومحمد خلفاء في الأرض لكلٍّ منهم رسالة ، أو نبأ عظيم ، وغيرهم من الرسل السابقين على محمد الخاتم كثر منهم من قصَّه الله علينا ، ومنهم من لم يقصص ، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَكَ بِشَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (1) ، ونحن المسلمين نصلي ، ونسلم عليهم ، ولا نفرق بين أحدٍ من رسله تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (2) .

أبو بكر - رضي الله عنه - صاحب رسول الله ، وهو الصديق معه ، وله ، وهو خير من اختيار لإدارة الأمور في البلاد من بعد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه . ونحن لا اعتراض لنا على المسمى ( الخليفة ) ولكن لنا اعتراض على أن يكون أحدٌ خليفة لرسول الله ، ولهذا قلنا : الرسول لا يخلفه إلا رسول من بعده ، ولأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ؛ فلا رسول من بعده ، ولا أحد يأتي من بعده ليقوم مقامه ، ولكن من أتى من بعده هم الذين تم اختيارهم لإدارة شؤون البلاد ، مما يجعل رسالاتهم دنيوية ؛ حتى وإن كانوا من الطائعين ، ولا تقارن بالرسالات السموية التي يصطفى لها المرسلون ، صلوات الله وسلامه عليهم .

الرسل - صلوات الله عليهم - لا يدعون إلا لأمر من الله تعالى ، والذين من غيرهم ؛ وإن التزموا وهم مؤمنون بما أمر الله تعالى أن يقال ، أو يفعل ، فهم يحكمون بما يرون مجتهدين في إدارة شؤون العباد الذين لا يستوون في مطالبهم ، ورؤاهم ، وحاجاتهم ، وعاداتهم ، وانتماءاتهم ، وأعرافهم ، ومعتقداتهم ، ومطامحهم التي تتباين من مجتمع لمجتمع ، ومن شعب لآخر

(1) غافر ، 78 .

(2) البقرة ، 136 .

مما يجعل الحكم بين الناس يستوجب العدل ؛ ليكون الجميع أمام القوانين ، والدساتير الوضعية ، والنظم التي تؤسس الدول عليها . ونحن المسلمين حتى لا تكون الفرقة ، والفتنة ؛ فلنا في رسول الله الأسوة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (1) ، وهكذا كل من يتبع الرسل من قبله كانت لهم ، ولنا الأسوة الحسنة في إبراهيم عليه السلام والذين معه : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ (2) . وبالرغم من وجود الأسوة الحسنة إلا أن العصاة هم الكثرة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (3) .

﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (4) .

﴿ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (5) .

﴿ أَكْثَرُهُمْ لَفَسِقِينَ ﴾ (6) .

﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (7) .

﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (8) .

﴿ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ (9) .

(1) الأحزاب ، 21 .

(2) الممتحنة ، 4 .

(3) البقرة ، 100 .

(4) الأنعام ، 37 .

(5) الأنعام ، 111 .

(6) الأعراف ، 102 .

(7) يونس ، 60 .

(8) العنكبوت ، 63 .

(9) الروم ، 42 .

﴿ فَأَعْرِضْ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (1) .

ولذا فالأسوة الحسنة مثال يقتدى به في القول ، والفعل ، والعمل ،  
ولهذا فخير خليفة هو من آمن بالله ، والرُّسل ، ولا يفرق بين أحدٍ منهم ،  
ويصلح في الأرض ، ويعمر فيها ، ولا يُفسد شيئاً منها ، ولا يسفك دماً بغير  
حق ، وإذا حكم بين الناس يحكم بالعدل ، ولا يتبع إلا الحق .





## الرسل والأنبياء بين الخصوص والعموم والكافة

أنبياء ورسل الخاصة :

النبي بصفة عامة : مخبر عن ربه نبأً عظيمًا ، يهدف إلى تغيير في المجتمع على صعيد من الأصعدة ، قال الله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ <sup>(1)</sup> عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿لَذَلِكَ فَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ مَا جَاءَ النَّبِيُّ لِيُخْبِرَ بِهِ بِالنَّبَأِ الْعَظِيمِ .

والنبي يكون مرسلاً برسالة ذات شريعة ، وأحكام ، أو يرسل برسالة رسول آخر على شريعته يدعو إلى ما دعا إليه ، يرشد الناس إلى الحق الذي اختلفوا فيه ، أو بدلوه ، ليعالج نقصاً ما طرأ على المجتمع .

ومن هنا يمكن لنا أن نقسم الأنبياء ، والرسل إلى :

- رسل كافة :

يتوجهون إلى كافة الأجناس يستهدفون سائر الأماكن ، والأزمان ، ويعالجون الكليات على مستوى الخلق جميعاً ، كسيدنا آدم ، وسيدنا نوح ، وسيدنا محمد ، عليهم الصلاة والسلام .

فسيدنا آدم كان للكافة (المحدودة) التي في عصره ، والمتمثلة في :

أ - أبنائه ؛ لينظم لهم أمور الحياة في الأرض .

(1) النبأ ، 1-2 .

ب - تنظيم العلاقات بين الإنسان ، والمحيط الذي يعيش فيه .

فقد كان آدم أول رسول ينبيئ الملائكة ، ولا تنبئه الملائكة ؛ لأنه هو الذي علمه الله ، وأرسله إلى الجميع من دون واسطة ملك من الملائكة ، فهو لم يوح إليه عن طريق ملك ؛ لأن علمه من الله بالفطرة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ تعليم من الله ليعلم غيره من المخلوقات : الملائكة ، والجن : ﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (1) .

- وليعلم ذريته : أن الله خلق الإنسان لأمرٍ عظيم على هذه الأرض ، وهذا هو ( النبا العظيم ) الذي أرسل به ، وله .

- تنظيم العلاقات البيئية ( بين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان والأرض ) ، فقد كان أحد أبنائه راعياً ، والآخر مزارعاً ، كما علمهما أبوهما آدم ﷺ ، وكان الله قربان يتقرب به الإنسان ، وهذا من شريعة ذلك الوقت ، فيتقبل الله من الصالح لصدق نيته ، وحسن قربته ، ولم يتقبل من الآخر لسوء نيته ، وسوء قربانه ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ (2) .

والمدقق في بداية الآيات : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ فالخلاف على قبول القربان لا على الزواج كما هو شائع ، وهذا هو الحق الذي جاء به القرآن .

(1) البقرة ، 33 .

(2) المائدة ، 27-29 .

كما أن من الشريعة المعمول بها : أن القاتل في النار ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاُ الظَّالِمِينَ ﴾ . فلم يكن هناك قصاص ؛ لأن قدمي الإنسان لم تثبتا بعد على الأرض ، فقد قتل نصف ذرية آدم من الذكور فإن اقتصر من الآخر ؛ ذهب الذرية الموجودة في ذاك الوقت ، وهذه الشريعة كانت مناسبة لتلك الحقبة الأولى من حياة البشر على الأرض ، وآدم بهذه الكيفية نبي الكافة الموجودة .

وكذلك سيدنا نوح كلفه الله بالحفاظ على العقيدة الصحيحة ( لا إله إلا الله ) فجمع من يعتقد ذلك الاعتقاد حقاً مع زوجين اثنين من كافة المخلوقات الحيّة ؛ لتعمر الأرض على معتقدي سليم ، ومنهج قويم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (1) ، والقليل المؤمن هذا هو الذي كان الكافة بعد الطوفان ، وهذا القليل لم يكن اثنين بالطبع مثل المخلوقات التي حملها في السفينة بل كان عدداً قليلاً بالنسبة إلى العدد الكلي في عصره الذي أرسل إليهم .

وقوله عن سيد الخلق محمد ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (2) والعالمون الذين أرسل إليهم سيدنا محمد ﷺ هم ما نرى ، وما لم نر ، ونعتقد : أنهم ليسوا عالم الإنس ، والجن لأنهما عالمين ( مشئى ) أما العالمين ( جمع ) وشئان بين المشئى ، والجمع !

### - ورسل عامة :

يعالجون قضايا عامة في أماكن متسعة لها من التأثير على غيرها ؛ بحيث إذا حدث التغيير المرجو في هذا المكان حدث التغيير نفسه على عامة الأماكن ؛ وإن لم يذهب إليها نبي العامة ، و مثال لهذا النوع سيدنا إبراهيم

(1) هود ، 40 .

(2) الأنبياء ، 107 .

فقد أرسل بشكل أساسي إلى بؤر مؤثرة في المكان ، والزمان ، والمجتمع مع وجود أنبياء من أنبياء الخاصّة في عصره ، يعالجون قضايا محدودة في المكان ، والزمان ، ك : لوط ، وإسماعيل ، ومن البؤر التي أرسل إليها سيدنا إبراهيم عليه السلام :

### البؤرة الأولى : العراق :

فقد كانت تعبد الأوثان من دون الله ، وكانت حجة إبراهيم العقل ؛ لأنها الوسيلة الناجعة معهم ، فحاورهم بمنطق الحوار السليم ، فأفحم سدنة الأصنام ، وعلى رأسهم أبوه ، وأبهرت من يحكمهم ، فأما مخاطبة قومه فقد كانت ذات مستويين :

أولاً : حوار قولي : الحجة بالحجة ، والرأي بالرأي .

ثانياً : حجة عملية فعلية .

### - الحجة القولية :

قال الله عنها : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴿٥٧﴾ (١) ، فالقول هنا سيد الموقف بين الطرفين ، ولما توقف الحوار القولي ؛ لجأ نبي الله إلى دعامة تدعم الحجة القولية ، فلجأ إلى الحجة الثانية ، وهي :

### - الحجة العملية :

وذلك بفعل يبرهن به على صدق قوله ، فحطّم الأصنام لثبت لهم أنها لا تنفع نفسها ؛ فكيف تنفع غيرها . قال الله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا

(1) الأنبياء ، 51-57 .

كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ (1)

وأفحم من يحكمهم ، وادّعى : أنه إله من دون الله ، كما إنَّ هذا الحاكم لم يؤمن بأن هناك إلهاً غيره ، وهنا تكمن عموم رسالة سيدنا إبراهيم ؛ إذ إنه لما فرغ من عامة الناس ، وخاصتهم توجه إلى رأس الدولة ، وأبهته بحجة العقل التي آتاها الله إياه ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (2) .

وبالحجة السليمة يرفع الله أقواماً ، ويخفض آخرين ، ويهدي إلى سواء السبيل بالقول السليم ، والفعل السليم ؛ لأن أساسهما حجة تهدف للإصلاح ، لا الإفساد ، قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (3) .

### البؤرة الثانية : مصر :

حيث تزوج منها السيدة هاجر التي أنجبت ابنه البكر سيدنا إسماعيل ، واللدان سيكونان في محور الأرض ومركز العالم ( مكة ) قال الله تعالى :

(1) الأنبياء ، 58-67 .

(2) البقرة ، 258 .

(3) الأنعام ، 83 .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (1) .

### البؤرة الثالثة : الشام :

حيث مستقر نبي الله إبراهيم مع السيدة سارة ، وابنه إسحاق عليه السلام ، وما سيتبع ذلك من أنبياء عموم ، وخصوص من بني إسرائيل في الشام ، وما حوله من أقاليم .

فمن حيث جمع الخصوص يتأتى العموم ، فالعراق خصوص ، ومصر خصوص ، ومكة خصوص ، والشام خصوص ، وجمع الخصوص عموم .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام نبي عموم لوجود نبي آخر في عصره كان يعالج قضية خاصة ، وهو سيدنا لوط عليه السلام .

إذا فبمجموع الخصوص يكون العموم ، وباشتمال الخصوص ، والعموم يكون النبي للكافة ، مثل سيدنا آدم ، ونوح ، ومحمد ، عليهم الصلاة والسلام .

لذا فأنبياء الخاصة يتفقون مع أنبياء العامة ، والكافة من حيث الرسالة ، فرسالة الأنبياء جميعاً واحدة ، وهي معرفة الله ، وعبادته ، وإعمار الأرض ، وإقامة العدل ، وعدم الفساد ، ولكن أنبياء الخصوص يعالجون قضايا خاصة تكون في مكان ، ولا تكون في مكان آخر ، فيلزم لها نبي لهذا الخصوص مع إمكانية وجود نبي ، أو أنبياء آخرين في أماكن متنوعة لإصلاح ما فسد من أخلاق ، ومعاملات .

وينقسم أنبياء الخصوص انقساماً تعدد لا اختلاف من حيث العدد ، والمكان ، والزمان ، والمجتمع لأداء رسالاتهم :

(1) إبراهيم ، 37 .

### - الخاصة عدداً :

**الخاصة الفردية :** وهم أنبياء الكافة ، أو أن يكون نبي واحد في قومه ، كسيدنا محمد ، ونوح ، وآدم عليهم السلام .

**وغير الفردية :** وهم أنبياء العموم ، والخصوص .

- **الخاصة مكاناً :** في مكان بعينه لا يتخطاه ، كسيدنا يونس .

- **الخاصة زماناً :** كهارون ؛ إذ خلف موسى في قومه .

- **الخاصة أخلاقياً :** كسيدنا لوط .

- **الخاصة اقتصادياً :** كسيدنا شعيب .

- **الخاصة تشريعياً :** كسيدنا عيسى جاء على شريعة موسى .

**وعليه :** فالخاصة الفردية بكون نبي واحد في عصره لجماعة خاصة ، ومن هؤلاء الأنبياء : إسماعيل ؛ إذ بعث لقومه فقط من المستعربة أبنائه ، والعرب من قبيلة جرهم التي عاشت في جوار زمزم تبعاً لاتفاقية أبرمتها السيدة هاجر ، ومع ذلك لا يمتنع أن يكون هنا نبي للعامة في ذات الزمان لا لنفس المكان الذي فيه نبي الخاصة ، إبراهيم ، وإسحاق كانا موجودين في عصر إسماعيل ، ولكن إسحاق للخاصة لبنيه ، وإبراهيم للعامة كما بينا .

وقد ذكر الله من أنبياء الخاصة في كتابه الكريم تحت عنوان : ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ﴾ خمس مرات : أربعاً لأنبياء ، والخامسة عدداً والأولى ذكراً : ( السيدة العذراء ) مع أنها غير نبيّة ، ولكنها قد تحمّلت من المشقة ما جعلها أن كرمها الله بالذكر مع الأنبياء . وسنتبع هذا الذكر ؛ لنلقي الضوء على القضية التي عالجها كل نبي من أنبياء الخصوص ، ثم نتبع باقي الأنبياء في ذات المجال حسب ورود ذكرهم في الكتاب الكريم :

- **العذراء عليها السلام :**

ومن القضايا التي عالجتها :

وذلك يجيب على تساؤلات منها :

## هل المرأة تتساوى في الدين مع الرجل ؟

هل للمرأة الحق في ممارسة الشرائع الدينية في المعبد؟

أم أن هذا الدور محصورٌ على الرجال ؟

2 - التحول من التسليم بالماديّ النسبيّ إلى الإلهي المطلق :

هل العلاقة بين الإنسان والكون علاقة مادية بحتة ؟

هل هناك قوانين يمكن أن تحلّ بدلاً من القوانين المعمول بها على الأرض؟

هل كل شيء في الأرض في دائرة المطلق ، أم أنّ كل شيء نسبي ؟

إذا كان الممكن المتوقع يمكن أن يحدث ( كحالة أن يرزق زكريا ولداً بعدما بلغ من الكبر عتياً ) ، فهل من المتوقع أن يحدث غير الممكن ، وغير المتوقع ؟

أتلد أنشي من غير ذكر؟

هل سيتحمل العقل القابع في ظلّ قوانين النسبي التحول إلى المطلق ؟

هذه القضايا ، وغيرها قد عالجتها حالة السيدة العذراء ، وعددٌ من أنبياء  
الخصوص عاصرتهم ، وعاصروها .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿١٦﴾ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٧﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَكُنْ تَقِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَآيَةٍ لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢٢﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ



بِهِ مَكَانًا فَصَبِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّوَدَّهَا ﴿٢٣﴾ فَادَّهَمَهَا مِنْ تَحَنُّهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحُكَّ سَريًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ (1) .

- هذا الذكر شديد الارتباط بالمسيح ﷺ فقد كانت الأمة التي ظهرت فيها العذراء لا تجعل دوراً للمرأة في العبادة ، وفي خدمة بيت الله (المعبد) ، وتغيير هذا المتعارف عليه عند اليهود لابد وأن يحدث على يد العذراء لتبرهن : أن عبادة الله ، وخدمته لبنى آدم : الذكر ، والأنثى لا لنوع دون نوع ، وباب العبادة مفتوح على مصراعيه للجميع .

ولهذا كانت لمريم من المعجزات الآتية في زمنها ، والمستقبلية ما يبهت عقول الأذكياء ، ويحير ألباب العلماء ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ غَمَزَنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَو كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ (2) .

### وفي الآيات من الخصوصيات :

1 - النذر لخدمة الله ؛ إذ لا يقتصر ذلك الدور على الرجل من دون المرأة : ﴿ إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ غَمَزَنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وقد كان القبول من الله ؛ لأنه ربُّ الذكر ، والأنثى ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ فَالذكر ، والأنثى

(1) مريم ، 16 - 25 .

(2) آل عمران ، 35-37 .

(3) الليل ، 1-7 .

متساويان في العبادة والتكاليف إلا ما ذكره الله في الميراث ، وغير ذلك ، وقد كانت مريم الأنثى الأولى التي ستدخل المعبد مع رجال الدين ، وسيصطفوها الله بنداء الملائكة ، والتطهير . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٢) يَمْرَيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿ (1) .

2 - التعلق بأسباب الله المطلقة لا بقوانين الأرض النسبية التي نعيش عليها ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرَيْمُ أَنَّى لِيَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وقد أجرى لها ما أجرى من الرزق الذي انعدمت أسبابه الدنيوية ، ليتغير مفهوم نبي الله زكريا بأن الأسباب بيد خالقها ، وأن القوانين بيد صانعها ، فالله يرزق من يشاء بغير حساب من زرع ، وحصاد ، ومواسم ، ويعطي الذرية بغير سبب ، وأنه يمنح من يعبد ما لا يتصور : أنه سيحدث استناداً على القوانين الأرضية ، وقد كان هذا تهيةً لها في حملها بعيسى عليه السلام لأنها قد قبلت من البداية : أن الله يرزق بغير أسباب .

وقد تحقق مع السيدة العذراء الآتي :

- وقوع الممكن غير المتوقع :

فقد خدمت العذراء في بيت الله . ﴿ فَاقْبَلْهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ (2) .

ولد لزكريا غلام ذكر ، وذلك لوجود الأب ، والأم مع انتفاء أسباب الذرية .

وقد رزق زكريا غلاماً ، وهذا ممكن متوقع يقع في دائرة النسبية ، وقد

(1) آل عمران ، 42 ، 43 .

(2) آل عمران ، 37 .

سأل الله إياه عندما رأى غير الممكن وغير المتوقع لما عاين معاينة يقين الرزق يأتي العذراء بغير أسباب ، وقد ذكر ذلك في موضعين يرتبان الأحداث :

1 - حدوث غير الممكن ، وغير المتوقع .

2 - طلب حدوث الممكن غير المتوقع .

﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) .

فلما رأى نبي الله زكريا غير الممكن ، وغير المتوقع طلب حدوث الممكن غير المتوقع ، قال الله تعالى : ﴿ كَهَيْعَتِ ٱلَّذِى ذَكَرْتَ رَبُّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا ۚ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۚ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱسْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۚ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوْلَىٰ مِن وَرَآءِى وَكَأَنِّى ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِّى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۚ يَرْثِى وَيَرِثُ مِنِّى ۖ ٱلْعَاقِبَةُ ٱلَّتِى هِىَ ٱلْحَقُّ وَٱلْحَقُّ رِزْقٌ مِّن رَّبِّ رَاضِيًّا ۚ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يُحْيَىٰ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۚ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَأَنِّى ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۚ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَـٔىٔ ۚ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۚ ﴾ (2) ، ثم حدث وقوع غير الممكن ، وغير المتوقع في حالات ثلاث ، وما زلنا في انتظار حدوث الرابع ، مع إيماننا بأنه سيحدث :

1 - ميلاد المسيح من غير أب : ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّ سِنِى بِشَرٍّ وَلَمْ أَكُ بِغِيًّا ۚ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَـٔىٔ ۚ وَلِنَجْعَلَ ٱلْآيَةَ لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَأَنَّا ٱمْرَأَةٌ مَّقْضِيًّا ۚ ﴾ (3) .

2 - نطق المسيح في المهد : قال الله تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنْتَبَذَتْ بِهِ ۚ ﴾

(1) آل عمران ، 37 .

(2) مريم ، 1-9 .

(3) مريم ، 20-21 .

مَكَانًا فَصَبَا ۖ ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَّنْسِيًّا ۖ ﴿٢٣﴾ فَادَّهَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحِيَّكَ سَرِيًّا ۖ ﴿٢٤﴾ وَهَزَى إِلَيْكَ جِذْعَ النَّخْلَةِ فُسْقُطٌ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۖ ﴿١﴾ .

3 - أن يكون النبي نبياً منذ طفولته : كما في حالتي يحيى ، وعيسى ﷺ قال الله تعالى عن يحيى : ﴿ يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحَكَمَ صَبِيًّا ۖ ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۖ ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالَدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۖ ﴿١٤﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۖ ﴿٢﴾ .

فلم يكن نبي صبياً قبل ذلك ، ثم أن يكون نبي في المهد فهذا من غير الممكن ، وغير المتوقع على المستوى النسبي . قال الله تعالى : ﴿ فَآتَتْ بِهِ ۖ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَمْرِئٌ لَّغَدٍ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۖ ﴿٢٧﴾ بِتَأْخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۖ ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۖ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَنَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ ﴿٣٥﴾ .

مع انتظار الرابع غير الممكن وغير المتوقع على المستوى النسبي المادي البشري ، وهو ممكن ، ومتوقع لمن آمن بالله مطلقاً ، وأنه واحدٌ أحدٌ ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وذلك عند عودة المسيح بعد رفعه حياً إلى السماء .

فالمؤمن بالله إيماناً مطلقاً ، وأنه قادر على كل شيء ، ويؤمن حقاً : أن الله لا إله إلا هو واحد لا شريك له يقر بأن المسيح سيكون له ذرية لا يقدر

(1) مريم ، 22-25 .

(2) آل عمران ، 12-15 .

(3) مريم ، 27-35 .

عليها الشيطان ، وهذا في دائرة الممكن المتوقع على المستوى المطلق ، وغير الممكن المتوقع على المستوى النسبي لمن لا يؤمن بالله إيماناً كاملاً ، وحصر عقله في دائرة النسبية .

والأمر بالذكر في الكتاب الكريم جاء لنبي الله إبراهيم عليه السلام بعد العذراء ، وقد قلنا : إنه من أنبياء العموم ، ومعه في زمنه عدد من أنبياء الخصوص ك : لوط ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ثم جاء ذكر سيدنا موسى ، وهو من أنبياء العموم ، ومعه نبيان من أنبياء الخصوص وهما : سيدنا شعيب ، وهارون . قال الله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۖ ﴾ (1) .

فقد كان هارون نبياً له مهمة محددة ، وهي تصديق سيدنا موسى إجابةً لطلبه حين قال : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنْ يَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۖ قَالَ سَنُنْذِرُ عَصْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغٰلِبُونَ ۖ ﴾ (2) .

فقد كان هارون نبياً له مهمة محددة ، وهي تصديق سيدنا موسى ، وتبيين ما أنزل عليه لفصاحة لسانه : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ۖ ﴾ لما قال فرعون متهمكاً بنبي الله موسى : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ يُونُسَ ۚ ﴾ (3) .

ومن أنبياء الخصوص الذين قال الله فيهم للنبي محمد ﷺ سيدنا إسماعيل ، وهو جد النبي العربي لساناً ، ووطناً : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۖ ﴾

(1) آل عمران ، 51-53 .

(2) القصص ، 34-35 .

(3) الزخرف ، 52 .

إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٥﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٦﴾ (1) .

وقد كانت رسالة إسماعيل محددة في أهله ، فهي رسالة دعوة ، أمر بالصلاة ، والزكاة ، هذا بالإضافة إلى حلمه الذي ذكر في القرآن ، وطاعته لوالده في الله بقصة الذبح ، فقد قال الله عن سيدنا إبراهيم وإسماعيل : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ (2) .

وكان وجود إسماعيل في مكة تهيئةً للدعوة الكافة التي سيبعث بها سيدنا محمد ﷺ وتمثل ذلك في رفع القواعد من البيت ، وتوفير سبل الراحة لوفود الحج لبيت الله الحرام .

ومن الأنبياء الذين خصهم الله بالذكر نبي الله إدريس ، وكانت خصوصيته : أنه كان صديقاً يصدق ما جاء به آدم من قبله ، ونبياً بتعاليم آدم ﷺ . قال الله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ (3) .

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾ هو أخنوخ أول مرسل بعد آدم ﷺ ، وأول من خط بالقلم ، وخاط اللباس ، ونظر في علم النجوم ، والحساب ، واتخذ الموازين ، والمكاييل ، والأسلحة ، فقاتل بني قاييل . وقولهم : « سمي به ؛ لكثرة دراسته كتب الله » لا يصح ؛ لأنه لو كان « إفعيلاً » من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد ، وهو العلمية ، وكان منصرفاً ، فامتناعه من الصرف دليل العجمة . ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة . ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (3) .

(1) مريم ، 54 - 55 .

(2) الصافات ، 99 - 102 .

(3) مريم ، 56-57 .

عَلِيًّا ﷺ هو شرف النبوة والزلفى عند الله . وقيل : معناه : رفعته الملائكة إلى السماء الرابعة ، وقد رآه النبي ﷺ ليلة المعراج فيها . وعن الحسن : إلى الجنة ، لا شيء أعلى من الجنة ، وذلك : أنه حُب لكثرة عبادته إلى الملائكة ، فقال : لملك الموت أذقني الموت ؛ يهن عليّ ففعل ذلك بإذن الله ، فحيي ، وقال : أدخلني النار ؛ أزدد رهبة ، ففعل ، ثم قال : أدخلني الجنة أزدد رغبة ، ثم قال : اخرج ، فقال : قد ذقت الموت ، ووردت النار ، فما أنا بخارج من الجنة . فقال الله عز وجل : بإذني فعل ، وبإذني دخل ، فدعه (1) .

ومن أنبياء الخصوص رسلٌ خصهم الله بالذكر من دون الوحي ، وبالذكر والوحي ، وبالوحي :

قلنا : إن هناك أنبياء خصهم الله بالذكر ذكرناهم آنفاً ، وهم نوعان :

- 1 - أنبياء ذكر فقط من دون الوحي : سيدنا إدريس .
- 2 - وأنبياء خصهم الله بالوحي ، والذكر معاً : سيدنا إبراهيم عليه السلام خصه بالوحي ، والذكر ، وكذلك إسماعيل .
- 3 - وهناك أنبياء خصهم الله بالوحي فقط ، وهم : نوح ، وعيسى ، وأيوب ، ويونس ، وإسحاق ، ويعقوب ، وسليمان ، وداود ، ويوسف ، وهارون ، خصهم الله بالوحي ، ولم يخصهم بالذكر ، وخص سيدنا موسى بالذكر ، وزاد في خصوصيته بأن كلمه تكليماً .

وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (١٦٦) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٧) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ

(1) تفسير النسفي ، ج 2 ، ص 275 .

لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١﴾ .

- وسيدنا محمد ﷺ من أنبياء الوحي ، ولم يقل الله له : اذكر محمداً ؛  
لأن الذكر أنزل عليه ﷺ .

- ومن أنبياء الله أنبياء الوصية ، والكتب :

قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (2) .

أنبياء الوصية والكتب والصفحة والألواح :

- نوح ، وهو نبيُّ للكافة .

- إبراهيم نبيُّ للعموم .

- موسى نبيُّ للعموم .

- عيسى نبيُّ للخصوص .

- سيدنا محمد ﷺ نبيُّ للكافة .

والأنبياء الذين خصهم الله ( بالسلام والإحسان ) :

1 - ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ (٧٦) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ( نبيُّ كافة ) .

2 - ﴿ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ (١٢٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤﴾ ( نبيُّ للعموم ) .

(1) النساء ، 163-165 .

(2) الشورى ، 13 .

(3) الصفات ، 79-80 .

(4) الصفات ، 109-110 .



3 - ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ﴿١٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾  
(نبي للعموم ، وللخصوص ) .

4 - ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾ (نبي للخصوص )  
ونلاحظ هنا : أَنَّ نَبِيِّنَ فقط من أنبياء الخصوص فيمن خصهم الله  
بالسلام ، والإحسان ، هما : هارون ، وإلياس ، ونَبِيِّنَ للعموم :  
إبراهيم ، وموسى ، ونبياً للكافة سيدنا نوح - عليهم الصلاة والسلام  
جميعاً - فالكافة يجمعهم واحد ، والعموم ، والخصوص يتعدّدون .

ومن أنبياء الخصوص الذين لم يخصّهم الله بالذكر ، ولا الوحي ،  
ولا السلام ، وهم : هود ، وصالح ، وشعيب ، وإنما خصّهم بالأجر .

وأنبياء الله جميعاً اتفقوا في الأصل ، وتنوعوا في خصوصية الرسالة :

اتفقوا في الأصل ، وهو الدّعوة لعبادة الله الواحد الأحد ، مصداقاً لقوله  
تعالى عن سيدنا نوح ، وهو من أنبياء الكافة :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي  
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ .

وعن سيدنا هود ، وهو من أنبياء الخصوص : ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ  
يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَافُ مَفْتَرُونَ﴾ ﴿٤١﴾ .

وهذا ؛ لأن المعصية خاصة ، وتختلف من قوم إلى قوم ، ومن زمن إلى  
زمن ، ومن مكان إلى مكان ، والدعوة شاملة ، فالله واحدٌ أحدٌ في كل زمان  
ومكان .

(1) الصفات ، 120 - 121 .

(2) الصفات ، 130 - 131 .

(3) هود ، 25 - 26 .

(4) هود ، 50 .

### خصوصية المعصية ، وشمولية الدعوة :

**قلنا :** إن الدعوة تشمل الجميع في وحدة القصد ، والهدف ، وهو عبادة الله وحده ، وتأتي خصوصية الرسول بخصوصية الآفة التي في المجتمع ، ومن ذلك :

هود .

صالح .

شعيب .

لوط .

يوسف .

**هود :** تتمثل دعوته في خصوصية القوم ، فهو أرسل لقوم عاد الذين عبدوا أصناماً من دون الله ، فهو يتفق في الكليات (الدعوة لعبادة الله وحده) ويختلف في الخاص : القوم ، والزمان ، والمكان . قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَٰهٌ مُّفْتَرٍ ۚ ﴾ (٥٠) يَنْقُورِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ (١) .

فأجر الدعوة الكلية إلى الله من الله ، فلا يكافئ النبي على دعوته غير الله جل في علاه ، أما في الخصوص فنجاح النبي في دعوته لقومه يسدُّ ثغرة من ثغرات الآفات الدينية ، والأخلاقية التي تعرقل دور الإنسان على الأرض ، ولكن جحود قومه منعهم من الإيمان بالله ، وادَّعوا : أن دعوة هود لهم مرض

(١) هود ، 50-53 .

أصابه بسبب غضب صنم من أصنامهم ، فلم يدخلوا دائرة العبادة في زمنهم ، فاستحقوا التدمير ، والبتر من المجتمع الإنساني . قال الله تعالى : ﴿ إِن نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ إِلَهَيْنَا إِسْوَاءَ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٥٤) من دونه . فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴾ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (٥٩) وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿ (١)

**وصالح :** تتمثل دعوته في الدعوة إلى الكليات مع خصوصية قومه ثمود ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (٦١) قَالُوا يَصْلِحُ فَذْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ (٦٢) قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ هُمَا تَرِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴾ (٦٣) وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوَهَا تَأكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴾ (٦٧) كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودٍ ﴿ (٢)

فقد اتفق في الكليات ، واختلف في الجزئيات فقد بعث لنفس الأمر الكلي - اعبدوا الله وحده - وكانت خصوصيته إلى قومه ، وخصوصية معجزته

(1) هود ، 54-60 .

(2) هود ، 61-68 .

المتمثلة في الناقة التي عقروها ، فكان جزاؤهم البتر بعد أن لم يفد معهم أي طريق لردّهم إلى عبادة الله .

**وشعيب :** بعث في عصر نبي الله موسى ، وموسى نبي من الأنبياء أولي العزم ، وهو من أنبياء العموم ، ومعه أخوه هارون من أنبياء الخصوص ، وتمثلت خصوصية شعيب في الجانب الاقتصادي إضافة إلى الجانب الإلهي ، وهما من الكليات المرتبطة بالإيمان بالله تعالى :

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (١)

### خصوصية الدعوة :

ودائماً تأتي الخصوصيات بعد الكليات فالدعوة الخاصة تعقب دعوة النبي إلى عبادة الله وحده لأن الإيمان بالله أساس المعاملات فهي مترتبة عليه قال الله تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَتَقَوَّمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقَيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَ لَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ

(١) الأعراف ، 85-87 .

إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١﴾ .

- البتر من المجتمع جزاء المفسدين ، فلمَّا جحدوا ، ولم يؤمنوا ، وأفسدوا اقتصاد الناس بالغش ، والربا ؛ كانت النهاية بترًا من المجتمع .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿١٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴾ (2) .

**وتأتي خصوصية لوط :** في أنه أرسل لعلاج آفة أخلاقية استشرت في مجتمع بعينه مع التركيز على الكليات ، وكان عقاب قومه البتر من المجتمع الإنساني قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وضًا ق بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُهُمْ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ (3) .

**وخصوصية يوسف :** كانت اقتصاديةً لنجاة مصر ، ومن حولها من المجاعة ، وتولَّى قيادة مصر اقتصادياً لهذا الغرض . قال الله تعالى : ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (4) .

والأنبياء المذكورون في القرآن خمسة وعشرون ، والأنبياء هم :

(1) هود ، 84-88 .

(2) هود ، 94-95 .

(3) هود ، 77-81 .

(4) يوسف ، 55-56 .

- 1 - آدم ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] .
- 2 - إدريس ﴿ وَذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٦] .
- 3 - نوح ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُكْرًا ﴾ [النساء : ١٦٣] .
- 4 - إبراهيم .
- 5 - إسماعيل .
- 6 - إسحاق .
- 7 - يعقوب .
- 8 - يوسف .
- 9 - أيوب .
- 10 - يونس .
- 11 - موسى .
- 12 - هارون .
- 13 - داود .
- 14 - سليمان .
- 15 - زكريا .
- 16 - يحيى .
- 17 - عيسى ابن مريم .
- 18 - لوط .
- 19 - هود .
- 20 - صالح .
- 21 - شعيب .

- 22 - إلياس . ﴿وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص : ٤٨] .  
 23 - اليسع .  
 24 - ذو الكفل .  
 25 - محمد ﷺ .

واختلف العلماء حول اثنين ، هما :

- لقمان : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (1) . « واتفقت العلماء على أنه كان حكيماً ، ولم يكن نبياً إلا عكرمة ؛ فإنه قال : كان نبياً » (2) .  
 - عزيز ، الذي قالت اليهود عنه ( ابن الله ) . ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ (3) .

وعليه :

- 1 - أنبياء الكافة ثلاثة ( آدم ، ونوح ، وسيدنا محمد ) .
  - 2 - أنبياء العموم اثنان : ( إبراهيم ، وموسى ) .
  - 3 - أنبياء الخصوص : ( عشرون ) .
  - 4 - المختلف حولهم اثنان : ( لقمان ، وعزير ) .
  - 5 - التي ذكرت في سياق الأنبياء ( العذراء ﷺ وهي غير نبية ) .
- ونحن في هذا البحث لم نسرد سيرة ، بل تناولنا أفكاراً منبثقة عن أسس أرسل عليها الأنبياء ، والرسول .



(1) لقمان ، 12 .  
 (2) تفسير الخازن ، ج 5 ، ص 146 .  
 (3) التوبة ، 30 .





## رسل وأنبياء العموم

بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لَخَلْقِهِ كَيْفِيَّةَ عِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ عَنْ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَالرَّسْلِ لِمَنْعِ الْعُذْرِ ، وَإِسْقَاطِ الْحُجَّةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (1) .

لَقَدْ أُنْذِرَ اللَّهُ ، فَأَعْذَرَ ، حَتَّى لَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ عُذْرٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْتَذِرُونَ بِهِ قَائِلِينَ : لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا يَبِينُونَ لَنَا الشَّرَائِعَ ، وَيَعْلَمُونَنَا مَا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَيَنْبَهُونَنَا مِنْ سُنَةِ الْغَفْلَةِ ! فَكَانَتْ الرَّسُلُ بِسَبَبٍ مِنْ قُصُورِ الْكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ عَنْ إِدْرَاكِ جَزْئِيَّاتِ الْمَصَالِحِ ، وَعَجْزِ أَكْثَرِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِ كَلِّيَّاتِهَا .

فَهَذِهِ الْآيَاتُ هِيَ دَلَائِلُ عَلَى أَنَّ إِسْرَالَ الرَّسْلِ ، وَبَعَثَ الْأَنْبِيَاءِ الْخُصُوصَ ، وَالْعُمُومَ ، وَالْكَافَةَ هِيَ ضَرُورَةٌ لِلنَّاسِ ، وَنِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ ، وَرَحْمَةٌ بِهِمْ ، وَهِيَ أَيْضًا حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ فِي التَّبْلِيغِ ، لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (2) . فَقَدْ جَاءَ الْخُطَابُ شَامِلًا لِأَقْوَامِ الْخَاصِّ ، وَالْعَامِّ ، وَالْكَافَةِ ، وَهِيَ مُنْتَهَى الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ مِنْ وَجْهِهِ :

**الأول :** قوله : ( رسولاً ) جاءت نكرة ، فأفادت الشمول ، واستغرقت كلَّ من يعذَّب ، أو لا يعذَّب .

(1) النساء ، 165 .

(2) الإسراء ، 15 .

**الثاني :** الدعوة إلى الهدى ، والردع عن الضلال في إقامة الحجج ، وتمهيد الشرائع قطعاً للعذر .

**الثالث :** بعث الرسل واجب ، لا بمعنى الوجوب على الله ، وإنما بمقتضى حكمته ؛ لما فيه من المصالح للخلق .

ولذا فقد كان بعث الأنبياء ، والرسل العموم لحكمة ، وبحكمة .

أ - إرسالهم لحكمة ، لأنه تعالى يعلم : أن النفس أمارة بالسوء ، فتحتاج إلى من يقوّمها ، ويردّها إلى طرق الهدى ، وسبل الرشاد ، فكان إرسال الرسل لحكمة الله تعالى في مصلحة خلقه ، ومحبة لهم ، ورحمة ، ورأفة بهم ، وهذه المعطيات تتحقق عن طريق إرسال الرسل بالإيمان بالله تعالى ، وما جاء به المرسلون ، من الإيمان بالله ، وباليوم الآخر الذي يجازي فيه بالخير خيراً ، وبالشر شراً من حيث هو قانون في العدالة لا مثيل له ؛ بحيث يشمل العموم في دفع الإنسان إلى عمل الخير ، وتميز حكمه الله في هذا الأمر بأن الإنسان الذي يتبع ما جاء من عند الله عن طريق الرسل يحقق ما يلي :

1 - يهذب النفس من الداخل ، وينظم مشاعره وفق الأخلاق ، والقيم النبيلة ؛ لأن هذه الأمور هي حاجة عامة لا تقتصر على إنسانٍ دون آخر ، أو قومٍ دون قوم .

2 - يمكن الإنسان من حفظ نفسه في عدم الخروج على أحكام الله ؛ حيث لا مراقب إلا قناعة الإيمان .

3 - إنَّ عمل الخير الصادر عن النفس المؤمنة يكون عملاً متقناً باعتباره صادراً عن إرادة الإنسان في رغبته ، وليس مكرهاً عليه . وما تقدم فإنه لا يخص قوماً دون آخرين ، ولا شخصاً دون آخر ، وإنما يشمل جميع العموم لاتحاد النفس الإنسانية فيما تحبُّ ، وتكره ، وما ترغب ، وترفض من معطيات الحياة الدنيا .

ب - إرسالهم بحكمة ، وذلك يتمثل بأن الأنبياء والمرسلين هم من البشر ،

فمنهم للخصوص ، ومنهم للعموم ومنهم للكافة على فترات ، بحيث كلما ابتعد الناس عن طريق الحق ؛ أرسل الله رسولا يردهم إلى جادة الصواب ، قال تعالى : ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكَذِبُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ (1) .

ومن صفات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بحكمة الله تعالى : أنهم من البشر ، فهم يحتاجون لما يحتاج إليه البشر من المأكل ، والمشرب ، والملبس . قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (2) .

كما أن الأنبياء ، والرسل يصيبهم ما يصيب البشر من الأمراض ، ويأتيهم الموت كسائر الخلق ، فليس لهم من خصائص الربوبية ، والألوهية شيء ، ولكنهم بلغوا التمام في الخلقة الظاهرة ، كما بلغوا الذروة في الأخلاق ، وهم خير الناس نسباً ، ولهم من العقول الراجحة ، والألسن المبينة ما يجعلهم أهلاً لتحمل تبعات الرسالة ، والقيام بأعباء النبوة العامة .

### الحكمة من بعث الأنبياء والرسل العموم :

تظهر لنا الحكمة من إرسال الرسل بشراً بأن القدوة تتمثل في واحدٍ من جنسهم ، ومن ثم فإن اتباع الرسول ، والاقتداء به يكون في مقدورهم ، وضمن حدود طاقتهم ، غير : أن الله تعالى خصَّهم بالوحي دون بقية الناس ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ (3) وقد اختارهم الله ، واصطفاهم من بين سائر الخلق ؛ أي : من العموم إلى العموم لعلمه بهم ؛ حيث قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (4) ، فكانت الغاية من هذه الحكمة تتمثل في :

(1) المائدة ، 19 .

(2) الفرقان ، 7 .

(3) الكهف ، 110 .

(4) الأنعام ، 124 .

1 - إرسال الأنبياء ، والرسول لتعريف العموم بخالقهم الذي له حق العبودية عليهم ، لذلك كانت دعوتهم إلى عبادة الله وحده . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (1) . وهي دعوة العموم إلى الفرد الصمد ، ذلك : أن ( مَنْ ) تستغرق جميع الأفراد وإن كان كل فرد على حدة ، ( أيُّ أحدٍ يدعو مع الله إلهاً آخر ) فإن كان يدعو بتلك الدعوة دخل في عموم المدّعين ، وإن كان لا يدعو ؛ فقد خرج منهم ، ودخل في عموم المصدّقين ، غير أن الإتيان بالبرهان على الادعاء بإله آخر مطلوب منهم ، سواء أكانوا مجتمعين ، أم متفرقين ، ولذلك تكون هذه الدعوة باطلة من العموم ؛ حيث لا برهان لهم في ذلك ؛ لأن العقل والمنطق يقتضي : أن ما ليس له برهان ؛ لا يمكن إثباته ، وما لا إثبات له ؛ لا وجود له ، وإذا انتفى وجوده ؛ صحّ نقيضه ، وهو لا إله مع الله .

وأما عموم المصدّقين بأنبياء العموم ؛ فهو دليل على أن التصديق بما جاء به أنبياء العموم هو إشباع حاجة عامة ، وطالما : أنه إشباع حاجة عامة ؛ فقد دخل دائرة الضرورة ، والذي يدخل دائرة الضرورة في العموم أصبح مشبعاً لحاجة خاصة لكل فرد من الأفراد ، مثله مثل المأكل ، والمشرب الذي يقع موقع الحاجة الدائمة ، فإن جحده قسم من العموم ؛ فهو لا ينفي صحة المصدقين من العموم بأنبياء العموم لعدم إقامة البرهان .

2 - من أجل إقامة الدين الحق ، والنهي عن التفرُّق فيه ؛ لأن الخالق واحدٌ ، فالدين واحدٌ .

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَائِفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (2) ، ثم وصى بها أبناءه ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّى

(1) المؤمنون ، 117 .

(2) الأنعام ، 79 .

بِهَآ إِبْرَهُمْ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ .

لقد سنَّ الله تعالى سنةً ، وطريقاً واضحاً من التوحيد ، ودين الإسلام ، وأصول الشرائع والأحكام .

وأنبياء العموم - عليهم الصلاة والسلام - مشتركون ، ومتفقون في أصل الدين ، وجميعهم أقاموا الدين ، وقاموا بخدمته ، والدعوة إليه ، ولم يتخلفوا ، أو يختلفوا في ذلك باعتبار هذا الاتفاق ، والاتحاد في الأصول . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (2) .

« حقيقة دين الإسلام التوحيد ، وصورته الشرائع التي هي الشروط ، وهذا الدين منذ ذلك الزمان إلى يوم القيامة واحد بحسب الحقيقة ، وسواءً بين الكل ، ومختلف بحسب الصورة ، والشروط ، وهذا الاختلاف الصوري لا ينافي الاتحاد الأصلي ، والوحدة الحقيقة » (3) .

ولذا فأصول التوحيد واحدة من غير تفرقة بين نبي وآخر ، وأما الاختلاف ففي الفروع ، والأحكام ، لذلك قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ ﴾ (4) فكانت التوراة شرعة قوم موسى ﷺ وللعموم من بعدهم إلى مبعث عيسى ﷺ مع أن هناك أنبياء بين الفترتين ، مثل : يوسف ، وداود ، وسليمان .

وهذا الاختلاف في الشرائع ناشئ من اختلاف الأمم ، وتفاوت طبائعهم ، وعاداتهم ، وتقاليدهم بما لا يقدح في أصول التوحيد القائم على

(1) البقرة ، 132 .

(2) آل عمران ، 19 .

(3) تفسير حقي ، ج 2 ، ص 143 .

(4) المائدة ، 48 .

اتفاق الشرائع ، والاتفاق بإقامة الدين ، والاجتماع عليه ، والنهي عن التفرق فيه .

3 - بعث الأنبياء ، والرسول للتبشير ، والإنذار ، قال تعالى : ﴿ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ <sup>(1)</sup> وتبشير الرسل وإنذارهم للناس هو دنيوي ، وأخروي ، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة ، ويحذرونهم العذاب ، والهلاك ، ويخوفون المجرمين العصاة من عذاب الله ، وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ، ونعيمها .

ولما كانت الغاية الأساسية من وجود الإنسان في حياته الدنيا هي طاعة أوامر الله تعالى ، واجتناب نواهيه ، فهي بذلك لا تستثني أحداً ، بمعنى : أن الأوامر ، والنواهي شاملة عامة ، ولما كانت رسل الله تعالى هي المبينة لتلك الأحكام ، والمبلغة عن الله تعالى ؛ لزم أن تكون شاملة العموم ، ولما كان الهدف من إرسال الرسل ﷺ مهمة التبشير لمن اتبع أوامر الله تعالى بالفوز الكبير في الدنيا والآخرة ، والإنذار لمن خالف أوامره بالوعيد الشديد ، والعذاب الأليم في الآخرة ؛ فقد قامت الحجة على العموم .

4 - إرسال الرسل من أجل إعطاء الأسوة الحسنة للناس في السلوك القويم ، والأخلاق الفاضلة ، والعبادة الصحيحة ، قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبْنَيْهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ <sup>(2)</sup> .

والأسوة الحسنة تكون في التوحيد الخير ، والمعروف ، والإحسان ،

(1) الأنعام ، 48 .

(2) الممتحنة ، 4 .

وفي معالجة مشاكل البشر في كل عصرٍ ، وحين ، مما يجمع الزمان ،  
والمكان . ويقتضي ذلك :

- 1 - إصلاح ما فسد من عقائد الناس ، ورأس ذلك دعوة التوحيد .
- 2 - تنظيم علاقات المعاملات التي يكون بها إصلاح دنياهم .
- 3 - توضيح منهاج السلوك العام الذي يقوم عليه أمر الدنيا ، والآخرة .

وهذا ينسحب على الكبير ، والصغير ، والغني ، والفقير ، والذكر ،  
والأنثى ، والجاهل ، والعالم ، مما يؤدي إلى التصحيح في مسيرة المجتمع  
( أي مجتمع ) على الوجه الذي أراده الله تعالى بما كلف به أنبياء العموم من  
تحقيق أهداف الوحي الإلهي ، لذلك عندما اصطفى الله تعالى رسله ،  
وأنبياؤه ؛ خصهم بأجل الصفات ، وأعظم هذه الصفات هي : الصبر ،  
والحلم ، والल्प ، والأناة ، يرافق ذلك العقل ، والوعي ، والحكمة ،  
والموعظة ، فالصبور عاقل ، والحليم واع ، واللطيف حكيم ، والمتأني  
واعظ ، وهذا ما يحتاجه العالم ، والجاهل على حد سواء ؛ لأن عدوك على  
كراهته لك يحب هذه الصفات فيك ، فمن هنا كان أنبياء العموم تتمثل بهم  
صفوة الله في خلقه ، ذلك : أنهم رحمة للعالمين ؛ لما يكونون في قلوبهم من  
الرحمة ، والشفقة على الناس ، وإرادة الخير لهم ، ولم يكن همهم إقامة  
الحجة عليهم والدليل على بطلان ما هم فيه فقط ، بل كان قبل هذا الحرص  
على استنقاذهم من الضلال إلى الهدى ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن بدعة  
الخلق إلى سُنَّة الخالق ، وأن يبعدوا العموم عن مواطن الفتن ، وسبل الهلاك  
إلى مسالك الأمن ، وطرق النجاة .

### أبعاد رسالات أنبياء العموم :

#### 1 - عموم النوع :

الأنبياء ، والرسل من البشر دون الملائكة ، ومن الرجال دون النساء .

- لماذا من البشر دون الملائكة ؟

أ - إن البشر أقدر على القيادة والتوجيه لبني البشر ، وهم الذين يصلحون قدوة ، وأسوة ، وهذه الحكمة تظهر في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ <sup>(1)</sup> واللسان هو اللغة ، والأعراف ، والتقاليد ، فهو متكلم بلغة العموم الذين بعث فيهم ؛ ليفهموا عنه ما أتى به ، فيفقهوا ذلك ، ويدركوه ، ويعلموه . وأمّا الهداية ؛ فليس عليه في شيء ، وإنما عليه البلاغ ، والله يضل من يشاء لعدم استعداده قبول الحق ، ويهدي من يشاء لحسن ذلك الاستعداد وفق ما قضت مشيئته تعالى ، فلا يهدي ، ولا يضل إلا لحكمة .

ب - صعوبة رؤية الملائكة نسبة لاختلاف طبيعة المرسل ، والمرسل إليه ؛ لأن الاتصال بالملائكة فيه من العناء ، والجهد ، والمشقة ما لا يحتمله جميع البشر ، ولو جعل الله العموم يحتملون تبليغ الملائكة ؛ لانفتت الحاجة إلى التبليغ ؛ لأن العموم سيكونون في مرتبة الأنبياء ، وهو محال ؛ لأنه مخالف للمشيئة ، فقد قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَأْتِئِصْ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ <sup>(2)</sup> .

ج - إن الرسالة تقوم على تكليف المرسل إليهم ودعوتهم لامثال ما يأمرهم به الرسول ، فلو كان الرسول ملكاً ، لكانت حجّتهم قائمة بعدم قدرتهم على التكليف نسبة لاختلاف طبيعة المرسل والمرسل إليهم ؛ إذ أنهم لا يستطيعون تحمل تلك التكاليف التي تأتي بها الملائكة ؛ لأنها لا تناسب طبيعة خلقهم ، وقدرتهم ، لذلك لا بدّ من مناسبة النوع ، ولذا قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ <sup>(3)</sup> قُلْ لَوْ كَانَ

(1) إبراهيم ، 4 .

(2) الرعد ، 31 .



فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١﴾  
فكان إرسال الرسل من البشر ضرورياً ؛ كي يتمكنوا من مخاطبتهم ، والفهم  
عنهم بالاختلاط بهم ، ولو أرسل الله ملائكة ؛ لما أمكنهم ذلك ، ولو كان  
هناك ملائكة يمشون في الأرض ؛ لأرسل الله تعالى إليهم ملكاً رسولاً لمشكلة  
النوع .

## 2 - العموم الاجتماعي :

ودعوة الرسل جميعاً تقوم على التوحيد الخالص لله تعالى ، وهي أهم  
نقطة في العموم الاجتماعي ، إلا أن كل رسول يختص بتقويم الانحراف  
الحادث في زمانه ، وعصره ، ويخرج إلى عموم المكان لدى أنبياء العموم ،  
بينما يبقى محصوراً في مكان محدد لدى أنبياء الخصوص ، ذلك : أن  
الانحراف الحادث يختلف باختلاف ظروف الزمان ، والمكان ،  
فإبراهيم عليه السلام كان مرسلاً للعموم من أجل إعادة التوازن الاجتماعي الذي  
طراً عليه الخلل في العبادة ، والتوحيد ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ  
رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ  
عَبُدُونَ ﴿٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىهَا عِبَادِينَ ﴿٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ  
مُبِينٍ ﴿٤﴾ (٢) ودلالة عموم رسالة إبراهيم عليه السلام قوله تعالى ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾  
استدراكاً لما سبق من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ  
وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) وهو دليل على استمرار رسالة التوحيد في عموم المجتمع  
الإنساني ، فهي متصلة من إبراهيم عليه السلام الذي هو رأس آل النبوة إلى النبي  
الخاتم محمد ﷺ ، وما انحصر بينهما .



(1) الإسراء ، 94-95 .

(2) الأنبياء ، 51-54 .

(3) الأنبياء ، 48 .



## رسل وأنبياء الكافة

قبل البدء بالحديث عن أنبياء الكافة نعتقد : أنه من المهم التفصيل في حقيقة أساسية سبق التلميح إليها فيما سبق : أن رسالة السماء إلى الأرض ومن عليها واحدة في مضمون عقيدتها ؛ التي تركز على التسليم بوحداية الخالق ، والشهادة بأن لا إله إلا الله . وإنما المختلف فيها وسائل الإبلاغ ، وموجبات اليقين ، فوسائل الإبلاغ تتباين بين نصح ، وإرشاد نابع من إنباء إلهي ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ رَسَلْنَا مِنْ أَمْرِنَا نَاصِحًا أَمِينٌ ﴾ <sup>(1)</sup> ، وكما قال يوسف لصاحبي السجن : ﴿ يَصْطَلِحِي السِّجْنَ أَرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ <sup>(2)</sup> ، « وإن كان لم يرسل إليهم ، فالأنبياء مأمورون أمراً عاماً بالإرشاد إلى الحق » <sup>(3)</sup> ، وبين صحف فيها من شرائع الله لعباده ، ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ <sup>(4)</sup> ، « إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ <sup>(5)</sup> ، ﴿ وَوَسَّيْنا ﴾ <sup>(6)</sup> ، وبين كتب مفصلة ، ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ <sup>(7)</sup> .

أما موجبات اليقين فتتنقسم على حجج مادية ، وأخرى معنوية ، وهذا التباين راجع إلى متطلبات العقول ، فبينما يعقل البعض بما يرى ، يعي الآخر

(1) الأعراف ، 68 .

(2) يوسف ، 39 .

(3) التحرير والتنوير ، ١٠ / 276 .

(4) الأعلى ، 16-19 .

(5) الأعراف ، 52 .

بما يرى ، فإبراهيم ، ومحمد - عليهم الصلاة والسلام - قدما للناس موجبات فكرية تتمثل في الجدل الفكري الحسن عند سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ (١) ، وفي قرآن معجز أنزله الله على سيدنا محمد عليه السلام : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ (٢) .

**لذلك نقول :** إن ما من نبوة ، أو رسالة إلا وهي صالحة للكافة ؛ وإن كانت لخاصة مستهدفة بالإرسال ، فكل الرسائل واحدة ؛ لأنها من الواحد القهار ، أما علة اختيار الله عز وجل أقواماً بعينهم لرسالة خاصة ؛ فنقول : إن في القرآن تفسيراً لذلك يتمثل في إصرار الأكثرية من هذه الفئة المخصوصة على الكفر ، يقول الحق ، جل وعلا :

- 1 - ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ (٣) .
- 2 - ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

(١) الأنبياء ، ٥٩-٦٦ .

(٢) يونس ، ٣٧-٣٨ .

(٣) الشعراء ، ١٨٨-١٩٠ .

(٤) النحل ، ٧٥ .

- 3 - ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (1) .
- 4 - ﴿ إِنْكَ اللهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (2) .
- 5 - ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ (3) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ (4) .
- 6 - ﴿ ثُمَّ لَا تَبْنَاهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (5) .
- 7 - ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (6) .

فالعلة هي أنَّ الأكثرية في الخصوص كفرت بأنعم الله ؛ حتى تحول هذا الكفر إلى سلوك عند الأكثرية الوارثة مما يفضي إلى احتجاج هؤلاء بعدم المعرفة : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ (7) . عليه : لابد من إرسال الرسل للتبليغ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ أَعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (8) ، فكانت كل الرسائل لتلقي على مثل هؤلاء الحجة ، فيفوز من يفوز ، ويخسر من يخسر ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ

(1) يوسف ، 106 .

(2) يونس ، 60 .

(3) الأعراف ، 101-102 .

(4) الأعراف ، 17 .

(5) الأنعام ، 111 .

(6) الزخرف ، 23 .

(7) النحل ، 36 .

أَلْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمِهَا رَسُولًا يَلْقُوا عَلَيْهِمَ ءَايَتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿١﴾ .

يُضاف إلى ذلك بعض العلل الأخرى التي تجعل من الاختصاص بقوم هدفاً لرسالة من الرسائل كما في رسالة سيدنا عيسى عليه السلام فقد اختصت ببني إسرائيل لما بدا منهم من كفر ، وإصرار عليه ، « فبعثي إنما بعثت للأجناس من بني إسرائيل خاصة بدليل قوله في الإنجيل : إني لم أبعث إلى الأجناس ، وإنما بعثت إلى الغنم الرابضة من نسل إسرائيل ، وكذلك قال للحواريين : لا تسلكوا في سبيل الأجناس ، ولكن اختصروا بالضرورة إلى الغنم الرابضة من بني إسرائيل » (2) .

أما الكافة فهي النبوة القائمة على الإحصاء والإحاطة ، إما زمنية ، أو مكانية ، أو كلية ، وسنحاول أن نستعرض هذه الأنواع الثلاثة للوصول إلى حقيقة مفهوم كلٍّ منها ، وعلى النحو الآتي :

### أولاً : الكافة الزمنية :

نصّت كتب المتون على عدة أحاديث تؤكد نبوة آدم عليه السلام فعن أبي ذرّ قال : « قلت للنبي صلى الله عليه وآله أيّ الأنبياء أوّل ؟ قال : آدم . قلت : أو نبياً كان ؟ قال : نعم نبياً مكّلم » (3) . فلا موجب بعد هذا لمناقشة نبوته عليه السلام ، ولكن أمراً آخر يثير مكانم الفكر ، ويحركها للبحث في التساؤلات الآتية :

### بمن اختصت نبوة آدم ؟

هل كان نبياً للكافة ، أم كان لخاصة معينة ؟

(1) القصص ، 59 .

(2) الإعلام بما في دين النصارى - القرطبي ، 274 .

(3) شعب الإيمان ، البيهقي 1/ 141 ، وينظر صحيح ابن حبان 421/ 25 ، ومسند أحمد

92/ 47 ، والمستدرک علی الصحیحین 2/ 288 ، وغيرها .

قبل الخوض في هذا الباب لا بدّ لنا من وقفة مع بعض سمات نبوة آدم ﷺ فهي النبوة الأولى التي لم يُكلف بها على الأرض وإنما كان تكليفه بها في السماء عند العرش ، وبتكليم رب العالمين ، جلّ وعلا كما نصّ على ذلك حديث الرسول الأكرم محمد ﷺ . هذه الحقيقة تؤدّي إلى أدلة هي :

- 1 - آدم أوّل من كلمه الله من الأنبياء .
- 2 - آدم أوّل نبيّ نطق بالتوحيد على الأرض .
- 3 - آدم أوّل نبيّ دعا إلى الإصلاح ، وعمل عليه .
- 4 - نبوة آدم من غير واسطة ( ملك ) وإنما هي تكليف مباشر .
- 5 - بلّغ آدم نبوّته كما أبلغ بها ( بدون كتاب ، أو صحف ، أو ألواح ) .

وقد كُلف بتبليغ من حوله ، وأولهم حواء التي لم تشترك معه بالنبوة ، فكان تبليغها واجباً على آدم ، ثم أولاده من بعد ذلك ، وأولادهم من بعدهم ما دام حيّاً ، فإذا مات ؛ انقطع تكليف الإبلاغ . وهنا لنُحاول معرفة حدود نبوته ، فنتساءل هل كان على الأرض غير آدم ، وأولاده من البشر ؟ والجواب متفق عليه أن لا أحد من جنسه غيرهم . عليه : فنبوة آدم للكافة الموجودة في زمن حياته لانتفاء وجود الخاصة في هذا الزمن ، فهي إذاً نبوة كافة زمانية ، وذلك لتحقيق شروط الكافة ، وهي الحصر ، والإحاطة ، الحصر يتمثل في انتفاء الاستثناء ، أما الإحاطة ؛ فتعني : تبليغ كل من وجب له التبليغ ، وكل ذلك في زمن مخصوص يبدأ من هبوط آدم ﷺ وينتهي بوفاته .

أما علم آدم فهو مرتبط بِخَلْقِهِ ، فقد « خلق الله تعالى آدم ابتداءً ، ولم يخلقه بتوسط طبيعة ، كما خلق نسله ، كان على أفضل اعتدال ، وأكمل عقل ، فصار قلبه معدناً للحكمة الإنسانية ، وجسده مهياً للأفعال البشرية ، فلم يمتنع عليه شيء منها حتى أحاط علماً ، وقدرة بجميعها ، ولذلك علّم الأسماء كلها ، وألهم الحكمة بأسرها ، وأطلع على أسرار النجوم ، وعملها ،

وعُرِّفَ منافع الحيوان ، والنبات ، ومضارها ، ولولا ذلك ؛ لما فَرَّقَ بين الغذاء ، والدواء ، ولا بين السموم القاتلة ، والشفاء ، ولا اهتدى بالنجوم في برٍّ ، ولا بحرٍ ، وكان هو المدبر لأولاده مدة حياته « (1) .

ونضيف إلى ذلك بعض الحقائق المهمة عن النبي آدم ، وهي :

- 1 - إنه أول نبي أرسل من الأعلى إلى الأدنى ( من السماء إلى الأرض ) .
- 2 - نزل آدم متحضراً من صور الجنة ، ومشاهدها العظيمة .
- 3 - كان آدم أنس الطباع ؛ لأنه نزل برفقة حواء زوجته التي يسكن إليها .
- 4 - آدم من الأنبياء الذين لديهم علمٌ من السماء ، والأرض مشاهدةً ، وإنباءً .

**هكذا يتبين :** أن نبوة آدم كانت نبوة كافة زمانية مدتها حياة آدم على الأرض وهي نبوة كاملة ، لأنها أرست عقيدة التوحيد زمنياً طويلاً وبين أجيال متعاقبة ، فقد كان بين آدم ، وإدريس إلى نوح عشرة قرون كلهم على التوحيد والإسلام ، ثم حدث الشرك في قوم نوح (2) .

فمن الذي وَّحَّدَ عقيدة كل هؤلاء ، ألم يكن آدم ؟ فهو على ذلك نبيٌّ للكافة الزمانية .

### ثانياً : الكافة المكانية :

تدل معطيات نبوة سيدنا نوح عليه السلام على حقيقة كونه من أنبياء الكافة ؛ لأنه وحسب ما تذكر أغلب المصادر فإنَّ الطوفان لم يبق إلا من كان على السفينة . يقول الماوردي في أعلام النبوة عن الطوفان : « ثم كثر الناس ، فافترقوا بعد إدريس وزادوا إلى زمن نوح . . . وهو آخر نبي بعث قبل الطوفان . . . فلم يبق في الأرض ذو روح إلا من ركبها ، وغاض الطوفان

(1) أعلام النبوة - الماوردي ، 54 / 1 .

(2) شرح كتاب كشف الشبهات في التوحيد ، 7 / 1 .



بعد مئة وخمسين يوماً ، فاستوت على الجودي و هو جبل بأرض الجزيرة شهراً ، وسمي الماء طوفاناً ؛ لأنه طفا فوق كل شيء » (1) .

**والحق :** أن الآيات التي اشتملت على وصف الطوفان تشير في أكثر من وجه إلى أن الغرق شمل الأرض كل الأرض ، يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٤١) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِئْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٤﴾ وَقِيلَ يَتَّزِجْ أَلْبَعَىٰ مَاءُكَ وَيَسْمَأُ أَفْلَحِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾ (2) ، ولنتأمل دلائل الشمول في الآية وهي :

1 - ﴿ احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ : ﴿ مِنْ كُلِّ ﴾ أراد حمل من كل شيء زوجين اثنين : الذكر زوج ، والأنثى زوج . . . . . واختلفوا في أنه هل دخل في قوله : ﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ غير الحيوان ، أم لا ؟ فنقول : أما الحيوان فداخل ؛ لأن قوله : ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ يدخل فيه كل الحيوانات ، وأما النبات فاللفظ لا يدل عليه ، إلا أنه بحسب قرينة الحال لا يبعد بسبب : أن الناس محتاجون إلى النبات بجميع أقسامه (3) ، وأكد بعض المفسرين شمول النبات بالحمل ، فقال الألوسي : عن عليّ - كرم الله تعالى وجهه - مرفوعاً : « أن نوحاً عليه السلام حمل معه في السفينة من جميع الشجر » (4) ، من هنا نتساءل : إذا كان الإغراق لبعض الأرض ، فما فائدة

(1) أعلام النبوة ، 1 / 54 .

(2) هود ، 40-44 .

(3) تفسير الرازي ، 8 / 408 .

(4) تفسير الألوسي ، 8 / 235 .

حمل الأزواج وهي موجودة على الأرض خارج موقع الطوفان ؟ لابد أن يكون الإغراق شاملاً لكل من هم خارج السفينة . عليه : فإن للحمل دلالات إعجازية هي :

أ - الحفاظ على النوع .

ب - حمل زوجين ، وليس زوجاً واحداً فيه تلبية لطبائع بعض المخلوقات التي تأنف التزاوج مع زوجها من البطن الواحدة .

ج - الحمل كان جزءاً من مهمة نوح في إعمار الأرض التي استُخلف عليها .

2 - ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ في هذه الآية ما يدل على الشمول ، وهو أسلوب نفى الجنس ، فلو قال أحد : إن العقاب كان لقوم نوح فقط ، وهم في بقعة جغرافية واحدة لما استقام نفى الجنس في الآية ؛ حيث سيكون هناك ناج في مكان ما ، وهو معصوم من العقاب لكونه ناجياً ، كما سيكون هنا عاصم غير الله إذا لم يكن الغرق شاملاً لكل الأرض ، فسيكون هناك جبل عاصم في مكان ما ، وسيكون هناك سفينة عاصمة في مكان ما ، وهذا ما لا يرتضيه مؤمن بربه لما فيه من تناقض بين النص القرآني ، والقول بعدم شمول الغرق كل الأرض . أما الاستثناء فهو مخصوص بمن حقت عليه رحمة الله ، وهم نوح ، ومن معه فقط .

3 - ﴿ يَتَأَرَضُ آبُلَى مَاءِكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلَى وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾ ، الخطاب هنا جاء باستخدام صيغة التنكير ( أرض ) وواضح : أنها تدل على العموم ، ولو كان الخطاب بالتعريف مثل يا أيها الأرض لكان لزاماً أن تكون أرضاً محددة معروفة مقصودة بالخطاب ، لكن صيغة التنكير أدت إلى بيان دلالة الشمول ، والأمر كذلك مع السماء .

والنتيجة الحاصلة مما سبق هي أن الغرق شمل كل الأرض واستثنى نوحاً ومن معه ، ومن حمل ، فالغارقون من الكافرين هم الكافة الفانية ، والناجون

من المؤمنين هم الكافة الباقية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ <sup>(1)</sup> ، وبعد هذا ، وبعد انتهاء الطوفان يبقى احتمالان :

**الأول :** أن يكون من ركب قد بلغ قبل الحمل .

**الثاني :** أن يكون من ركب غير مبلغ .

وفي كلا الحالتين يبقى نوح نبياً للكافة المتبقية ؛ لأنه في الاحتمال الأول سيبلغ من ركب معه ، فهذه مهمته التي كلف بها ، أما الاحتمال الثاني فيؤدي إلى أن نبوة نوح هي لهذه الكافة الناجية على السفينة ، وآيته لهم غرق الكافرين . عليه نعتقد : أن نبوة نوح كانت كافة مكانية ( السفينة ) لمن حمل معه في الفلك المشحون .

**ثالثاً : الكافة الكلية :**

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ <sup>(2)</sup> .

وقال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَإِنَّمَا رَجُلٌ مِّنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ ؛ فَلْيُصَلِّ ، وَأَحَلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعثُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ » <sup>(3)</sup> .

هذان النصان يدلان بشكل قاطع على رسالة محمد ﷺ الكافة بالنسبة

(1) الإسراء ، 3 .

(2) سبأ ، 28 .

(3) صحيح البخاري ، 257 / 2 .

للمؤمن بالله ، وكتبه ، ورسله ، لكننا نتوقع أن يسأل سائل عن طبيعة هذه الكافة ، وحدودها ، ولماذا هي كافة كلية مطلقة ؟

**نقول :** ما من إجابة شافية على هذا التساؤل مثل الواقع الذي يراه القريب ، والبعيد وهو : ما من جنس ، أو نوع ، أو لون بشري دخل الإسلام ، ولم يجد فيه التوافق المطلق بين متطلباته العقلية ، والروحية ، وبين ما هو موجود في مضمون الرسالة الكافة ، حتى إن أهل الألسن الأعجمية على اختلافهم لم يُثْنِهم عن الإيمان عائق اللغة ، وذلك للمضمون الشامل لقضايا الحياة ، ومعاصرة نصوص الرسالة الكافة من قرآن كريم ، وحديث صحيح شريف لكل متطلبات الحياة العصرية . ولعلَّ أبرز ما يهتم به من يريد أن يتخذ الإسلام ديناً هو مبدأ المساواة المطلقة بين الناس في الحقوق ، والواجبات . حقاً : إنه لمبدأ عظيم اتفق عليه كل المسلمين من علماء ، وعامة ، وربما لا يجده أحد في ديانة أخرى تلاعب علماءها بالنصوص ؛ ليضعوا شرائع جديدة تتناسب مع مصالحه الخاصة ، كأخبار اليهود الذين اشترطوا على من يريد الدخول في اليهودية أن يكون حاملاً لدم يهودي ، وخصوا دم الأم ، وهذا أمر قد لا يملكه إنسان ؛ لأنه ليس بيده ، فهو مولود على هذا .

كذلك فإن الظروف قد تهيأت للرسالة الكافة ، وتتمثل أولاً بكل ما سبق من رسالات هيأت الناس للرسالة القاطعة في أحكامها ، ولتكون كافة لهم عن الرسالات السابقة : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۖ ﴾ .

كذلك حصول التقارب بين الأمم ، « فقد كانت الأمم من قبل تعيش في عزلة بعضها عن بعض ، كما كانت - في طفولتها - تعيش بما يشبه مشاعر القومية ، أي : تعيش في داخل حدود ( القوم ) الذين تنتسب إليهم . فكان الله يرسل إليهم يومئذ رسلاً [ مخصوصين ] ، كل منهم يدعو في داخل منطقة من الأرض محدودة ، ويدعو قومه خاصة ، فيقول لهم : ﴿ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ ﴾ ، ويعلم الله سبحانه وتعالى في سابق علمه : أن البشرية

ستنضح ذات يوم ، وتصل إلى مرحلة الرشد ، وأن فوارق المكان ، والزمان ستضيق وتتداوب ، فعندئذ يرسل إليها رسولاً واحداً - هو خاتم النبيين محمد ، فيبلغ الرسالة إلى آفاق الأرض ، ويحملها أتباعه من بعده إلى كل أطراف المعمورة ، بحيث لا يبقى صقع من أصقاع الأرض لا تصل إليه « (1) .

**أما ديمومة الكافة ، فذلك راجع إلى أمرين :**

**الأول :** ما نص عليه المولى عز وجل من حفظ الذكر ( القرآن ) الذي يمثل دستور ، وأصل الرسالة الكافة التي خصّها الله بالحفظ .

فشريعتنا الحنيفية البيضاء فقد وعد الله ، وتعهد بفضله ورحمته بحفظها قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (2) ، وهياً لها رجالاً ، ونساءً في كل عصر ، ومصر ، وفي كل قرن ، وزمن لحفظها من جميع نواحيها « (3) .

**أما الأمر الثاني :** فيتمثل في سنة التبليغ التي فرضها الله على لسان نبيه الذي لا ينطق عن الهوى على المسلمين في كل زمان ومكان ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (4) ، فأمر النبي ﷺ أمته بتبليغ ما يعلمون منه إلى غيرهم ، فقال : « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً » (5) ، وقال : « أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلِّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ - ثُمَّ قَالَ - : أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ مَرَّتَيْنِ » (6) .

(1) ركائز الإيمان ، 318 / 1 .

(2) الحجر ، 9 .

(3) كتاب العلل ، 9 / 1 .

(4) آل عمران ، 138 .

(5) صحيح البخاري ، 174 / 12 .

(6) صحيح البخاري ، 341 / 14 .

هذه هي بعض ملامح الرسالة الكافّة الكلية ، فلا مكان تنأى عنه ، ولا ينأى عنها ، ولا زمان يصح لها ، وآخر لا يصحّ ، فهي لكل زمان ولكل مكان ، وهي كذلك لكل جنس ولون ، فلا فرق بين الناس ، كما نص على ذلك المصطفى ﷺ فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لَأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى . أَبْلَغْتُ ؟ ! » (1) .



(1) مسند أحمد ، 51 / 244 .

## في اليقين

قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۚ ﴾ (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۚ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۚ (١) .

الله جل جلاله خلق الشيء وخلق من الشيء الأشياء ، فالأرض شيء خلق من لا شيء بالأمر ( كن ) فكانت على ما هي عليه ، وكان منها آدم ، وحواء اللذان لم يكونا من الأصلاب ، كما كان أبناؤهما من بعدهما . خلق آدم من تراب ، وطن لازب ، وصلصال كالفخار ، وهو لم يعلم شيئاً لو لم يُعلمه الله : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ۚ ﴾ (٢) ، وعلم الأسماء كلها هو علم الأسرار التي لم يعلمها أحد مما خلق غير آدم الذي أمر أن ينبي الملائكة والجن بأسمائهم التي لا يعلمها إلا الله تعالى ، ﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْبِيَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۚ ﴾ (٣) فأنبأهم بها فسجد الملائكة له طاعة للأمر ، واعترافاً بعلم آدم مما علمه الله إلا إبليس أبى ، واستكبر ، فكان من الكافرين .

من الآيات السابقة الذكر عرفنا : أن علم آدم من علم العليم ( العلم المباشر ) أمّا العلم من بعده فهو علم من الآباء إلى الأبناء ، وهو المستمد من العلم الذي علمه العليم لآدم ﷺ .

(1) الإنسان ، 1-3 .

(2) البقرة ، 31 .

(3) البقرة ، 33 .

والإعجاز في هذه الآيات الكريمة هو : أن آدم لم يكن شيئاً ، فكان ، فهو مثل الأرض التي كان منها ، وهي لم تكن شيئاً ، فكانت ، وآدم بعد أن أصبح شيئاً متميزاً عن الشيء الذي كان سابقاً عليه كان أبناؤه من بعده شيئاً آخر مترتباً على تزاوجه مع حواء ، ولذا فآدم من تراب ، وهو لم يكن تراباً ، وأبناؤه من صلبه مثلهم من مثله ، وهو لم يكن من صلب ؛ حيث لا مثال سابق .

الآباء هم دائماً معلّمون حتى وإن لم يدخلوا المدارس ، ويتخرجوا منها ، فهم المرّبون الذين يُقدّمون الرعاية ، والعناية ، والأدب لأبنائهم ، ويغرسون القيم والفضائل التي تليق بالحياة الاجتماعية بين الناس ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣ ﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ٢٤ ﴾ (١) . مقامات عظام للوالدين المعلمين للأبناء كيف يتكلمون ؟ وكيف يتعاملون ؟ وكيف يستمدون ثقة الآخرين فيهم ؟ وكيف يعملون ؟ وكيف يتّقون الله في أنفسهم وفيما يقولون ، ويفعلون ، ويعملون ؟ وكيف يؤمّنون مستقبلهم القريب ، والبعيد ؟

ولأن الآباء معلّمون ؛ فهم يعرفون كيف يقدّمون الرعاية لكل مرحلة من مراحل النمو الإنساني ؟ وكيف يقومون بالعناية والهداية للحق ؟ وكيف ومتى يجازون ، أو يعاقبون ، أو يؤثّبون ؟ فالأم المعلمة الأولى ، والأب المعلم الأول هما الراعيان للمولود ، وهو لا يعلم بحاله ، ولا بهما إلا دفئاً بالرضاعة ، والاحتضان ، والمناغاة ، ثم يقومان بأخذ اليدين ليستقيم الطفل على قدميه ، وكأنه في أرجوحة المحبة ، والمودة ؛ حتى يتعلم المشي بين رعاية ، وحنان ، وإرشاد ، وعندما يعرف لا يعرف إلا أنه المدلل بين أيديهما ، ولا ينظر إليهما إلا ربّين راعيين ، وحافظين ، وقادرين ، وقويين ،

(١) الإسراء ، ٢٣ - ٢٤ .



ولذا لا ملجأ له إلا إليهما ، ولا مفر منهما إلا إليهما .

وهكذا تمتد مرحلة الطفولة براءة مُقدَّرة في نفوس الآباء ، والناس ، وكأنهم فراشات تتنقل بين احتضان ، ومحتضن . والطفل في هذه المرحلة لو سأله :

من ربك ؟

من هو القريب منك ؟

من هو المجيب عليك ؟

من هو السميع إليك ؟

لا إجابة متوقعة غير إجابته بالقول : أبي ، أو أمي ، أو الاثنان معاً .

ولهذا يعتمد الأطفال والصغار بشكل عام على من يحميهم من الخوف ، ويقدم لهم الرعاية ، والعناية ، وإلى من يرشدهم ، ويُمكنهم من بلوغ مشيقات حاجاتهم المتطورة ، والمتنوعة ، ولأن الآباء هم الأقرب لهم ؛ فهم يرونهم كل شيء ، فهم الأقوى ، والأقدر ، والأعظم في حياتهم ( حياة الطفولة ) . ومع أن الآباء هم كل شيء بالنسبة للأبناء ؛ إلا أن الأبناء في مرحلة الطفولة لهم هامش كبير يمتدون فيه باللعب ، وممارسة الحرية مع أقربائهم ، وأقرانهم ، وعندما يحسون بما يضيق بهم لا قبله لهم يتجهون إليها إلا آبائهم الذين يرونهم خير حافظٍ ، وخير قادرٍ ، وخير مُغنٍ عن الآخرين . ولهذا وللوهلة الأولى إذا اشتكى طفل ، أو طفلة لا يشتكي أحدهما من أحدٍ إلا لوالديه ، أو لأحدهما ، فالطفل يرى فيهما خير سميع ، وخير مجيب .

وفي مرحلة المراهقة يصبح التحدي في دائرة الممكن لكل شيء إلا الوالدين اللذين لا يستطيع الصغير الانفصال بسهولة عن أحدهما ، فالأب بالنسبة له هو القوي والقادر ، والأم هي السميع المجيب ، ولا أحد غيرهما ربٌّ ، ومع كل التحدي لا استسلام إلا إليهما ، ولا طاعة إلا إليهما ، ولا ثقة إلا فيهما .

وإذا حدث للمراهق تأزم لا يرى منقذاً له إلا أبوه أو أمه ، وإذا احتاج لا مشبع لحاجاته المتطورة والمتنوعة إلا أبوه ، أو أمه ، أو الاثنان معاً ، ولأن مرحلة الاعتماد على الوالدين تطول ؛ يكون الاعتياد عليها ألفة تربط أواصر التبعية حتى المراحل العمرية المتقدمة ، وبمقارنة مرحلة الانفطام عن صدر الأم رضاعة بمرحلة الانفصال عن الوالدين أقول زمن الفطام أيام تُعد على أصابع اليد ، وزمن الانفصال عن الوالدين أعوام قد يترتب عليها انحراف يضيع فيه مستقبل الأبناء خاصة في مرحلتي الطفولة ، والمراهقة ، مع ما يصاحبها من ألم .

ولذا فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يقضي ما يقارب من نصف عمره وهو في حاجة للعلول من قبل الآخرين ، من ولادته ، وطفولته ، ومراهقته ، وإلى سن البلوغ هو في حالة اعتماد على ما يقدمه له الآخرون من رعاية ، وعناية ، واهتمام ، وإرشاد ، وكذلك في مرحلة الشيخوخة التي تمتد معه إلى سنوات قد تتساوى مع تلك السنوات التي قضاها قبل البلوغ وقد تتجاوزها أحياناً ، مما يجعل مجموع السنين التي هو فيها في حاجة لمن يعوله تساوي منتصف عمره أو ما يقاربه زيادةً ، أو نقصاناً لهذا في حالة امتداد عمره وفقاً لمتوسط الأعمار الذي يختلف من بلدٍ لآخر ، أو قارةٍ ، وأخرى ، أو مستوى معيشي ، وآخر .

وفي مراحل الشباب ( مراحل إظهار القوة ) يكتشف الأبناء الذين كانوا قُصراً : أن آباءهم ، وأمهاتهم الذين كانوا يعتقدون : أنهم الأقوى ، والأقدر هم ليسوا كذلك ، فهم يمرضون ، ويتعبون ، ويتألمون ، ويكونون ، ويحزنون ، وأحياناً يكذبون ، وأحياناً لا يسمعون ، ولا يجيبون ، ولذلك فهم غير ما كانوا يعتقدون . وبطبيعة الحال عندما يرى الأبناء آباءهم يتألمون يتألمون ؛ وعندما يرونهم يكذبون ؛ يكذبون ، وكلما حدث ذلك ، وتحقق ؛ فقد الأبناء قدوة الآباء التي سبق لهم أن اتخذوها قدوةً مؤسَّسةً على القوة ، والقدرة .

وعندما يرى الأبناء الضعف يلحق بأبائهم ، والوهن ، والحاجة ، وعدم الاستطاعة في دائرة الممكن المتوقع ، عندها يثقون بأنهم ليسوا ذلك الأقدار ، والأقوى ، والأعظم الذي كانوا يعتقدون ، مما يجعلهم يسعون لمعرفة من هو الأقدار ، والأقوى ، والأعظم ، والأكرم ، فيتجهون كما اتجه إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلَاحَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (1) .

فقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ أي : لما أظلم عليه الليل ؛ وهو يتأمل ، ويقارن بين كل ما يشاهده ، ويلاحظه بتأمل تمكّن إبراهيم عليه السلام من إصدار أحكام يقينية بعد محاكاة طويلة ، وإبراهيم باعتباره أبا الأنبياء ؛ فهو بدون شك مؤمن على يقين : أن الله لا يقارن بشيء ، ولكن كان ينظر بين من لا تتغير صفاته ، وبقاؤه ، وبين من تتغير ، ويزول ، ولذلك أصبح جدل إبراهيم مع نفسه آية دالة على الحكم اليقين الذي يملأ قلب المؤمن .

ولأن إبراهيم يعرف ربه من قبل قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (2) . أي : كان راشداً ؛ وهو صبي ، والله تعالى يعلم بتوحيده له ، ويقينه به ، ولأنه كذلك ؛ قال إبراهيم لأبيه : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَادِيَّةً ﴿٥٧﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٨﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٩﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا

(1) الأنعام ، 76-79 .

(2) الأنبياء ، 51 .

مُدْبِرِينَ ﴿١﴾ . آيات كريمات تحتضن ، وتحفظ قول رسول كريم ، ولأن الإيمان كان سابقاً على المناظرة الجدلية جاءت النتيجة بالرفض لكل مقارن قد يتخذه الزاعمون بزعمهم مشجباً لكفرهم ، أو لشركهم بالله تعالى .

وقوله ﴿ فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ أي : بما أن الكوكب فاقد لخاصية البقاء ؛ فهو في عقيدة إبراهيم لا يستحق أن يتخذه البعض رباً ليعبدوه بغير حق ، ولذلك فلم يرتض إبراهيم لنفسه أن يكون ربُّه من الزائلين ، ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ بمقارنة الكوكب الصغير مع القمر من الأفضل أن يختار الإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم رباً أكبر ، ولأن الذين اتخذوا من دون الله أرباباً هؤلاء ضالون لذلك جاءت المقارنات تحقيرية لكل فاقد لخاصية الدوام ، والوحدانية صغر ، أو كبر كمقارنات التفضيل بين ما يجب ، ويُعْظَم ، وبين ما لا يجب ، ويُحَقَّر ، فكان الكوكب ، والقمر ، والشمس في مواضع الجدل والمناظرة صغيرة وإن كبرت في أعين البعض أمام الكبير الأعظم في وحدانيته ، وبقائه ، وقربه ، ولذلك فهو السميع ، المجيب ، العليم ، الحكيم ، جلّ جلاله ، ولأن إبراهيم يؤمن أنّ كل شيء زائل ، ولا باقي إلا الله رباً واحداً أحداً فلا فرق عنده بين الأرباب صغروا ، أو كبروا بما أنهم زائلون ، ولذا لا ينبغي أن يتخذ الإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم رباً فاقد لخاصية البقاء ، وفاقد لصفة الاستماع ، والإجابة ، وفاقد للجلال ، والإكرام ، وهو لا يملك نفعاً ، ولا ضرراً .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لِيْن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ في هذه الآية الكريمة اعتراف يحمله المضمون اللغوي في الدلالة ، والمعنى يثبت : أن إبراهيم كان مهتدياً بتوحيده الله تعالى ، فهو يقول دلالة ومعنى : لو لم يهدين ربّي ؛ لكنت من الضالين الذين يعتقدون في الكواكب ، والقمر ، والشمس ، ويتخذونها أرباباً من دون الله ، وفي هذا المعنى ما يدل على حمد

(1) الأنبياء ، 52-57 .

إبراهيم ، وشكره الله الذي هداه إلى التوحيد ، وأبعده عن الشرك ، ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَأَى السَّمَاسَ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ تأكيداً على أن الزائل لا يصلح لأن يتخذ رباً ، ولهذا وجب على إبراهيم تنبيه قومه بأن ما يتخذونه من آلهة لا علاقة له بمن يجب أن يتخذوه رباً يُعبد ، وتأکید على أن من يتخذ ذلك هو مشرك ، والشرك يجب على المؤمن أن يتبرأ منه ، ولهذا قال : ﴿ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِئًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

إني وجهت وجهي في عبادتي إلى الأول ، والآخر الذي خلق السموات والأرض ، الدائم الذي يبقى ، ولا يفنى ، ويحيي ، ويميت لا إلى الذي يفنى ، ولا يبقى ، ويزول ، ولا يدوم ، ولا يضر ، ولا ينفع .

وعليه كلما نضج العقل الإنساني ، وأدرك الحقيقة ؛ تمكّن من المقارنة والمناظرة التي تُمكنه من التبيين ، والمعرفة الواعية ، وبلوغ الأحكام ، والأخذ بالحكمة ، فذلك الطفل الذي كان يرى في والديه أرباباً أقوى قادرين . وذلك المراهق الذي يتمرد ، ولا يتوقف إلا أمام دائرة الوالدين ، وهو يتألم مع ألمهما ، ويحزن مع حزنهما ، ويفرح مع فرحهما . وذلك الشاب الذي يجادل نفسه التي كانت تعتقد في قوة الآباء بالملطق ، وقدرتهم ، وحفظهم ، ورعايتهم له من هموم الدنيا ، ومخاوف الحياة ، وضمان المستقبل فيها ، فهو قد بلغ من النمو ما يُمكنه من معرفة الإجابة التي بها يصحح إجاباته على تلك الأسئلة التي طُرحت عليه ؛ وهو طفل : ( من هو القادر ؟ من هو القوي ؟ من هو الأعظم ؟ من هو المجيب ؟ ) كانت كل إجاباته : ( أبي ) ( أمي ) ( أبي ) ، ( أمي ) ( أبي ) ولكن في هذه المرحلة العمرية أصبح يعرف : أن أباه ، وأمه ليسا هما الأقوى ، ولا الأقدّر ، ولا الأكرم ، ولا الأعظم مما جعله يتوقف في حالة صمت ، وتأمل لينظر إلى حاله وحالهما ، ويقارن كل حالة مع حالته ، والحالات السابقة عليها ، والحالات السابقة لها ، فيجد العجزة غير قادرين ،

وغير أقوياء ، وهم في حاجة لمن يمدُّ لهم يد العون والمساعدة ، ويلاحظ : أن أبناءهم يحاولون ما استطاعوا أن يقدموا لهم من رعاية وعناية ومع ذلك هم في بعض الأحيان لا يستطيعون ، وفي مقابل ذلك يجد الأجداد مع كل ما يلمُّ بهم لا يقنطون من الرحمة ، وهم يمدون أيديهم إلى السماء مما جعله ينظر في نفسه ، وآبائه ، وأجداده ؛ وإذا بنتيجة بين يديه تتولد : لن يستطيعوا أن يكونوا الأقدر ، ولا الأعظم ، ولا الأقوى ؛ ولو اجتمعوا ، ولهذا فهم يتضرعون ، ولا يعترفون إلا بمن هو أقوى .

**وعليه :** ليس للناضج بُدٌّ إلا أن يسعى حتى يتعرف على الأقوى ، والأقدر ، والأكرم ، والأعظم الذي كان معتقداً : أنه المتجسد في والديه ، وهو في محاولاته الجادة بالبحث والسعي قد يعتقد في غير محله كما كان يعتقد البعض في الكواكب ، والقمر ، والشمس إلى أن يقف مرة أخرى ، ويتساءل وفي كل تساؤل من تساؤلاته إجابة كما كان حال إبراهيم عليه السلام :

ألا يكون وراء كل ما نشاهد من مظاهر القوة قويُّ أقوى ، وقديرٌ أقدر ، ورحيمٌ أرحم ، وعزيزٌ أعز ؟

ولأن من متطلبات الإجابة مقدمات تربط العلاقة بين السائل ، والمجيب فالقوي الذي يتألم بأسباب المرض ، والحزين الذي يتحسر بأسباب الحزن ، والفقيد الذي ترك مكانه لأبنائه ولمن يأتي من بعده دلائل على أن الأقوى ، والأقدر ، هو الذي جعل الحياة رحمة ، فكانت القوة فينا ، والضعف فينا ، والألم فينا ، ولذا جاء الموت رحمة ؛ لتكتمل الإجابة : لا قوي إلا من يمتلك أمر الحياة ، والموت .

وفي مراحل النضج التي يمتد التفكير فيها بين تذكر ، وتفكيرٍ يطرح الإنسان سؤاله المألوف .

هل الحياة هي النهاية ، أم أنَّ شيئاً آخر لابد وأن يترتب عليها ؟

إنَّ الإجابة على هذا السؤال لا تكون إلا من علم الورايات ، وعلم

الورائيات علم غيب لا يمكن أن يتم بلوغ الإجابة إلا بالاستماع إلى قول العليم بأمره .

ومن الأسئلة المترتبة على هذا السؤال : من هو العليم بأمره ؟

هل هو القوي الذي يتبدل ، ويتغير ، أم هو القوي القادر الباقي على قوته ، وقدرته ، وسمعه ، وإجابته ، وجوده ، وكرمه ، وكل الصفات الحسان ؟

بطبيعة الحال من لا يستطيع أن يحافظ على حياته ، وبقائه ؛ فهو يجهل أمره ، وحاله ، ومن يجهل أمره ، وحاله كيف يمكن له أن يعلم أمر الغير ، وأمر الغيب ؟ !

أمر الغيب لا يعلمه إلا خالقه ، وإلا هل هناك من ينكر الغيب ؟

إذا كانت الإجابة بنعم .

أقول : هل يمكن لنا أن ننكر شيئاً لو لم يكن موجوداً ؟

وإذا كانت الإجابة بلا .

إذا ثبت وهو المطلوب .

وإذا ثبت المطلوب ؛ استوجب التسليم ، وإذا تم التسليم ؛ حلت الثقة محلها في النفس ، والقلب مما يجعل الإنسان مستبصراً كما كان إبراهيم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿ (١) .

**وعليه :** من يُسلم بأمر الغيب ؛ يُسلم بالحساب ( ثواباً ، وعقاباً ) الجنة ، وناراً ، ومن يُسلم بذلك ليس له بُدٌّ إلا أن يعمل على أحدهما ( الجنة ، أو

(1) الأنعام ، 74 - 75 .

( النار ) ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ (١) . هاتان الآيتان يُدْكَرَانِ بحال ذلك المولود ، ومراحل نموه عبر الطفولة ، والمراهقة ، والشباب ، والنضج إلى الشيخوخة ، والعجز ؛ لنقول : إن كان من الذين أدركوا الحقيقة ، وعملوا على إحقاقها ؛ يجني ما زرع خيراً كثيراً ، وإن كان من الذين لم يدركوا حالهم ، ولم يبلغوا الحقيقة ؛ لن ينفعهم الندم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٢) .

وبناء على قاعدة : ( الفرصة لا تغتنم إلا من الأحياء ) أقول : الحياة فرصة ، من ضاعت منه ، ظلم نفسه ولا منقذ له ؛ وإن اعتذر ، ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (٣) .

بناء على ما جاء في هذه الآية الكريمة تتاح الفرصة لمعرفة الإجابة على السؤال السابق :

هل الحياة هي النهاية ، أم أن شيئاً آخر لابد وأن يترتب عليها ؟

لتكون الإجابة : إن يوماً سيأتي بعد انتهاء الفرصة المتاحة لمن يريد أن يعتذر ، أو يستغفر ويتوب ، ذلك اليوم يراه البعض بعيداً ، ويراه خالقه قريباً : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ (٤) وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿ (٤) ولكن أي يوم هذا ؟

إنه اليوم الآخر .

ولماذا سمي بالآخر ؟

الإجابة على ثلاثة :

(١) الزلزلة ، 7- 8 .

(٢) لقمان ، 12 .

(٣) غافر ، 52 .

(٤) المعارج ، 6- 7 .



- 1 - لأنه اليوم الذي لا يعني هذا اليوم ، ولذا فهو الآخر .
- 2 - واليوم الآخر يعني المخالف لليوم المقارن به .
- 3 - واليوم الآخر يعني الذي لن يكون من بعده آخر ، ولذا فهو اليوم الدائم الذي لا موت فيه ، ولا موت يلاحق من فيه .

**وعليه :** من آمن به ؛ فقد آمن بالقوي الذي خلقه للأقوياء الذين فيه يسكنون في بيت القوة ( الجنة ) وهو اليوم الذي فيه الضعفاء يسكنون في بيت القوة ( النار ) ولأن الله قويٌّ جعل مكونات اليوم الآخر مستقرةً على قاعدتي القوة : ( الجنة والنار ) .

ولأن ذلك الشاب كان على مستوى من بلوغ التفكير المجرد ؛ أصبح قادراً على التقصي بأساليب التفكير ، والتدُّر التي تُمكن من المقارنة الموضوعية دون تحيز ، أو تعصب ، ولذا وضع اليومين بين يديه تحت مظلة التساؤل العقلي :

- أيهما أفضل ؟
- أيهما أطول عمراً ؟
- ما هي مغريات كلٍّ منهما ؟
- أيهما أختار ؟

كانت محاولات إجاباته أثناء العمل وهو مع أسرته يعمل على إصلاح الأرض ، وإعمارها فتعلَّم ، وشق الطرق ، وغرس الأشجار ، وزرع الطعام ، وأكل مما غرس ، وزرع ما يُشبع حاجاته المتطورة ، والمتنوعة ، وتصدَّق على جيرانه الذين كان من بينهم من هو في حاجة ، ومنهم من حاول إفساد ما زرع ، ومنهم من أفسد البعض منه ، ومع ذلك كانت الوفرة من عرق الزارعين ، ولهذا فهو اليوم الذي من زرع فيه شيئاً حصده ، ومن لم يزرع لن يحصد ،

وبمقارنته ليومه الذي فيه يزرع ، ويحصد باليوم الآخر الذي لا مكان فيه للزراعة بأسباب انعدام الأرض غير المزروعة ، مع شيوعية الملكية بين المقيمين فيها ، ولا مفسدين من بينهم لتكون معطيات المقارنة غير قابلة للمقارنة من حيث :

- في هذا اليوم : الزراعة فيه مرة واحدة ، والحصاد فيه مرتان :

أ - حصاد للمزروع لليوم ذاته من ثمار وغيرها من المنتجات والمكاسب المادية .

ب - حصاد للمزروع في اليوم الآخر من صالحات يكون الجزاء عليها دخول الجنة ، أو حصاد للمزروع من آثام يكون الجزاء عليها دخول النار .

وعليه أقول :

- فمن زرع ليحصد في هذا اليوم فقط ؛ أكل ما زرع دون أن يكون له رصيد مدّخر لليوم الآخر .

- من زرع ليعيش يومه ، ويؤمن غده ؛ فقد آمن باليومين ( كسب اليوم ، واليوم الآخر ) .

وباستمراره في المقارنة يقول :

في هذا اليوم كل شيء مؤسس على قواعد القيد ، وفي اليوم الآخر لا وجود لأي قيد ، ولأجل أن يوضح لنا طرح تساؤلاته الآتية :

- هل ( الأبوة والأمومة ) قيد على الأبناء ، أم أنها انطلاقة لممارسة الحرية ؟

- هل ( العبودية ) قيد ، أم أنها حصانة تُمنح من السادة إلى العبيد ؟

- هل ( السجون ) قيود لحرية الإنسان ، أم أنها الميادين الواسعة لممارسة الحرية ؟

- هل ( الدين ) قيد على الإنسان في يومه ، أم أنه كاسرٌ لكل قيد ؟

- هل كلمة ( لا ) تعد قيداً على حرية الرأي ، أم أنها مُلجِمةٌ له ؟

وبالنسبة للفارق بين طول اليوم من عدمه يقول :

يومنا مؤسس على البداية والنهاية ، واليوم الآخر لا نهاية له ( سرمدئي ) .

اليوم بدايته الحياة ، ونهايته الموت ، ولذا كل شيء في هذا اليوم مؤسس على البداية ، والنهاية ، وفي اليوم الآخر مؤسس على الديمومة ، والبقاء .

وبالنسبة لما يمكن أن يجيب على التساؤل :

- ما هي مغريات كلٍّ من اليومين ( الدارين ) ؟

هذا اليوم تملؤه السرقات ، والمظالم ، والانتحارات ، واحتلال الأوطان ، والبلدان ، والإكراه على المعصية ، والاقتصار على زوجة واحدة ، وعند الضرورة لا يتم تجاوز الأربعة يعقبه أبغض الحلال عند الله ، والشرطة بعصيتها ، وخراطيم المياه الساخنة مدججة في الشوارع ، والميادين ، والجيوش التي تمتلك أسلحة الدمار الشامل ، والفاقة ، والفقر ، والأمراض ، والخianات ، والكذب ، والنفاق ، والتزوير للحقائق ، والألم ، والسكراري وما هم بسكراري ، والعبودية ، والتآمر ، والخيانة ، والإفساد في الأرض ، وسفك الدماء فيها بغير حق ، والأرض بور ، والحاكم والمحكوم ، والمالك والمحروم .

وفي اليوم الآخر لا أرض بور ، ولا سفك دماء ، ولا وجود لكل ما سبق ذكره ، ولذا في هذا اليوم يستوجب على الإنسان أن يزرع ، وفي اليوم الآخر لا حاجة لمن يزرع ، وعليه : في هذا اليوم لا وجود إلا للقيود ، وفي اليوم الآخر لا وجود إلا للإعتاق .

في اليوم الآخر لا مالك ، ومحروم ، بل من زرع حصد ، أي : من زرع ركوعه وسجوده لله تعالى ؛ كان من المؤمنين باليومين ، وكان من الوارثين

فيهما ، ومن زرع ركوعه ، وسجوده لغير الله ؛ خسر الدارين : ( الخير في الدنيا ، والجنة في الآخرة ) .

في هذا اليوم الأمنيات كثيرة تدبُّ على الأرض كما يدبُّ النمل غير أن النمل منظم والأمنيات البشرية مشتتة ، في هذا اليوم كل الحياة تضرع ، وفي اليوم الآخر لا تضرع ، ولا ركوع ، ولا سجود ، ولا صوم ، ولا حج ، ولا صدق ، ولا زكاة ، ولا حرام ، ولا مُحَرَّم على الذين قد زرعوا الخير بين الناس . الحرام مرة واحدة صدر الحكم به ( الجنة أم النار ) فالذين دخلوا النار أبدون فيها ، الجنة محرَّمة عليهم ، والذين دخلوا الجنة أبدون فيها ، النار محرَّمة عليهم .

في اليوم الآخر أنهارٌ من عسل مصفى ، وخمرٌ لذة للشاربين ، ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (1) . المقارنة في هذه الآية الكريمة ذات فارق كبير بين الذين هم في اليوم الآخر : فمنهم من هم في النعيم ، ومنهم من هم في الجحيم يسقون من ماء حميم يُقَطَّعُ أَمْعَاءَهُمْ ليكونوا هم دائمين في الألم .

في هذا اليوم الاستخبارات ، واللصوص ، والمنافقون ، وبائعو الذمم ، والخونة ، والبطانة الفاسدة والماشون في جنازة الميت ؛ وهم القتلة ، والمغتربون الذين فيهم يصدق قول الشاعر :

تُدلي بوذي إذا لاقيتني كذباً وإن أُغيب فأنت الهامز اللمزة (2)

في مقابل ذلك يكون في اليوم الآخر الولدان المخلدون ، وحوار العين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكُنَاسٍ مِنْ مَعِينِ ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴾ (١٨) وَفِكَهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿ (٢٠)

(1) محمد ، 15 .

(2) تفسير الطبري ، ج 24 ، ص 595 .

وَلَحِمٌ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَخَوْرٌ عَيْنٍ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ (2) .

وبالنسبة لما يمكن أن يقال بحثاً في السؤال المتعلق بالاختيار :

- أيهما أختار من الدارين ؟

يقول : بعد أن عرفت أبي رباً لا مثيل له في القوة ، والقدرة ، والسمع ، والاستجابة ؛ عرفت ذات يوم أن ربي خارج دائرة الممكن ، ليس بالقوي ، ولا بالقادر ، ولا بالسميع والمجيب ، ويومها قد ألمَّ بي الألم والدوران يملأ رأسي ، وكأن السماء وقعت تحت أقدامي على الأرض ، وأنا في حيرة أتلصص فيها يساري من يميني ؛ حتى أرشدني ذلك القول الذي كان في جعبة الحيرة في مدركات إبراهيم : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلَهِكَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِّرَ إِنِّي بِرَىءٍ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ (3) . هكذا كان حال ذلك الطفل بعد أن بلغ ، وشب ، ونضج ، ولهذا لا تختلف الأحوال بين بني الإنسان إلا مَنْ غفل ، أو استغفل ، أو من كانت قدراته العقلية لا تُمكنه من التمييز ، والمقارنة ، والمناظرة ، والاستنباط ، والاستقراء ، والاستنتاج .

ويعود الطفل بقوله :

أيها القراء الكرام : من كان منكم عاقلاً مدركاً يستطيع أن يتبين بما يُمكنه

(1) الواقعة ، 17-26 .

(2) الإنسان ، 19-22 .

(3) الأنعام ، 76-79 .

من الاستقراء ، والاستنباط ، والاستنتاج : أنني بعد حيرة عميقة قد اخترت ، ولذلك لا استغراب من الحائرين ، بل الاستغراب أن لا يحتار العباد . من لا يحتار لا يتساءل ، ولا يسعى لأن يعرف ما يجب أن يتعرف عليه ، ولذا أوصيكم بالحيرة ، والتساؤل فإنهما المخرجان من الظلمات إلى النور . فالضعف ، والحزن ، والألم ، والغضب الذي رأيته يلثم بأبي - الذي كنت أظنُّ كما سبق وأن قلت لكم - هو الذي جعلني في حيرة ، وتساؤل ، وأخرجني من الظلمات إلى النور ، وأيقنت : أن ما ألمَّ بأبي ، وفكك بأجدادي الكرام لا مفرَّ منه بالنسبة لي ، ولذلك قلت لكم : قد اخترت ، ويا ليتكم تختارون ، وتتقون ! واعلموا : أنه ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (1) .

وفي اليوم الآخر كان ذلك الطفل الذي بلغ من السن عتياً مؤذناً في الجنة يوم أن نادى أصحاب الجنة أصحاب النار : ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾ (2) ؟ قالوا ( نعم ) .

وباستماع الشيخ لتلك الإجابة رفع صوته مؤذناً بمزامير داوود عليه السلام : ﴿ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (3) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ .

وبعد أن أتمَّ المؤذن الأذان استرجع بذاكرته التي خلقت معه في أحسن تقويم ذلك الصوت الذي ينادي بين أصحاب النار فإذا به صوت ذلك الجار

(1) البقرة ، 177 .

(2) الأعراف ، 44 .

(3) الأعراف ، 44 - 45 .

الذي كان يُفسد في الأرض ، ويسفك الدماء فيها بغير حق ، فازداد شكره الله الذي لم يخلف وعده ؛ وهو يقول مع القائلين في الجنة : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (1) .

والشيخ يتأمل ؛ وهو يعيش في وسط الأمل الذي كان يأمل ( حقاً : صدق الله وعده ) الولدان المخلدون هم أكثر رفعة وجمالاً ، وذوقاً مما كنت أعتقد ، الغريزة الحيوانية التي كانت في ذلك اليوم تلفني في نفسي ليست هي كما كنت أفعل ، تلك التي كنت أفعل ليست كلها مباحة ، وكلما فعلتها أصبحت غير طاهر ، فاليوم الذي كنت أشير إليه بالآخر هو اليوم الأعظم الذي أرى فيه ربي وأنا محاط بالولدان المخلدين ، والحدود العينية الطاهرات اللاتي خلقن من مكونات الطهارة وأنا مثلهن بُعثت من جديد لا نجس في أيّ مكون من مكونات بعثي ، ولذا كل من في الجنة حور عين مكرّمون وأنا أحدهم من المكرمين ، لقد كنت في الدار الدنيا أعتقد أن حور العين إناثٌ حسناواتٌ ، فوجدت في الجنة ذكوراً وإناثاً لا فرق بينهم ، الكل حورٌ عِينٌ ، والمتعة بيننا بالتمام كحياتنا سرمدية . فاعملوا عليها إنني كنت من العاملين .

في الحياة الدنيا لم أفسق ، ولم أشرب خمرًا ، ولم أفسد في الأرض ، كما كان حال جاري الذي حدثتكم عنه ، ولذا كان بيني وبين ذلك الجار حجابٌ ، فأنا في المتعة الأبدية ، وهو في العذاب الدائم ، ومن يعترف : أن الفرق شاسع بين السموات والأرض فعليه أن يعرف أضعاف ذلك هو ما بيني وبين جاري الذي لم يتمتع برحمة من الله بأسباب تلك الأسباب ، ولهذا جاءكم قول ربي جل جلاله : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾ (2) .

(1) الزمر ، 74 .

(2) الأعراف ، 46 .

**أقول :** السؤال ، والتساؤل لا وجود لهما في الجنة ، الجنة إجابة على أسئلة ، وتساؤلات قد خلت في الحياة الدنيا ، ومع أن السؤال والتساؤل قد يدخلان صاحبهما الجنة ، أو النار فهما لا يعذبان ، ولا يجازيان ، فالذي يعذب ، أو يجازي هو من طرحهما في أوجه الثواب ، أو أوجه العقاب مما جعل النار جزاءً مناسباً لمن ظلم ، وأفسد في الأرض ، وسفك الدماء فيها بغير حق ، والجنة جزاءً وافياً لمن تاب ، وآمن ، وأحسن ، وأصلح في الأرض ، وعَمَّر .

وأيضاً في الحياة الدنيا الأمل ، والمستقبل في كثير من الأحيان يضيع في غير طاعة ، ولأن في الآخرة لا وجود لأطراف الزمن : ( الماضي ، والمستقبل ) فإن الجنة هي المستقبل ، من دخلها بلغ غايته ( المستقبل المطلق ) الذي لن يأتي من بعده مستقبل ولن تكون من بعده غاية ؛ حيث لا وجود للحاجة في الجنة بل الوجود للمشبعات ، ولهذا : الذين يدخلونها لن يجدوا فيها فاقةً ، ولا عازةً ، ولا يرون فيها شمساً ، ولا زمهريراً : ﴿ وَجَزَيْنَهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۖ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۖ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَقْطُوفُهَا نَذِيلًا ۖ وَبُطَاطٌ عَلَيْهِمْ بَنَائِيَةً مِّنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابُ ۖ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۖ قَوَارِيرًا مِّنْ فَضَّةٍ قَدَرُوهَا نَقْدِيرًا ۖ وَسُقُّونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا رَنْجِيلاً ۖ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ۖ وَبُطُوطٌ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُّخْلَدُونَ ۖ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ۖ وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا ۖ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۖ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝ (١) . ولذلك فأصحاب الجنة ليسوا في حاجة ، الذين في حاجة هم أصحاب النار ، ولذلك هم تحت ضواغط الألم ،

(1) الإنسان ، 22\_12 .



والعذاب الشديد : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ (1) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (2) .

**بناء على ما تقدم أقول لكم : يا عباد الله ! أنتم القوة ، وعليكم الأخذ بأسبابها ، وأن لا تغفلوا عن خلقكم في أحسن تقويم ، واستخلاف الله لكم في الأرض ، والمخطئ منكم هو من يعتقد أن يكون خليفة القوي ضعيفاً !**

قال تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (3) قوياً في ذاته ، وعزيراً لخليفته ، ولذلك كان الله عزيراً لخليفته بالقوة ، ولأنه كذلك قال : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتِجْرَاءُ إِنِّي خَيْرٌ مِمَّنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (4) . مع أن الكثير من المفسرين حاولوا تفسير هذه الآية الكريمة بتوصيف قوة موسى عليه السلام اتفاقاً ، أو اختلافاً ، أو تبايناً فجميعهم معترفون بقوة موسى ، والذي أقول : دون حصر مكان القوة ، وظواهرها في موسى عليه السلام هو : أن موسى خليفة لله ، وإن احتواء الكتاب على آية لقوة موسى لدليل قاطع بالمطلق على أن موسى الذي استخلفه الله رسول قوياً ، ولأن من أسماء الله الحسنى ( القوي ) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (5) . إذاً القوي بطبيعة الحال لا يستخلف إلا قوياً .

وفي مقابل ذلك : إذا تساءل أحدكم : عن قوله تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (6) .

(1) النبأ ، 24 .

(2) النساء ، 56 .

(3) الأحزاب ، 25 .

(4) القصص ، 26 .

(5) الشورى ، 19 .

(6) النساء ، 28 .

أقول : نعم إن أيَّ قويٍّ أمام القوي جل جلاله هو ضعيف ، وأقول مرة ثانية للتأكيد على ( من خُلِقَ في أحسن تقويم ) خلق على القوة ، ومن جُعِلَ في الأرض خليفة جُعِلَ على القوة ، ولكن عندما ننظر نحن الأقوياء إلى ما خُلِقْنَا عليه من قوة ؛ نلاحظ : أن القوة هي التي جعلت الضعف فينا ، وإذا تساءل أحدٌ كيف ؟

أعقبه بتساؤل :

ألا تُعد طاعة الله قوة ؟

عندما تكون الإجابة بنعم لا يطيع القوي إلا قوياً .

أقول : هذا أمر تسليم ، والتسليم اعتراف إيماني من قوي بالأقوى ، وهذا الأمر يثبت : أن الذي يمتلك القوة لا يطيع إلا من هو أقوى منه ، وعندما يدرك الإنسان هذه الحقيقة يثبت : أنه قوة ، ولذا فمن لا يدرك هذه الحقيقة ؛ فهو ضعيف في شخصه ، أو في تفكيره ، أو في إشباع شهواته الغرائزية التي بأسبابها كما يقول البعض نزلت هذه الآية الكريمة : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ وعندما يطيع الإنسان غرائزه يصبح الإنسان في حالة من التماثل مع الحيوان ، وإذا ما كان معه على تماثل ؛ كان ضعيفاً ، ولذا لن يكون في أحسن صورة ، ومن لا يكون في أحسن صورة يكون على أسوأها ، وأسوأ صورة هي التي يكون الإنسان فيها ضعيفاً سواء بأسباب المبرر الواحد ، أو بالأسباب الأكثر مبررات .

وبمراجعة للتساؤل السابق : كيف تكون القوة جاعلةً للضعف في بني آدم ؟

أقول : قوة محبة الأبناء للآباء جعلت بعضهم يطيعون آباءهم في معصية الله ، والقاعدة تقول : ( طاعة الوالدين في غير معصية الله ) ولذلك فطاعة القوي للقوي في دائرة الممكن والنسبية ضعف ، أما طاعة القوي للقوي المطلق فهي قوة . قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

إِمَّا يَلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَادِقِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ (1)

وأيضاً : قوة محبة الأبناء على حساب محبة القوي تجعل الضعف في الآباء متمركزاً في عاطفتهم ، وليس في ضمائرهم ، وعقولهم ، وهذه ليست خاصية المستخلفين فيها بالقوة . المستخلفون هم القوة الذين لا يستكينون للضعف ، وإن كان مع آبائهم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (٢٣) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٢٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٢٥﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٢٦﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٢٧﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ الْهَيْتِ يَتَابِرُهُمْ لِمَ تَمُوتُنَا لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٢٨﴾ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٢٩﴾ وَأَعِزَّنِي لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٣٠﴾ (2)

ولأن الأمر يقود للحيرة ، والحيرة تقود للتساؤل ، والتساؤل يقود إلى المعرفة ، والمعرفة تقود إلى الحقيقة ، والحقيقة يقينية ؛ أقول : يا بني آدم ! عليكم بالتقوى لتأخذوا بما جاء به القوي ؛ حتى تكونوا قوة في الأرض مستخلفين فيها ، وتعلموا : أن ﴿ عَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ (3) واتبعوا الله إنه القوي العزيز . ﴿ وَتَكَزَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (4)

وبالعودة للسؤال : ألا تعد طاعة الله قوة ؟

(1) الإسراء ، 23-25 .

(2) مريم ، 41-48 .

(3) النساء ، 11 .

(4) البقرة ، 197 .

عندما تكون الإجابة ب : ( لا ) على هذا السؤال تكون القاعدة :  
 ( لا يطيع الضعيف إلا ضعيفاً ) في مقابل الإجابة السابقة له بنعم ، ( لا يطيع  
 القوي إلا قوياً ) ولذلك أقول : إجابة الكفر إجابة إنكار ، والإنكار للشيء  
 لا يلغي وجوده ، ولهذا إنكار الشيء دليل على وجوده ، ولو لم يكن موجوداً  
 ما كان إنكاره ، وبما أنه موجود لا يلغيه شيء ، وعليه فلماذا الكفر ،  
 والإنكار ؟ !

لا إجابة إلا أنها المعصية .

ولأنها معصية فهي الاستثناء ، ولأنها الاستثناء فهي الزائلة ، وبزوال  
 الاستثناء كل شيء يؤسس على قاعدة القوة ( الإيمان ) ولذا فمن أراد القوة ؛  
 عليه بالإيمان ومن أراد الضعف ؛ عليه بالإنكار ، وبين هذا ، وذاك تترسخ  
 قاعدة البقاء ، والاستثناء زائل .

وتأسيساً على قاعدة البقاء يعاد طرح الأسئلة الأربعة السابقة إضافة إلى  
 السؤال الخاتم :

1 - من ربك ؟

يقول أصحاب النار ، كما يقول أصحاب الجنة :

هو الله المدخل للجنة ، والنار .

2 - من هو القريب منك ؟

يقول أصحاب الجنة : هو الله .

ويقول أصحاب النار : فقط المعذبون في النار .

3 - من هو المجيب عليك ؟

أصحاب الجنة يجيبون : هو الله .

وصاحب النار يجيب : لا مجيب .

4 - من هو السميع إليك ؟

أصحاب الجنة يقولون : هو الله .

أصحاب النار يقولون : لا سميع .

5 - ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ ؟

الكلُّ يجيب : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ .





## حوار بين يدي الله

مشاهد الحوار :

أولاً - خلق الإنس :

نحاول أن نجيب على تساؤلات تعرض لذهن المتتبع لهذا النوع من البحث الذي ليس له من مصدر غير النص القرآني ، والحديث النبوي الشريف ، فالنص القرآني يحدد الفترة الزمنية في أسبقية الجن على الإنس في قضية الخلق ، ومن خلال سياق النصوص في التقديم ، والتأخير من خلال سرد القصص القرآني بحيث نستطيع أن نقف على إجابات استنتاجية في عملية الاستقراء .

ولا نقصد أسبقية مَنْ ذكر قبل الآخر في ترتيب سور القرآن الكريم ، ذلك : أن قضية خلق الجن ، والإنس التي تحدث عنها القرآن الكريم جاءت موزعة على عدة سور ، وإنما الأسبقية في سياق النص نفسه الذي تدل عليه بنية الحدث ، وتسلسله بشكل منطقي يجعل المتتبع يصدر حكماً قائماً على الأدلة من خلال الوقوف على لحظة الخلق ، وبدء الصراع ، ونمو الحدث ، وبعد ذلك امتداداته ، وتفرعاته .

إن معظم النصوص القرآنية التي تحدثت عن هذا الجانب تشير إلى أن الجن خلقت قبل الإنس ، منها ما هو قطعي الدلالة في الوضوح ، مثل :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ ﴿ (1) .

(1) الحجر ، 26-27 .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّیْ خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ طِیْنٍ ﴿٧١﴾ فَاِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِیْ فَقَعُوْا لَهٗ سٰجِدِیْنَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ اٰجْمَعُوْنَ ﴿٧٣﴾ اِلَّا اِبْلِیْسَ اُسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِیْنَ ﴾ (1) .

و منها ما تكون دلالة استتاجية في تقديم السابق على اللاحق ، مثل :

قوله تعالى : ﴿ يَمَعَشَرَ الْجِنُّ وَالْاِنْسُ اِنْ اَسْتَطَعْتُمْ اَنْ تَنْفُذُوْا مِنْ اَقْطَارِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ فَانْفُذُوْا لَا تَنْفُذُوْنَ اِلَّا بِسُلْطٰنٍ ﴾ (2) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْاِنْسَ اِلَّا لِيَّعْبُدُوْنَ ﴾ (3) .

وما اجتمع ذكر الإنس والجن في آية إلا تمّ تقديم الجن على الإنس دلالة على أسبقيتهم في الخلق سوى آية واحدة لا يُحتمل فيها تقديم الجن على الإنس ، لاختلاف الموضوع ، وتحديد الزمان من خلال المكان ، فالمكان هو الأرض ، والزمان بعد بعثة محمد ﷺ ، وذلك في :

قوله تعالى : ﴿ وَاَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْاِنْسِ يَعُوْذُوْنَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوْهُمْ رَهَقًا ﴾ (4) .

وعليه : فالجن والإنس نوعان مختلفان من الخلق ، لكل منهما أصله الذي ينسب إليه ، ومادته التي خلق منها .

فهل هذا الاختلاف أدّى إلى التصادم ، والصراع ؟

أم أنه حسد من الجنّ للإنس ؟

أم كلاهما معاً ؟

إن إبليس هو من الجنّ بدليل قوله تعالى : ﴿ وَاِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اَسْجُدُوْا لِاٰدَمَ

(1) ص ، 71-74 .

(2) الرحمن ، 33 .

(3) الذاريات ، 56 .

(4) الجن ، 6 .



فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿١﴾ . ومع ما ذكر المفسرون ، والعلماء من شمول إبليس في السجود مع الملائكة تكريماً لآدم ﷺ على أنه منهم ، أو أنه طاووس الملائكة ، فلنا في ذلك رأي مغاير قائم على الأدلة ، والحجج المنطقية بأنه ليس من الملائكة في شيء لما يأتي :

- 1 - اختلاف مادة الخلق بين الجن ، والإنس ، والملائكة ، والأدلة والنصوص في كتاب الله تعالى ، وفي الأحاديث النبوية الشريفة على ذلك أشهر من أن تذكر ، ولذلك يخرج إبليس منهم .
- 2 - قوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ ﴾ فهو له ذرية ويتناسلون ، بينما الملائكة خلقوا فرادى لا يتكاثرون إلا بالخلق بفعل ( كن ، فيكون ) .
- 3 - الملائكة خلقوا للعبادة ، والطاعة لا يعصون الله ما أمرهم ، والجن والإنس منهم الذين يستكبرون ، ويعصون ، ولأن إبليس ليس من الملائكة ؛ فقد عصى أمر ربه .

إن مادة خلق الجن ، والإنس مختلفة عن أجناس الخلق الأخرى ، فقد خلق الجن من نار السموم ، ومن مارج من نار ، قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ (2) .

وآدم ﷺ هو أبو الإنس ، وهم بنوه قال تعالى : ﴿ يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (3) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَحْشِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (4) .

(1) الكهف ، 50 .

(2) الرحمن ، 15 .

(3) الأعراف ، 26 .

(4) الإسراء ، 70 .

وبناءً على ما تقدم فإن خلق الملائكة ، والجن ، والإنس ، كل واحد من هذه الأجناس من مادة مختلفة عن الجنس الآخر .

### مصدر مادة خلق الإنس :

لقد خلق الله تعالى آدم ﷺ ليكون خليفة في الأرض ، ويعمرها هو وذريته ، ويخلف بعضهم بعضاً في إصلاحها ، وعمرانها .

فكيف خلق آدم ، ومم خلق ؟

لقد أخبر الله تعالى ملائكته : أنه سيخلق بشراً من طين ، وأمرهم إذا سواه ، ونفخ فيه من روحه أن يقعوا له ساجدين ، سجود تكريم لآدم ، وسجود عبادة لله ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ <sup>(٢٨)</sup> فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> .

سوى الله تعالى آدم من طين من حمأ مسنون ، والتسوية هي الإقامة على أحسن وجه ، وأتمه ، حتى إذا صار ذلك الطين صلصالاً كالفخار ؛ نفخ فيه من روحه فإذا هو إنسان حي تام . فسجد له الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس كان من الجن ، فعصى أمر ربه ، ولم يسجد لآدم استعلاءً ، واستكباراً .

وقد أعلم الله الملائكة : أن هذا البشر الذي خلقه سيجعله في الأرض خليفة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ <sup>(٢)</sup> ويكون له سلطان عليها . فيتصرف في مواردنا ؛ ليجعلها ملائمة لحاجاته ، ويكون له فيها ذرية من نسله ، يخلف بعضهم بعضاً . فسأل الملائكة ربهم عز وجل سؤال استغراب مع العبودية ، والخضوع ، وسؤال استفهام ، واستعلام ؛ حيث قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ

(1) الحجر ، 28-29 .

(2) البقرة ، 30 .

وَمَنْ يُسَبِّحْ بِحَمْدِكَ وَفَدَّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ .

وبناء على سؤال الملائكة الاستفهامي أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لهم بعض ما لا يعلمون من حكمته في خلق آدم ، فعلمه أسماء الأشياء ، وطلب من الملائكة أن ينبئوه ، فلم يعرفوا ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْبِيَائِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُهُونَ ﴿٢٣﴾ . (2)

وعلى ذلك فإن آدم ﷺ خلق من تراب .

ولكن أي تراب خلق منه ؟

هل هو تراب الأرض ؟

أم هل من الجنة ؟

إن جميع الآيات القرآنية التي ذكرت دلائل الخلق على أنه من تراب ، لم تحدّد نوعية هذا التراب ، ولا مصدره ، وجميع الآيات جاءت مسبوقة بـ : ( مِنْ ) التبعيضية يليها كلمة ( تراب ) نكرة غير معرفة سواء ما كان منها له دلالة على خلق الإنسان من التراب ، أم جاءت مثلاً من أمثال القرآن الكريم . فالآيات التي لها دلالة على خلق الإنسان من التراب آية واحدة نصّت على آدم ﷺ وهي :

- قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (3) .

(1) البقرة ، 30 .

(2) البقرة ، 31-33 .

(3) آل عمران ، 59 .

وبقية الآيات تتكلم عن أصل مادة خلق الإنسان بشكل عام منها :

- قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَكُم مِّنْ تُرَابٍ ﴾ (1) .

- وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ (2) .

- وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ (3)

وآية واحدة ذكر فيها التراب لضرب المثل ، وهي :

قوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ (4) .

إن جميع الآيات التي ذكرت التراب مصدراً لخلق الإنسان أوردته بصيغة النكرة ، والتنكير في اللغة له معانٍ كثيرة ، منها :

- 1 - النكرة ما دلَّ على شيئين فأكثر .
- 2 - كلمة تراب جاءت كلها نكرة غير موصوفة ، ولا معرفة بالإضافة ، وهو زيادة في العموم .
- 3 - النكرة تدل على التعظيم ، والكثرة .
- 4 - النكرة تدل على التحقير ، والاستهانة .

(1) الحج ، 5 .

(2) الروم ، 20 .

(3) غافر ، 67 .

(4) البقرة ، 264 .

5 - النكرة تدل على معنى الجنس .

6 - النكرات بعضها أنكر من بعض .

« فالشيء أعمُّ ما تكلمت به ، والجسم أخصُّ منه ، والحيوان أخصُّ من الجسم ، والإنسان أخصُّ من الحيوان ، والرجل أخصُّ من الإنسان ، ورجل ظريف أخصُّ من رجل . واعتبر هذا بوحدة : بأنك تقول : كلُّ رجل إنسان ، ولا تقول : كلُّ إنسان رجل . وتقول : كلُّ إنسان حيوان ، ولا تقول : كل حيوان إنسان » (1) .

فليس هناك تخصيص لتراب معين نستطيع أن نأخذ منه دلالة على أن آدم ﷺ كان قد خلق منه ، غير أن التنكير الذي يعطي معنى شمول الجنس : أنه وُحِدَ التراب ، وجعله لا يختلف عن بعضه سواء أكان تراب الأرض ، أم الجنة ، وعليه يمكن أن نقول : إن التراب هو نفسه ، ونستدل على ذلك من قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ ﴾ (2) . فمادة التراب تعود إلى أصل واحدٍ عندما كانت رتقاً قبل الفتق ، فإن كانت القوانين الفيزيائية لا تساعد الإنسان في العيش على تراب القمر ، أو تراب المريخ ، فهذا لا يعني بأيِّ حال : أن اختلاف التراب هو المانع ، أو أن المريخ لارتفاع نسبة الحديد في تربته تحول دون ذلك ؛ لأن من تراب الأرض ما يحوي من المعادن والأملاح بشكل يختلف من بقعة إلى بقعة أخرى .

ولذا : فالأجسام الخالية من الحياة المعهودة لنا في الإنسان ، والحيوان ، والنبات تتأثر بالعوامل الكيميائية في الحياة الدنيا على الأرض مثل التفاعل ، والأحماض ، والتركيب في حال توفر العوامل الفيزيائية ، مثل الضوء ، والسرعة ، والإشعاع ، والضغط الجوي ، والقوة ، والجاذبية ،

(1) المقتضب ، ج 1 ، ص 261 .

(2) الأنبياء ، 30 .

وعليه فإننا نرى التراب تراباً أينما وُجد لاتحاده في المصدر ( الرق ) وعدم تأثره كما تتأثر الأحياء ، ودليلنا فيما ذهبنا إليه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴾ (1) . وجاءت الأرض معرفة للذين يعرفون الأرض علماً : أن الآية تتكلم عن الجنة بعد يوم القيامة ، « يريدون المكان الذي استقروا فيه فإن كانت أرض الآخرة التي يمشي عليها تسمى أرضاً حقيقة فذاك ، وإلا فإطلاقهم الأرض على ذلك من باب الاستعارة تشبيهاً له بأرض الدنيا » (2) والأرض التي يعرفونها تكون قد انتهت ، وهذا يعني : أنه لا خلاف ، ولا تغاير بين أرض الدنيا ، وأرض الجنة إلا بما جعل الله بأرض الجنة من نعيم .

وأما الآية الوحيدة التي جاء بها التراب معروفاً في قوله تعالى : ﴿ أَيَمْسِكُكُمْ عَلَىٰ هَوْبٍ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (3) فهذا التراب هو تراب الأرض بعينه ؛ لأنه لا سبيل إلى تراب غير تراب الأرض كي يدسه فيه .

وأما قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (4) . فالأمر مختلف هنا لسببين :

**الأول :** أن الخطاب في هذه الآية موجّه للفرع ( الذرية ) وليس للأصل ( آدم ﷺ ) بدليل ما سبقها في الآيتين اللتين قبلها ، وهو قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُم إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ (5) وعليه فمصدر

(1) الزمر ، 74 .

(2) تفسير الألوسي ، ج 18 ، ص 32 .

(3) النحل ، 59 .

(4) طه ، 55 .

(5) طه ، 53-54 .

الخلق ، والتكوين للذرية هو الأرض بالغذاء ، والطعام ، والشراب الذي بسببه كان لهم القدرة على التناسل ، والتكاثر .

**الثاني :** الذي يعزز ما ذهبنا إليه حديث رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا وقد دُرَّ عليه من تراب حفرته » <sup>(1)</sup> . وحفرته هي التي يدفن فيها ، أو المكان الذي يبلى فيه لمن لا يدفن ، وبهذا نستنتج : أن خلق الأصل من تراب ، وخلق الذرية من الأرض التي كانت مصدر الطعام ، والشراب في إيجاد القدرة على التناسل .

وعلى ما تقدم نقول : إن عدم علمنا من أي تراب خلق آدم ﷺ ، واستثثار الله تعالى بذلك ، نراه زيادة أخرى في تكريم الإنسان ، وتشريفه على بقية خلقه ؛ لأن الخلق على نوعين :

1 - خلق بالقول ، وهو عام في جميع الخلق باستثناء آدم : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا شَيْءٌ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ <sup>(2)</sup> .

2 - خلق بالفعل ، وهو خاص في آدم ، ولم يدخل فيه أي مخلوق آخر سواه ، قال تعالى ﴿ قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدْنِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ <sup>(3)</sup> .

إن مخلوق الفعل ( الخلق باليد ) فيه من الجهد ، والقوة ، والقدرة ، والعناية - وإن كان ذلك محالاً على الله تعالى - ما ليس في مخلوق القول ، غير أن المراد هو التكريم لهذا المخلوق ، والاهتمام به لاختلافه عن جميع المخلوقات الحية لما أودع الله تعالى فيه من المشاعر ، والأحاسيس ، والعقل المميز ليحسن الاختيار .

(1) حلية الأولياء ، ج 2 ، ص 280 .

(2) النحل ، 40 .

(3) ص ، 75 .

وخلق الإنسان من التراب فيه من الدلالة ما تتجلى به قدرة الخالق بأن خلق أعظم مخلوقاته ( الإنسان ) من هذه المادة ( تراب ) .

ولذا فإن علاقة الإنسان بالتراب علاقة حميمة ، وعلاقة أمومة ، فهو خلق منها ، ودرج في أكنافها ، وترعرع على ظهرها ، وتكون له سترًا بعد موته عندما يحتضنه التراب ، وبذلك يعود إلى أصله ، وحضن أمه الأولى .

### ثانياً : خلق الجن :

في صريح النصوص القرآنية : أن الجن مخلوق من النار . قال تعالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ ﴾ <sup>(1)</sup> إن أصل مادة خلق الجن تختلف عن مادة خلق الإنسان ، وعن مادة خلق الملائكة ، وكما : أن آدم ﷺ هو أبو البشر من تراب ، كذلك إبليس هو من الجن ، وقد خلقه الله تعالى من النار وهو جنس مغاير للإنسان والملائكة من حيث المادة ، والصورة ، والتشكل ، والقدرة ، ودليل : أنه جنس آخر لا ينتمي إلى الملائكة كما يذهب البعض هو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ <sup>(2)</sup> فقد كان من الجن ، ولم يكن من الملائكة ؛ لأن الملائكة مأمورون مسخرون ، ولأن إبليس يختلف في صفاته الخلقية ، والخلقية عن الملائكة ، فقد عصى أمر ربه .

### الصفات الخلقية للجن :

1 - إنَّ الله تعالى خلقهم من النار ، قال تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ <sup>(3)</sup> قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

2 - إنهم يتشكلون ، ويؤرون ، منهم من يتشكل في صور مختلفة ، كما دلَّت

(1) الحجر ، 27 .

(2) الكهف ، 50 .

(3) الأعراف ، 12 .



على ذلك الأحاديث النبوية ، فإذا تشكّلوا ؛ أمكن رؤيتهم ، قال رسول الله ﷺ : « إن عفريتاً من الجن جعل يفتك عليّ البارحة ؛ ليقطع عليّ الصلاة ، وإن الله أمكنني منه ، فدعته ، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد ؛ حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون - أو كلكم - ثم ذكرت قول أخي سليمان : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ . فردّه الله خاسئاً » (1) .

3 - الجن يتكاثرون ، ويتناسلون ، ولهم ذرية ، قال تعالى : ﴿ أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (2) . وقال تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَصَصَاتُ الْغُرَفِ لَمْ يُطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ (3) .

4 - يأكلون ويشربون ، لأنهم بحاجة إلى الغذاء ، قال رسول الله ﷺ : « إذا أكل أحدكم ؛ فليأكل بيمينه ، وإذا شرب ؛ فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل ، ويشرب بشماله » (4) .

وأما الصفات الخلقية ؛ فمنها :

1 - منهم المسلمون الراشدون . قال تعالى : ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ (5) .

2 - ومنهم الصالحون ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَائِفًا قَدَدًا ﴾ (6) .

(1) صحيح مسلم ، ج ٣ ، ص 478 .

(2) الكهف ، 50 .

(3) الرحمن ، 56 .

(4) السنن الكبرى ، ج 7 ، ص 277 .

(5) الجن ، 14 .

(6) الجن ، 11 .

3 - منهم السفهاء ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ (1) .

4 - منهم الرجيم ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (2) . وُسْمِيَ الشَّيْطَانُ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ عَصَى اللَّهَ بِرَفْضِهِ السَّجُودَ لِآدَمَ ، فَطَرَدَهُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ .

5 - منهم المارد ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيْنًا أَلَمَّا الدُّنْيَا بَرِينَةَ الْكُوكَبِ ﴾ (3) وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . وَيُطْلَقُ هَذَا الْوَصْفُ عَلَى جِنْسِ الشَّيَاطِينِ ؛ لِأَنَّهُمْ مَتَمَرِدُونَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالْإِمْتِثَالِ لِأَوَامِرِهِ .

6 - الوسواس الخناس ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ (4) الْمَلِكِ النَّاسِ إِلَهَ النَّاسِ (5) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (6) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (7) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ . وَسُمِيَ الشَّيْطَانُ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ يُوَسْوِسُ لِلْإِنْسَانِ بِالْشَّرِّ ، وَيَخْنَسُ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ، سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وعلى هذا يتبين لنا : أن كثيراً من الصفات الخَلْقِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ هي مشتركة بين الإنس والجن ، ولذلك لا بدّ من التصادم ووقوع الصراع بين هذين النوعين من الخلق في حال عدم الإيمان بالله تعالى .

فالإنسان مخلوق عاقل مفكر ، وكذلك الجن ، وإن كنا لا نعلم الكثير عن حياتهم وعقلهم ، إنما الذي يثبت : أنهم عقلاء مفكرون : أنه ينتابهم الحسد ، فقد جاء على لسان إبليس قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ

(1) الجن ، 4 .

(2) النحل ، 98 .

(3) الصفات ، 6-7 .

(4) الناس ، 1-6 .

عَلَىٰ لَيْنٍ آخِرَتَيْنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَحْتِنَاكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾ .

وكذلك فهم يحسنون الاختيار دلالة على راحة عقولهم ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ رَبَّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ فقالوا ( لن ) التي تنفي المستقبل ، ولم يقولوا ( لم ) المختصة بنفي الماضي ، وأما الملائكة فهم يعلمون ما من الخلق الذي خلقه الله تعالى وجعلهم في الأرض قبل أن يخلق آدم ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .  
فهذا الجواب قائم على علم من تجربة سابقة قبل خلق آدم : أن خلقاً من خلق الله العاقل المميز كان في الأرض ، فأفسدها بالقتل ، وسفك الدماء بغير حق .

أما نوعية الخلق فلا نستطيع أن نعطي صورة كاملة عن ذلك الخلق الذي كان يفسد فيها ، ويسفك الدماء من حيث الشكل ، والتكوين ، وهل أنهم مخلوقات شفاقة أم مخلوقات مادية وما الأصل الذي خلقوا منه ؟ ولكن كونهم عقلاء مميزين فهذا ظاهر من حوار الملائكة ، وجوابها الاستغرابي ، إنهم عقلاء بدليل قولهم ( مَنْ ) التي لا تستعمل إلا للعاقل ، على عكس ( ما ) التي تشمل العقلاء وغيرهم مثل قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) حيث شملت ( ما ) العقلاء وغيرهم ؛ لأنه ما من شيء إلا يسبح بحمده تعالى ، أما ( مَنْ ) فهي دليل قاطع

(1) الإسراء ، 62 .

(2) الجن ، 1-2 .

(3) البقرة ، 30 .

(4) الحشر ، 1 .

(5) التغابن ، 1 .

على أنهم خلق من العقلاء المميزين ، حيث أن ( مَنْ ) لا تستعمل إلا في خطاب العاقل ، قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ (1) وكذلك قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (2) . ولولا ذلك لم تستغرب الملائكة . وعليه :

1 - فالإنسان مخلوق عاقل مميز مكلف .

2 - الجن مخلوق عاقل مميز مكلف .

3 - الملائكة مخلوقات مأمورة مسخرة .

ثالثاً - الحوار قبل خلق آدم :

لقد أعلم الله تعالى ملائكته : أنه سيجعل في الأرض خليفة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (3) .

هذا الإعلام يطرح تساؤلات عديدة بالنسبة لنا نحن المخلوقين . وكذلك إجابة الملائكة فيها من التساؤلات ما يستوقف المتأمل لهذه الآية .

هل أن الله تعالى أعلم الملائكة بخلق آخر قبل أن يخلقه غير الخليفة ؟

هل الله تعالى بحاجة لإعلامهم ؟

لماذا استغربت الملائكة خلق آدم واتهمته بالافساد ، وسفك الدماء قبل أن يخلق ؟

- أما التساؤل الأول : فما وجدنا في القرآن الكريم ما يدل على أن الله

(1) البقرة ، 245 .

(2) العنكبوت ، 5 .

(3) البقرة ، 30 .

تعالى أعلم الملائكة ، أو غيرهم من خلقه : أنه سيخلق شيئاً سوى خلق آدم ﷺ ، وأما ما ورد من بشارات الخلق ؛ فهي كثيرة :

بشرى إبراهيم ﷺ في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ۖ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿ ١ 〉 .

بشرى زكريا ﷺ في قوله تعالى : ﴿ يٰزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ ۖ (2) .

بشرى مريم ﷺ في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ۖ (3) .

فهذه البشارات لم تكن من باب إعلام أحد من خلقه بما سيخلق قبل أن يخلقه لسببين :

**الأول :** أن هذه البشارات ومثيلاتها هي فرع من الأصل لقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ ۖ (4) . فهذه البشارات هي فرع من الخلق الأول .

**الثاني :** أن هذه البشارات لم تكن إعلاماً بخلق غير معروف ، وغير معلوم لقوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ۖ (5) . فقد ذكر تعالى قبل هذه الآية خلق الأنعام ، والخيول ، والبغال ، والحمير ، وخلق الزينة ، فكل هذه المخلوقات معروفة معلومة ، ثم قال : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : خلق ما

(1) الصفات ، 100-101 .

(2) مريم ، 7 .

(3) آل عمران ، 45 .

(4) ص ، 17 .

(5) النحل ، ٨ .

لا تعلمونه ، ولا عهد لكم به ، ولم يكن مخلوقاً من قبل ، ولذا تخرج البشارات عن نوع الخلق الجديد .

**وعليه :** فإن الله تعالى لم يعلم أحداً بخلق شيء قبل أن يخلقه إلا بما أعلم الملائكة من خلق آدم ﷺ .

**- وأما التساؤل الثاني :** فما حاجة الله تعالى أو عدم حاجته إلى إعلامه خلقه عمّا يفعل ، فقد قال تعالى : ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ <sup>(1)</sup> . إن إعلام الملائكة بهذا الأمر هو من أسرار الحكمة الإلهية التي علمتها الملائكة بعد خلق آدم ، وعجز الملائكة عن الإنباء بالأسماء التي أنبأهم بها آدم ﷺ بما علمه الله تعالى ، ثم جعله عاقلاً مميزاً ، وكُلف بما لم تكلف به الملائكة من إعمار الأرض ، وإصلاحها .

من الواضح في سياق الآية : أن الحكمة الإلهية خفيت عليهم في عمارة الأرض ، وإصلاحها ، وتنميتها ، وجعل الحياة فيها متنوعة ، ومتطورة بشكل يناسب حياة تتابع الذرية التي سيكون منها العابدون ، والصالحون ، والقائمون بما أمر الله به ، وكل ذلك سيكون على يد خليفة الله في أرضه ، لأنه هو المهيأ لذلك ، وإن كان يفسد أحياناً ، ويسفك الدماء أحياناً أخرى ، غير أن هذا الفساد ، والشر الذي يصدر من البعض سيكون دافعاً للإصلاح ، والخير للبعض الآخر ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ <sup>(2)</sup> . فإن كانت الحركة الصادرة عن المفسدين هي أداة الهدم والدمار ، فإن الحركة ذاتها تكون أداة بناء وإعمار لدى المصلحين ، ولذا فالله تعالى لم ينفِ الإفساد الذي ذكرته الملائكة في حق من سيخلف في الأرض ، وإنما كانت الإجابة : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

(1) الأنبياء ، 23 .

(2) البقرة ، 251 .

- **التساؤل الثالث :** يحمل في طياته تساؤلات كثيرة ؛ إذ إن الملائكة لا تعلم الغيب ، ولم تر آدم أو هذا الخليفة الذي لم يخلق بعد ، ثم أصدرت أحكاماً على ما سيكون ممن لم يكن ، وقد تمثل ذلك فيما يأتي :

أ - لقد نسبت الملائكة لآدم ﷺ تهمة الإفساد ، وسفك الدماء قبل أن يخلق ، ودون أن تعرفه .

ب - آدم ﷺ بعد خلقه لم يفسد ، ولم يسفك دم أحد .

ج - الله سبحانه وتعالى لم يعارض الملائكة في جوابها ولم ينفِ التهمة عن الخليفة .

د - إجابة الله تعالى للملائكة : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ دليل على إصابة الملائكة فيما قالت ، مع التلميح والتنويه إلى قدرات إيجابية ترجح على كفة الإفساد ، وسفك الدماء .

وعلى ما تقدم :

لماذا أجابت الملائكة إجابة استغراب تدل على علم ؟

ولماذا لم ينكر الله تعالى على الملائكة ما قالت ؟

نستشف من خلال الحوار : أن احتمالات علم الملائكة بما هو كائن من الخليفة تتمثل بما يأتي :

أ - كان لديهم شواهد متقدمة على خلق آدم من تجارب سابقة في الأرض .

ب - أو أن الله تعالى ألهمهم إلهاماً كشفوا به عن شيء من فطرة هذا المخلوق من تراب .

ج - أن الملائكة استقرت حال آدم كمخلوق عاقل مميز مختار ، فقدرت : أنه من كان هذا حاله ، فإنه يمكن أن يختار الشر ؟

د - إن الملائكة التي لا تعرف إلا الخير المطلق بما فطروا عليه ، فهم يرون :

أن التسبيح بحمد الله تعالى ، والتقديس له هو غاية الوجود الكلي ، وعلّة الخلق ، وهو متحقق بوجودهم .

ومع ما قدّرنا من احتمالات فقد كان إعلام الله تعالى ملائكته بأنه سيخلق خليفة يجعله في الأرض لحكمة إلهية بحيث إن هذا المخلوق مغاير للملائكة من حيث إنه مختار بما أوتي من عقل ، ومغاير للجن من حيث المادة في الصورة ، والشكل ، ومكلف بإعمار الأرض .

#### رابعاً - حوار ما بعد الخلق :

لقد أنبأ الله تعالى الملائكة بخلق الخليفة ، وكان هذا الإنباء إشعاراً من أجل تهيؤ الملائكة لعمل لم يكن لهم به عهد من قبل ؛ حيث قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (1) .

#### - حوار الملائكة :

لقد ذكر الله تعالى الأسماء دون تحديد ، أو تقييد ، وجعلها مطلقة ، وشاملة ليدل على قدرات آدم ﷺ ، وسواءً أكانت مسميات الأشياء أم اللغات ، فهي تدل على مدى تمتع هذا المخلوق بقدرات لا تتمتع بها الملائكة ، وهي :

أ - العلم : إن الله تعالى علمه الأسماء كلها ، فتعلمها .

ب - التذكر : عندما طلب الله تعالى من آدم إنشاء الملائكة بالأسماء أنبأهم بها ؛ لأنه تذكرها .

ج - التعليم : عملية الإنشاء هي إعلام الآخر بما يعلم ، والإعلام هو قدرة على تعليم الآخر .

لقد دلل الله تعالى على ما يتمتع به آدم من قدرات العلم ، والحفظ ،

(1) الحجر ، 28 .



والتذكر عن طريق طرح الأسماء التي استطاع آدم استذكارها ، وإعادتها ، بشكل يوحى : أنه جدير بالخلافة التي خصه الله بها بما وهبه الله لآدم من قدرات التعلم ، والحفظ ، والتذكر ، والإعادة .

وقد أراد الله تعالى أن يبرهن للملائكة - والله المثل الأعلى - : أنه يعلم ما لا يعلمه غيره ، فعلم آدم أسماء الأشياء ، ثم عرض هذه الأشياء على الملائكة فقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (1) . وهذا لا يعني تكديماً للملائكة من وجهين :

**الأول :** أن الله تعالى لم ينف ما قالته الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ .

**الثاني :** أن الملائكة مجبولون على الخير بفطرتهم ، فلا يعرفون الكذب ، فهم إما يصفون أمراً سابقاً علموه ، أو إلهاماً من الله بما سيكون فتكلموا به .

وبعد عجز الملائكة عن إجابة الله تعالى لما طلبه منهم إنبائه بأسماء الأشياء ، ﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ فأنبأهم آدم ﷺ بما علمه الله تعالى .

إن إنباء آدم ﷺ الملائكة بأسماء الأشياء نقف منه على جملة من الدلائل التي أراد الله تعالى أن يطلع عليها الملائكة في هذا الموقف من خلال مشهد الحوار ، وهي :

**أ -** إظهار السر الإلهي الذي خفي على الملائكة بما أودع الله في آدم من ملكات .

**ب -** تسليم الله تعالى هذا المخلوق مقاليد الخلافة .

**ج -** سر التهيؤ والإرادة المستقلين يفضي إلى حرية اختيار الفعل .

(1) البقرة ، 31 .

د - حرية الاختيار الناتجة عن العقل المفكر دليل على الصراع بين الخير والشر .

وبهذا ظهر سر القدرة الإلهية على الرمز بالأسماء للمحسوسات ، وسر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها ألفاظاً منطوقة ، ورموز تلك الأشخاص ، والأشياء الحسية هي قدرة تحمل قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض ، وهو التكريم في أعلى صورته لهذا المخلوق الذي جزء منه يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء أحياناً .

ولكن إضافة إلى ذلك فقد وهبه من الأسرار ما يجعله بها أعلى درجة من الملائكة بما وهبه من المعرفة ، ونهج له طريق الاختيار بهذه القدرات التي يستطيع بها أن يتحكم في إرادته ذات الطابع المزدوج :

- إنه مأمور بالخير ، والطاعة ، والعبادة ، وإصلاح الأرض ، وإعمارها .

- إنه يمتلك نوازع نفسية تدفعه لفعل لم يؤمر به .

وهذا أول صراع يخوضه هذا المخلوق تحدياً للتكريم الذي منحه إياه الله تعالى في تجربة شق طريق الخير ، واضطلاعه بأمانة الإعمار ، والإصلاح المكلف بها .

إن الإنسان - وإن كان يفسد ، ويسفك الدماء - إلا أن جانب الخير الكامن في نوازعه الفطرية يجعله أهلاً للمهمة التي أمره الله تعالى بتحملها ، فهو يمتاز بقدرات فائقة في التعلم ، والتعليم ، والتفكير بما يرقى إلى إنجاز مهمة الإصلاح ، والإعمار ، وهذه القدرات على اكتساب المعارف وتنميتها واستثمارها هي من مرشحات الخلافة في الأرض ؛ لأنه خير من يعمرها ، ويقيم الحضارة فيها ، أما الملائكة فتجيد التسبيح لله تعالى ، وتحسن العبادة ، وتطيع ، ولا تعصي ، لكن متطلبات إصلاح الأرض ، وإعمارها لا تتوقف على التسبيح ، والعبادة فقط ، وإنما تتطلب إلى جانب ذلك البناء ،

والعمران ، والعمل ، وهذه الأشياء لا تقوم إلا بالعقل الذي ينمي العلم عن طريق الاكتساب ، والتجربة التي تولّد المعرفة ، والعمران يتطلب العلم المتطور المتجدد بشكل يناسب نمو حاجات الإنسان ، وهذا ما يحسنه الإنسان بما آتاه الله ، ولا تحسنه الملائكة ، ولذا وقع الاختيار على الإنسان للخلافة دون الملائكة ، ولهذا سجدت له الملائكة .

### - جدل إبليس وعصيانه :

إن أول سؤال يراود الذهن عند الحديث عن جدل إبليس وعصيانه لله تعالى ، ورفضه الانصياع لما انصاعت له الملائكة من الامتثال ، والطاعة لأمر الله ، والله سبحانه أعلم بما سيكون منه :

- لماذا خلقه ؟

قبل أن نتناول جدل إبليس ، وعصيانه ، لابدّ من الوقوف على الحكمة الإلهية من خلقه مع أن الله تبارك وتعالى يعلم : أنه سيعصي أمره قبل أن يخلقه .

إن دأب إبليس من لحظة عدم سجوده لآدم عَلَيْهِ السَّلَام انصب على إغواء هذا الخلق الجديد في كل ما لا يرضي الله تعالى من الدين ، والعلم ، والعمل ، والاعتقاد ، ومخالفة أمر الله فيما يحبه الله تعالى ، والدعوة إلى معصيته فيما لا يرضاه سبحانه .

فألله تعالى خلق إبليس ليكون سبباً لفساد الأديان ، والأعمال ، والاعتقادات ، والإرادات ، وبالتالي فهو سبب الشقاء لكثير من الخلق بدفعهم لأعمال تغضب الله تعالى ، وأمرهم بما نهى عنه سبحانه ؛ لأن إبليس رأس كلّ خطيئة ، والداعي إلى كلّ هلكة ، وهو الأمر بكل شرّ ، والنهي عن كل خير خلاف ما يحبه الله ، ويرضاه .

ومع هذا لو لم تكن هناك حكمة يكون منها إبليس وسيلة لأسباب محبة

إلى الله تعالى ترتبت عليها مصالح الخلق في الدنيا ، والآخرة ؛ لما كان خلقه ، لذلك كان وجوده أحب إلى الله من عدمه .

إن الحكمة الإلهية من هذا التدبير في شؤون الخلق تتمثل في الآتي :

1 - امتحان الإنسان في هذا الابتلاء ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ فَكُلْنَا يَنَاقِدُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ (1) .

2 - إظهار قدرة الله تعالى على خلق المتضادات المتقابلات من الأحياء ، فخلق إبليس من أحبب الذوات وشرها ، وخلق الملائكة من أطهر مادة ، وخلق الإنسان من تراب . وعليه :

أ - خلق عاصي أبداً ، وهم إبليس وذريته من الجن .

ب - خلق طائع أبداً لا يعصون ، وهم الملائكة .

ج - خلق يطيع ، ويعصي وهم بنو آدم .

3 - القدرة على تنوع الخلق من غير الأحياء مثلما يتجلى ذلك في خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والداء والدواء ، والحياة والموت ، والحسن والقيح ، والخير والشر .

4 - إظهار آثار الأسماء الحسنی : ففي هذه المسألة يظهر بشكل جلي أسماء الرحيم ، والتواب ، والمنتقم ، والقهار ، والعدل ، والمعز ، والمذل ، والخافض ، والرافع ، والضار ، والنافع ، فإن هذه الأسماء لا بد من وجود متعلقاتها ، فلو كان الجن ، والإنس على طبيعة الملائكة ؛ لم يظهر أثر هذه الأسماء ، وكذلك بقية أسمائه الحسان المتعلقة بوجود المخلوقين ، وأفعالهم .

5 - حصول العبودية المتنوعة في تفاوتها على قدر درجات الإيمان بعد

(1) طه ، 117 .

التوحيد في الجهاد ، والصبر ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر التي لولا خلق إبليس ؛ لم تحصل .

6 - إظهار التفرد ، والوحدانية لله سبحانه وتعالى بأدلة الثنائيات ، والثلاثيات ، وما زاد عن ذلك من المخلوقات ، وهذا من الأدلة على كمال القدرة ، وعزة الملك ، وقدم السلطان .

إن خلق هذه المتضادات ومقابلة بعضها ببعض ، وجعلها مجال تصرفه وتدبيره بلاغة الحكمة ، وحسن التدبير ، ومنتهى الكمال .

فلو تعطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر ؛ لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب ، وهذا كالشمس ، فهي مضرّة أحياناً ، والمطر قد يغدو طوفاناً ، والريح إعصاراً ، ولكن فيها من الخير في المصالح أضعاف ما يحمل الشر من المفاسد .

وعلى ما تقدم فإن جدل إبليس في أمر السجود وتفضيل نفسه بمادة خلقه على غيره مما خلق الله تعالى كان بداية العصيان لأمر الله تعالى ، وإيداناً بيد الصراع بين الخير والشر ، حتى يستمر هذا الصراع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها حتى يحكم بين عباده بالحق ، وهو خير الحاكمين .

### الرفض أول المعصية :

إن أول بادرة تعصب عرقي ظهرت في الخليقة كانت صادرة من إبليس برفضه تنفيذ أمر الخالق بالسجود لآدم عليه السلام مستنداً بذلك إلى مفاضلة عرقية في أصل مادة الخلق ؛ حيث قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِلْآدَمِ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (١) قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١) . ومن ظاهر النص القرآني : أن إبليس مقرُّ بالوهية الله تعالى ، وأنه هو الربُّ الخالق ، البارئ ،

(1) الأعراف ، 11-12 .

المصوّر ، المعبود ، ولكن الذي منعه من السجود لآدم ادعاؤه : أنه أفضل منه على أساس العرق ، ومادة أصل الخلق ، حسب المقاييس التي اعتمدها كون النار جوهرًا نورانيًا لطيفًا ، والطين جسم كثيف ، فعندما وضع الفرضية على هذا الأساس كان البرهان فاسدًا ، لم يخرج بالنتيجة الصحيحة ؛ لأنه اعتبر الفضائل تقوم على العناصر المادية دون القيم الروحية ، وهنا خفي على إبليس أمران :

**الأول :** أن هذا المخلوق دون سائر المخلوقات نفخ الله تعالى فيه من روحه .

**الثاني :** أن المفاضلة تكون بغير الأعراق ، والأجسام .

إن اعتماد الأصل العرقي مقياساً للمفاضلة بين أنواع الخلق أوقع إبليس في دائرة رفض العدل الإلهي ، وعلى هذا المنطق رأى : أنه ظلم وإجحاف في حقه إذا سجد لآدم ، وذلك : أنه غاب عنه المنطق الحكيم ، وخفيت عليه الحكمة الإلهية اعتزازاً بالنفس ، واستناداً إلى العرق ؛ لأنه اعتقد أفضليته على آدم من عدة جوانب :

أ - أنه موجود قبل آدم خلقاً فما ينبغي أن يسجد له .

ب - أنه الأفضل من حيث مادة الخلق . وهو المقياس العرقي .

ج - أنه يتمتع بقدرات تعود إلى مادته لا يتصف بها آدم .

ولذا فقد غاب عن رشده قدرة الخالق الذي خلقه ، وخلق المادة التي هو منها ، وخلق فيها قدراتها ولو شاء لنزعها منها ومنه ، ولذلك كان يرى : أنه الأقوى ، والأقدر ، والأعلم من آدم ، وبالتالي فهو الأفضل ، تعصباً للعرق ، وبعداً عن الحق ، وبهذا رفض ميزان العدالة الإلهية ، وميزان التفاضل الشرعي الذي وضعه الله سبحانه وتعالى .

**خامساً - قبل الهبوط :**

لقد كانت أول معصية إبليس رفضه أمر الله سبحانه وتعالى في السجود

لآدم . ولكن هذا الرفض للأمر ، ما هي حقيقته ؟ وما هو كنهه ؟

هل كان مجرد سهو ، أو خطأ ندم عليه ؟

أم كان رفضه استكباراً ، وغروراً دخل نفسه ؟

لقد كانت معصية إبليس غروراً ، وكبراً ، وإصراراً على المعصية ، فهو لتكبره ، وغروره ردّ الأمر على الأمر بقوله : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (1) . فقد جاء الجواب منه بصيغة الاستفهام الإنكاري الذي يدل على تعجبه من طلب السجود لأنه كان ينظر إلى نفسه : أنه الأفضل بدليل قوله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (2) .

فكان إبليس رد الأمر على الله سبحانه وتعالى بقوله : كيف تريدني أن أسجد لإنسان مخلوق من طين ؛ وأنا مخلوق من نار ؟ ! فهو يريد أن يبرر هذه المعصية بأن النار أرقى عنصراً من الطين ، ولقد ترتب على هذه المعصية أن غضب الله عليه ، وطرده من الجنة .

### سادساً - الصراع :

لما أيقن إبليس : أنه يائس من رحمة الله تعالى طلب النّظرة كما أسلفنا ليغوي من ذرية آدم من يستطيع أن يغويه ، فكان إمهاله في الدنيا ، ليزداد إثماً فوق إثمه الذي ارتكبه بعصيان أمر ربه ، ليستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره ، فيكون بذلك رأس أهل الشر في العقوبة ، كما كان رأسهم في الشر والكفر ، لذلك توهم إبليس : أنه يمكنه الاستعانة بعزة الله تعالى ، فقال كما أخبر عنه المولى عز وجل : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (3) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿ (3) . والآية فيها أدلة على :

(1) الإسراء ، 61 .

(2) الأعراف ، 12 .

(3) ص ، 82-83 .

- 1 - اعتراف من إبليس بعزة الله تعالى ، وقهره ، وسلطانه .
- 2 - إغواء الله تعالى له دليل أثر من آثار قدرة الله .
- 3 - إصرار إبليس على حمل ذرية آدم على المعاصي مع علمه بفساد دعوته .
- 4 - علم إبليس : أنه لا يستطيع إغواء جميع ذرية آدم ؛ لذلك استثنى المُخلصين .

وهنا جاء فصل الخطاب من الله تعالى بقوله : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾<sup>(1)</sup> لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ

لقد كان من تجاسر إبليس في مخاطبته الله تعالى بحيث أصرَّ على المعصية من جانب ، وطلب عون العزة لفعل الباطل من جانب آخر ، وهو أقبح من المعصية الأولى ، هنا نود أن نتوقف مع مفارقة ذهب إليها بعض المفسرين عندما فسروا قوله تعالى : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ على أنه قسم إبليس أمام الله ، ونعتقد : أن الموضوع يحتاج إلى أكثر من الحكم بالظاهر ؛ لذا نعرض لمناقشته على النحو الآتي :

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾<sup>(2)</sup> .

فهل أن المعنى المفهوم من سياق الآية هو القسم ، أم السببية ، أم العطف ؟

أما الفاء وإن قال البعض : إنها رابطة لجواب شرط مقدر بقسم كما ذكر الخراط بقوله : « الفاء رابطة لجواب شرط مقدر ، أي : إن أنظررتني ، فأنا أقسم ، والجار متعلق بـ أقسم المقدرة ، وجملة أقسم خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنا »<sup>(3)</sup> .

(1) ص ، 84-85 .

(2) ص ، 82 .

(3) مشكل إعراب القرآن ، ج 1 ، ص 457 .



وغيره يرى : أن الباء للقسم وإن وقع في قوله تناقض : « قسم بسلطان الله عز وجل ، وقهره ، وهو كما يكون بالذات يكون بالصفة ، فالباء للقسم على ما عليه الأكثر ، والفاء لترتيب مضمون الجملة على الإنظار ؛ أي : فأقسم بعزتك » (1) .

ونحن نستعرض الفاء التي تأتي على ثلاثة أوجه :

**الأول :** أن تكون عاطفة ، وتفيد الترتيب ، وهو نوعان : معنوي مثل قولنا قام زيد فعمر ، ومذكور وهو عطف المُفَصَّل على المُجْمَل كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (2)

**الثاني :** التعقيب وتأتي بمعنى : « ثم » كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا الطُّفْلَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلَقَةً مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ﴾ (3) فالفاءات في : ﴿ فَخَلَقْنَا أَلَقَةً مُضْغَةً ﴾ ، وفي : ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا ﴾ ، وفي : ﴿ فَكَسَوْنَا ﴾ بمعنى « ثم » جاءت متعاقبة مع تراخي معطوفاتها .

**الثالث :** السببية ، وذلك غالباً في عطف جملة على جملة كما في قوله تعالى : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى ﴾ أو عطف الصفات كما في قوله تعالى : ﴿ لَا كُفْرَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴾ ﴿ فَأَلْثَمَ مِنْهَا الْبَطُونُ ﴾ ﴿ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ (4) .

الفاء لم تكن للقسم ، ولا تعطي معناه ، والذي يبدو من سياق الآية : أنها سببية عاطفة فقد جاء قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (٧٦) قَالَ فَخَرَجَ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿ ٧٧ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿ ٧٨ ﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿ ٧٩ ﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿ ٨٠ ﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ ٨١ ﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ

(1) تفسير الألوسي ، ج 17 ، ص 403 .

(2) البقرة ، 36 .

(3) المؤمنون ، 14 .

(4) الواقعة ، 52-54 .

أَجْمَعِينَ ﴿ (1) . إذا تتبعنا الآيات ؛ نجد الفاءات التي وردت فيها قد استوفت المعاني الثلاثة التي ذكرناها ، فجميعها عاطفة ، معقبة ، سببية ، حيث كان السبب الأول هو تفضيل إبليس نفسه قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ ﴾ قال بسبب خروجي ﴿ فَأَنْظِرْنِي ﴾ ، قال : ﴿ فَإِنَّكَ ﴾ ، قال : ﴿ فَعِزَّنَكَ ﴾ فتتبع الآيات لا يلحظ منه معنى القسم .

وأما الباء فلها معانٍ كثيرة تزيد على الأربعة عشر معنى منها :

أ - الإلصاق وهو معنى لا يفارقها كقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ (2) .

ب - الاستعانة وهي الداخلة على آلة الفعل مثل : كتبت بالقلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَأُمِرُّ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ (3) .

ج - السببية كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ ﴾ (4) .

د - المصاحبة كقوله تعالى : ﴿ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ (5) .

هـ - الظرفية ، تأتي مكانية كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ ﴾ (6) . وزمانية كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا لَأَلْ لُوطٌ بَيْنَهُمْ بِسَحْرِ ﴾ (7) .

و - المقابلة ، وهي الداخلة على الأعواض ، كقوله تعالى : ﴿ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (8) .

(1) ص ، 76-82 .

(2) الأعراف ، 150 .

(3) الأعراف ، 145 .

(4) البقرة ، 54 .

(5) هود ، 48 .

(6) آل عمران ، 123 .

(7) القمر ، 34 .

(8) النحل ، 32 .

ز - التبعض كقوله تعالى : ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (1) .

ح - القسم وهو أصل أحرفه ، ولذلك خصت بذكر الفعل معها نحو أقسم بالله ، وكقوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ (2) .

ومن معانيها أيضاً التوكيد ، والغاية ، والبدل ، والمجاورة ، والاستعلاء .

والمعاني التي تعالج موضوع الآية مما تقدم : الاستعانة ، والتبعض ، والقسم :

فإن كان قوله تعالى : ﴿فِعْرَنَكَ﴾ قَسَمًا كما ذهب كثير ممن تناول شرح هذه الآية ، وتفسيرها ، فإنه لا يقع لما يأتي :

1 - إن إبليس أقسم بالحق أن يفعل الباطل !

2 - لا يكون حلف اليمين إلا بلفظ الجلالة ، قال عليه السلام : « من كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت » (3) .

3 - اليمين يكون في المباحات .

فمن هذه الوجوه الشرعية يكون الدليل الأول على معنى ﴿فِعْرَنَكَ﴾ ليس قسماً ، فلو أن أحداً أقسم أن يشرب الخمر ، أو أن يسرق ، ولم يفعل ؛ فليس عليه كفارة يمين ؛ لأنه أقسم على المعصية ، وليس هناك يمين في معصية ، وعليه يخرج القسم من هذا الوجه ، فكيف يكون قسماً على إغواء الناس أجمعين ، وهي أكبر المعاصي .

(1) الإنسان ، 6 .

(2) فاطر ، 42 .

(3) صحيح البخاري ، ج 9 ، ص 489 .

## ولذلك نرى :

- 1 - أن الله تعالى لا يقره على يمين باطلة .
  - 2 - الإغواء كان بسبب المشيئة ، وليس بالقسم .
  - 3 - العزة هي التي منحت القدرة على إغواء البعض بما جرت به المشيئة .
- أمّا من جانب اللغة فإن كانت الباء أجلى معانيها القسم ؛ إلا أنه في هذا السياق أضعف المعاني ، والسمتان الغالبتان على الباء هما الاستعانة ، والتبويض . ذلك : أنه لو كان قسماً بعزة الله تعالى ، واستُجيب له لأغوى الناس أجمعين ، غير أن معنى الباء هنا أخرجت العبارة من القسم لإفادتها معنيين :

- 1 - **الاستعانة** : إذ لولا عون العزة بما جرى به القلم لم يستطع أن يغوي أحداً .
- 2 - **التبويض** : إذ لو كان قسماً ، واستُجيب له به ولم يكن إعانة ببعض العزة ، لكان بجميع العزة ، وكان إبليس أغوى الناس جميعاً ، ولكن إفادة التبويض كان استعانة ببعض العزة لإغواء البعض ، مما أخرجه عن القسم . فما هي دلالة القول في الآية ؟

**أولاً :** يجب أن نعرف معنى العزة لنفهم طبيعة اللفظ في السياق ، فالعزة بالكسر هي القُوّة ، والغَلَبَة <sup>(1)</sup> ، ويقال عَزَزْتُه بآخر قوِيته <sup>(2)</sup> ، والعزة بالنسبة للإنسان حالة مَانَعَة له من أن يُغَلَب <sup>(3)</sup> ، فهي القوة على الغلبة <sup>(4)</sup> ، وكل هذه المعاني دالة على أن العزة هي القوة التي تُمنح من قوي لآخر هنا يجب أن

(1) تاج العروس ، ج 1 ، ص 3760 .

(2) المصباح المنير ، ج 2 ، ص 407 .

(3) تاج العروس ، ج 1 ، ص 3759 .

(4) معجم الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 20 .

ندرك : أن في الآية منحى آخر غير القسم هو أن إبليس يعلم : أن الله أعز آدم ، وقدمه على إبليس فعزّه على بقية المخلوقات بأن أمره بالسجود إليه ، فقال بعزتك لآدم لأغوينه ، وذريته إلا المخلصين . هنا السياق يتوافق مع طبيعة إبليس العاصي المغرور المتكبر على آدم ، أما القسم بعزة الله ؛ فيعطي انطباعاً : أن إبليس من العارفين بالله ، والموقنين بقدرته ، وعزته ، وهو أمر لا يستقيم مع مبدأ العصيان ، فلو كان كذلك ما عصى الله !

**والتفسير الآخر الذي يقبل الاحتمال :** أن آدم ذكر عزة الله للمخلصين وذلّه للعصاة الغاوين ، فقال إبليس بعزتك التي تذلل العاصي ، وتعز المخلص لأغوينهم إلا المخلصين فأنا ليس لي حيلة عليهم ؛ لأنهم من المخلصين الذين فازوا بعزتك .

هذان التفسيران أقرب إلى المنطق من القسم ، كذلك فإن هناك ما يتعارض مع احتمال القسم ، ومفاده : أن عزة الله واحدة لا تتجزأ ، ولا يمكن أن يعطيها لغاوي عاصي يذل بها عباده ، ويغويهم بها وهذا الحاصل بالفعل ؛ لأن الله سبحانه وتعالى أمهل إبليس ، ولم يعنه على أي من أفعاله ، لذلك كان كيده ضعيفاً مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (1) ، أما الإنسان فكيده عظيم مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (2) .

وكيد الشيطان ضعيف ؛ لأنه قائم على أوهام ينطلق منها ليوهم الإنسان بالباطل ، أما كيد الإنسان فهو قوي ؛ لأنه ينطلق من العقل الذي وهبه إياه الله ، عز وجل ، يقول الحق واصفاً هذا العقل : ﴿ إِنَّهُ فَكَرَ وَفَدَرَ ﴾ (١٨) فَقُلْ كَيْفَ

(1) النساء ، 76 .

(2) يوسف ، 28 .

﴿قَدَرٌ﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴿قَدَرٌ﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿نَظَرٌ﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿اَسْتَكْبَرَ﴾ (1) .

هنا يجب أن نفرَّ بحقيقة هي أنه ليس كل غواية من الشيطان ، ولا كل كيد منه ، لكن يمكن القول : إن الشيطان هو مؤثر من المؤثرات على قرار الإرادة ، فليس للشيطان القدرة على التأثير في القرار بشكل حاسم ، ومؤثر إلا على القسم الذي قرر من البدء اتِّباع خطوات الشيطان ، أما القسم الآخر فيؤثر فيهم ، فهم بين مستعبد بالله من هذه الدعوة ، وبين ساقط في مهاوئها ، كما يخبرنا المولى ، عز وجل : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (2) .

**بقي القسم الأخير :** وهم : المخلصون ، فهؤلاء ليس لإبليس عليهم سلطان لا ضعيف ، ولا قوي ، لا قريب ، ولا بعيد . اللهم اجعلنا ، وأمة محمد منهم !

هنا أجاب الله تعالى : إن قولي الحق ، وقولك يا إبليس باطل لا يقين فيه ، لأملأن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من ذرية آدم أجمعين لا فرق بين تابع ، ومتبوع .

لقد أخبر الله تعالى : أن آدم وإبليس قد أهبطا إلى الأرض ، وهذا الهبوط دليل على :

- 1 - إنفاذ المشيئة الإلهية بجعل خليفة في الأرض
- 2 - الابتلاء ، والامتحان لآدم ، وذريته في هذا الهبوط .
- 3 - الوفاء بالوعد من الله تعالى بالنِّظرة التي أنظرها لإبليس .

(1) المدثر ، 18-23 .

(2) إبراهيم ، 22 .

إلا أن اعتراف آدم ﷺ وزوجه بالذنب ، وطلب الرحمة ، والمغفرة كان سبباً في قبول التوبة ، قال تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (1) . فهذه الآية تبين بالنسبة لآدم وزوجه :

- إظهار الندم .
- الاعتراف بالذنب .
- الإقرار بالخطيئة .
- طلب الرحمة ، والمغفرة .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْتَوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (2) .

لقد هبطوا جميعاً إلى الأرض : آدم ، وزوجه ، وإبليس ؛ ليبدأ الصراع بمبادرة من إبليس ترتب عليها مواجهة دائمة في هذا الصراع الدائر الذي نتج عنه عداوة مستمرة بين الفريقين ، فما تزال المعركة دائرة على قدم ، وساق بين الحق ، والباطل ، وبين الخير ، والشر ؛ ليتم الابتلاء ، ويجري قدر الله بما شاء .

إن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ، وقبول توبته بها لم تكن لتلقى رضا إبليس ، بل زادته حنقاً وحسداً : ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَخْلِفُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (3) .

فقد عاهد نفسه أن يقعد للإنسان بكل سبيل يزين له المعصية ، ويصده عن الطاعة ، فقد زين الشيطان للإنسان الكفر ، والقتل ، والزنى ، وشرب

(1) الأعراف ، 23 .

(2) البقرة ، 37 .

(3) الأعراف ، 16-17 .

الخمير ، ولم يكتفِ بذلك ، بل تعهد أن يتخذ منهم نصيباً مفروضاً ، وكأن ذلك إرثٌ له ، وذلك لسبيين :

**الأول :** الثقة المفرطة في النفس ، وهي من صفات إبليس ، ومن تبعه .

**الثاني :** علمه بأن سيكون له أتباع ، لا يعصونه فيما يأمرهم به .

لذلك قال تعالى على لسانه : ﴿ وَقَالَ لَا تَخْذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۖ وَلَا ضَلَالَةً وَلَا مُتَّبِعِينَ وَلَا مُؤْتَمِرِينَ وَلَا مُؤْتَمِرِينَ ۚ أَذَاتُ الْأَنْعَامِ وَالْأَنْعَامِ وَلَا أَمْثَلُ ۚ فَتَبَيَّنَ لَهُ الْآيَاتُ فَكَذَّبَ ۚ فَلْيُغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ ۚ ﴾ (1) .

إن المتتبع لما صدر من بعض بني آدم سابقاً ، وهو مستمر إلى الآن بشكل أعظم دليل على تحقق صدق إبليس ( وهو كذوب ) :

- 1 - إضلال بعض بني آدم ، وهذا لا يخفى على عاقل .
- 2 - قطع آذان بعض الأنعام على أنها نذر تترك سائمة ، لا تُرَدُّ ، ولا يؤكل لحمها ، ولا يشدُّ عليها رحل .
- 3 - تغيير خلق الله بعمليات جراحية غير استشفاء ، أو علة مرض .

ولعلم الله تعالى بالقدرات التي منحها لإبليس ، والطاقات الكبيرة التي يستطيع أن يصل بها إلى غرضه ؛ فقد حذر الله تعالى عباده منه ؛ كي يقيم عليهم الحجة ؛ حيث قال تعالى : ﴿ يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا ۚ إِنَّهُ يَرْسُومُ هُوَ وَفِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ ﴾ (2) .

إن الحوار الذي أظهر فكرة الصراع المرتبط بالمصير ، والنهاية أعطى للماضي قيمة كبيرة لدى الإنسان ، وذلك لما يترتب على هذا الماضي من مسؤولية الإنسان عما يفعله في الحياة الدنيا ، ثم التقاط العبر مما حدث في

(1) النساء ، 118-119 .

(2) الأعراف ، 27 .



الماضي البشري ، وهو ما يقع في صميم النظرة الآنية التي تضمن المستقبل .  
 من خلال قصة خلق آدم ﷺ التي بدأ بها الصراع بين الخير ، والشر ، الشر الذي تمثل في الدور الذي يقوم به إبليس ، ابتداءً برفضه السجود له ، ثم بإغوائه في معصية ربه ، وإخراجه من الجنة ، ثم بعد ذلك تعهده بمواصلة العمل من أجل تخريب ، وهدم كل ما بينه الإنسان ، وينجزه من إعمار الدنيا ، والدين ، بمعنى تدمير الحضارة الإنسانية ، وخروج الإنسان من الدنيا إلى الآخرة صفر اليدين ، وبهذا يكون إبليس هو الحيلولة بين الإنسان ، وبين فعل الخير من جهة ، والساعي لإثارة الفتن في الحياة الدنيا ، مما يترتب عليه عقاب الآخرة من جهة ثانية ، وبهذا يكون إبليس قد وصل إلى الغاية التي ينشدها ؛ وإن لم يجن منها فائدة .

#### اعتبارات الحوار ( الخطاب ) :

الحوار في هذه المرحلة فيه خطاب من الله سبحانه وتعالى إلى خلقه من الحاضرين مقام الحوار ، فمن خلال التأمل في مشهد خطاب الاستخلاف بين المخلوقات ذات الصلة الوثيقة بماضي الإنسان في الجنة ، وحاضره في الأرض ، ومستقبله بالعودة إلى الجنة مسكنه الأول ، أو إلى النار استناداً إلى نتيجة استخلافه في الأرض . نجد : أن مخلوقات حضرة الخطاب الإلهي انقسمت بين طائع مستفسر ( الملائكة ) ، وعاص مجادل ( إبليس ) وخليفة ( آدم ) لم يتكلم إلا بإذن ربه ، وبناءً على ذلك المشهد الخطابي تغيرت اعتبارات المخلوقات الثلاثة وعلى النحو الآتي :

- قبل الخطاب .

- أثناء الخطاب .

- ما بعد الخطاب .

فرسم مستقبل كل مخلوق من المخلوقات بعد خطاب ، وتكليف الاستخلاف :

الاعتبار الاستخلافي في الخطاب ، الإلهي إجمالاً :

أولاً - التساوي التام .

ثانياً - ما أفضى إليه الخطاب الإلهي :

عدم المساواة تأسيساً على موقف كل مخلوق في المخاطبة الإلهية فكان :

أ - استفسار ، وتسليم ، وسجود .

ب - خلاف ، وكفر ، وامتناع ، وطرده لرفض السجود للأمر الإلهي .

ج - صمت ، وطاعة ، واستجابة ، وتكريم .

ثالثاً - متربات ما بعد خطاب الاستخلاف ، وتمثلت في :

- اعتبار تفضيلي لآدم .

- هبوط منزلة إبليس ، وطرده من حضرة الخطاب الإلهي .

رابعاً - اعتبار التساوي من جديد بين آدم ، وإبليس ، وذلك بعد :

أ - وسوسة إبليس لآدم وزوجه .

ب - وقوع آدم وزوجه في المعصية .

ج - التساوي في هبوط آدم ، وزوجه ، وإبليس من الجنة إلى الأرض .

وهنا تأتي مرحلة ما بعد الهبوط ، ويترتب عليها :

أ - هبوط ، واختبار .

ب - صراع ، وإصرار .

خامساً - يترتب على هذا اعتبار أخروي تفاضلي ليس فيه مساواة ، بل فيه :

أ - المرد للقرار ( جنة ، أو نار )

ب - ضرب الحجاب .

ج - تكريم ، وتنعيم .

د - عذاب ، وجحيم .

ولتفصيل ما أجمل نعود إلى القرآن الكريم ، ونقرأ مشاهد الخطاب الاستخلافي ، وما فيه من اعتبارات سبق الإشارة إليها :

### 1 - اعتبار التساوي التام :

- قبل خطاب الاستخلاف كانت المخلوقات الثلاثة في تساوي تام ؛ لأن الله خلقهم جميعاً ، ولا نعلم بالقطع أيّاً منهم خلق قبل الآخر ، ولكن من خلال السياق القرآني يتبين : أن الجن الذين يمثلهم إبليس والملائكة الذين شهدوا خطاب الاستخلاف كانوا أسبق في الخلق من آدم ، مع التأكيد : أن هذا ترتيب سبق لا رتبة .

- ومن بين شواهد التساوي : أن الله سبحانه وتعالى أعطى لكل مخلوقٍ منهم تكليفاً فقد كانت الملائكة ، ومعهم إبليس في مقام التسبيح بحمد الله ، والتقديس له ، والطاعة التامة .

ولتأكيد التساوي بين المخلوقات الثلاثة أعطى الله لآدم تكليفاً يتناسب مع ما خلق عليه ، ومنه ، وله ، وهذا التكليف يتباين مع تكليف الملائكة ، وإبليس ، وذلك لأسباب :

### - مكان التكليف :

فتكليف آدم في الأرض ، وتكليف الملائكة ، وإبليس ( قبل الطرد ) في السماء

### - زمان التكليف :

زمن التكليف لآدم ( مدة حياة آدم ، ثم مدة حياة كل فرد من ذريته ) وهذه المدة بالتأكيد محددة بعمر كل إنسان ، وعليه نقول : إن كل إنسان بمفرده يمثل آدم في الأرض ، وإن اختلف الاسم ، والعمر ، والزمن الذي

ظهر فيه ؛ لأنه قد كلف بما كلف به أبوه آدم من قبل على الأرض ، وليس في السماء .

أما الملائكة فاستمرّ تكليفهم ، فمن حيث الزمان ( فزمنهم ممتد ) فهم لا يموتون إلا في يوم الهلاك العام ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (1) ، وكذلك طبيعة التكليف لم تتبدل ، فهم يسبحون بحمد الله ، ويقدّسون له .

### - طبيعة التكليف :

تكليف آدم تمثّل في عبادة الله وحده اختياراً ، وتعمير الأرض ، وإحقاق الحق إزهاقاً للباطل . وللملائكة عبادة الله جبلاً على الطاعة دون اختيار ، أما إبليس فقد تبدّل تكليفه بعد كفره ، وطرده من زمرة الملائكة المسبحين المقدّسين ، وألزم نفسه تكليفاً من عند نفسه لا من عند الله ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (2) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٦٩﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٧٠﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَتَائِبَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (2) .

### ومن نتائج تبديل التكليف :

- الامتداد الزمني لإبليس ؛ لأنه أصبح من المنظرين : ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أمهلني إلى يوم البعث وهو وقت النفخة الأخيرة . ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ إلى النفخة الأولى (3) . ويدلّ على : أنه طلب الإنظار من الله تعالى إلى وقت البعث وهو وقت النفخة الثانية حين يقوم الناس لرب العالمين ، ومقصوده : أنه لا يذوق الموت ، فلم يعطه الله تعالى ذلك ، بل ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ . ثم هاهنا قولان : الأول : أنه تعالى أنظره إلى النفخة

(1) القصص ، 88 .

(2) الأعراف ، 14 - 17 .

(3) تفسير النسفي ، ج 1 ، ص 362 .

الأولى لأنه تعالى قال في آية أخرى : ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (١) والمراد منه اليوم الذي يموت فيه الأحياء كلهم ، وقال آخرون : لم يوقت الله له أجلاً بل قال : ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ، وقوله في الأخرى : ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ المراد منه : الوقت المعلوم في علم الله تعالى . والدليل على صحة هذا القول : أن إبليس كان مكلفاً ، والمكلف لا يجوز أن يعلم : أن الله تعالى أخر أجله إلى الوقت الذي يعلمه إبليس ؛ لأن ذلك المكلف يعلم : أنه متى تاب ؛ قبلت توبته فإذا علم : أن وقت موته هو الوقت المحدد أقدم على المعصية بقلب فارغ ، فإذا قرب وقت أجله ؛ تاب عن تلك المعاصي فثبت : أن تعريف وقت الموت بعينه يجري مجرى الإغراء بالقبيح ، وذلك غير جائز على الله تعالى » (٢) .

**وعليه :** فقد أصبح تكليف إبليس ذاتياً ، وليس إلهياً فكان جزاؤه الطرد من :

- انقطاع التكليف الإلهي ، فأصبح تكليفه ذاتياً .

- الطرد من مقام الخطاب الإلهي .

- الطرد من الجنة التي قام بإغواء آدم فيها ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣) ، ثم يأتي :

- نتيجة التكليف الإلهي ، والذاتي ( العودة للجنة ، أو دخول النار ) .

إذاً فقد كان في البدء المساواة اعتباراً بين المخلوقات الثلاثة . وما يدعم ذلك الاعتبار الخطاب الإلهي بالمساواة ، كما في قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

(١) الحجر ، 37-38 .

(٢) الرازي ، ج 7 ، ص 53 .

(٣) الأعراف ، 18 .

أَلِدَّمَاءَ وَنَحْنُ سُبْحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ، فالخطاب في الآية على التساوي لمخاطبين ، ومستمع ، فالمخاطبان الملائكة ، وإبليس لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ ﴾ والمقصود : الملائكة ، وإبليس ؛ لأن الملائكة أعم ؛ لأنهم الأكثر في ذلك المقام من إبليس ، والذي أضيف لهم إضافة جمع في الخطاب ، لا جمع في النوع ، مع وجود الخليفة ( آدم ) في مشهد الاستخلاف قبل وبعد النفخ فيه من روحه تعالى بحيث يعلمه الله خلقاً ، وعلماً ، وتكليفاً ، وتجهله الملائكة ، وإبليس خلقاً ، وعلماً ، وتكليفاً .

وهنا نلاحظ : أن مرتبة التساوي كانت على مرحلتين :

#### - الأولى مرحلة الخلق :

وقد كان التساوي قائماً بين الملائكة ، وإبليس قبل النفخ في آدم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿١٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (2) .

إنه سجود الخلق ، ولذا نتساءل هل كان هناك أكثر من سجود ؟

هل كان سجود بعد الخلق ، وسجود بعد الاستخلاف ؟

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (3) ، فهذا السجود بعد النفخ فيه من الروح التي خلقها الله ، والإضافة لله إضافة تشريف ، لا إضافة تبعيض ، ومن هذا جاء ( ناقة الله ) و ( بيت الله ) ، والفاء في : ﴿ فَقَعُوا ﴾ للسرعة ، وهي واقعة في جواب الشرط تفيد حدوث الأمر قبل زمن حدوث الفعل ، وفي هذا المشهد الخطابي لم يظهر فيه خطاب الملائكة ، واستفسارها ، ولم يظهر فيه أيضاً أمر الاستخلاف الذي ذكر في آية البقرة في

(1) البقرة ، 30 .

(2) ص ، 71-72 .

(3) ص ، 72 .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰٓؤُلَاءِ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٣﴾ قَالَ يٰٓأَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبٰى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٣٥﴾ ۝ (1) ، وعليه فدلالة الآيات في القرآن الكريم متجددة لا تقف عند حدٍّ ؛ ومع أنه علينا أن نجتهد إلا أنه يبقى القرآن علماً لا يعلمه إلا الله جلَّ وعلا .

وعليه :

- إن آدم كان مستمعاً للخطاب في ( سجود الاستخلاف ) .

- وغير مستمع لخطاب قبل النفخ .

وآدم المخلوق الوحيد في مقام الخطاب الإلهي الذي صمت لله وتكلم بأمر الله ، فهو لم يُجب ، ولم يقل إلا ما أمره الله به ، بعد ما أظهرته الملائكة من تساؤل ، واستفسار ( عن الخليفة ، وتكليفه ) : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ ﴾ .

- تكليفها ( فهي تسبح وتقدس لله ) .

فتكليف آدم ( بالاستخلاف ) أظهر عدم علم الملائكة بنوعية تكليفه ، مع علمها بتكليفها ، فاعتقدت : أنه سيفسد فيها ، ويسفك الدماء ، وهذا يتنافى مع تكليفهم ، وجبلهم على الطاعة التامة المتمثل في قولهم : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ ﴾ .

واستفسار الملائكة لن يفضي إلى نزول رتبهم بل إلى بقائها ؛ لأن

سؤالهم سؤال استفسار لا إنكار ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (1) .

ومن هنا يبرز جانب تفضيلي لآدم يتكرر ثلاث مرات أثناء خطاب الاستحلاف :

1 - تكريم العلم بالأسماء ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (2) .

ولمّا ظهر عدم معرفة الملائكة بما علمه الله لآدم : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (3) .

2 - تكريم تعليم الأسماء للملائكة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْبِيَائِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (4) .

3 - تكريم السجود :

سجود الملائكة بعد التعليم كما في آيات البقرة ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ (5) .

ثانياً - ما أفضى إليه الخطاب الإلهي :

وهنا ندخل منعطفاً جديداً في الاعتبار التفضيلي لما أفضى إليه الخطاب الإلهي في تكريم السجود وفقاً للآتي :

(1) البقرة ، 32 .

(2) البقرة ، 31 .

(3) البقرة ، 32 .

(4) البقرة ، 33 .

(5) البقرة ، 34 .



أ - احتفاظ الملائكة باعتبارها الأول بالطاعة التامة لله تسييحاً ، وتقديساً ، واستجابةً لأمره في السجود لآدم .

ب - فقدان إبليس لاعتباره ( الطاعة التامة لله ) والبقاء لبعض الوقت في مقام التسييح والتقديس حتى ينتهي من عرض حجته ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ <sup>(1)</sup> ، فقال الله الحليم له : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ ، فقال حجته التي تبرز العصيان ، والتكبر ، ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ <sup>(2)</sup> .

وعليه نتساءل هل النار أفضل من الطين ؟ هذا ظنُّ إبليس « وقول إبليس لعنه الله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب ، كأنه امتنع من الطاعة ؛ لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ، يعني ( لعنه الله ) : وأنا خير منه ، فكيف تأمرني بالسجود له ؟ ثم بين : أنه خير منه بأنه خلق من نار ، والنار أشرف مما خلقت منه ، وهو الطين ، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ، ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أنَّ الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى : ﴿ فَعَوَّلَ سَاجِدِينَ ﴾ ، فشذ عن الملائكة بتزك السجود ؛ فلهذا أبلس من الرحمة ، أي : أيس من الرحمة ، فأخطأ ( قَبَّحه الله ) في قياسه ، ودعواه : أن النار أشرف من الطين ، فإن الطين من شأنه الرزانة ، والحلم ، والأناة ، والتثبت ، والطين محل النبات ، والنمو ، والزيادة ، والإصلاح . والنار من شأنها الإحراق ، والطيش ، والسرعة ؛ ولهذا خان إبليس عنصره ، ونفع آدم عنصره في الرجوع ، والإنابة ، والاستكانة ، والانقياد ، والاستسلام لأمر الله ، والاعتراف ، وطلب التوبة ، والمغفرة » <sup>(3)</sup> .

(1) البقرة ، 34 .

(2) الأعراف ، 12 .

(3) تفسير ابن كثير ، ج 3 ، ص 392 .

### ثالثاً - المترتب على الطرد الأول :

- طرد من حضرة التقديس ، والتسبيح ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ <sup>(1)</sup> ، وصيغة اهبط تؤكد : أنه الطرد الأول ، وذلك بدليل : أن إبليس سيكلف نفسه تكليفاً ذاتياً يصير فيه على المعصية ، ويتبع آدم ليضلّه عن السبيل القويم ، ويتعدّى أمره على تتبع ذريته ، وهذا ما ورد في كتاب الله بقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ <sup>(2)</sup> قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَنَالُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْءُومًا مَلْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ <sup>(3)</sup> ، والطرد هنا من مقام التسبيح والتقديس والتكليف الإلهي بدليل قوله تعالى لأدم : ﴿ وَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ <sup>(4)</sup> .

والتساؤل : لو كان الطرد من الجنة التي أسكن الله آدم فيها هل سيكون لإبليس القدرة على دخولها ، وإغواء آدم فيها ؟

هل كان الهبوط من الجنة ثنائياً أم جماعياً ؟

فلو كان ثنائياً لهبط آدم وزوجه ، ولكن سياق القرآن يؤكد : أن الهبوط ثلاثي لقوله تعالى في أكثر من آية : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ <sup>(4)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَنَادُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ <sup>(5)</sup> فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا

(1) الأعراف ، 12 .

(2) الأعراف ، 14-18 .

(3) البقرة ، 35 .

(4) البقرة ، 36 .

عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ (1) .

إذاً كان لإبليس القدرة على دخول الجنة ، ولا قدرة له على دخول حضرة الملائكة ( التسبيح ، والتقديس ) لأنه طرد منها ، وهنا سيكون الطرد الثاني بالهبوط من الجنة إلى الأرض ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

ولكن سيبرز معيار تفاضلي لآدم وزوجه :

- معيار الاستغفار ، والندم الذي لم يقم به إبليس ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَاهُ أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (2) قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (2) .

فإن كان في الهبوط مساواة ؛ فلم يكن في الندم ، والرجوع إلى الله مساواة ؛ حيث تاب آدم ، وزوجه ، فتاب الله عليهما ، وعصى إبليس ، وأصرَّ على العصيان ، فحرم من الجنة إلى الأبد . قال الله تعالى : ﴿ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّابٌ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ (3) .

**وعليه :** فكان معياراً تفاضلياً آخر لذرية آدم ، وهو الوصية التي تبعدهم عن طريق التكليف الذاتي ، والإغواء ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَبْنِي آدَمَ لَا يَفْنَنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ آبَايَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا إِنَّهُ

(1) الأعراف ، 19- 22 .

(2) الأعراف ، 23- 25 .

(3) البقرة ، 37 .

يَرْبِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوَنَّهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ .

رابعاً - اعتبار التساوي من جديد بين آدم وإبليس ، وذلك بعد :

أ - وسوسة إبليس لآدم وزوجه .

**قلنا :** إن إبليس طرد من مقام التقديس ، والتسبيح ، وكانت له القدرة على دخول الجنة التي سكن فيها آدم ، فوسوس ، وقال ، وأقسم لهما : أنهما إن أكلا من الشجرة ؛ أصبحا ملكين ، وعاشا خالدين ، فهنا وسوسة ، وقول ، وقسم ، يدل ذلك على ؛ أنه دخل إليهما الجنة ؛ لأنه لما يُطْرَدُ منها بعد كما يشير النص القرآني .

ب - وقوع آدم وزوجه في المعصية .

أكل آدم وزوجه من الشجرة بعد غواية إبليس لهما : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (2) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَنْتَهِمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنْتَهِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ أَخْلَدُ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ (3) .

- التساوي في هبوط آدم وزوجه وإبليس من الجنة إلى الأرض .

﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (4) ، هنا

(1) الأعراف ، 27 .

(2) البقرة ، 37 .

(3) طه ، 115-121 .

(4) البقرة ، 36 .

يتساوى الجميع في الهبوط من الجنة آدم ، وزوجه ، وإبليس ، لبدأ صراع من جديد محوره تصميم إبليس على غواية آدم ، وذريته ، وعدم توبة إبليس ، مع فتح باب الرحمة لآدم بالتوبة ، والندم على المعصية ، والنسيان ، وهنا يبرز جانب تفاضلي جديد لآدم ، وهو :

د - اجتباء الله له ، وقبول توبته :

قال الله تعالى : ﴿ فَلَقِيَ ءَادَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ (1) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (2) ، وهذا الاعتبار التفاضلي لم يكن لإبليس ؛ لأنه لم ، ولن يتوب .

وفي الأرض تكون خلافة آدم ، وذريته المتمثلة في عبادة الله ، وإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، والصراع ضد قوى الشر ؛ التي تخرج من التكليف الإلهي إلى التكليف الذاتي ؛ الذي خرج إليه إبليس .

خامساً - الاعتبار الأخروي ، وهو تفضيلي ليس فيه مساواة بل فيه :

أ - المراد للقرار ( جنة ، أو نار ) :

مصدقا لقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (3) ، وقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (4) ، وقوله تعالى :

(1) البقرة ، 37 .

(2) طه ، 122 .

(3) النحل ، 97 .

(4) غافر ، 40 .

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ﴾ (1) .

### ب - ضرب الحجاب :

مصدقاً لقوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ﴾ (2) .

### ج - تكريم وتنعيم :

فلا شك : أن من سار وفق التكليف الإلهي ؛ سيكون له معيار تفاضلي يتباين بالقطع مع الذين ساروا وفق التكليف الذاتي الذي يعتمد الضلال ، والهوى ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (3) ، فالذين حققوا الخلافة على الأرض ، وانتصروا على هواهم ، ولم يتبعوا تكاليف ذاتية ، وأطاعوا الله فيما أراد من استخلافهم على الأرض ؛ كانوا من أصحاب الجنة ؛ الذين قال الله فيهم : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (4) .

### د - عذاب وجحيم :

أما الذين ساروا وفق هوى إبليس وابتعدوا عن الخطاب الإلهي ومستحقات الاستخلاف ؛ فإنهم سيرون صنوف العذاب ، والجحيم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّىٰ لَيَتَىٰ لِمَ اتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ

(1) فصلت ، 46 .

(2) الأعراف ، 44-45 .

(3) الجاثية ، 23 .

(4) الفرقان ، 24 .

بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿١﴾ .

### ولسائل أن يسأل أين الملائكة واعتبارهم ؟

نقول : قد بقوا على تكليفهم الإلهي جُبلوا على الطاعة ، لا يعصون ما أمرهم الله ، ويفعلون ما يؤمرون .

وبالحساب ، والعقاب ، وبالجنة ، والنار تتوقف الاعتبارات المترتبة عن حضرة الخطاب الإلهي ، وتكليف الاستخلاف وتمام وضوحها .

### مستويات الحوار :

إن التعريف الاصطلاحي للحوار قريب من معناه اللغوي ، وقد عرّف بأنه : مراجعة الكلام بين طرفين ، أو أكثر دون وجود خصومة بينهم بالضرورة ، وإنما قد تكون ، فيتحوّل الحوار إلى جدل (2) .

وقد كان الحوار في مشاهد الخطاب الإلهي على ثلاثة مستويات ، ومنها :

### المستوى اليقيني :

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٣﴾ قَالَ يَتَّخِذُ أَنْبِيَائَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾ وَقُلْنَا يَتَّخِذُ مَنْ أَسْكَنَ أَنْتَ زَوْجَكَ

(1) الفرقان ، 25-29 .

(2) ينظر الجدل في القرآن - حسن الشرقاوي ، ص 7 ، منشأة المعارف - الإسكندرية ،

الْجَنَّةَ وَكُلًّا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ .

مستوى الحوار في الآيات يقيني ؛ لأنه إخبار من المولى عز وجل للملائكة عن غيب لا تعلمه ، ولم يكن مستوى جدلياً ؛ لأن الملائكة لا تجادل خالقها ، وهي في مقام الطاعة ، والملائكة تساءلت لافتقارها للمعرفة بحقيقة الخليفة ، وطبيعة قدراته ، وإمكاناته ، ومن هذا الحوار يمكن أن نصل إلى بعض ملامحه المميزة ، ومن أبرزها :

1 - الملائكة لم تعرف عن آدم بقدر معرفة آدم عنها .

2 - الملائكة تعتقد : أنها تمتلك مقومات الخليفة .

3 - الملائكة اعتقدت : أن الاستخلاف عبادة محضة .

4 - آدم تلقى علماً إلهياً .

5 - استطاع آدم القيام بالإنباء كما أراد الله له ( بشكل معجز ) .

نتوقف ؛ لنقول : إنه تبين من هذا المستوى الحوارى : أن طبيعة خلق آدم أكثر ملائمة من طبيعة خلق الملائكة لمهمة الاستخلاف في الأرض ، حيث كان لآدم إرادة الاختيار ، وهو قرار مهم جداً يمكن أن يقدم له عوناً كبيراً في إعمار الأرض من خلال اختيار الأفضل ، وترك الأسوأ ، وهو ما لم تكن الملائكة قادرة عليه ؛ لأنها مكلفة بالطاعة فقط ، أما آدم فمكلف بالطاعة ، والإعمار ، فهو يعمل للدين ، والدنيا . هذه مسألة .

**والمسألة الثانية في خلق الاثنين :** أن آدم كان في خلقه ملتصقاً بالأرض ، فهو منها ، وإليها ، أما الملائكة فكان خلقها سماوياً ، فهي بأجنحتها لا تناسب المكوث على الأرض مع قدرتها على ذلك ، وإلا لماذا خلقت الأجنحة لها ؟



فالحوار هنا نَبَعَ من يقين الملائكة ، فطلبت بالسؤال مزيداً من التفاصيل .  
 عليه : فهو حوار يقيني ، ويفسر البعض هذا اليقين على النحو الآتي :  
 « المقصود من ذلك السؤال : أن الإنسان إذا كان قاطعاً بحكمة غيره ، ثم  
 رأى : أن ذلك الغير يفعل فعلاً لا يقف على وجه الحكمة فيه ، فيقول له :  
 أتفعل هذا ؟ ! كأنه يتعجب من كمال حكمته ، وعلمه ، ويقول : إعطاء هذه  
 النعم لمن يفسد من الأمور التي لا تهتدي العقول فيها إلى وجه الحكمة ، فإذا  
 كنت تفعلها - واعلم أنك لا تفعلها إلا لوجه دقيق ، وسرٍّ غامضٍ أنت مطلع  
 عليه - فما أعظم حكمتك ، وأجل علمك ! فالحاصل : أن قوله : ﴿ قَالُوا  
 أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ ﴾ كأنه تعجب من كمال علم الله تعالى ، وإحاطة حكمته  
 بما خفي على كل العقلاء » (1) .

فطبيعة هذا الحوار لم يبن على الجدل كما يدل تعريف الجدل ،  
 « فالجدل المفاوضة على سبيل المنازعة ، والمغالبة ، وأصله جدل الحبل ؛  
 أي : أحكمت فتله » (2) .

والملاحظ في الحوار السابق : أنه يخلو من الجدل ، بل نجد فيه التسليم  
 الواضح من الملائكة بقدرة الله ، وعلمه عز وجل : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا  
 عَلَّمْتَنَا ﴾ .

كما يتبين من هذا الحوار : أن الملائكة كانت في مستوى الإبهام ؛ لأنهم  
 طلبوا معرفةً بمجهول ، ولم يذكروا معلوماً ؛ لأنهم ذوي علم محدود بما  
 أقرؤا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ ، فغياب المعرفة الحقة هو مصدر السؤال في  
 الحوار ، ومن ظواهر الحوار في الآية : أنه أفضى إلى التسليم لا إلى الإنكار ،  
 والمعصية ، لذا فهو في مستوى اليقين من الملائكة ، ولو كان في الإنكار لكان  
 حل عليهم ما حل بمن أنكر فيما بعد . هذه قضية .

(1) تفسير الرازي ، ج 1 ، ص 444 .

(2) المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني ، ص 89 ، تحقيق : سيد كيلاني ،

( د . ت ) ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان .

**والقضية الثانية في هذا المستوى من الحوار :** هي مبنى التعدد في الآيات ؛ حيث إن القول الكريم من الله استهدف جمعاً من الملائكة ، فكان الاستفهام متعدداً .

وقد بني على عدة مجاهل ، هي :

أتجعل !

يفسد !

يسفك الدماء !

ينسى التسبيح والتقديس - دلالة الضد - ( نحن نسبح بحمدك ) !

ومصدر هذا التعدد هو تنوع تكليف كل منهم ، فقد يكون منهم سأل عن جانب من الجوانب التي يعرف عنها ؛ لأنه مكلف بها .

**القضية الثالثة في هذا الحوار :** تتمثل في أمور من أهمها :

1 - بيان العلم المحدود للملائكة ، فهو مقتصر على ما أودعه الله فيها من علم .

2 - ظهور من هو أعلم من الملائكة ، إنَّه ( آدم ) .

3 - بدت قدرة آدم على الاستيعاب ، والتعبير ( الحوار مع الآخر ) لأنه يبدو من مشهد الحوار : أن آدم قام بالإنباء بشكل معجز أقرَّت الملائكة له بذلك .

4 - طاعة الملائكة لله سبحانه وتعالى ، فكان الإقرار المطلق منها بعلم الله وبمعجزها عن معرفة حكمة الله عز وجل ، فسبحت لله .

5 - ظهور معصية إبليس لإرادة الله بالسجود لآدم .

**ثانياً : المستوى الجدلي :**

في هذا المشهد يتبين من بعض أجزائه : أن نبرة الجدل تظهر في حوار

إبليس ؛ وهو يعارض أمر الله ، ويخالفه في السجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فتردّد الكلام - وهو الحوار - أصل في الجدل <sup>(1)</sup> إذا صاحبتة المخالفة ، وابتعد عن الاتفاق .

لكن هذا الجدل الذي بدأ به إبليس لم يكن إلا ادعاءً باطلاً ؛ لأنه لم يستطع إقامة الحجة على دعواه ، والحجة هي أصل في الجدل <sup>(2)</sup> ، وبدونها لا يرتقي الحوار إلى الجدل المنطقي ، بل يبقى يدور في فلك الادعاء ، وهذا مؤكد بقول الله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ <sup>(٧٦)</sup> إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ <sup>(٧٧)</sup> قَالَ يَبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ <sup>(٧٨)</sup> قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ <sup>(٧٩)</sup> ، يتبين من هذه الآيات حقائق مهمة ، هي :

- 1 - جحود إبليس بعد كل ما رأى من قدرة آدم على التعلم ، والمعرفة ، وقدرته على إيصال ما تعلّم ، وقدرته على حفظ العلم .
- 2 - احتج إبليس بحجة غير مقنعة ، بل هي تدلّ على التكبر : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ .
- 3 - قام بعملية القياس الاعتباري : ﴿ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ومعلوم : أن الاحتجاج بالقياس فاسد ؛ لأن القياس هنا اعتباري <sup>(4)</sup> ، فهو متغير ونسبي لا يجوز معه القيام بالمفاضلة بين طرفين .

**ومن الملاحظ :** أن إبليس كان حاضراً في إظهار سبب رفض السجود ، فقد سبق أن سيطرت عليه فكرة الأفضلية الخلقية ؛ حيث كان يعتقد : أن خلق

(1) ينظر الجدل في القرآن ، حسن الشرقاوي ، ص 7 ، منشأة المعارف - الإسكندرية ، 1977 .

(2) أصول الجدل وآداب المحاجة في القرآن الكريم ، ص 45 .

(3) ص ، 73-76 .

(4) معجم لغة الفقهاء ، ج 1 ، ص 415 .

النار ، أسمى من خلق الطين ؛ لذا فالنار أحسن من الطين ، وهذا بعيد عن الحقيقة ؛ لأنه ما من نص ، أو علم يمكن له أن يثبت أن اعتبار النار أسمى من اعتبار الطين ، وبذلك يكون إبليس قد فقد عنصراً آخر من عناصر الإقناع بعد أن عجز عن الإتيان بحجة مقنعة لرفض السجود ، فهذا الجدل وإن كان جدلاً فارغاً من إبليس لأمر ربه تعالى إلا أنه يصبغ الحوار بصبغة الجدل ، بينما كان حوار الملائكة يقينياً ؛ لأنه ما أن استشعرت حكمة الله ، وسرّ خلافة آدم ؛ أيقنت ، فسجدت له دون تعصب ، ولا إنكار وأطاعت أمر ربها ، وسلمت له الأمر من قبل ، ومن بعد .

4 - المستوى الإغوائي : قبل الحديث عن هذا المستوى نقول : إن الله سبحانه وتعالى أتم نعمته على آدم ، فحذره من الخطر الذي يحيق به وبزوجه ، وعلى وجهين :

**الأول :** أشهده بالرؤية المباشرة ، والسمع المحض ما كان من كره إبليس لآدم ، وحقده عليه ، وتكبره ، ثم التصريح بالتعهد بالإغواء لآدم ، وذريته ، وهي عبرة كان الأولى لآدم أن يعتبر بها .

**الثاني :** أنه لما كان الله يعلم بنسيان آدم ، وقلة اعتباره بالآيات ؛ كان تحذير الله له من وساوس الشيطان التي يقصد بها إغواء الخليفة ؛ ليتبين فيما بعد عدم أحقيته بالاستخلاف ، وإلى جانب التحذير كانت عوامل الطمأنينة على المعاش ، فلا يجوع ، ولا يعرى ، ولا يظمأ ، ولا يضحى وهذه هي أهم حاجات آدم وزوجه ؛ التي أغناه الله بها عن الحاجة إلى من سواه مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَكَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِرَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿ (١)

من هذه الآيات يتبين :

- تنبيه الله ، وتحذيره لآدم من الشيطان حاصل بعد معصية إبليس .

(1) طه ، 117-119 .

- حصّن الله آدم بالكفاية المادية ، فلم يكن محتاجاً لشيء ماديّ على الإطلاق .

- نبه الله آدم إلى طبيعة المحظور ، ثم ترك له الخيار .

لكنّ أمراً يفرض التساؤل تبينه الآية الكريمة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعِدُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ۚ ﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٧﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَهَيْطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٩﴾ (1) .

### هنا يأتي التساؤل :

- لماذا اختار إبليس أن يغوي آدم بالخلود ، وليس بأمر آخر ؟

نقول : إن إغواء إبليس لأدم كان بوعده أن يدلّه على الخلود لسببٍ جدليّ مهمّ ، وهو : أن إبليس وآدم كانا يعلمان : أن الموت حقّ واقع لا محالة عليهما كليهما ، وهذا مؤكد من خلال سلوك كلّ منهما ، فقد عصى آدم ربه معتقداً : أنه سينال الخلود . هذا يعني : أن آدم كان يعلم : أنه سيموت ، ويخاف ذلك ؛ لأن الحياة والموت خلّقا في آنٍ واحدٍ ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (2) ، وكان مما أنبئ به آدم ، فقد أخبر بالحياة ، ولم يخبر بالخلود ، فهو إذاً مخبر بغير ذلك : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿ ﴾ ، بينما طلب إبليس التأخير ﴿ لِيُنْ أَخَّرَتْنِ ﴾ ، طلباً جدلياً من الله ؛ إذ ربط بين التأخير ، وإغواء بني آدم .

قبل الدخول في تفاصيل هذا المستوى نعتقد : أن من المهم فهم حقيقة

(1) طه ، 120-123 .

(2) تبارك ، 2 .

غواية إبليس ، وذلك لأن إبليس نسب غوايته إلى فعل الله - سبحانه وتعالى - كما أخبر المولى عز وجل ﴿ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ يدل على أنه أضاف إغواءه إلى الله تعالى ، وقوله في آية أخرى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ <sup>(1)</sup> ، يدل على أنه أضاف إغواء العباد إلى نفسه . فالأول : يدل على كونه على مذهب الجبر . والثاني : يدل على كونه على مذهب القدر ، وهذا يدل على : أنه كان متحيراً في هذه المسألة ، أو يقال : إنه كان يعتقد : أن الإغواء لا يحصل إلا بالمغوي ، فجعل نفسه مغوياً لغيره من الغاوين ، ثم زعم : أن المغوي له هو الله تعالى قطعاً للتسلسل ، واختلف الناس في تفسير هذه الكلمة ، أما أصحابنا ؛ فقالوا : الإغواء : إيقاع الغي في القلب ، والغِي هو الاعتقاد الباطل ، وذلك يدل على أنه كان يعتقد : أن الحق ، والباطل إنما يقع في القلب من الله تعالى .

**الوجه الثاني :** في تفسير الإغواء الإهلاك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ <sup>(2)</sup> ، أي : هلاكاً ، وويلاً .

بقي الآن أن نفق على طبيعة هذا الإغواء ؛ لكي يتلمس المؤمن طريقه بعيداً عن مسالك الإغواء ؛ ولن نجد أدلّ من حوار إبليس نفسه - كما أخبر عنه المولى - عز وجل - دليلاً يجلي الغموض عن مسالك الإغواء ، وعلى النحو الآتي :

1 - ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي : بقدرتك عليّ ، ونفاذ سلطانك فيّ لأقعدنّ لهم على الطريق المستقيم الذي يسلكونه إلى الجنة ، بأن أزين لهم الباطل ، وما يكسبهم المآثم . وفيه أبحاث :

**البحث الأول :** المراد منه : أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها ، ولهذا المعنى ذكر القعود ؛ لأن من أراد أن يبالغ في تكميل أمر من

(1) ص ، 82 .

(2) مريم ، 59 .

الأمر ؛ فقد ؛ حتى يصير فارغ البال فيمكنه إتمام المقصود ، ومواظبته على الإفساد هي مواظبته على الوسوسة ؛ حتى لا يفتر عنها .

**البحث الثاني :** إن هذه الآية تدلُّ على أنه كان عالماً بالدين الحق ، والمنهج الصحيح ؛ لأنه قال : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وصرط الله المستقيم هو دينه الحق .

**البحث الثالث :** الآية تدل على أن إبليس كان عالماً بأن الذي هو عليه من المذهب ، والاعتقاد هو محض الغواية ، والضلال ؛ لأنه لو لم يكن كذلك ؛ لما قال : ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ وأيضاً كان عالماً بالدين الحق ، ولولا ذلك ؛ لما قال : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ « (1) .

**2 - التزيين :** ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (2) .

والتزيين : التحسين ، أي : جعل الشيء زيناً ، أي : حسناً . وحذف مفعول ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ لظهوره من المقام ، أي : لأزينن لهم الشر ، والسيئات ، فيرونها حسنةً ، وأزينن لهم الإقبال على الملاذ التي تشغلهم عن الواجبات (3) ، وتزيين إبليس هو في حقيقته تزييف وذلك بطمس الحقيقة أو جزءاً منها ، فيخفي الشائن ، ويظهر المحاسن ، وهو يخالف مبدأ التزيين الإلهي الذي تنصُّ عليه الآية الكريمة : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ (4) .

**3 - بالاحتناك :** ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ

(1) تفسير الرازي ، ج 7 ، ص 55 .

(2) الحجر ، 39 .

(3) تفسير ابن عاشور ، ص 7 ، ج 480 .

(4) الحجرات ، 7 .

الْقِيَمَةَ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾ : لأستولينَّ عليهم استيلاء قوياً ، من قولهم : حنك الدابة ، واحتنكها : إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به . وقال البعض : لأستأصلنهم ، وأهلكنهم بالإغواء ، من قولهم : احتنك الجرادُ الأرضَ : إذا أهلك نباتها ، وجرد ما عليها ، واحتنك فلان مال فلان : إذا أخذه ، وأكله (2) .

**ويلاحظ :** أنَّ في هذا اللفظ إذلالاً كبيراً لآدم ، وبنيه حيث يدعي إبليس - لعنه الله - : أنه قادر على قيادتهم كما تُقاد البهائم إلى غير هدى ، فلاحتناك هنا جاء على المعنى المجازي ، ويقصد به الحقيقة ، « ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير ، والهداية استعداده للشر ، والغواية . عن حالته التي يكون فيها متصلاً بالله ، فيرتفع ، ويسمو ، ويعتصم من الشر ، والغواية ، ويغفل عن أن هذه هي مزية هذا المخلوق التي ترفعه على ذوي الطبيعة المفردة التي لا تعرف إلا طريقاً واحداً تسلكه بلا إرادة . فالإرادة هي سرُّ هذا المخلوق العجيب (3) .

4 - **بالاستفزاز :** ﴿ وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ (4) ، « والاستفزاز : الاستخفاف ، واستفزني فلانٌ : استخفني ؛ حتى خدعني لما يريد » (5) .

5 - **بالأقران :** ﴿ وَاجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ .

6 - **بالمشاركة :** ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ .

أما المشاركة في الأموال فهي عبارة عن كل تصرف قبيح في المال

(1) الإسراء ، 62 .

(2) تفسير آلوسي ، ج 11 ، ص 8 .

(3) تفسير الظلال ، ج 5 ، ص 32 .

(4) الإسراء ، 64 .

(5) تفسير اللباب ، ج 10 ص 340 .



سواء كان ذلك القبيح بسبب أخذه من غير حقه ، أو وضعه في غير حقه ، ويدخل فيه الربا ، والغضب ، والسرقة ، والمعاملات الفاسدة . . . وأما المشاركة في الأولاد ؛ فذكروا فيه وجوهاً عديدةً من أبرزها الدعوة إلى الزنى<sup>(1)</sup> .

7 - بالوعود الكاذبة : ﴿ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾<sup>(2)</sup> .

تعدّد وعود إبليس ، ونعتقد : أنّ وعوده غالباً ما تلاحق الحاجات المفقودة عند الإنسان ، فيدخل من خلالها إلى قلبه شيئاً فشيئاً ؛ حتى يجد له نقطة ضعف يستمكن له فيها موقِعاً ينطلق فيه إلى جرّ هذا الإنسان إلى المعصية . « ولعلّ أشدّ الوعود إغراءً الوعد بالعفو ، والمغفرة بعد الذنب والخطيئة ، وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب ؛ التي يعزّز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية ، والمكابرة . فيتلف حينئذٍ إلى تلك النفوس المتحرّجة ، ويزين لها الخطيئة ، وهو يلوّح لها بسعة الرحمة الإلهية ، وشمول العفو ، والمغفرة »<sup>(3)</sup> .

وبعد : فإنّ مستويات الحوار تتعدد بتعدد الإرادات ، فبينما كانت إرادة الملائكة هي الطاعة ، والتسليم لله ، عز وجل ؛ أراد إبليس أن يسير في طريق المعصية ، وبينما كانت لآدم إرادة الاختيار ؛ فهو بين ذلك ، وذاك ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾<sup>(4)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ وَفَسَّيْ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴾<sup>(5)</sup> فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ ٨ ﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿ ٩ ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ ١٠ ﴾ .



(1) تفسير الرازي ، ج 10 ، ص 86 .

(2) الإسراء ، 64 .

(3) تفسير الظلال ، ج 5 ، ص 33 .

(4) البلد ، 10 .

(5) الشمس ، 7-10 .

صدر حدیثاً عن دار ابن کثیر

کتاب

صدر حدیثاً عن دار ابن کثیر

کتاب

صدر حدیثاً عن دار ابن کثیر

کتاب